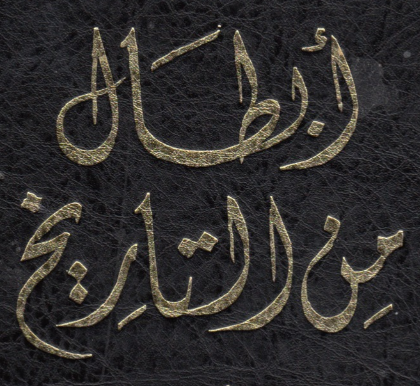


تأليف

ول ديورانت

ترجمة

سامي الكعكي   سمير كرم

مراجعة

عمر الأيوبي

الناشر

دار الكتاب العربي

أبطال من التاريخ



تأليف

ويل ديورانت

ترجمة

سامي الكعكي سمير كرم

مراجعة

عمر الأيوبي

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

Heroes of History

Published by arrangement with the original publisher,
Simon & Schuster, Inc.

أبطال من التاريخ

ISBN: 9953-27-127-5

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص.ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon لبنان 1107 2200 بيروت،
Tel (961 1) 800811-862905 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail academia@dm.net.lb بريد إلكتروني
Our Web site dar-alkitab-alarabi.com موقعنا على الوب
academiainternational.com

المحتويات

المقدمة 7
الفصل الأول: ما هي الحضارة؟ 15
الفصل الثاني: كونفوشيوس والملاك المنفي 23
الفصل الثالث: الهند: من بوذا إلى إنديرا غاندي 37
الفصل الرابع: من الأهرامات إلى إخناتون 48
الفصل الخامس: الفلسفة والشعر في العهد القديم 65
الفصل السادس: الطريق إلى بركليس 79
الفصل السابع: عصر أثينا الذهبي 94
الفصل الثامن: من أفلاطون إلى الإسكندر 114
الفصل التاسع: الجمهورية الرومانية 134
الفصل العاشر: الثورات الرومانية 153
الفصل الحادي عشر: الأمبراطورية الرومانية (27ق.م ـ 180م) 176
الفصل الثاني عشر: نيرون وأوريليوس 187
الفصل الثالث عشر: المسيح الإنسان 200
الفصل الرابع عشر: نشوء الكنيسة وتطورها 214
الفصل الخامس عشر: النهضة (1): حول ليوناردو 231
الفصل السادس عشر: النهضة (2) روما 267
الفصل السابع عشر: النهضة (3) غروب شمس البندقية 293
الفصل الثامن عشر: حركة الاصلاح (1) وايكليف وإيرازموس 303
الفصل التاسع عشر: حركة الإصلاح (2) (1517-1555): لوثر والشيوعية . 328
الفصل العشرون: حركة الإصلاح الكاثوليكية (1517-1563) 357
الفصل الحادي والعشرون: شيكسبير وبيكون 372

المقدمة

قبل أن يتوفّاه الأجل بأربع سنوات، شرع المؤلِّف ويل ديورانت، الحائز على جائزة پوليتزر، في وضع ما تبيّن لاحقاً أنه كتابه الأخير. وقد انبثق المشروع من رغبةٍ شاركته فيها زوجته وابنته؛ الرغبة في تقديم نسخة مقتضبة من مطوّلته المتسلسلة: **قصة الحضارة**، التي حظيت وما زالت تحظى بتقدير وإطراء كبيرين. في هذا العمل الذي استغرق إنجازه قرابة الخمسين عاماً، قام ديورانت، بمعاونة زوجته أريل، بإطلالة شاملة ومتكاملة على ما يربو على مئة وعشرة قرون، مصنّفة في أحد عشر مجلداً.

كان ديورانت على وعي حادّ بالمشهد المتحوّل باستمرار على صعيد وسائل الإعلام الجماهيرية والاتصالات في العالم. فالتسجيلات الصوتية، والتلفزيون والسينما، بدأت تشكّل منافساً جديّاً يستأثر بانتباه الجمهور الحديث. وهذه لم تكن الحال حين صدر المجلد الأول من **قصة الحضارة** في عام 1935. فقد كان المزاحم الوحيد للكتاب آنذاك هو السينما، والاختراع الجديد نسبياً الإذاعة. وأملاً في توسيع دائرة الجمهور المتذوق لكتابات والديها، اتصلت إيثيل، ابنة ديورانت، باستديوهات بارامونت عام 1977، تستمزج رأيها في إعداد حلقات تلفزيونية مسلسلة قصيرة استناداً إلى **قصة الحضارة**، وتلقت أخباراً سارّة من تلك الاستديوهات.

بل إن وجه النشر كان مسرحاً للتبدّل والتحوّل الدائمَيْن: فالناس بعدما كانوا يفضّلون الكتب الضخمة، صاروا الآن يريدون المعارف والتسالي بشكل أكثر إيجازاً. فلم يعد لدى الناس متسعٌ من الوقت لمطالعة المجلدات الضخمة، التي باتوا ينظرون إليها كفرائض تثبّط الهمّة أكثر منها ينبوعاً لمُتعٍ تُرتشف على

مهل. إزاء هذا الجمهور الساعي وراء صنوف من التسلية والمعرفة أكثر نجاعة، قرّر ويل ديورانت أن يبتدع سلسلة من «الأحاديث القصيرة»، أي محاضرات إذاعية، تُركّز على الشخصيات «الرئيسية» والأحداث «المفصلية» في تاريخ الإنسان. وهذه الفكرة راقت جداً لديورانت، وأخذت إيثيل على عاتقها أمر تسجيلها على أشرطة. لكن وفي رسالة بعث بها إلى ابنته بتاريخ 7 مارس (آذار) 1977، أبدى ديورانت بعض المخاوف حيال قدرته على إنجاز المهمة، وهو في تلك السن المتقدمة (92 سنة)، وعلى تلك الدرجة من الضعف والوهن. قال:

«إنني أنظر إلى البرنامج الذي وضعته لاثنين من «الفدائيين» الفكريين بكل جدية وبذهن صاحٍ تماماً، وأُدرك أن تأليف وإلقاء مثل هذا البرنامج الطموح جدًّا، حتى ولو ضمنت معاونة أريل لي، يتعدىّ مقدرتي الجسمانية.... أشعر أن ملاك الموت يحوم حولي إذ إنه ترك لي دعوة على شكل ذاكرة خابية، وخطوات غير ثابتة، وتيبّسٍ مُستجدٍ في الساقين. إن إرهاصات المنيّة هذه لا تحزنني البتة. ما يُخجلني بالأحرى هو أن يطول بي العمر وبما لا أعود أنفع معه بشيء. مهما يكن، عليّ ألا أدعك، أو أدع بارامونت تستثمر أي جهد أو مال فيما بقي لي من أيام».

بالرغم من ذلك، عمد ديورانت إلى وضع لائحة غير نهائية بالشخصيات التاريخية التي تنطوي، في نظره، على أهمية وفائدة للجمهور الحديث. وقد تراوحت لائحته تلك من كونفوشيوس ولي پو، إلى أبراهام لينكلن ووالت ويتمان. وسيكون لفكرته هذه مغزاها، وبما يتعدى مجرد العرض والتقديم. فهي ستتيح للفرد العادي أن يقف من ويل وأريل ديورانت شخصياً على إنجازات وحيوات أكثر الرجال والنساء عظمةً في التاريخ. فمن خلال شريط التسجيل السحري، بات في مقدور المرء أن يستمع إلى اثنين من أبرز مؤرّخي أمريكا وأرفعهم منزلةً، يشرحان الأهمية العميقة للشعراء، والفنّانين، ورجال الدولة، والفلاسفة، الذين سكنوا الأصقاع المتباعدة من تاريخ البشرية.

ولقد تكشفت تلك التسجيلات الصوتية فعلاً عن كونها دروساً خصوصية من الزوجين ديورانت؛ دروساً يستطيع المرء أن «يحضرها» المرة تلو الأخرى،

موفّرة بذلك مادة تعليمية تماشي الزمن. ففي رأي ديورانت (الذي يُشاطِره إياه اللورد بولينغبروك): «التاريخ تعليمٌ فلسفي بواسطة الأمثلة».

دبّت حمى العمل في أوصال ديورانت، فأقبل على هذا المشروع الإبداعي بكل همة ونشاط، ووجد الرجل نفسه في واحدة من أكثر فترات حياته إبداعاً وعطاءً. وبحلول شهر أغسطس (آب) من العام التالي، كان ديورانت قد كتب تسعة عشر نصّاً لتلك المغامرة الفكرية، وسجَّل مع آريل العديد منها على أشرطة التسجيل. هنا عنّت له فكرةٌ، وهي أن النصوص المعدّة لتلك المحاضرات «الصوتية»، يُمكن بشيء من التطوير أن تُصبح كتاباً مُحبباً جداً لدى القرّاء. فكتب إلى ابنته في 25 أغسطس (آب) 1978، يقول:

«احتفظي بالمُرسل لك باعتباره «الحديث رقم 18». كذلك أنجزت تنضيد «الحديث رقم 19»، إنما لم أُراجعه بعد، وهو عن الإصلاح الكاثوليكي (1517-1563)، وقد سوّدت 17 صفحة. وحيث إنني أعتزم تخصيص هذه المقالات لكتابٍ بعنوان **أبطال من التاريخ**، بدلاً من إعطائها للتلفزيون، لذلك تركت نفسي تُسهب بعض الشيء أكثر مما فعلت في أحاديثي الأولى. (سيكون) هناك حوالى 23 فصلاً بمجموعها».

لم يبقَ ثمة شك الآن لدى ديورانت في أن هذه ستكون محاولته الأخيرة لإيصال «روح» التاريخ بوصفه فلسفةً:

«عندي، التاريخ جزء لا يتجزأ من الفلسفة. الفلسفة محاولة لتحقيق منظور رحب، منظور وسيع للحياة والواقع؛ منظور ضخم يُحددّ لاحقاً موقفك من أي جانب من جوانب الواقع أو الحياة. هل سيجعلك هذا المنظور أكثر تفهماً وتسامحاً مثلاً؟ بإمكانك أن تحرز منظوراً كبيراً بطريقتين على الأقل: الأولى عبر العلم، وذلك بدراسة شتى العلوم التي تصبغ كافة أوجه الواقع الخارجي. لكن بإمكانك كذلك التوصل إلى ذلك المنظور الكبير من خلال دراسة التاريخ، التي هي دراسة الأحداث في أزمنتها، بدلاً من دراسة الأشياء في أمكنتها. لقد تخليت عن الطريق الأولى، لأنني شعرت بأنها برّانية أكثر مما ينبغي ورياضية. وهي طريقة غير واقعية قياساً إلى عنصر الحيوية الذي لمسته في نفسي وفي بقية

الأشياء من حولي. فقُلت لنفسي، عليّ أن أدرس التاريخ لأعرف ما **كُنه الإنسان**، الذي لن أجده بأي حال من خلال العلم. وحيث إن التاريخ محاولةٌ لتحقيق المنظور الفلسفي عبر دراسة الأحداث في أزمنتها، فأنا أعتقد بالتالي - واسمحوا لي أن أقول ذلك - إنني فيلسوف يكتب التاريخ!»

وتحقيقاً لهذه الغاية، عمد ديورانت إلى انتزاع مقاطع معيّنة من مسلسلته **قصة الحضارة** واختصارها، فيما صاغ مادة جديدة تماماً لمقاطع أخرى. وهكذا استوى الكتاب الذي أنجزه مدخلاً رائعاً إلى موضوع التاريخ. وهو مع ذلك يصلح، ولا بد أن يصلح لإثارة فضول القارئ كي يُتابع «الأبطال» الذين يجدهم أصحاب حضور آسر أكثر من غيرهم في رائعته الأضخم حجماً: **قصة الحضارة**.

تصوّر ديورانت ذات يوم أنه سيكتب 23 فصلاً لمؤلَّفه العتيد، لكن القدر كانت له كلمة أخرى. فلم ينجز سوى 21 فصلاً قبل أن تتعرض زوجته آريل لسكتة دماغية. وفي أواخر عام 1981، أُدخل ويل ديورانت نفسه إلى المستشفى بسبب مشاكل في القلب.

وربما خشيت أريل من أن تلك ستكون الرحلة التي ما بعدها عودة بالنسبة إلى زوجها، فقد امتنعت عن تناول الطعام. وهكذا رحلت عن عالمنا يوم 25 أكتوبر (تشرين الأول) 1981 عن عمر يناهز الثالثة والثمانين. وهنا قرّرت العائلة أن تضافر جهودها لمنع وصول نبأ وفاة الزوجة الحبيبة إلى مسامع الفيلسوف. كان ديورانت قد خضع لجراحة ناجحة، وكان يتماثل بسرعة للشفاء. إلا أن حفيدته مونيكا ميْهل تعتقد أن ديورانت سمع بخبر رحيل أريل من التلفزيون أو من جريدة وجدت سبيلها إلى يده برغم كل جهود العائلة. وأياً تكن الحقيقة، فقد توقف قلب ويل ديورانت عن الخفقان يوم 7 نوفمبر (تشرين الثاني) 1981، وكانت وفاته عن 96 سنة.

وبوفاة الزوجين ديورانت، تشتتت وتبعثرت أوراقهما الخاصة، فبعضها ذهب إلى الأقارب، وبعضها الآخر إلى هواة التجميع ودور الأرشيف. ومن بين الأوراق كانت هذه المخطوطة التي قُيِّض لها أن تنجو من ثلاثة انتقالات من

مسكن إلى آخر، ومن فيضان كبير، إلى أن عثرتُ عليها بالصدفة في شتاء عام 2001، أي بعد مرور عشرين سنة على إتمام ديورانت لها.

لا شك في أن العثور على المخطوطة الأخيرة لكاتبٍ حائز على جائزة بوليتزر من عيار ويل ديورانت يُعدّ حدثاً أدبياً لا مراء فيه، ليس لمحبي نثره فحسب، بل ولطلاب الفلسفة والتاريخ في العالم قاطبة. ذلك أن ديورانت كان أكثر من مجرد أديب تُغطي الأوسمة والنياشين صدره (كان يحمل أيضاً «ميدالية الحرية»، أرفع جائزة يمكن أن تمنحها حكومة الولايات المتحدة لمواطن لا يشغل منصباً رسميًّا)؛ كان فيلسوفاً لطالما سعى وكافح في سبيل الوضوح والبيان قبل السمعة والصيت. وكإنسان في عُمق أعماقه، كان يكتب بنثر مُبهر آسر، وهو الذي كان ينظر إلى الإنسان على أنه جنسٌ قادرٌ، عندما يتوفر له الإلهام الكافي، على ارتقاء درجات العظمة جنباً إلى جنب مع الآلهة نفسها.

كان ديورانت يُشاطر نيتشه رأيه في أن «الفلسفة كلها أصبحت اليوم رهينة التاريخ». لذلك رأى أن أفضل إعداد لفهم مشكلات الحاضر إنما هو دراسة الماضي. ففي الماضي بالذات يتسنى للمرء أن يكتشف ماهية البشرية على حقيقتها. وإنك لتجد هذا الموقف وهذه الفلسفة في كل صفحة من صفحات **أبطال من التاريخ.**

فالكتاب يكشف لنا العديد من الدروس التي آمن ديورانت بأن من واجب التاريخ أن يلقننا إياها: من الدين والسياسة إلى القضايا الاجتماعية كالصراع الطبقي مثلاً، وصولاً حتى إلى الجدل الدائر مؤخراً حول أهلية المثليين للخدمة العسكرية (فمن الصعب، مثلاً، العثور في التاريخ على ما يدلّ على أن المثليين لم يكونوا محاربين أشداء. ففي الفصل الثامن من هذا الكتاب، يتحدث ديورانت عن جيش تابع لمدينة طيبة اليونانية، بقيادة إيپامينونداس، وقوامه 300 رجل كانوا يُعرفون بـ «العشّاق الإغريق»، وتربطهم معاً ميول جنسية مثلية. هؤلاء المثليون هم الذين دحروا الإسبارطيين، أشرس المقاتلين في كل بلاد اليونان القديمة، في موقعة لوكترا في عام 371 ق.م. مُنهين بذلك سيطرة إسبارطة على اليونان).

ويميط **أبطال من التاريخ** اللثام أيضاً عن ويل ديورانت رجلاً أكثر صراحةً وأكثر شخصانية. وربما يكون هذا بسبب تقدمه في السن، أو لقدرٍ أكبر

من الشعور بالحرية تأتّى له بعد قضاء ما يربو على ستين سنةً في صقل «صنعته» إلى حد الكمال. أياً يكن السبب، فنحن إزاء ويل ديورانت جديد كل الجدّة؛ ديورانت يتحدث بصراحة وبمنتهى الراحة، متناولاً قضايا كالجنس والسياسة والدين؛ وهي مواضيع غالباً ما كان المؤرخون، معظم المؤرخين، إما يشيحون عنها حياءً، أو يُلبسونها تسميات علمية فضفاضة. زدْ على ذلك، أن استعمال ديورانت لصيغة المتكلّم، ينمّ عن شعور بوجوب الإدلاء بشهادة شخصية في مسائل ذات أهمية بالغة بالنسبة إليه.

إن الجوهر الرئيسي لجميع كتابات ويل ديورانت، ليتلخّص في أن الحضارات أنتجت أفكاراً معينة لما فيه خير البشرية وتقدّمها؛ وأن الحكم على نجاعة هذه الأفكار قد صدر بالفعل عن محكمة التاريخ.. هذا إذا تجمّلنا بالصبر لسماع الحكم! فبدلاً من إنفاق الساعات الطوال في تجريدٍ نظريٍّ لإحدى المسائل الفلسفية (ما إذا كانت الثروة المتركّزة بين أيدي أقلية ضئيلة تجب إعادة توزيعها على العامة أم لا، على سبيل المثال)، نجد تراثنا الإنساني يمتلك ما يكفي من الأمثلة الحسّية عما إذا كان هذا المبدأ أعطى النتائج المرجوة منه، أم أنه جرّ كوارث غير منتظرة.

إن كتاب ويل ديورانت الأخير هذا ليس مجرد جمعٍ للتواريخ أو الشخصيات أو الأحداث، كما أنه ليس تلخيصاً لرائعته **قصة الحضارة**. بل هو الدروس والعبر المستفادة من تراثنا الإنساني، من أجل بناء الأجيال القادمة وخيرها. إنه ثقب المفتاح الذي يُمكننا أن نتلصّص من خلاله ـ والكلمة لديورانت نفسه ـ على:

> «... مدينة سماوية، على بلاد عقلية من نوع خاص، حيث ما فتىء آلاف القديسين، والسياسيين، والمخترعين، والعلماء، والشعراء، والموسيقيين، والعشّاق، والفلاسفة يحيون ويتكلمون، يعلّمون وينحتون... وينشدون».

إن **أبطال من التاريخ** هو شهادة ويل ديورانت الأخيرة على النعمة التي تمنحها «بلاد العقل» هذه التي طالما أحبّها وكرّس معظم حياته لكشف خباياها وإبراز معالمها لنا. وبفعل ما لكلماته من سحرٍ ساحر، تنفتح حدود تلك البلاد لنا،

ونُدعى إلى زيارتها لبعض الوقت والالتقاء بأُناسٍ يرغبون في أن يتمشّوا معنا، ويقصّوا علينا حكايا الحب، والحرب، والشعر، والفكر... وكُلُّهم استعدادٌ للارتقاء بنا إلى أفق أرحب وأنبل من التسامح والحكمة، وتوقٌ أقوى أبداً إلى الحياة المعمّقة.

جون ليتل

الفصل الأول

ما هي الحضارة؟

إن تاريخ الإنسان ما هو إلاّ شذرة من علم البيولوجيا. فالإنسان ليس إلا واحداً من ملايين ملايين الأنواع الحيّة، وهي كلها عرضة للصراع من أجل الوجود، ويحكمها التنافس بين الأكفاء من أجل البقاء. إن علم النفس، والفلسفة، والسياسة، وحتى الطوباويات، يجب عليها جميعاً أن تصنع سلامها الخاص مع هذه النواميس البيولوجية.

بالإمكان تتبّع آثار الإنسان إلى حوالى مليون سنة قبل الميلاد. ويرجع تاريخ الزراعة إلى 25 ألف سنة ق.م، على أبعد تقدير. والإنسان كصيّاد عاش فترة زمنية أطول أربعين مرة منه كفلاح يحرث الأرض في إطار من الحياة المستقرّة. وعلى مدى تلك السنوات الـ 975,000، تشكّلت طبيعة الإنسان الأساسية، وهي ما انفكت تتحدى الحضارة كل يوم.

في مرحلة الصيد تلك، كان الإنسان مولعاً بالاكتساب إلى حد النهم والجشع: وما كان له إلا أن يكون كذلك. فمؤونته من الغذاء ليست مؤكدة ولا مضمونة. وعندما كان يصطاد طريدته، كان على الأغلب يلتهمها إلى أن تمتلىء معدته عن آخرها. لأن الفريسة إنْ لم تؤكل حالاً، فهي آيلة إلى الفساد بسرعة. وفي حالات كثيرة كان الإنسان يلتهم فريسته نيّئة، أو «غير منضجة بالطهو

جيداً» كما نقول عندما يعود الواحد منا إلى مرحلة الصيد في مطاعمنا الذكورية بامتياز.

علاوة على ذلك، كان الإنسان، في تلك الحقبة الممتدة زهاء مليون سنة، ميّالاً إلى المشاكسة، مستعداً على الدوام للقتال من أجل طعامه، أو أليفه أو حياته. كان يتخذ أكثر من زوجة واحدة إن استطاع ذلك، لأن الصيد والقتال محفوفان بخطر مميت، ويُحدثان فائضاً من النساء على الرجال. لذلك كان الذكر كائناً متعدد الزوجات، وهو لا يزال كذلك، بحكم الطبيعة. ولم يكن لديه من سبب يحمله على اعتماد وسائل منع الحمل، لاسيما وأن الأولاد باتوا يُشكّلون رصيداً له داخل الكوخ، ثم فيما بعد ضمن فريق الصيد.

لهذه الأسباب وغيرها، كان الولع بالاكتساب والميل إلى القتال والاستجابة الجنسية الفورية، سمات مميزة للإنسان في عصر الصيد. بتعبير آخر، كانت تلك هي الخصائص المعدّة للإنسان من أجل البقاء. وهي لا تزال تُمثّل الخصيصة الأساسية للإنسان الذكر إلى يومنا هذا. فالوظيفة الأولى للذكر، حتى في ظل الحضارة، هي الخروج للصيد بحثاً عن طعام لأفراد أسرته، أو طلباً لأي شيء يمكن استبداله بطعام عند الحاجة. ومهما كان نابهاً وذكياً، يبقى الإنسان الذكر، من حيث الأساس، كائناً تابعاً للأنثى، رحم العرق ونهره الكبير.

ويُرجّح أن تكون المرأة هي التي طوّرت الزراعة، بما هي التربة الأولى للحضارة. فقد لفتت نظرها البذور النابتة بعد سقوطها من الثمار أو الشجر. ولعلها عمدت إلى زرعها بكل صبر وأناة على سبيل التجربة على مقربة من كهفها أو قُدام كوخها، فيما الرجل يجول بعيداً، يُطارد الحيوانات بحثاً عن الطعام. وعندما نجحت تجربتها، خلص زوجها إلى استنتاج مؤداه أنه إذا ما اتحد وأقرانه الذكور معاً في تأمين حماية متبادلة من الهجمات الخارجية، فقد ينضم إلى نسائه في الزرع والحصد، بدلاً من المجازفة بحياته ومؤونته الغذائية، اتكالاً على حظوظ غير مضمونة من الصيد، أو من الرعي، ارتحالاً من مكان إلى آخر.

وقرناً بعد قرن، روّض الإنسان نفسه على السكن بين الجدران، وجنح إلى الحياة المستقرّة. والنسوة اللواتي دجّنّ الخراف، والكلاب، والحمير، والخنازير، ها هن الآن يدجّنّ الرجال. فالرجل هو الحيوان المدجّن الأخير للمرأة، وتمدّنه

جزئي فقط، وقد قوبل بممانعة شديدة منه. وبالتدريج، أخذ يتعلّم منها الخصال الاجتماعية: حب الأُسرة، الشفقة والحنان، الرزانة والرصانة، الاستعداد للتعاون والنشاط الجماعي. وتعيّن هنا أن يُعاد تعريف الفضيلة كخاصّيّة لا بد منها لبقاء الجماعة.

ومن هنا بدأت الحضارة فيما أعتقد، لأنها تعني صيرورة الناس مواطنين متمدنين. لكن، من هنا أيضاً بدأ النزاع العميق والمتواصل ما بين الطبيعة والحضارة؛ ما بين الغرائز الفردانية المتجذّرة عميقاً في الإنسان إبّان مرحلة الصيد الطويلة، والميول الاجتماعية التي تكوّنت لديه على نحو ضعيف بفعل الحياة المستقرّة الحديثة العهد. ولأن حماية المستوطنة لا تتم إلاّ من خلال الاتحاد والتآزر في العمل، فقد صار التعاون بين الأفراد أداةً للتنافس بين الجماعات، أكانت تلك الجماعات قرى، أو قبائل، أو طبقات، أو ديانات، أو عروقاً، أو دولاً.

إن معظم الدول ما برحت في مرحلتها الطبيعية بعدُ؛ وبالتحديد في مرحلة الصيد. فالحملات العسكرية تُناظر الصيد طلباً للطعام أو الوقود أو المواد الأولية. والحرب الناجحة هي وسيلة الأمة لإطعام نفسها. والدولة التي هي نحن، وما نختزن من حوافز متصاعدة أبداً إلى التنظيم والدفاع، إنما تعكس غرائزنا القديمة إياها: حبُّ الاكتساب والولع بالمشاكسة، لأنها، شأن الإنسان البدائي تماماً، تشعر بعدم الأمان؛ وما تبديه من جشع إن هو إلا سياج ضد العوز المقبل وغوائل الزمن. وليس إلاّ حين تشعر الدولة بالأمان من جهة الخارج، يُمكنها أن تلتفت إلى حاجاتها الداخلية، وتنهض، بوصفها «دولة رعاية» متردّدة، بتبعات الحوافز الاجتماعية الناشئة عن الحضارة. يغدو الأفراد متمدنين متحضرين، عندما يأمنون على أنفسهم من خلال الانتساب إلى جماعة مشاعية حامية لهم على نحو فاعل؛ والدول تغدو متمدنة متحضرة عندما تأمن على نفسها من خلال الانضمام المخلص إلى جماعة اتحادية حامية لها فعلاً لا قولاً.

تُرى، كيف نمت الحضارة على الرغم من طبيعة الصيد المتأصلة في الإنسان الذكر؟ لم تكن الحضارة تهدف إلى قمع تلك الطبيعة، بل أدركت أنه ما من نظام اقتصادي يُمكن أن يعيل نفسه طويلاً من دون اللجوء إلى دغدغة غريزة

الاكتساب، واستخراج القُدرات الفائقة بالجوائز الطائلة. أدركت الحضارة أن ما من فرد، أو دولة، بمقدوره البقاء على قيد الحياة إنْ لم يُبدِ استعداداً للقتال حفاظاً على الذات. ورأت أن ما من مجتمعٍ أو عرقٍ أو دينٍ سيدوم إن لم يتناسل ويتكاثر. بيد أنها تحققت، من جانب آخر، من أنه ما لم توضع ضوابط لغريزة الاكتساب عند الإنسان، فإنها ستؤدي لا محالة إلى إشاعة السرقة بالمفرّق، والنهب بالجملة، وتفشي الفساد السياسي، وإلى تركّز الثروة تركّزاً شديداً يؤدي حُكماً إلى وقوع الاضطرابات ونشوب الثورات.

وإذا لم تُضبط غريزة المشاكسة لديه، فسوف تنشب المشاجرات عند كل منعطف، ويبسط أشرس شقي سيطرته على كل حيّ، وتتقاسم العصابات المتنافسة فيما بينها كل مدينة! وكذلك الأمر، إذا لم تُضبط الطاقة الجنسية لديه، فستبقى كل فتاة تحت رحمة أي غاوٍ، وكل زوجة فريسةً لميول زوجها إلى التنوّع والشباب. وهكذا، لن يكون أي منتزهٍ أو شارعٍ آمناً لأية امرأة... هذه الغرائز القوية كان يجب أن تُضبط بإحكام، وإلاّ استحال أنْ يقوم هناك نظامٌ اجتماعي أو حياة مشتركة؛ ولبقي الناس عندئذ همجاً متوحشين.

غرائز مرحلة الصيد هذه، أمكن ضبطها جزئياً بواسطة القانون والشرطة، وجزئياً باتفاقٍ عام مهزوز يُدعى الأخلاق. فالدوافع الاكتسابية ضُبطت بتحريم السلب، وإدانة الجشع، وعرقلة تركّز الثروة. وحب المشاكسة والميل إلى الخصام، أمكن كبحهما عن طريق إنزال العقاب بمسببي الأذى للأشخاص أو الممتلكات. أما الدوافع الجنسية ـ وهي أضعف بعض الشيء من الجوع ـ فقد أمكن السيطرة عليها ضمن نظام طيّعٍ، وذلك بحظر إثارتها في الأماكن العامّة، ومحاولة توجيهها في زمن مبكر نحو الزواج المسؤول.

كيف تسنى غرس هذه القواعد والمبادىء الأخلاقية المعقّدة، والمتعارضة إلى حد بعيد مع طبيعتنا والمزعجة بنواهيها العديدة، ومن ثم ترسيخها بواسطة خمس «مؤسسات» خاصّة، ساعدت في التوصل إليها، وإنْ كانت تعاني جميعها اليوم حالة من العطب، وأعني بها: العائلة، والدين، المدرسة، القانون والرأي العام؟

العائلة في الحقبة الزراعية، تولّت تلقين الإنسان أوجه استخدام التعاضد

والتكافل ومحاسنهما؛ الأم وجّهت بناتها وعلّمتهن التدبير المنزلي؛ الأب أرشد أبناءه إلى كيفية الاعتناء بالأرض؛ وهذه القيادة المزدوجة، أعطت السلطة الأبوية قاعدة اقتصادية وطيدة. ودعّم الدين الوصايا الأخلاقية بعزوها إلى ربٍ عليم، ثوّاب ومُجازٍ. وتولى الأهل والمعلمون نشر القوانين الإلهية بالقدرة الحسنة والقواعد السلوكية. وقد تعزّزت سلطتهم إلى قرننا هذا بفضل هذا الارتباط الوثيق بالدين. وساهم القانون بدعم الجزء الأكبر من هذه النواهي بواسطة استعمال القوة المنظّمة أو الخوف من استعمالها. وتصدّى الرأي العام للانحلال الخُلقي بالهجاء والازدراء، فيما شجع الأخلاق الحميدة بالإطراء والترويج... وأحياناً بالقوة.

وتحت هذه المظلّة الحامية للنظام الاجتماعي، توسّعت الحياة المشتركة، وازدهر الأدب، وتقدمت الفلسفة، وتفتّحت الفنون والعلوم، وسجّل المؤرّخون الإنجازات المهمة للأمة والعرق. وببطء شديد، طوّر الرجال والنساء لديهم روح الاعتدال، والمودة والكياسة، والضمير الأخلاقي والحسّ الجمالي... تلك المزايا الثمينة، ولكن غير الملموسة لتراثنا. باختصار، الحضارة هي ذلك النظام الاجتماعي الذي يُحرّك عجلة الإبداع الثقافي.

لكن ماذا لو أن القوى المُساعدة على النظام والحضارة أخفقت في حفظهما؟ لقد ضعفت العائلة باختفاء العمل المتضافر الذي كان يلمّ شملها في المزرعة، وبظهور الفردانية التي تبعثر الأعمال وتشتت الأبناء؛ وكذلك بتآكل السلطة الأبوية بفعل الحريات الذهنية والتطلعات الطوباوية وميل الشباب الطبيعي إلى التمرد.

وتطرّق الوهن إلى الدين بفعل نمو الثروة وتوسّع المدينة؛ وتحت تأثير المستجدات المثيرة في مجالي العلوم والتأريخ؛ وكذلك بالانتقال من حقول وكروم تُنادي بالحياة الخلاّقة إلى مصانع تبشّر بالفيزياء والكيمياء ومجد الآلة... وأخيراً لا آخراً، بحلول الدول «الكاملة» محل التطلعات السماوية. وتعرّض النظام التربوي ـ التعليمي للإعاقة من جانب الصراعات الطبقية والنزاعات العرقية، وعلى يد الأقلّيات المسلّحة، الحاملة لمطالب عصية على التحقيق، ناهيك عن عصيان

المكلّفين المثقلة كواهلهم بالأعباء الضريبية. وكذلك نتيجة انهيار الجسور ما بين الشباب والعصر، وما بين التجربة والخبرة.

وخسرت القوانين مضاءها نتيجة تكاثرها وانحيازها وفساد المشرّعين، وكذلك بما طرأ على سُبُل التملّص والتستّر من تحسينات متلاحقة، ونظراً لصعوبة تطبيق القانون على أُناس يتكاثرون دونما ضابط. والرأي العام، هو الآخر، خسر وزنه بفعل التشرذم، والخوف، واللامبالاة، وعبادة الثروة والجاه.

وهكذا عادت الغرائز القديمة منفلتة وجامحة؛ وتفشّت الجريمة والمقامرة، واستشرى الفساد وكسب المال بلا وازع من ضمير؛ وحدثت فوضى جنسية بات الحبُّ معها جنساً مجانياً للرجل وخطراً محدقاً بالعرق نفسه؛ وأخلت المشاورة مكانها للمجابهة؛ وأذعن القانون لقوة الأقلية؛ وصار الزواج استثماراً قصير الأجل في شتى صور الزعزعة واللااستقرار؛ وأضحى النسل فريسة للتشوّهات وعدم التكيّف: الخصوبة العالية لدى المتخلّفين وفاقدي الأهلية تُكثر العرق من تحت، بينما عقم النابهين وأصحاب الأهلية يجعل العرق يذوي من فوق!

غير أن الإفراط في وثنية العصر قد يسوّغ بعض الأمل في أن تلك الحال لن تدوم طويلاً. ذلك أن ما من شيء زاد عن حدِّه إلا وانقلب إلى ضده. ومن أكثر التسلسلات انتظاماً في التاريخ أن شيوع الفسق والفجور يعقبه عهدٌ من التزمت الطهراني والانضباط الأخلاقي. وهكذا رأينا الانحلال الأخلاقي في روما القديمة تحت حكم نيرون وكومودوس والأباطرة المتأخرين، يعقبه ظهور المسيحية، واعتناقها رسمياً وحمايتها من قبل الامبراطور قسطنطين، كوسيلة لصون النظام وفرض الحشمة.

وبالمثل، أعقب عنف العساكر المرتزقة والفجور الجنسي لعصر النهضة الإيطالية إبّان حُكم آل بورجيا، موجةُ التطهير الكنسي واستتباب الأخلاق. والهيجان الأرعن لانكلترا الإليزابيثية سُرعان ما انسحب أمام الهيمنة الطهرانية لكرومويل، ليؤدي من ثم عبر رد الفعل إلى وثنية انكلترا تحت حكم تشارلز الثاني. وانهيار مؤسسات الحكومة والزواج والعائلة خلال السنوات العشر للثورة الفرنسية، ما لبث أن انتهى باستعادة القانون والانضباط والسلطة الأبوية تحت

حُكم نابليون الأول. والوثنية الرومانطيقية للشاعرين بايرون وشيللي، والسلوك المُشين لولي العهد الانكليزي، الذي صار لاحقاً جورج الرابع، تبعها جميعاً، كما هو معروف، احتشام أدبي متشدّد في إنكلترا الڤيكتورية.

وإذا ما كان لهذه السوابق أن تُرشدنا إلى شيء، فربما نتوقع منذ الآن أن يكون أحفاد أولادنا طهرانيين متزمتين.

بيد أن هناك مشاهد أبعث على الابتهاج في التاريخ من هذا التذبذب الدوري بين الإسراف ونقيضه. ومع ذلك، فإنني لن أُشارك ڤولتير وجيبون هنا استنتاجهما الكئيب في أن التاريخ ما هو إلاّ «سجلّ من جرائم البشرية وحماقاتها!». صحيح أن التاريخ هو مثلما قالا في جزء منه، ويحفل فوق ذلك بمئات الملايين من المآسي، إلاّ أنهٔ يمثّل أيضاً الصحة العقلية التي حفظت قوام العائلة العادية، وجُهد وحب الرجال والنساء ممن تقدموا في مجرى الحياة، مذلّلين في طريقهم آلاف العوائق والمعاثر: إنه حكمة وشجاعة رجال دولة من أمثال ونستون تشرشل وفرانكلين روزفلت، هذا الأخير الذي مات مُنهكاً، لكن بعد أن حقّق ذاته؛ إنه الجهد المثابر وغير المثبِّط للعلماء والفلاسفة في سبيل فهم الكون حولهم؛ إنه صبر وبراعة الفنانين والشعراء في إعطائهم الجمال العابر شكلاً سرمدياً، أو في منحهم المعنى المراوغ إيضاحاً منيراً؛ إنه رؤيا الأنبياء والقديسين التي تحدونا على الاتصاف بالنبل والشهامة.

على ضفة هذا النهر المزبد المعتكر المياه، ووسط سدائم العبث والعذاب، تقوم مدينة حقيقية للّه، حيث الروح الخلاّقة للماضي، مشفوعة بأعجوبة الذاكرة ومعجزة المأثور، ما برحت حيّةً تسعى، تنحت وتبني... تعمل وتغنّي. إن أفلاطون موجود فيها، يلعب لعبة الفلسفة مع أرسطو؛ وشكسبير هناك أيضاً، يطلع لنا بكنوز جديدة كل يوم؛ وكيتس ما فتىء ينصت إلى عندليبه، وشيللي منساق بقوة وراء الريح الغربية؛ ونيتشه موجود هناك، يهذي ويُلهم؛ والمسيح قائم هناك، يُنادينا أن نأتي إليه ونقاسمه خبزه... هؤلاء وألوف غيرهم، وما جادوا به علينا من أُعطيات، هي التراث المذهل للجنس البشري، والعترة الذهبية في رحم التاريخ!

إنما لا يجوز أن نغمض أعيننا على الشرور التي تتربص بنا. فهذه يجب أن

نذللها بعزيمة لا تهن. وفي ذلك، بوسعنا أن نستمدّ القوة والتشجيع من منجزات الماضي وروائع تراثنا البهيّ. فدعونا نجلس، متشبّهين على شيء من التفاوت بملك شكسبير التعيس(*)، ونحكي قصصاً رائعة، فيما يلي من فصول، عن نساء نبيلات ورجالٍ عظام.

(*) إيماءة إلى الملك لير، بطل إحدى مسرحيات شكسبير (المترجم).

الفصل الثاني

كونفوشيوس والملاك المنفي

لا نأتي بجديد إذا ما قُلنا إن الحضارة الصينية قديمة قِدَم أية حضارة معروفة لنا، وإن تاريخها حيّ نابض، حافل بالحُكام، والحكماء، والشعراء، والفنانين، والعلماء، والقديسين، ممن لا يزال تراثهم قادراً حتى الآن على توسيع مداركنا وتعميق إنسانيتنا.

كتب ديدرو حوالى عام *1750*، يقول:

«إن أبناء هذه الشعوب [يقصد الصينيين] متفوقون على سائر الآسيويين الآخرين من حيث الآثار، والفن، والفكر، والحكمة والسياسة، كما في تذوقهم للفلسفة. لا بل إنهم، بنظر بعض الكتّاب، يبزّون أكثر شعوب أوروبا تنوّراً في هذه المسائل».

فيا له من أمر شديد الإيحاء، أن نجد كونفوشيوس، قبل الميلاد بنحو خمسمئة عام، يكتب عن «حكماء العصور القديمة». فالصينيون، على ما يبدو، كان لديهم فلاسفة قبل كونفوشيوس بألف سنة، وقبل بوذا وإشعيا، وديموقريطس وسقراط.

ابتكر الصينيون القدماء، شأن أسلافنا نحن، أساطير وخرافات لتفسير

أصولهم ومنشئهم. وإحدى هذه الأساطير تحكي عن پان كو الذي استطاع أن يشكّل الأرض حوالى عام 2,229,000 ق.م.، بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام: «فصارت أنفاسه رياحاً وسحباً، وأضحى صوته رعداً، وصارت عروقه أنهاراً، واستحال لحمه أرضاً، وشعره نبتاً وشجراً، وعظمه معادن، وعَرَقه مطراً؛ أما الحشرات التي التصقت بجسمه، فأصبحت آدميين»!

في البداية، على ما تقول لنا هذه الأساطير، «كان الناس كالوحوش الضارية، يسترون عريهم بالجلود، ويقتاتون باللحوم النيئة، ويعرفون أمهاتهم، ولكنهم لا يعرفون آباءهم». وإذا ما استخدمنا لغتنا الحديثة، قلنا إنهم كانوا يتدثرون بمعاطف المِنْك، ويفضلون أكل البفتيك نصف المنضج، ويمارسون الحب مجاناً كرمى لعيون الذكر!

هذه الحرية الجامحة انتهت، على ما تخبرنا الأسطورة، بمجيء سلسلة من «الملوك السماويين»، حكم كل واحد منهم مدة ثمانية عشر ألف عام، وأنهم عملوا جاهدين ليجعلوا من «أوباش» پان كو خلائق متحضرين. فالامبراطور فو شي، مثلاً، الذي تسلّم الحُكم حوالى العام 2852 ق.م.، علّم قومه الزواج، والموسيقى، والكتابة، والرسم، والصيد بالشباك، وتدجين الحيوانات والأزواج، وتربية دود القز للحصول منه على الحرير.

وأدخل خليفته شن نانغ الزراعة، وابتكر المحراث، وطوّر علم الطب بناءً على المزايا الشفائية للنباتات. أما الامبراطور هوانغ دي، فهو الذي اكتشف المغنطيس، وبنى مرصداً فلكياً، وأصلح التقويم، وأعاد توزيع الأراضي.. وكان ذلك أول تنويه بقيام حكومة في التاريخ بإعادة توزيع الثروة (المتركّزة المرة تلو المرة). هذا ما قالته الأساطير، التي رأت التاريخ - على غرار كارلايل - بوصفه تعاقباً من الأبطال، وعزت إلى عدد قليل من الأشخاص الأفذاذ نتائج كدح أجيال طوال.

وقد آل هذا العصر الامبراطوري في الصين إلى خاتمته بفعل خبث الامبراطور تشو شين، الذي ابتكر عودي الأكل، وترك الحبل على الغارب لشعبه كي ينغمس في الفسق والعنف. فكان الرجال والنساء يطوفون عراةً في حدائق الملكة، إلى أن أطاحت ثورة بتشو شين في عام 1123 ق.م.، وانفرط بذلك عقد

«المملكة الوسطى» (كما يُسمّي الصينيون بلادهم)، إلى خليط من أشباه الدوقيات (الدويلات)، التي أسهم استقلالها النسبي، شأن ألمانيا القرن الثامن عشر، في ازدهار الشعر، والفلسفة، والعلم والفن. وقد جمع كونفوشيوس 305 قصائد تعود إلى تلك الحقبة، ضمن الـ «تشي تشينغ»، أي كتاب الأغاني.

ولعلّ أكثر هذه القصائد معاصرةً، ذلك النواح السرمدي لجنودٍ اقتُلعوا من بيوتهم، لا لشيء إلا ليلقى بهم في براثن المنايا لغير ما سبب تُدركه العقول:

ألا ما أعظم حرية الإوز البرّيّ وهو يطير في الفضاء،
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر «اليو» الملتفّ الكثيف!
أما نحن الدائمي الكدّ والكدح في خدمة الملك،
فإنّا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الدُّخن والأرز لنا.

* * *

ترى على أي شيء يقتات أهلنا؟
ألا قولي لي أيتها السماء النائية الزرقاء، متى ينتهي هذا كله؟

* * *

هل في الأشجار أوراقٌ لم تصبح بعد أرجوانية؟
وهل بقي في البلاد رجل لم يُسلخ عن زوجته؟
ألا ارأفوا بحالنا نحن الجنود!
ألسنا نحن أيضاً آدميين؟

وقد قُيّض لأحد هؤلاء الجنود أن يعود إلى زوجته وبيته، كما تُخبرنا أكثر تلك القصائد الغنائية بهجةً، بترجمة بديعة من هيلين وادل:

«مجد الصباح» يعلو فوق هامتي،
والأزهار الشاحبة، بيضاء وأرجوانية، زرقاء وحمراء، تحيط بي
وأنا قلقة البال.

* * *

وتحرّك شيء بين الحشائش الذابلة،
فخلت أن ما سمعته هو وقع أقدامه.
وإذا بجندبٍ ينط أمامي.

* * *

وتسلقت التلّ ما إن بزغ الهلال في السماء،
فأبصرته مُقبلاً على الدرب الجنوبي.
فاستراح قلبي وطرح عنه حمله الثقيل.

وإلى ذلك العصر الإقطاعي ينتمي أول مشاهير الفلاسفة الصينيين: لاوتسه، أو «المعلم العجوز»، المولود حوالى 604 ق.م. لقد رفض لاوتسه حضارة المدن الناشئة في الصين في كتاب يُعرف بـ «طاو تي تشينغ» أي كتاب الطريقة والصراط المستقيم. إنه يلخّص تقريباً ما جاء به جان جاك روسّو وتوماس جفرسون بعده بألفين وثلاثمئة عام. والصراط المستقيم، بحسب لاو، هو أن يجتنب المرء أعمال المثقفين وأحابيلهم، ويحيا حياة البساطة والهدوء في انسجام مع الطبيعة ومع التقاليد والأفكار القديمة.

حسبُ الشعب أن لا تعيقه حكومةٌ ما، حتى تدير حوافزه العفوية ـ أي رغبته في الخبز والحب ـ الحياة على أكمل وجه، وبطريقة بسيطة وصحيّة. وفي هذه الحال، تقلّ المخترعات التي لا تفيد إلا في زيادة ثراء الأثرياء وقوة الأقوياء، وتنعدم الكتب والقوانين والصناعات، ولا تبقى إلا التجارة والتبادلات القروية.

أقام «المعلم العجوز» تمايزاً حادّاً ما بين الطبيعة والحضارة، مثلما سيفعل روسّو من بعده في ذلك «الرواق من الأصداء» الذي يُطلق عليه الناس اسم «الفكر الحديث». فالطبيعة، في نظره، هي النشاط الطبيعي التلقائي، وانسياب الحوادث العادية المألوفة؛ وهي المسيرة المهيبة والانتظام الفخم للفصول والسماء؛ إنه الطاو (أو طريقة الحياة)، ممثّلاً ومُجسَّداً في كل جدول وكل صخرة وكل نجم؛ إنه ناموس الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص، ولكنه مع ذلك ناموس عقلاني، ينبغي أن يتسق معه قانون السلوك (كما ينادي سبينوزا) إذا ما أراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام. وناموس الأشياء هذا هو «الطاو» أو طريقة

الكون، مثلما أن قانون السلوك هو «الطاو» أو طريقة الحياة. ويرى لاوتسه أن هذين «الطاوين»، في واقع الأمر، «طاو» واحد. والحياة الإنسانية بإيقاعاتها الأساسية من ولادة وحياة وموت، ليست إلاّ جزءاً من إيقاع الكون:

«إن كل ما في الطبيعة من أشياء تعمل بصمت، وهي تخرج إلى الوجود وليس في حوزتها شيء. تؤدي واجبها من دون أن تكون لها مطالب. وكل الأشياء على حد سواء تعمل عملها ثم تسكن وتخمد. فإذا ما بلغت ذروة تفتّحها، عاد كل منها إلى أصله. وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قُدِّر لها أن تؤديه. وعودتها هذه قانون أزلي، ومعرفة هذا القانون هي الحكمة».

إن الخمود، الذي هو ضربٌ من التعطّل الفلسفي، وامتناع عن التدخل في سير الأشياء الطبيعي، هو ما يمتاز به الرجل الحكيم في جميع مناحي الحياة. فإذا كانت الدولة مضطربة، مختلّة النظام، فإن خير ما يفعله الإنسان في هذه الحال هو ألا يحاول إصلاح أمورها، بل أن يجعل حياته نفسها أداءً منظّماً لواجباته. وإذا ما لاقى الإنسان مقاومةً، فإن أحكم السُّبُل هو ألا يُكافح أو يُقاتل أو يحارب، بل ينكفىء بهدوء، وأن يكسب، إذا كان لا بد من الكسب، بالخضوع والصبر. ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون ما لا يناله بالعمل. وفي هذا يحدثنا لاوتسه حديثاً يكاد لا يختلف في نبرته عن حديث المسيح:

«إذا لم تخاصم الناس، فإن أحداً على وجه الأرض لن يستطيع أن يخاصمك... قابلْ الإساءة بالإحسان... أنا خيّرٌ مع الأخيار، وخيّرٌ أيضاً مع الأشرار، وبذلك لا بد أن يكون الجميع أخياراً؛ وأنا مخلصٌ للمخلصين، ومخلصٌ أيضاً لغير المخلصين، وبذلك لا بد أن يكون الجميع مخلصين... إن ألين الأشياء وأضعفها في العالم... لتتغلب على أقسى الأشياء وأقواها».

هذا وتبلغ هذه المبادىء أوجها في مفهوم «اللاو» للرجل الحكيم. فما يميّز الفكر الصيني أنه لا يتحدث عن قديسين، بل عن حكماء؛ وأنه لا يتحدث كثيراً عن الصلاح بقدر ما يتحدث عن الحكمة. فليس الرجل المثالي، في نظر الصينيين، هو المتديّن الورع، بل هو صاحب العقل الناضج الرزين... والحكيم لا يتكلّم حتى عن «الطاو» والحكمة، لأن الحكمة لا تُنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ. وإذا عرف

الحكيم أكثر من الآخرين، فهو يحاول إخفاء ما يعرفه، «فهو يحدّ من سناه وتألُّقه، ويحمل نفسه على التواؤم مع ضآلة شأن الآخرين. وإنه ليتفق مع الناس البسطاء أكثر مما يتفق مع الناس المتعلّمين. ولا تضيره في شيء المناقضة التي هي غريزة طبيعية لدى الناشئة المبتدئين». وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان، بل يقلِّص رغباته وشهواته إلى الحد الأدنى الذي يكاد يتفق مع العقيدة البوذية.

في وسعنا أن نتصوّر مقدار الانزعاج والحنق الذي ستثيره فلسفة الانكفاء هذه في نفس كونفوشيوس، الشاب الطموح الذي خرج يطلب لاوتسه وهو في الخامسة والثلاثين، تلك السنّ التي يعوزها بعدُ النضوج العقلي، ليستشيره في بعض الأمور الدقيقة ذات الصلة بالتاريخ. وقيل إن «المعلم العجوز» أجابه إجابة فظّة وملغزة:

«إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً... فأنزع عنك كبرياءك، وتخلّص من مطامحك الكثيرة، ومن تصنّعك ومآربك المتهوّرة».

ويحكي المؤرخون الصينيون أن كونفوشيوس أدرك الحكمة من هذا الكلام، ولم يرَ فيه أية إساءة له. وقد خرج من عند لاوتسه عاقداً العزم على أداء رسالته، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً وأوسعهم نفوذاً.

كونفوشيوس

كونغ فوتسه، أو «المعلّم المبجّل كونغ» كما كان يدعوه تلامذته، ولد عام 551 ق.م، في دوقية «لو» الإقطاعية الصغيرة، في المقاطعة التي تُعرف حالياً باسم شانتونغ. توفي والده عندما كان الصبي بعدُ في الثالثة من عمره، فاضطر كونفوشيوس للعمل بعد دوام المدرسة لإعالة والدته. تزوّج في سن التاسعة عشرة، وطلّق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ويبدو أنه لم يتزوج بعدها قط.

ولما بلغ العشرين من عمره، بدأ يشتغل بالتعليم، واتخذ داره مدرسةً له، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم المدرسية مهما كانت ضئيلة. وكان تعليمه كتعليم سقراط، يتمّ شفاهاً وليس بواسطة الكتب. ولهذا، فإن ما نعرفه اليوم من آرائه إنما وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه، وذلك مصدر

لا يعوِّل عليه. لم يُهاجم أي مفكِّر آخر، كما لم يضيِّع وقته في دحضهم وتفنيد حججهم. ولئن كانت تتملّكه رغبة شديدة في الشهرة والوصول، إلا أنه رفض تكراراً الوظائف التي عُرضت عليه من قِبَلِ حكّام كانوا يتراءون له فاسقين وظالمين.

وحانت أخيراً فرصته السانحة عندما عُيِّن في حوالى العام 501 ق.م، قاضياً للقضاة على مدينة تشونغدو. وتقول الرواية الصينية إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من النزاهة والأمانة، فكان إذا سقط شيء في الطريق، بقي حيث هو، أو أُعيد إلى صاحبه. ولما رقّاه الدوق تنغ، صاحب «لو»، إلى منصب وزير للعدلية (للجرائم)، كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة ووقف كافة أشكال التسيُّب القانوني. وفي ذلك تقول السجلاّت الصينية: «لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاّ برأسيهما واختفيا عن الأنظار. وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخُلق شيمة النساء... وأضحى كونفوشيوس معبود الشعب».

إن في هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع شك. وسواء أكان خليقاً به أو لم يكن، فإنه كان أرقى من أن يعمِّر طويلاً. فقد تضافرت عقول المجرمين سويةً لنصب الأفخاخ في طريق «المعلّم». ويقول المؤرخّون إن الدويلات (الدوقيات) المجاورة لدوقية «لو» تملّكتها الغيرة من هذه الأخيرة، وخشيت على نفسها من قوة «لو» المتصاعدة؛ فاقترح وزير ماكر أن تُدبِّر مكيدة للإيقاع بين الدوق تنغ وكونفوشيوس، وأشار على رئيسه، الدوق تشي، أن يبعث إلى تنغ بسرب من حسان «المغنّيات» ومعهن مئة وعشرين فرساً تفوق الفتيات جمالاً. وخلبت الفتيات والأفراس لب دوق «لو»، وضرب عرض الحائط باحتجاجات كونفوشيوس (الذي كان قد علّمه أن المبدأ الأول من مبادىء الحكم الصالح هو القدوة الحسنة). كما أعرض عن وزرائه وأهمل شؤون الدولة إهمالاً معيباً. فما كان من كونفوشيوس إلاّ أن استقال من منصبه مكرهاً، وبدأ عهداً من التجوال والتشرُّد مع تلاميذه دام ثلاثة عشر عاماً؛ وقال فيما بعد وهو حزين إنه «لم يرَ قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال».

فما هي فلسفة كونفوشيوس الأساسية؟ تقوم فلسفة كونفوشيوس على

قاعدة ذهبية هي الحفاظ على الأخلاق والنظام الاجتماعي من خلال نشر التعليم. وثمة مقطعان في كتاب «**التعليم الأكبر**» صاغهما تلاميذه لتلخيص معتقده هذا:

«إن القدماء الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الامبراطورية بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم؛ ولما أرادوا أن يُحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم؛ ولما أرادوا تنظيم أسرهم، بدأوا بتهذيب نفوسهم؛ ولما أرادوا أن يهذّبوا نفوسهم، بدأوا بتطهير قلوبهم؛ ولما أرادوا أن يطهِّروا قلوبهم، عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع. وهذا التوسّع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.

فلما بحثوا عن حقائق الأشياء، اكتملت معارفهم؛ ولما اكتملت معارفهم، خلصت أفكارهم؛ ولما خلصت أفكارهم، تطهّرت قلوبهم؛ ولما تطهّرت قلوبهم، تهذّبت نفوسهم؛ ولما تهذّبت نفوسهم، انتظمت شؤون أُسرهم؛ ولما انتظمت شؤون أُسرهم، صَلُح حكم ولاياتهم؛ ولما صَلُحَ حكم ولاياتهم، أضحت الامبراطورية كلها مستقرّة وسعيدة».

إنها لعمري مشورة في «علم الكمال»، وهي تغفل عن أن الإنسان «قردٌ يلبس بنطالاً»! ولكنها، شأن المسيحية، تُحدد لنا هدفاً نسعى إلى بلوغه، وسلّماً نرقاه لنبلغ به ذاك الهدف. وما من شك في أنها أحد نصوص الفلسفة الذهبية، النص القائل إن «الإصلاح يبدأ من البيت».

ولما بلغ كونفوشيوس التاسعة والستين من عمره، نجح الدوق غي في انتزاع العرش في دوقية «لو»، فأرسل ثلاثة مبعوثين من قبله إلى الفيلسوف، يحملون إليه الهدايا اللائقة، ودعوة للعودة إلى موطنه. وقضى كونفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش حياة بسيطة معزّزاً مكرّماً. ولما أرسل الدوق تشي مستفسراً عن صحته، طلب من تلميذه الوفي تسي لو أن يقول له «إنه ليس إلاّ رجلاً يُنسيه حرصه على طلب العلم الطعامَ والشرابَ، وينسيه سروره (بما أحرزه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه».

ومات كونفوشيوس وهو في الثانية والسبعين من عمره، وواراه تلاميذه

الثرى باحتفال مهيب وبمراسم تشريفية تليق بحبّهم له. وبين بعضهم أكواخاً قرب قبره وأقام فيها ثلاث سنين(*). ولما رحل الجميع، بقي تسه كونغ وحده، وهو الذي فاق الآخرين في حبّه وتعظيمه إياه، مدة ثلاث سنوات أخرى، ينتحب بمفرده على قبر «المعلّم».

لي بو

أفردوا الآن أجنحتكم، وهلمّوا بنا نقفز اثني عشر قرناً من العام 478 ق.م. إلى العام 705 م.

ذات يوم، استقبل الامبراطور مينغ هوانغ، وكان في أوج سلطانه وسؤدده، رُسُلاً من كوريا يحملون إليه رسالة خطيرة مكتوبة بلغة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها. فصاح بهم غاضباً: «ما هذا؟ ألا يوجد من بين كل هذا العدد الغفير من الولاة، والعلماء والقادة رجلٌ واحد يُريحنا من هذه الورطة؟ قسماً إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يفك رموز هذه الرسالة لأقصينّكم جميعاً عن مناصبكم». فقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون في الأمر وهم يتميّزون غيظاً، وكلهم خشية على مناصبهم وعلى رؤوسهم.

ثم دنا الوزير هو تشي تشانغ من العرش وقال: «هل تأذنون لأحد رعاياكم أن يُعلن لجلالتكم أن هناك شاعراً جليل الشأن يقيم في دارته يُدعى لي، وهو يلمّ بأكثر من علمٍ واحدٍ. مُره أن يقرأ هذه الرسالة، إذ ليس ثمة شيء يعجز عنه».

حضر الشاعر لي واطّلع على فحوى الرسالة، ثم أملى على الكتبة رداً فصيحاً لم يتردد الامبراطور في تذييله بتوقيعه، وهو يكاد يصدق ما أسرّه إليه الوزير هو تشي تشانغ من أن «لي» هذا ملاكٌ طُرد من السماء لأنه ارتكب فيها عملاً طائشاً. والقصة، في أرجح الظن، كانت من تلفيق لي نفسه!

كانت أم الشاعر لي قد رأت في منامها ليلة مولده «تاي بو شينغ»، أو النجم الأبيض الكبير، وهو فينوس أو كوكب الزُّهرة. ولهذا سُمي الطفل «لي»، أي شجرة البرقوق، ولُقب بـ «تاي بو»، أي النجم الأبيض. ولما بلغ العاشرة من

(*) مدة الحداد في التقاليد الصينية (المترجم).

عمره، كان قد تضلّع في كتب كونفوشيوس جميعاً، كما كان في مقدوره أن ينظم أشعاراً خالدة. كذلك نما نمواً جسدياً هائلاً، واكتسب صحة موفورة، وتدرّب على فنون المبارزة بالسيف، ثم أشهر قُدراته على الملأ قائلاً: «لئن كانت قامتي دون السبعة أقدام [صينية]؛ إلا أن لي من القوة ما أستطيع به منازلة عشرة آلاف رجل». ثم طفق يضرب في الأرض على هواه، مرتشفاً رحيق الحب من شفاه كثيرة. وقد نظم القصيدة التالية في تلك الفترة:

خمرةٌ من الكرم،
أقداحٌ من ذهب،
صبية حسناء من «وو»،
عمرها خمس عشرة سنة،
جاءتني على صهوة مهر أصيل.
حاجباها مصبوغان بالإثمد،
نعلاها من الحرير القرنفلي المشجّر.
تتلعثم بالكلمات، لكن صوتها رخيم في الغناء.
على المائدة العامرة،
المطعّمة بأصداف السلاحف،
سَكِرَتْ بين ذراعيّ.
إيه بُنيتي! ماذا أصنع بك
خلف الستائر المطرّزة بأزهار السوسن؟

ثم تزوّج الشاعر لي، ولكن مداخيله كانت زهيدة، فغادرت زوجته البيت، مصطحبةً معها أبناءه. فكان أن صادقه الامبراطور، وقرّبه منه، مُجزلاً له العطاء، جزاء ما كان يتغنّى بمحاسن المحظية الملكية، السيدة يانغ جوي فاي. لكن السيدة يانغ ظنّت أن الشاعر يسخر منها، فأقنعت الامبراطور بأن يستغني عنه، فنقده صُرّة من المال وتركه يرحل.

ولكم أن تتخيّلوه مطوِّفاً، يرتحل من مدينة إلى أخرى، على نحو ما وصفه

تسوي تسونغ تشي: «على ظهرك جعبةٌ مليئة بالكتب؛ تقطع ألف ميل وأكثر كأنك في حجٍ؛ في كُمِّك خنجرٌ، وفي جيبك قصاصات قصائد». وقد حبته صداقته القديمة مع الطبيعة، ولاسيما في مثل هذا التجوال الطويل، عزاءً وسلوى، وشيئاً من البهجة العاصية:

سألوني لماذا أسكن الجبال الخضراء؟
ضحكتُ ولزمت الصمت، مرتاح البال.
روحي في سماء أخرى، والأرض لا تعود ملكاً لإنسان،
إذا ما أزهرت أشجار الخوخ وجرى الماء من تحتها.
أو استمع إليه يقول:
لمحت ضياء القمر أمام مخدعي،
فخلته الصقيع قد افترش الأرض.
رفعت ناظريّ، محدّقاً في القمر الساطع فوق الجبال،
وللحال طأطأت رأسي، ذاهباً بفكري إلى موطني البعيد.

ولما تقدمت به السنّ وابيضّ شعره، امتلأ قلبه شوقاً وحنيناً إلى مراتع صباه وشبابه. وكم من مرة، وهو يعيش وسط الحياة المصطنعة للعاصمة، حنّ قلبه إلى الحياة البسيطة الطبيعية التي كان يحياها في مسقط رأسه بين أهله وذويه:

في أرض «وو» أوراق التوت خضراء،
ودود القزّ أخلد ثلاثاً للنوم.
تُرى من ذا الذي يزرع حقولنا
في شرقي «لوه» حيث تقيم أسرتي؟
لستُ قادراً على العودة لأقوم فيها بأعمال الربيع،
ومع ذلك تجدني أتسكع على ضفة النهر، لا أعمل شيئاً نافعاً البتة.

* * *

ريحُ الجنوب تهبّ، مُطلقةً معها شوقي وحنيني إلى موطني.
تحملني معها إلى هناك، إلى أمام حانتنا المعهودة.
وهناك أرى شجرة الخوخ على الجانب الشرقي من البيت،
بأوراقها الكثّة وأغصانها الملوّحة وسط الضباب الأزرق.
إنها هي الشجرة التي غرستها قبل رحيلي لثلاث سنوات خلت.
كبُرت شجرة التوت الآن، وطاولت سقف الحانة،
في أثناء تجوالي الطويل إلى غير أوبة.

* * *

أي بُنيَّتي الجميلة، يا بينغ يانغ! إني أراك واقفةً
بجوار شجرة الخوخ، تنتزعين منها غصناً مزهراً.
تقطفين الأزهار، وأنا لستُ معك،
ودموعك تجري مدراراً كأنها جدول ماء!
وأنت يا ولدي الصغير بوتشين!
أراك كبرت حتى طاولت أختك.
وصرت تأتي معها إلى تحت شجرة الخوخ؛
ولكن من ذا الذي يرفعك ليحطّك على ظهرها؟

* * *

إنّي حين أفكّر في هذه الأمور، يطير صوابي،
وتتقطع منّي نياط القلب ألماً كل يوم.
وها أنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض لأخطّ عليها هذه الرسالة،
وأبعث بها إليك مضمّخة بحبي مسافة طويلة نحو أعلى النهر.

وكانت السنوات الأخيرة من حياته سنوات مريرة، لأنه لم يطأطىء رأسه قط كسباً للمال، ولأنه لم يجد في أيام الفوضى والفتن ملكاً يحنو عليه ويرد عنه

غائلة الجوع والحرمان. ولما عرض عليه لي لينغ، أمير يونغ، أن ينضم إلى حاشيته، قبل الشاعر هذه الدعوة راضياً مسروراً. لكن لي لينغ أعلن العصيان على خليفة مينغ هوانغ، فلما أُخمد العصيان، وجد لي پو نفسه بين جدران السجن، محكوماً عليه بالإعدام بتهمة الخيانة.

ثم توسط له جُوو تسي إي، القائد الذي قمع التمرُّد، مناشداً الامبراطور أن يُبقي على حياة الشاعر، لقاء تجريده هو شخصياً من رتبته العسكرية وألقابه جميعاً. فخفّض الامبراطور الحُكم الصادر بحقه إلى النفي مدى الحياة. ثم صدر عفو عام بعد ذلك بوقت قصير، مما أتاح للشاعر أن يعود متعثر الخطوات إلى مسقط رأسه. وبعد ذلك بثلاث سنوات، أُصيب الشاعر بالمرض ومات. وكأن الأسطورة تأبى لإنسان فذّ أن يموت ميتة طبيعية، فأشاعت أنه غرق في لجة أحد الأنهار، بينما كان يحاول، وهو ثمل جذلان، أن يقبّل صورة القمر المنعكسة على صفحة الماء.

وعلى الجملة، فإن المجلدات الثلاثين من الشعر الرقيق والوجداني التي تركها الشاعر لي پو خلفه، قد ضمنت له الشهرة كأعظم شعراء الصين بلا منازع. وقد وصفه ناقد صيني بقوله «إنه قمة جبل تاي الشامخة، المشرفة على مئات الجبال والتلال؛ وهو الشمس التي إذا طلعت، خبا وميض ملايين النجوم في السماء».

لقد مات الملك هوانغ، وماتت السيدة يانغ، وعفا عليهما الزمن، لكن لي پو ما زال ينشد:

قاربي مصنوع من خشب التوابل، ودفته من المولان(*)؛
والعازفون جلوس على جانبيه، في أيديهم
ناياتهم الخيزرانية المطعّمة بالجواهر، ومزاميرهم الذهبية.
فيا لها من بهجة! في يدي دنٌ من الخمر اللذيذ،
ومن حولي الصبايا الحسان مُنشدات،
ونحن نطفو فوق الماء، تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال!
إنني حقاً أسعد من حوريات السماء،

(*) نوع من الخشب الثمين (المترجم).

الراكبات على ظهور غرانقهن الصفراء.
وحُرٌّ أنا كعريس البحر(*) وهو يُلاحق النوارس على غير هدى.
وبضربةٍ من ريشتي المُلهمة، ها أنذا أزلزل الجبال الخمسة.

* * *

ها قد فرغت من قصيدتي. أضحك ملء شدقيّ، وفرحتي أوسع من البحر.
أيها الشعر الخالد! إن أغاني تشو بينغ(**)،
لشبيهة في روعتها بالشمس والقمر.
أما قصور ملك ملوك تشو وأبراجهم، فقد عفت آثارها من فوق التلال.

لم يعد لديَّ الكثير مما أضيفه إلى ما سبق قوله. بيد أن الساعة «اللعينة» تتكتك منذرة بقرب النهاية. لذا أختتم بإيراد آخر مقطع كتبتُهُ عن الصين حوالى عام 1932:

«إن الهزائم الحربية واستبداد الأموال الأجنبية مهما قست، لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية في مواردها وفي حيويتها. بل سيخسر الغازي ماله وينفد صبره قبل أن تستنفد البلاد (الصين) قدرتها على التكاثر. ولن يمضي قرن واحد من الزمن إلاّ وتكون الصين قد امتصت فاتحيها وهضمتهم (اليابانيون آنذاك)، وتعلّمت جميع الفنون (التقنيات) التي سيُطلق عليها لوقت قصير تسمية «الصناعة الحديثة». سوف توحّد الطرقات والمواصلات أجزاءها؛ وتمدها أساليب الاقتصاد والادّخار بحاجتها من المال؛ وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام. إن الفوضى مهما اشتدت، ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى زوال، ثم يتوازن الاضطراب آخر الأمر مع الاستبداد، وعندئذ تُكتسح العوائق القديمة، وينطلق نمو البلاد الجديد بحرية. إن الثورات، كالموت والموضة، هي تكنيس النفايات واستئصال الزوائد التي لا نفع فيها؛ وهي لا تقوم إلا إذا كانت هناك أشياء كثيرة في طور الاحتضار. ولقد ماتت الصين مراراً من قبل، ثم عادت وولدت من جديد».

(*) ذكر عروس البحر: مخلوق خرافي له بدن رجل وذيل سمكة (المترجم).
(**) شاعر صيني لمع نجمه إبان «عهد الدول المتنازعة» (المترجم).

الفصل الثالث

الهند: من بوذا إلى إنديرا غاندي

«اليوبانشادا»

إن الحضارة التي عرّفناها بأنها النظام الاجتماعي المحرِّك لعجلة الإبداع الثقافي، عريقة في الهند بقدر ما يهمّ الآثاريون أن يحفروا وينقّبوا. وفي سنة 1924، اكتشف السير جون مارشال ومعاونوه، عند موهنجودارو، على الضفة الغربية لنهر السند، آثاراً لأربع أو خمس مدن بعضها فوق بعض طبقات، وفيها مئات المنازل والحوانيت، بُنيت بالآجر بناءً متيناً، واصطفت على امتداد طُرُق واسعة حيناً وأزقة ضيقة حيناً آخر، وترتفع في حالات كثيرة عدة طبقات. كما اكتشفوا فيها مركبات ذات عجلات، وأواني منزلية، وأدوات للزينة والتبرّج، وآنية فخارّية، ونقوداً مسكوكة، وأختاماً منقوشة، وعقوداً وأساور وأقراطاً... وكل هذه تعود، على ما أُخبرنا، إلى زمن أقدم الأهرامات المصرية عهداً.

حوالى سنة 1600 ق.م.، دخل الهند من جهة الشمال شعب جسور، الآريون، فتحها واستقرّ فيها، فصار الطبقة المتسيِّدة في البلاد، وأنشأ، أو كرّس نظاماً للطوائف الاجتماعية المنغلقة، وطوّر اللغة السنسكريتية القريبة الشبه أساساً من اللغات الأوروبية، وأنتج أدباً وصلتنا منه بعض الشذرات على شكل أربعة أسفار

«فيدا»، أو كُتُب المعرفة. وهي تتألف في المقام الأول من صلوات، وتراتيل، وطقوس دينية، وتُمثّل «اليوبانشادا» جزءاً منها، وهي مجموعة حوارات دينية ـ فلسفية ما بين معلم وتلميذ. وقد بقيت هذه الحوارات لعدة قرون، تتناقلها الألسن والشفاه، إلى أن دُوِّنت كتابةً قرابة 300 سنة ق.م، وهي تُعدّ اليوم أقدم شكلٍ قائم للفلسفة الهندية. وإنني لشديد التعلّق بها، وأدعوكم فيما يلي إلى مشاطرتي شيئاً منها.

الكلمة مؤلفة من مقطعين: «يوبا» وتعني «بالقرب»؛ «وشادا» وتعني «يجلس». و«يوبانشادا» معناها جلوس واحد أو أكثر من التلاميذ إلى «غُورو» (مرشد، معلّم). والعقيدة التي ما فتئ يعلّمها «الغُورو» إلى يومنا هذا، تحدّد ثلاث مراحل للفهم والخلاص:

المرحلة الأولى هي مرحلة الاستبطان المثابر والصبور؛ وتجاهل الأحاسيس والرغبات والذكريات والتعليل والفكر؛ وتنحية كل العمليات الذهنية جانباً، لأنها مُعدّة للتعاطي مع الأشياء البرّانية بالدرجة الأولى؛ والتخلّي عن كل صنوف النشاط أو حتى التفكير بالنشاط. باختصار، استبطنْ نفسك وثابر على الاستبطان إلى أن لا تعود ترى شيئاً له هيئة أو ماهية أو شخصية... إلى أن تلمس العقل نفسه فيما وراء عملياته وتعي الوعي بذاته. فهذا هو الواقع الأكثر مباشرةً والأكثر جوهريةً من دون سائر الوقائع، والذي عليه تتوقف جميع الظواهر ـ كل أشكال الإدراك ـ وبالتالي جميع الأشياء. هذا الواقع الجوهري يُسمّيه الغورو «أتمان»، ويبدو أن هذه اللفظة كانت تعني «النَفَس»، مثل كلمتي «نفْس» و«تنفّس» عندنا.

والمرحلة الثانية أن في كل الأشياء، كما في أنفسنا، يوجد نَفَس لهذه القوة الجوّانيّة، الحيويّة وغير المادية لولاه لكانت المادة خالية من الروح، عديمة الحركة وميتة، ولما عاش أو نما أي شيء على الإطلاق. ومجموع هذه القوى الحيّة كلها هو الـ «براهمان»، أو الجوهر الأحد، المتخلّل كل شيء، اللامادّي، العديم الجنس، اللامشخّص وغير الملموس، الذي لا تتوقف عليه جميع الحيوات والأفكار فحسب، بل وجميع الصور والقوى كذلك. هذا هو الرب الأحد... والوحيد، الذي تعكس آلهة البانثيون(*) الهندي أوجهاً جزئية له ليس إلاّ، وتمثّل تعبيرات

(*) البانثيون: مجمّع آلهة شعب من الشعوب، وفي العصور الحديثة هو ضريح عظماء الأمة (المترجم).

شاعرية عنه تُساعد العقل الفاني على إدراك الحيويّة المتنوعة للواقع الكلّي الوجود.

والمرحلة الثالثة هي أن «أتمان» و «براهمان» إن هما إلا اثنان في واحد بعينه. فالروح، أو القوة اللافردية الكائنة فينا، أو في شجرة أو حجر، هي هي بعينها روح العالم غير المشخّصة.

اسمعوا «ياچناڤالكيا»، أحب المعلّمين إلى القلوب في اليوبانشادا، يشرح ذلك إلى تلميذه «شويتاكيتو»:

- هات لي تينة من ذلك التين.
- هذه هي يا مولاي.
- اقسمها نصفين.
- ها أنذا قد قسمتها يا مولاي.
- ماذا ترى فيها؟
- أرى بزوراً صغيرة جداً يا مولاي.
- اقسمْ بزرة منها نصفين.
- ها أنذا قد قسمتها يا مولاي.
- ماذا ترى فيها؟
- لستُ أرى شيئاً على الإطلاق يا مولاي.
- حقاً، يا ولدي العزيز! إن هذا الجوهر الذي هو أدقّ الجواهر والذي لم تستطع إدراكه بحواسك - حقاً إن من هذا الجوهر الذي هو أدق الجواهر قد نبتت هذه الشجرة العظيمة. صدّقني يا ولدي العزيز! إن روح العالم هو هذا الجوهر الذي ليس في دقته جوهر سواه؛ هذا هو الحق في ذاته؛ هذا هو أنت يا شويتاكيتو.
- هل لك أن تزيدني علماً يا مولاي.
- ليكن لك ذلك يا ولدي العزيز.

إن أسفار اليوبانشادا تعلّمنا المزيد والمزيد من ذلك: تعلّمنا «اليوغا»

كرياضة لتطهير النفس؛ وتحدثنا عن «البعث» كجزاء للأنانية. لكن دعونا نستمع في هذا الشأن إلى بوذا، «نور العالم» الذي سطع من آسيا.

بوذا

إن قصة بوذا موشّحة من بدايتها إلى نهايتها بالأساطير والحكايات الخرافية، لدرجة نعجز معها عن التثبّت مما إذا كان الرجل له وجود حقيقي أم لا. ثمة حكاية تنسب مولده إلى امرأة عذراء. وقيل إنه هو بذاته شقّ خاصرة الملكة مايا ودخل إلى رحمها، ومكث فيه عشرة شهور، ليخرج من ثم «غير ملطخ البتة بأية شائبة»، بل نزل من بطنها «كرجل ينزل درجاً»، و«يبرق مثل الجوهرة». ومع ذلك، فقد كان له أبٌ، هو ملك كابيلافاستو، الواقعة على مقربة من جبال الهيمالايا.

توفرت لـ «سيذارتا غوتاما»، وهذا هو اسم الفتى، كل أسباب الرفاهية والدعة في الحياة، وقلما عرف الألم أو الأسى. وقد اختار له زوجةً من بين خمسمئة صبية من أجمل الحسان، وصار أباً سعيداً، وعاش في رغد وسلام.

ويروي المأثور البوذي المقدس أنه خرج من قصره ذات يوم إلى الطُرُقات، فرأى هناك رجلاً عجوزاً؛ وخرج في يوم آخر، فرأى رجلاً مريضاً؛ وخرج في يوم ثالث، فرأى ميتاً. فاستمعوا إليه يشرح الأمر بنفسه: «بدا لي ذلك غير لائق بالمرّة. ولما طاف برأسي هذا الخاطر، زايلني بغتة كل تيه الشباب... وهكذا أيها الرهبان، لما وجدتني ممن تجوز عليهم الولادة، فقد بحثتُ في طبيعة هذه الولادة ماذا تكون. ولما وجدتني ممن تجوز عليهم الشيخوخة، فقد بحثتُ في طبيعة الشيخوخة ماذا تكون... وكذلك المرض، وكذلك الحزن، وكذلك الدنس. ثم فكّرت لنفسي: ما دمتُ أنا نفسي ممن تجوز عليهم الولادة، فماذا لو بحثت في طبيعتها؟... فلما رأيت ما في طبيعة الولادة من تعاسة، جعلتُ أبحث عمن لا يولد؛ أبحث عن السكينة العليا، سكينة النرفانا». وكامرىء صُعق بهذا «الاهتداء»، فقد قرّ قراره على ترك أبيه، وزوجته، وابنه الرضيع، وصمَّم على أن يصبح باحثاً في زهدٍ عن الحقيقة الجوهرية.

وعاش لست سنوات طوال على أكل البزور والأعشاب. «ثم قلت لنفسي: ماذا لو قلّلت من طعامي، فلا آكل أكثر مما تسع راحتي من عصير الفول، أو

العدس، أو الحمص، أو القطاني؟ فضمر جسدي ضموراً شديداً، وكان من أثر قلّة الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست، أشبه بأثر خف الجمل على الرمال»، «عندما ظننت أنني سوف أريح نفسي كابدت المشاق بسبب قلة الطعام».

لكن فكرة خطرت لغوتاما ذات يوم، وهي أن إماتة النفس ليست هي السبيل إلى ما يريد. فقد لاحظ أن أي تنوير جديد لم يأتِهِ من مثل هذه التقشفات الصارمة. بل الأمر على النقيض من ذلك، إن تعذيبه لنفسه قد ولّد لديه شعورَ الزهو بالنفس، مما أفسد أية قداسة كان من الجائز أن تفيض من نفسه. فأقلع عن زهده وتنسكه، وذهب ليجلس تحت شجرة وارفة الظلال «شجرة المعرفة» التي يؤخذ السيّاح إلى مشاهدتها حتى اليوم)، وعزم على ألا يبرح ذلك المكان حتى يأتيه التنوير. وسأل نفسه: ما مصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت؟ هنا تجلّت له رؤيا على حين غرّة: صورة للموت والولادة يتعاقبان في مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهي، وكل منهما يغصّ بالألم والحزن. فخلص عندئذ إلى أن الولادة هي أم الشرور جميعاً.

ولكن لماذا الولادة ماضية في طريقها لا تقف فيه عند حد؟ لماذا لا نوقفها؟ لأن قانون الـ «كارما» يتطلّب حالات جديدة من تقمُّص الروح، لكي يُتاح لها أن تكفّر عما اقتُرف من شرور في حيواتها الماضيات. لكن إذا ما استطاع الإنسان أن يحيا حياة ملؤها العدل والصبر الجميل والرأفة بجميع الناس؛ ولو استطاع أن لا يفكر إلا بالأمور الأزلية السرمدية، غير عابىء بتلك الأمور التي تظهر ثم تختفي، عندئذ ربما يُجنِّب نفسه العودة إلى الحياة من جديد، ومعين الشر سينضب بالنسبة إليه. لو استطاع الإنسان أن يخمد شهوات نفسه، ساعياً وراء فعل الخير دون سواه، عندئذ يجوز أن يمحو تلك الفردانية، ضلالة البشرية الأولى، ويتسنى للنفس أن تتحد آخر الأمر باللانهاية الواعية. فيا لها من سكينة تحلّ بقلبٍ طهَّر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً تاماً! وهل رأيت قلباً لم يطهِّر نفسه على هذا النحو قد عرف إلى السكينة سبيلاً؟ إن السعادة مستحيلة. فلا هي ممكنة في هذه الحياة الدُّنيا كما يظن الوثنيون، ولا هي ممكنة في الحياة الآخرة كما يتوهَّم المؤمنون. أما ما يمكن أن نظفر به، فهو السكينة، هو الهمود الذي

نُصيبه إذا ما نفضنا عنا كل شهواتنا، هو النرڤانا. وهكذا بعد سبع سنوات قضاها متأملاً، طفق غواتاما يبشِّر الناس بالنرڤانا.

وسرعان ما التفّ حوله الأتباع والمريدون. فكانوا يلحقون به من بلدة إلى أخرى، آخذين عنه التعاليم في الطريق. لقد محضوه ثقتهم. لأنهم لم يروه قط يفكّر لحظةً واحدة في نفسه، ولأنه كان يُقابل الشرّ بالخير، متجمّلاً بالصبر على الدوام. كان يشير عليهم، قائلاً: «ليكظم أحدكم غيظه بالحلم، ويرد السيئة بالحسنة، والكراهية بالحب. فالكراهية لا تُوقف بالكراهية». ولم يكن يعير التفاتاً إلى غده، إذْ كان يكتفي بالزاد الذي يُقدّمه إليه أحد المريدين المحلّيين. وقد أحدث صدمة قوية لأتباعه ذات يوم، لأنه تناول الطعام في بيت امرأة فاجرة. فأعادوا عندئذ تسميته بـ «بوذا»، أي «المستنير». بيد أنه لم يزعم قط أن إلهاً ما ينطق من خلاله. كان يُعلّم الناس بإيراد الأمثلة وسرد الحكايات الأخلاقية، أو بواسطة «الخماسيات البليغة»، كالخماسية التالية المعروفة بـ «القواعد الخُلقية الخمس»:

لا يقتلنّ أحدٌ كائناً حياً.

لا يأخذنّ أحدٌ ما لم يُعطَ له.

لا يقولنّ أحدٌ كذباً.

لا يشربنّ أحدٌ مُسكراً.

لا يقيمنّ أحدٌ على دنس.

وهي القواعد التي تحظر، على ما يبدو، كل فعل جنسي أو رغبة جنسية. وتنقل إلينا المأثورات البوذية حواراً بين بوذا وأناندا، تلميذه وحواريّه المقرّب منه:

- كيف ينبغي أن نسلك إزاء النساء يا مولاي؟

- *كما لو لم تكن قد رأيتهن يا أناندا.*

- لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن؟

- *لا تتحدث إليهن يا أناندا.*

- لكن إذا ما تحدثن هن إلينا يا مولاي، فماذا نصنع؟

- *كن منهن على حذر تام يا أناندا.*

إن مفهوم بوذا للدين، مفهوم أخلاقي بحت. فكان كل ما يعنيه هو سلوك الناس، لا الطقوس والعبادات والشعائر واللاهوت. وأكثر من ذلك، لقد رفض بوذا العقل إذا كان يعني شيئاً يتعدّى العمليات الذهنية ويقوم بها، وهو ما تقول به أحدث مدارس علم النفس في وقتنا الحاضر. فالعقل لفظ تجريدي لتلك العمليات الذهنية في كلّيتها. مع ذلك، فلقد علّمنا بأن الروح باقية على الدوام، بوصفها القوّة الحيّة للجسم وللشخص. وهي الروح التي يُمكن أن تعود من جديد إلى الحياة الدُّنيا تكفيراً عن آثام ارتكبتها في حياة سابقة.

إن الخطيئة هي الأنانية بعينها؛ إنها طلب المنفعة الفردية وإشباع اللذة الذاتية. وإلى أن تتحرر الروح من كل آثار الأنانية، سوف تعود إلى الحياة مرةً ثانية وثالثة ورابعة... النرڤانا ليست فردوساً من السعادة بعد الموت؛ النرڤانا هي رضى النفس رضى هادئاً بحيث لا يعنيها بعدئذ أمر نفسها. وندرك في النهاية ـ كما يقول بوذا ـ عبث وسخف الفردانية النفسية والخُلقية. إن نفوسنا المضطربة ليست، في حقيقة الأمر، كائنات وقوى منفصلة بعضها عن بعض؛ لكنها تلك التموّجات العابرة على مجرى الحياة الدافق؛ إنها العُقد الصغيرة المنعقدة والمنحلّة في شبكة المصائر التي تعصف بها الريح. فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كلٍ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا ورغباتنا إصلاحاً يقتضيه الكلّ، عندئذ لا تعود أشخاصنا بما ينتابها من خيبة أمل وهزيمة، وما يعتورها من آلام شتّى، وما ينتظرها من موت محتّم، لا تعود تحزننا حزناً مريراً كما كانت تفعل بنا من قبل؛ فهي ستفنى عندئذ في خضم اللانهاية. وإذا ما تعلّمنا أن نستبدل حبنا لأنفسنا بحبنا للناس جميعاً وللأحياء جميعاً، عندئذ ننعم آخر المطاف بما ننشده من طمأنينة خالصة من الأنانية، ألا وهي النرڤانا.

خمسة وعشرون قرناً

يُمكن القول إن روح الهند تُختصر بكلمة واحدة: الحَرّ اللاّهب. بدا الأمر كذلك حين ألقت السفينة التي تقلّني وزوجتي مرساتها في ميناء بومباي في أحد أيام شهر شباط (فبراير) من عام 1930، ووجدنا يومذاك أن الحرارة وصلت فيها إلى 92 درجة فهرنهايت (حوالى 33 درجة مئوية)! فتساءلنا: هل يمكن أن يكون

هذا هو السبب في أن العديد من الهندوس يصلّون ضارعين لئلا يعودوا إلى الحياة من جديد. لكن حين اتجهنا شرقاً إلى نيودلهي، وجنوباً إلى مدراس، وجدنا نسبة كبيرة من الهندوس أصحاب طلّة بهيّة، ومفعمين بالحيوية والنشاط والإبداع، برغم الحرّ الشديد. أما الناس في الشمال، فكُلهم يقظة وانتباه بفعل الريح الباردة التي تهبّ عليهم من جبال الهيمالايا. وإذا كان الانكليز قد استطاعوا الاحتفاظ بسيطرتهم على الهند طوال هذا الوقت، فلأن قلّة منهم فقط مكثت فيها خمس سنوات أو أكثر دفعةً واحدة. فقد كانوا يعودون إلى انكلترا قبل انقضاء خمس سنوات، وذلك هرباً من الشمس القائظة.

بعد أن ازدهرت البوذية ردحاً من الزمن تحت حُكم الملك أشوكا في القرن الثالث ق.م.، راحت تتدهور سريعاً في الهند، لتنجح أيما نجاح في سيلان (سريلنكا اليوم) الحارّة، جارة الهند، إنما لقاء ثمن باهظ تمثّل بعمليات تحويل همجية. فقد صُعقتُ إذ رأيتُ رسماً وسيعاً على جدار دير بوذي في كاندي، يصوِّر مؤسس البوذية الوديع وهو يُنزل القصاص المريع بأهل الجحيم. وعندما احتججت على هذه «البربرية» من جانب القدوة والمثال، صاحب الموعظة القائلة: «لا يقتلنّ أحدٌ كائناً حيّاً»، شرح لي راهب هناك أنه ما لم يُبشِّر دين من الأديان بالهول والرعب، فضلاً عن الفضيلة والنعيم، فلا يسعه السيطرة أبداً على نوازع الفردانية المتمردة لدى البشر. وفي الصين واليابان وبلدان جنوب شرقي آسيا، يزدهر الآن ضربٌ من البوذية المنقّحة لاهوتياً؛ وبوذا الكافر بالآلهة، صار إلهاً هناك!

إن الهند، التي أضعفها الحرّ الشديد، وأنهكتها الانقسامات الدينية والعسكرية والسياسية، تعرّضت في الوقت نفسه إلى غزوات واجتياحات متلاحقة. فقد غزاها الإسكندر المقدوني، ثم قبائل الهون، ثم العرب، ثم الأتراك، ثم تيمور (المعروف عندنا بتيمورلنك)، ثم البرتغاليون، ثم الفرنسيون، وأخيراً الانكليز. وفي العام 1686، أعلنت «شركة الهند الشرقية» عزمها على «إقامة دومنيون(*) إنكليزي واسع، راسخ وآمن في الهند إلى أبد الآبدين». صحيح أن معظم الفاتحين حملوا معهم إلى شبه الجزيرة التي كُتب عليها أن تتعرض للمضايقات المستمرة، «هبة» أو «منحة» ما، كالفن الإسلامي أو الإدارة البريطانية

(*) بلاد خاضعة للتاج البريطاني وتتمتع بحكم ذاتي (المترجم).

مثلاً، إلاّ أن كل فاتح اغتصب بعضاً من «ثروات الهند» الأسطورية، تاركاً وراءه شعباً مُفقراً.

لكن على الرغم من طغيان الهون، والعرب، والأتراك، والمسيحيين، والشمس، وجد الهنود الصابرون ما يكفي من الطاقة لتطوير فن عمارة مهيب، ونحتٍ غزير، وفلسفة جيدة الصقل، وأدب غني نثراً وشعراً. فمن منكم لم يقرأ هذه الدرّة المكنونة لرابندرانات طاغور، التي تتساءل فيها عذراء حكيمة عن صدق الإطراء الذي يُكيله لها حبيبها. فدعونا نتبرّد قليلاً بها:

نبئني إن كان ذلك كله صدقاً، يا حبيبي، نبئني إن كان ذلك كله صدقاً،
إذا لمعت هاتان العينان ببرقهما، استجابت لهما السحائب الدكناء في صدرك بالعواصف؟
أصحيح أن شفتيّ في حلاوة برعم الحب المتفتح، حين يكون الحبُّ في أول وعيه؟
أترى ذكريات ما مضى من أشهر الربيع ما تزال عالقة بعد في جوارح بدني؟
أصحيح أن الأرض لكأنها القيثارة، تهتزّ بالغناء كلما مسّتها قدماي؟
أصحيح إذن أن الليل تدمع عيناه بقطرات الندى كلما بدوتُ لناظريك، وضياء الصبح ينتشي فرحاً إذا ما غلل بدني؟
أصحيح، أصحيح، أن حبك لم يزل يخبط وحيداً عبر العصور، ويتنقل من عالم إلى عالم باحثاً عني؟
وأنك حين وجدتني آخر الأمر، وجدتْ رغبتُك الأزلية سكينتها التامة في حديثي العذب وعينيّ وشفتيّ وشعري المسدول؟
أصحيح، إذن، أن اللانهاية مكتوب على جبيني الصغير هذا؟
نبئني يا حبيبي إن كان ذلك كله صدقاً.

لقد صفّقت انكلترا للشعر، لكنها انتظرت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية لتدع الهند تسترد حريتها السياسية.

موهانداس غاندي وإنديرا غاندي

أمضى موهانداس غاندي ثلاث سنوات في انكلترا في التحصيل والتكوين، أحب خلالها الشخصية البريطانية، لكنه نفر نفوراً شديداً من الوجه القاتم للصناعة البريطانية. ولقد تأثر بوليم موريس، وبيتر كروبوتكين، وجون راسكين، وليو تولستوي، والاشتراكيين الفابيين. وأثارت مشاعره في العمق رسالة المسيح الأخلاقية، وأضافها إلى قبوله المتحمِّس لمبدأ بوذا الأساسي: «عدم إيذاء أي كائن حي».

عند رجوعه إلى الهند، رجا موهانداس غاندي شعبه أن يؤثر الحقول على المصانع. وإذا دعت الحاجة إلى سلع صناعية، لتسترد العائلة دولاب الغزل، وتلبي حاجتها بملابس منسوجة بيتياً، وبأدوات من تلك التي يستطيع حدّاد القرية أن يصنعها بمطرقته. ففقر البيت القروي الظاهر يبقى، عنده، أفضل حالاً من القصور أو المباني الشققية في المدن الصناعية؛ وروح الصداقة بين أهالي القرية، تظل خيراً من الريبة أو العداوة المستترة لدى الأشخاص المجهولين الأسماء، المهرولين على عجل وسط زحام الحواضر.

إن الرؤية التي اجتذبت غاندي هي لشعبٍ قانع ببساطة الأساليب والطُرُق القديمة. وشأنها شأن معظم الرؤى، لم تكن رؤيته تلك واقعية. فمن أين سيأتي الحديد إلى حدّاد القرية سوى من صناعةٍ ينهض بها عمالٌ مطمورون في غياهب الأرض؟ ومن أين يُؤتى بالسلاح والتنظيم والروح القتالية اللازمة للذود عن حياض القرية من العدوان؟ فلا مناص من أن تقع أرق النفوس وألطفها، وأكثر المستوطنات جنوحاً إلى المسالمة، تحت رحمة القاسي والقوي من البشر. وهنا سيعود داروين إلى تحدّي المسيح!

بعد اغتيال غاندي في عام 1948، تآكلت حركته المناهضة للتصنيع سريعاً بفعل غريزة الاكتساب وروح التنافس الطبيعيتين لدى البشر. فأغرت المصانع في المدن شبّان القرية بالنزوح إليها، وغدت الزراعة نفسها صناعةً من جراء ارتباطها الشديد بالمواد الكيميائية والمكنات الباهظة الثمن. ومع ذلك، فقد تكاثر السكان بأسرع من نمو الإمداد الغذائي، وتغلّبت الطرائق القديمة والمحظورات على الطرائق والأفكار الحديثة، وشطب الناس رخاءهم بخصوبتهم.

في غضون ذلك، أدّت الدراسات العلمية والتاريخية، واحتكاك الهند بالمذاهب التشكيكية والإباحية الأوروبية والأميركية، إلى النيل من معتقداتها الدينية وأعرافها الأخلاقية. فوجدت الأمة الجديدة أن حياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد دبّت فيها الفوضى، وتناهشتها العلل من جراء العمل الرديء والإدارة الفاسدة والانحلال الاجتماعي. فجأة، ظهرت على المسرح امرأة تتمتع بشعبية سياسية، فأصدرت قراراً بتعليق العمل بالديموقراطية، وأحكمت قبضتها بشكل مطلق على مفاصل الحكم والاقتصاد والصحافة في الهند.

لم تأخذ إنديرا غاندي اسمها، ولا حتى مبدأها من موهانداس غاندي. فالاسم «غاندي» يعود إلى زوجها الراحل، فيروز غاندي، الذي لا يمت بأية صلة قرابة إلى «المهاتما». زد على ذلك، أن فلسفتها في الحكم كانت على طرفي نقيض تقريباً وفلسفة والدها، جواهر لال نهرو، أول رئيس للوزراء في الهند المستقلّة، الذي كسب الشعب إلى جانبه بلطفه ودماثته، وضمن السلطة بالتسويات والحلول الوسطى.

في عام 1960، سنحت لي الفرصة أن أجلس بجانب إنديرا غاندي، عندما ترأست مأدبة أقامتها على شرف الكتبة المحليين. وقد جذبني فيها أول الأمر جمالها: ملامح إيطالية وعينان براقتان، ثم وبعد أن استعدت وقاري ورزانتي، أسرتني بشخصيتها الطاغية وقواها العقلية. لذلك، لم أُفاجأ كثيراً عندما تبوّأت تلك المرأة منصب رئيس الوزراء في عام 1966. بدا لي الأمر جد طبيعي أن تملأ إنديرا الفراغ الذي خلّفه والدها بوفاته قبل ذلك بعامين.

لسنا بحاجة لتنصيب أنفسنا قضاة، وإصدار الأحكام عليها، ما دامت تفصلنا عنها كل تلك المسافات الشاسعة، ومعلوماتنا بصددها منقوصة وتعوزها الدقّة. ثم إن الاقتصاد والسياسة والمجتمع وقعت في الفوضى والعجز والفساد، واستدعت بطبيعة الحال قبضة حديدية من جانب سلطة مركزية حازمة وحاسمة. ففي روما الجمهورية فيما غبر، أجاز القانون، في حالة وقوع أزمة، تعيين ديكتاتور لمدة سنة واحدة. ولكن، إذا ما انقضت السنة وأصرّ الديكتاتور على البقاء في سدة الحكم، يحقّ لأي شخص كان عندئذ أن يعزله، أكان ذلك بصورة شرعية أم غير شرعية.

الفصل الرابع

من الأهرامات إلى إخناتون

الفراعنة

هل الحضارة المصرية القديمة أقدم الحضارات عهداً وأطولها عمراً في التاريخ؟

هذا ما يعتقده إيلي فور، مؤرِّخ الفنون العالمية، الذي كتب يقول: «من خلال تماسكها ووحدتها، وبفضل تنوّع منتجاتها الفنية تنوّعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم، ونتيجةً لما بذلته من جهود جبّارة دامت عهوداً طويلة، قدّمت مصر إلى العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا» (وإن كنتُ شخصياً لا أزال أعتبر حضارة روما القديمة أعظم منها).

وبالنسبة إلى عُمر الحضارة المصرية، فإن أقدم تاريخ يُعزى إلى التقويم المصري ـ وإنْ بصورة غير مؤكدة بعد ـ هو 4241 ق.م. وعلى افتراض أن ذلك صحيح، فلنا أن نعتبر أن علم الفلك وعلم الحساب المصريين كانا قد بلغا شأواً بعيداً بحلول ذلك التاريخ. على أن تطوراً مماثلاً من المرجّح أن يكون قد حصل في بلاد ما بين النهرين؛ إذ يميل علماء الآثار إلى الاعتقاد بأن أول حضارة عُرفت في التاريخ إنما ظهرت في المنطقة الواقعة في الوسط ما بين نهري دجلة

والفرات (وادي الرافدين). وإذا ما افترضنا جدلاً أن الحضارة المصرية دامت، على وجه الدقة، من عام 4241 ق.م، إلى الغزو اليوناني لمصر في عام 332 ق.م، تكون الحضارة المصرية قد امتدت ما يربو على 3809 سنوات. ولستُ أعرف أية حضارة أخرى، ولا حتى الصينية، حافظت على استمراريتها ودامت كل هذه القرون الطوال.

وصف هيرودوتس مصر في عام 430 ق.م، بأنها: «هبة النيل» (to doron tou Nilou). فالنهر الأوسع شهرةً على الإطلاق كان يروي المستوطنات الناشطة على ضفافه؛ ويؤمِّن طريقاً مائية للمواصلات والتجارة؛ ويسقي سنوياً حقول الفلاحين بفيضانه الموثوق. وقد أطلق الإغريق على تلك المستوطنات تسمية «nomes» (ولاية)، ومعناها: مجتمعات تتقبّل القانون، وكل حاكم محلّي صار يُسمّى «nomarch» (والٍ). وعندما تمكّن أحد الأقوياء من توحيد عدة «ولايات» تحت سلطانه، خضع الولاة (nomarchs) للملك (monarch)، وبذلك بدأ تاريخ مصر السياسي.

حوالى 3100 ق.م، أصدر أحد هؤلاء الملوك، هو مينا، الملك شبه الأسطوري، مجموعة قوانين للمجتمعات الخاضعة لسلطانه، زاعماً أن الإله تحوت أوحاها له. وشاد مينا عاصمة جديدة لمُلكه على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل في مكان يُعرف باسمه اليوناني: «منفيس» (أو: منف)؛ وهناك أسّس أولى الأسر المالكة الفرعونية.

بعده بحوالى 400 سنة، عيَّن الفرعون زوسر (حوالى 2680 ق.م) شخصاً يُدعى إمنحوتب (لعله أول اسم عظيم في تاريخ مصر) في منصب كبير الوزراء. اشتُهر أمنحوتب بكونه طبيباً ومهندساً معمارياً على حد سواء. وقد عبدته الأجيال التالية، واتخذته إلهاً للعلم وعدّته المنشىء الأول لعلومها وفنونها. وتنسب الروايات المصرية إليه وضع تصميم أقدم بناء مصري قائم إلى هذه الأيام، ألا وهو هرم سقارة، وهو عبارة عن هيكل حجري مصطّب (مدرَّج)، يقع بالقرب من أطلال منف. إنه والحق يُقال «أبو» الأهرامات القائمة جميعاً.

أشهر هذه الأهرامات يعود تاريخه إلى الأسرة الرابعة (حوالى 2613 ـ حوالى 2494 ق.م). وقد احتفى هيرودوتس باثنين من فراعنتها هما: Cheop

و Chephren (أُعيدت تسميتهما الآن بدقة أكبر: خوفو وخفرع). في عهدهما، بنى رجال الأعمال المصريون أسطولاً تجارياً، وطوَّروا التجارة مع عدة موانىء على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. فقد استثمروا الأخشاب ومواد أخرى في لبنان، وحفروا المناجم في سيناء، وهيأوا مقالع هائلة للحجارة في صحراء النوبة وأسوان.

اغتنى الفراعنة بالتجارة أيما اغتناء، وراحوا ينفقون ببذخ ظاهر على قصورهم وقبورهم. ويحكي لنا هيرودوتس (حوالى 2590 ق.م) كيف بنى خوفو أقدم هرم من بين عديد الأهرامات التي ترصّع الصحراء على مقربة من الجيزة في ضواحي القاهرة. إن هرم خوفو ـ على ما نعلم ـ هو أضخم صرح إنشائي أقامه الإنسان على وجه الأرض. تبلغ مساحة قاعدته ثلاثة عشر فداناً ويبلغ ارتفاعه في الهواء 448 قدماً. وضمن الحيّز الذي يشغله، يُمكن استيعاب كاتدرائية القديس بطرس في روما، وكنيسة وستمنستر وكاتدرائية القديس بولس في لندن، وكاتدرائيات فلورنسا وميلانو مجتمعة.

الهرم ليس جميلاً إلاّ من حيث الإتقان الشديد في قطع حجارته، وكذلك من حيث التناظر والتساوق فيه، ومقاييسه الهندسية البالغة الدقة. إن فتنته متأتيةٌ من حجمه وتاريخه بالدرجة الأولى. وهو كصرح هندسي أعجوبة في زمنه. فالهرم يتكوَّن من مليونين وثلاثمئة ألف كتلة حجرية، تزن الواحدة منها، في المتوسط، طنين ونصف طن. وقد جُرَّت أميالاً في الصحراء الشرقية ومن ثم عبروا بها نهر النيل إلى مكانها الحالي. وثمة كتلٌ جرانيتية (صوّانية)، معظمها من مقالع أسوان، نُقلت مسافة 555 ميلاً باتجاه الشمال. وقد رُفعت هذه الكتل الجرانيتية من منسوب عالٍ إلى منسوب أعلى من الهرم عن طريق سحبها على محادل أو زحّافات فوق مسنّاة مرتفعة من الآجرّ والتراب. ووفقاً لما ذكره هيرودوتس، فإن إنشاء مثل هذه المسنّاة كان يستغرق زهاء عامين؛ وبناء الهرم نفسه استلزم جهد مئة ألف رجل على مدى عشرين سنة. وقد نقل إلينا الرحّالة والمؤرّخ اليوناني نقشاً ـ زعم أنه وجده على أحد الاهرامات ـ يُسجِّل كميات الفجل والثوم والبصل التي استهلكها البُناة في ذلك المشروع الوحيد.

ما الذي دعا الفراعنة وسواهم إلى بناء الأهرامات؟ كان الإنسان المصري

يعتقد أن في كل جسم حيّ تستقر قرينة روحية له تُدعى «كا»، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها إلى ما لا نهاية في حال ما إذا حُفظ الجسم تماماً من الجوع والتمزيق والبلى. من هنا كان جثمان الميت يُحنَّط ويُحوّل إلى مومياء بمنتهى العناية والحرص. فكانت تُنتزع الأحشاء بما يُشبه العملية القيصرية، ويُسحب الدماغ خارجاً عبر المنخرين، ثم يُصار إلى تطهير الداخل بالأنبذة والطيوب والتوابل العطرية، ومن ثم يُخيَّط الجسد ويُغطس في مواد كيميائية مانعة للعفونة، ثم يدلك باللُبان الغروي، ويُلفّ لفّاً مُحكماً بالأربطة المصنوعة من القماش المشمَّع... وأخيراً توضع المومياء في تابوت. والقبر المثالي يجب أن يكون من الحجر، وبحجم كافٍ بحيث يكوّن كتلة صلدة لا يُمكن اختراقها إلاّ عبر ممر سري يفضي إلى حجرة داخلية مجهّزة بالطعام والسلاح وحتى بالمرحاض، وتكون مزيّنة بمنحوتات أو رسومات تتولّى السهر - بواسطة تركيبة سحرية لا يفقهها إلاّ الكهنة - على الجسد والروح والقرينة (الكا) إلى الأبد.

وعلى مقربة من هرم الفرعون خفرع (حوالى 2550 ق.م)، يربض الوحش الشهير تاريخياً باسمه اليوناني «السفينكس» (أبو الهول). والظاهر أن ثلة من التقنيين والنّحاتين قامت بناءً على أوامر من الحاكم بنحت تمثال هائل من الحجر له جسم أسد ورأس بشري يُزعم أنه لخفرع نفسه. والوجه متجهّم عابس كما لو قُصد به إخافة الناهبين وإبعادهم عن القبر الملكي.

ثمة عنصر بدائي إلى حد البربرية يكمن في الأهرامات؛ إنه هوسها الأعمى بالضخامة، وشهوتها العقيمة للبقاء. وعندي أن ذاكرة الناظر ومخيلته، المفعمتين بالتاريخ، هما اللتان تضفيان العظمة على مثل هذه الأنصاب. ولعل الرسوم هي الأخرى أضفت عليها قدراً أكبر مما ينبغي من النُبل والسمو. والتصوير الفوتوغرافي يلتقط كل شيء ما عدا الغَبَرة، ويُعظِّم من شأن مختلقات البشر بمشهديات بالغة السمو والرفعة للأرض والسماء! ولعمري إن منظر غروب الشمس عند الجيزة لهو أروع وأعظم من كل الأهرامات.

الشعب

كانت الحياة في مصر القديمة حياة مبهجة وسارّة بالنسبة للفراعنة؛

فالجاه والترف والسلطان، التي كانوا ينعمون بها، ظاهرة بجلاء في الرسوم والنقوش والمنحوتات النافرة. كما يُمكن استنتاج ذلك بسهولة من لفيفات البَرْدي.

كما وجد الفراعنة تعاوناً واسعاً من لدن الكهنة. فكان هؤلاء الأخيرون يعلنونهم آلهةً، ويغرسون في أذهان الشعب الطاعة للحكم الملكي، ويتلقون في المقابل حصّة مغرية من الإيرادات الملكية. وكان هناك آلاف الكتبة المدرّبين منخرطين في الأعمال الديوانية لدى الفراعنة والكهّان؛ وكذلك في خدمة الأعيان الإقطاعيين ممن كانوا يُشرفون على إقطاعات يكلها الملوك إليهم. وبفضل صور المساعدة المتنوعة هذه، أمكن للحكومة أن تنظم الخدمات البريدية المنتظمة، وأن تجبي الضرائب والمكوس، وأن تراكم الرساميل، وأن تبتدع نظاماً للتسليف المالي، وأن توزع المخصّصات المالية على ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وأن تحقِّق ـ إلى حد ما ـ اقتصاداً مخططاً وموجّهاً من قبل الدولة.

العاملون في الصناعة كانوا في جُلّهم من العمال الأحرار، كما كان بعضهم من العبيد الأرقاء الموضوعين في عُهدة ولاة المقاطعات. فقد دأبت الحروب على ضخ الآلاف من الأسرى، فكان هؤلاء يُباعون بيع الرقيق. وقد كانوا في الحقيقة عوناً على استغلال المناجم، كما ساهموا فيما أحرزته الهندسة من نجاحات. وفي مثل هذه الظروف، من الطبيعي أن تنشأ النزاعات الطبقية وتكثر الإضرابات. وتنقل إلينا إحدى المخطوطات تضرّع بعض العمال للمشرفين عليهم: «لقد ساقونا إلى هنا جوعى وظمأى. لا ملابس لدينا، ولا زيت ولا طعام. اكتبوا لسيدنا الملك في هذا الأمر، واكتبوا للوالي الذي نخضع لإشرافه، كي يمنّا علينا بشيء نقتات به». غير أننا لم نسمع عن حدوث ثورة طبقية، ما لم نعدّ خروج اليهود التاريخي (من مصر) ثورةً من هذا الضرب.

كانت الفنون الصناعية في مصر القديمة متطوّرة ومتنوّعة كمثيلاتها في أوروبا قبل عصر النهضة. فالحرفيون المصريون كانوا يصنعون الأسلحة والأدوات من البرونز، بما في ذلك المثاقب التي تقوِّر أصلب حجارة الديوريت، والمناشير التي تنشر كتل الحجارة الضخمة لصنع النواويس. كما كانوا حرفيين مهرة في حفر الخشب: يبنون المراكب التجارية التي يزيد طولها عن مئة قدم، وتوابيت ظريفة الأشكال لدرجة تُحبّب الناس بالموت. وبقيت الهندسة المصرية

متفوّقة على مثيلاتها في العالم أجمع حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد: فهي التي شقّت القنوات من النيل إلى البحر الأحمر؛ وهي التي نقلت المسلاّت الحجرية التي تزن الواحدة منها آلاف الأطنان لمسافات بعيدة.

من جهة أخرى، لم يكن في القوانين الأخلاقية السارية المفعول في مصر القديمة ما يحرّم سفاح القربى. فكثيرة جداً هي الحالات التي كان فيها الرجل يتزوج من أخته. وقد فعل العديد من ملوك الفراعنة ذلك للحفاظ على «الدم الملكي» نقياً خالصاً على ما يظهر، أو لحفظ أملاك العائلة من التبدّد. ذلك أن المُلكية كانت تنتقل عبر سلالة الإنثى. وإذا كان الفراعنة وبعض الأشراف يحتفظون لأنفسهم بحريم من النساء، فإن ذلك كان فوق طاقة الناس العاديين. هذا وقد كثر وجود البغايا في مصر، وإنْ كانت غالبية الرسوم التي تركوها لنا تمجِّد الحب في إطار الزواج.

كانت النساء المصريات يتمتعن بوضعية قانونية أرفع، وبحرّيات أدبية واجتماعية أوسع منها في أية دولة أوروبية قبل عصرنا هذا، ربما باستثناء روما الامبراطورية. فقد دُهش الرحّالة الإغريق ـ وهم الذين اعتادوا أن يضيّقوا كثيراً على نسائهم ـ عندما شاهدوا النساء في مصر يباشرن شؤونهن الاجتماعية وأعمالهن علناً من دون أن يلازمهن أحد أو يتعرضن لمكروه؛ ولم يدعن وسيلة تبرّج إلا واستعملنها، بما في ذلك طلاء أظافرهن وتكحيل عيونهن. ومنهن من كنّ يحلّين صدورهن وأذرعهن وكواحلهن بالمجوهرات؛ ومنهن من كن يتكلّمن في أمور الجنس بصراحة تضاهي صراحة أشدّ النساء تحرراً في هذه الأيام. وكان في مقدور المرأة المصرية أن تكون هي المُبادرة إلى الزواج، ولم تكن تطلّق إلا بسبب الخيانة الزوجية المثبتة بالدليل القاطع فحسب، أو لقاء تعويض مالي مجزٍ. بعضهن كنفرتيتي، نلن شهرة خالدة بفضل جمالهن؛ وبعضهن حكمن الامبراطورية حكماً استبدادياً إنما حكمن جيداً مثل الملكة حتشبسوت، أو حكماً طائشاً متهوراً مثل كليوباترا. وحظيت الأمومة بقدر كبير من التوقير والإجلال كما لو كانت لقب نبالة للمرأة.

لا شك أن الفن اليوناني والروماني ينافس الفن المصري، لكن الأخير

سبقهما بآلاف السنين، وتصدرهما في مئات الميادين. ولستُ بحاجة هنا إلى أن أصف لكم المعابد، والقصور، وأروقة الأعمدة، والمقابر التي ارتفعت على امتداد ضفتي النيل خلال القرون الثلاثين ما بين عصر الأهرامات وعهد كليوباترا. أجل، في الكرنك كما في الأقصر، تمتد غابة حقيقية من الأعمدة زرعتها الأسر المالكة المصرية. قد تبدو لك الأعمدة لكثرتها فائضة عن الحاجة. لكن تقاربها اللافت للنظر، كان القصد منه كسر الوقع العنيف للشمس. فقبل أن تينع العمارة اليونانية وتزدهر، كانت العناصر المعمارية المصرية، من قوس وعقدٍ وعمود وتاج وعتب وقوصرة، مثلاً يُحتذى للعمارة في العالم المتوسطي أجمع، وشكّلت في الوقت نفسه تحدّياً لها.

* * *

لا أُريد أن أساوي بين النحت المصري وذاك العائد إلى العصور القديمة (الكلاسيكية). إنما لا أجد في النحت اليوناني كله عملاً واحداً يُضاهي جمال تمثال خفرع النصفي المقدود من حجر الديوريت، والمعروض حالياً في متحف القاهرة. يكاد يبلغ عمر التمثال الآن أربعة آلاف ومئتي سنة؛ ومع ذلك يبدو كما لو أنه محصّن تماماً ضد عوادي الزمن. بالمقدور إسباغ قيمة مثالية على هذا التمثال، إلا أنه يمثّل بقسماته العامة وجه الفرعون الثاني للأسرة الرابعة على الأرجح. وما هو أشهر منه بعد، التمثالُ الحجري للكاتب المصري الموجود حالياً في متحف اللوفر: إنه يجلس القرفصاء، عاري الجسم تقريباً، ومن خلف أذنه قلم احتياطي غير القلم الذي يمسكه بيده، وهو يدوّن ما يؤدى من الأعمال، وما يُسلَّم من البضائع، وأثمانها وأكلافها، ومكسبها وخسارتها، ويكتب العقود والوصايا، ويقدّر ما يجب على سيده أن يسدده من ضرائب ومكوس. حياته رتيبة مملّة، ولكنه يُدخل إلى نفسه السلوان بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل اليدوي من صعاب، وما يحيط بأولئك الذين غذاؤهم الورق ودماؤهم الحبر من أصحاب المكانة الرفيعة.

لقد كان الدين في مصر القديمة فوق كل شيء وتحته أيضاً. فنحن نراه فيها عند كل مرحلة من مراحلها، وفي كل شكل من أشكاله: من الطوطمية إلى

اللاهوت؛ ونرى أثره في الأدب ونظام الحكم وفي الفن... في كل شيء تقريباً ما عدا الأخلاق. وقد كانت آلهته كثيرة العدد كما في الهند. قال الكهنة: في البداية كانت السماء. وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه. لم تكن الأجرام السماوية مجرد أجرام، بل كانت هي الصور الخارجية لأرواح جبّارة ترسم لها حركاتها المختلفة والمعقّدة. فالشمس هي الإله «رع»، أو «ري»، أو «آمون»، الذي خلق الكون حين نشر ضياءه عليه؛ وعلى غرار الإله «حورس» كانت على شكل صقر عملاق رشيق يجتاز أجواز الفضاء يوماً بعد يوم كأنه يُشرف من عليائه على مملكته. والنيل هو الإله العظيم «أوزيريس». وربما لأن النيل كان يخصب الأرض المجاورة له، فقد عُبد أوزيريس أيضاً بوصفه إله القدرة الجنسية الذكورية.

أما إيزيس، أخت أوزيريس وزوجته، فهي إلهة الأمومة، وقد كانت دلتا النيل إحدى صورها، طالما أن أوزيريس ـ النهر ـ هو الذي يبث الخصب والنماء في تربتها. كذلك كانت النباتات والحيوانات محل عبادة هي الأخرى بوصفها آلهة: فشجرة النخيل كانت تُعبد لظلها الظليل؛ والعنز والثور لقدرتهما التكثيرية؛ والثعبان كرمز للحكمة والحياة، فقد كان يعرف على الأقل كيف يدبّر الأمور. والفرعون، هو الآخر، كان يُعبد كإله، بوصفه ابن آمون ـ رع. كان معبوداً عابراً يتخذ من الأرض منزلاً له. وبسبب نسبه السماوي المزعوم هذا، تمكّن من الحكم مدة طويلة من غير حاجة إلى الإفراط في استخدام القوة المادية.

لذلك، كان الكهنة في مصر دعامة العرش، كما كانوا هم الشرطة السرية القوّامة على النظام الاجتماعي. ومن ثم أصبحوا مع مرور الزمن، وبفضل ولاء الشعب وكرم الملوك السياسي، أعظم ثراءً وأقوى سلطاناً من أعيان الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها. فهم الذين راكموا المعارف وبثّوها، وهم الذين علّموا الشباب وفرضوا على أنفسهم الانضباط بصرامة وحماسة. وقد وصفهم هيرودوتس وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم، قال:

«وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة، ولا يتحللون أبداً من الطقوس التالية:... وهم يلبسون ثياباً من الكتان نظيفة، حديثة الغسل على الدوام... وهم يُختنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال، ويحلقون

شعر أجسامهم بأجمعه مرة كل ثلاثة أيام، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقذار مكاناً في أجسامهم... وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار، ومرتين في الليل».

أما نقطة ضعفهم فكانت سهولة انقيادهم للسلطة، وجهوزيتهم الدائمة لتقديم النصائح، أو حتى لبيع التمائم والرقى والتعاويذ السحرية إلى المؤمنين باعتبارها وسائل للرخاء الدنيوي والسعادة الأبدية.

وطبقاً لعالم المصريات الأميركي الكبير البروفسور جيمس بريستيد، فقد

«تضاعفت أخطار الآخرة وأهوالها مضاعفة عظيمة، وادعى الكهنة أن في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعويذة الفعّالة التي تنجيه من ذلك الخطر حتماً. وفضلاً عن التعاويذ العديدة التي تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة، كانت توجد أيضاً تعاويذ تمنع فقدان المتوفى فمه أو رأسه أو قلبه، وأخرى تساعده على استذكار اسمه؛ كما كان منها ما يساعده على التنفس، والأكل، والشرب؛ ومنها ما يمنعه من أكل برازه؛ ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه من أن يتحول إلى لهيب؛ ومنها ما يحوّل الظلام نوراً. كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية... وبذلك نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة أمكننا تتبّعه في حياة الإنسان (الشرقي) القديم، قد توقف فجأة، أو تباطأ على الأقل، بتلك الحيل البغيضة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الدجّالون جرياً وراء الكسب».

تلك كانت حال الدين في مصر حين ارتقى العرش شاعرٌ، عاشقٌ ومارقٌ، وأعلن على مسامع الكهنة والناس المصدومين أن هناك إلهاً واحداً ليس غير.

الشاعر

بالكاد كان أمنحوتب الرابع مُهيّأً لأن يكون ملكاً. فهو يهتمّ بالفن أكثر من اهتمامه بالحرب. وهو الذي نَظَم أشهر قصيدة في الأدب المصري، إذ كان يحب زوجته، نفرتيتي، حباً لا يخمد له أوار. وقد سمح للفنانين أن يرسموه راكباً عربة

ذات عجلات وفي معيّته الملكة، أو وهو منهمكٌ معها في المسرّات سوية مع أطفالهما.

في المناسبات الاحتفالية، كانت نفرتيتي تجلس إلى جانبه ممسكة بيده، فيما بناتهما يتحلقن مرحات أسفل كرسي العرش. لقد أنجبت له نفرتيتي سبع بنات، ولم تنجب له أي بنين. ومع ذلك، بقي يهيم بها حباً وولهاً، ولم يحاول أن يتزوج عليها. كان يقول عنها إنها «ربّة السعادة التي يطرب الملك لسماع صوتها»؛ وعند الحَلْف، كان يستخدم عبارة: «قسماً بقلبي السعيد بالملكة وبناتها».

وإلى جانب نفرتيتي، أحب أمنحوتب الرابع الشمسَ. ولطالما عبد المصريون الشمس باعتبارها أبا جميع الكائنات الحيّة على الأرض. إنما كانوا يؤلِّهون أيضاً آمون ومئات من الآلهة الأخرى.. من نجمة المساء (الزُّهرة) إلى البصل وقرد الربّاح (البابون). ولقد ثارت ثائرته عندما شاهد كبير كهنة آمون يقدّم كبشاً للرب على مذبح الأضاحي. واشمأزّ من إقدام الكهنة على الاتّجار بالرقى والتعاويذ السحرية، واستخدامهم نبوءات آمون المزعومة لتحقيق مآربهم الشخصية. وقد كره أشد الكراهية المراسم المترفة ومظاهر الأبّهة التي كانت تملأ المعابد، وأثار حفيظته تعاظم سيطرة طائفة الكهنة المرتزقة على حياة الأمّة. ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء المتهوِّرين، وأعلن في جرأة أن هاتيك الآلهة والمراسم الدينية ما هي إلا وثنية مبتذلة، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو «أتون» ـ الشمس. وتخلّص من اسمه الموروث «أمنحوتب»، الذي يحوي لفظ «آمون»، وسمّى نفسه بدلاً من ذلك: «إخناتون»، ومعناها: «أتون راضٍ».

واستعان ببعض القصائد التوحيدية التي نُشرت في أيام سلفه، فألّف إخناتون أناشيد وجدانية وحماسية في مدح أتون، الإله ـ الشمس، ولعل أفضلها وأطولها جميعاً الأنشودة التالية؛ وهي أجمل ما بقي لدينا من الأدب المصري القديم:

ما أجمل مطلعك في أفق السماء!

أي أتون الحيّ، يا مبدأ الحياة.

فإذا ما بزغت في الأفق الشرقي،
ملأت الأرض كلها بجمالك.

* * *

إنك جميل، عظيم ومتلألىء، عالٍ فوق كل الرؤوس،
أشعتك تحيط بالأرض، حتى آخر مخلوقاتك جميعاً.
إنك أنتَ «رع»، وإنك لتخترقها إلى أقصاها،
وإنك لتوثقهم برباط حبك.
ورغم أنك قصيٌ جداً، فإن أشعتك تغمر الأرض؛
ورغم أنك في علوٍ، فإن خطواتك هي النهار.

* * *

وحينما تغيب في أفق السماء الغربي،
تُظلم الأرض كالموات،
فينامون في حجراتهم،
ورؤوسهم ملفوفة،
ومعاطسهم مسدودة،
ولا يرى أحدٌ منهم الآخر،
في حين أن أمتعتهم تُسرق
من تحت رؤوسهم،
وهم لا يشعرون بذلك.
كل أسد يخرج من عرينه،
وكل الثعابين تنسلّ لتلدغ
(...)
العالم في صمت،
في حين أن الذي خلقهم قائم في أفقه.

* * *

ما أبهى الأرض حين تُشرقُ في الأفق،
حين تضيء يا أتون في النهار،
فإنك تُقصي الظلمة إلى بعيد.
وإذا ما أرسلتَ أشعتك،
تصير الأرضان(*) في عيد يومي،
ويستيقظ الناس ويهبون واقفين
عند إيقاظك لهم.
وبعد أن يغسلوا أجسامهم، يلبسون ثيابهم،
ويرفعون أذرعهم تمجيداً لطلعتك،
ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم في كل العالم.

* * *

الماشية ترتع في مراعيها،
والأشجار والنباتات تينع وتُزهر،
والطيور في مناقعها ترفرف،
وأجنحتها ممدودة تسبّح بحمدك.
الخراف جميعاً ترقص على قوائمها،
وكل ذي جناحين يطير،
كلها تحيا إذا ما أشرقتَ عليها.

* * *

السفن تُقلع في النهر صاعدة نازلة،
وكل فجّ قد انفتح لأنك أشرقت.
السمك يثب في النهر أمامك.

(*) المقصود بها بلاد مصر (المترجم).

وأشعتك لتنفذ إلى وسط البحر الأخضر العظيم.
أنت يا خالق الجرثومة في المرأة.
ويا صانع النطفة في الرجل،
ويا واهب الحياة للولد في بطن أمه،
يا من يهدّئه كي لا يبكي،
يا من يغذيه وهو في الرحم،
أنت يا معطي الأنفاس لتحيي كل إنسان خَلَقْتَه،
وحين يخرج من الجسم... في يوم مولده،
تفتح أنتَ فاهه لينطق،
وتمدّه بكل ضروريات الحياة.
(...)
إن أشعتك تغذّي كل البساتين،
فإذا ما أشرقتَ، سَرَت فيها الحياة،
ونَمَت بك.

* * *

أنت خالق الفصول،
لأجل أن تخلق كل صنيعك.
خلقتَ الشتاء لتأتي إليها بالبرد،
وخلقت الحرارة لكي تتذوقك.
وأنشأت السماوات العُلى لتشرق فيها،
ولتبصر كل ما صنعت.
أنت وحدك تسطع في صورة أتون الحيّ.
تطلع وتسطع، وتبتعد وتعود.
إنك تصنع آلاف الصور والأشكال
منك أنت وحدك،

من مدائن وبلاد وقبائل،
من طُرُق كبرى وأنهار.
كل الأعين تراك أمامها،
لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض.

* * *

إنك في قلبي،
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون.
لقد جعلته حكيماً،
عليماً بمقاصدك وقوتك.
إن العالم في يدك،
بالصورة التي خلقته عليها.
فإذا ما أشرقتَ، دبّت فيه الحياة،
وإذا ما غربتَ، مات؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة.
الناس يستمدّون الحياة منك،
ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب.
وكل عمل يُطرح جانباً
حين تميل أنت إلى الغروب
(...)
أنت أوجدتَ الكون،
وأقمتَ كل ما فيه لابنك...
إخناتون، ذي العمر المديد،
ومن أجل زوجته الملكية الكبرى، محبوبته،

سيدة القطرين، نفرو ـ تفرو ـ أتون (نفرتيتي)،
الباقية المزدهرة إلى أبد الآبدين.

ليست هذه القصيدة من أعظم قصائد التاريخ فحسب، بل هي فوق ذلك أول شرح بليغ للمذهب التوحيدي قبل إشعيا بـ 640 سنة. إن إله إخناتون ليس إلهاً قبلياً مثل يهوه، فأتون يغذّي ويحكم جميع الأمم على وجه الأرض. إنه تصوّر حيوي للإله بوصفه القوة الخلاّقة التي تنفخ الحياة في كل شيء. إن حرارته هي دفء الحياة واضطرام الحب؛ إنه يغذّي كل نبتة ويُخصبها، وينشّط كل حيوان، و«يخلق في المرأة الطفلَ»؛ إنه رب الأمم جميعاً، وإله أشكال النماء كافة.

لكن إخناتون أفسد ذلك كله بأن ترك الغرور يعكّر صفاء رؤياه حين قال: «وما من أحد يعرفك إلاّ ابنك إخناتون... وأنت أوجدت الكون وأقمت كل ما فيه لابنك إخناتون». ومن شدّة ثقته بمذهبه الجديد، أمر بمحو أو طمس أسماء جميع الآلهة، ما عدا أتون، أينما وُجدت في مصر. لا بل حذف من اسم أبيه (امنحوتب الثالث) المقطع «آمون» باعتباره إلهاً ميتاً الآن، وأعلن سائر العقائد عقائد غير شرعية، باستثناء عقيدته هو طبعاً.

استشاطت طبقة الكهنة، غضباً لأفعال إخناتون هذه، وبدأت بتدبير المكائد والمؤمرات ضده. والشعب الذي رأى في مذهب إخناتون التوحيدي مذبحة للآلهة بالجملة، دمدم وتمرَّد. وحتى في داخل البلاط، أضمر الوزراء البغضاء له. فاحتقاره للحرب كان قد أضعف الجيش، وقبع قادته ينتظرون موت الملك على أحرّ من الجمر. أما الدول التابعة، فقد رفضت دفع الجزية المعهودة، وأخذت الواحدة تلو الأخرى تعزل واليها المصري وتسترد حريتها. وفجأة تفككت مصر إلى أجزاء منفصلة. فوجد إخناتون نفسه منبوذاً من الجميع تقريباً، فيما عدا زوجته وبناته. ولم يكن قد ناهز الثلاثين سنة بعد، حين وافته المنية محطم القلب، بعد أن أدرك عجزه عن أن يكون حاكماً، وأيقن أن شعبه غير جدير به.

وبعد انقضاء عامين على وفاة إخناتون، خَلَفه على العرش صهره: توت عنخ آمون، الذي كان يجد حظوة لدى الكهنة. فبدّل الاسم الذي أعطاه إياه حموه (توت عنخ آتون)، وتصالح مع السلطات الكهنوتية، وأعلن إلى الشعب المبتهج

عودته إلى عبادة الآلهة القديمة. وأُزيلت من جميع الأنصاب كلمتا «أتون» و «إخناتون»، وحرّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك «المارق». فكان الناس إذا ما تحدثوا عنه، سمّوه «المجرم الأكبر». وأُعيد نقش الأسماء التي سبق لإخناتون أن طمسها على الأنصاب ثانيةً، وأُعيد الاحتفال بالأعياد التي كان ألغاها. وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه.

وشهدت مصر عصراً عظيماً آخر في ظل رعمسيس الثاني، الذي أظهر شكيمة قوية بإعادة احتلاله للمستعمرات المصرية، وبنائه هياكل بالغة الضخامة، وبإنجابه مئة من البنين وخمسين من البنات من زوجاته العديدات. وقد ترك وراءه تمثالاً نُحت له كتذكار وشاهد فخور على عظمة سلطانه. كان التمثال يعلو في الأصل إلى ارتفاع 65 قدماً، وهو اليوم بطول 65 قدماً، لأن قاعدته الترابية تآكلت على مرّ القرون، فمال وسقط أرضاً.

وقد وصف شيللي(*) التمثال في سونيتة(**) بديعة ومريعة في آن، تحمل عنوان: «أوزيمندياس»، أحد أسماء رعمسيس العديدة:

التقيتُ بمسافر من بلاد قديمة،
فأخبرني عن ساقين هائلتين من الحجر من دون بدن،
تنتصبان في الصحراء.. وعلى مقربة منهما،
وجه محطّم، ملقى على الرمال نصف مطمور،
تقطيبته، وشفته المتغضّنة، وسخريته الباردة...
تشي بأن نحّاته قرأ جيداً تلك الانفعالات،
التي بقيت مع ذلك حيّة، مطبوعة على تلك الأشياء الفاقدة الحياة.
اليد التي هزأت بها، والقلب الذي غذّاها.
وعلى قاعدة التمثال خُطت هذه الكلمات:
«اسمي أوزيمندياس، ملك الملوك،

(*) شاعر إنكليزي معروف (1792-1822) (المترجم).

(**) السونيتة، قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتاً (المترجم).

فانظر إلى أعمالي أنت أيها الجبار، وأنت أيها القانط!».
لا شيء أبداً في الجوار.
فحول ذيّاك الحُطام الهائل، المتفسّخ،
ينداح رملٌ متوحد، مستوٍ؛ أجرد ولانهائي.

الفصل الخامس

الفلسفة والشعر في «العهد القديم»

ميلاد شعب

ليست الغاية من كتابة هذه الفصول ضغط وتكثيف تاريخ الحضارة في صفحات معدودات، بل دراسة نماذج من الروائع الفكرية والتعبيرية التي خلفتها لنا، وعرض عيّنات منها. لذلك، لن نستعرض هنا إلا قسماً من التاريخ اليهودي القديم، وبما يتيح لنا أن نفهم فلسفة اليهود وشعرهم، ابتداءً من ظهورهم في فلسطين حوالى 1800 قبل الميلاد، وحتى تشتيتهم من أرضهم المقدسة في العام 135 بعد الميلاد.

كان الشرق الأدنى، أو الأوسط، في عهود ما قبل المسيحية بوتقة حقيقية لشعوب أبيّة، حادّة المزاج، سريعة الاهتياج؛ برمة في حِلِّها، قلقة في ترحالها. ولقد ترددت وتأنَّت طويلاً قبل أن تنتج حضارات واسعة، وعلى رأسها الحضارات السومرية والبابلية والأشورية. وهكذا أسهم البابليون في تقدّم العلوم والطبّ، وأعطاهم حمورابي حوالى 1940 ق.م، شريعة عقلانية بصورة استثنائية.

يُحدثنا الكتاب المقدس، عن رحّالة شهير يدعى إبراهام (إبراهيم)، وكيف أنه ترك بلدته «أور» في بلاد «كلديا» (في جنوب إيران حالياً)، وانطلق حوالى

1800 ق.م، بحثاً عن موطن جديد لأسرته المتزايدة وقطعانه المتكاثرة. وقيل إن رؤيا أتته، رأى خلالها الرب «يهوه» وسمعه يقول له إنه وهبه وذريته أرض كنعان، شريطة أن يعبده هو وحده دون سواه، وأن يختن الذكور من قومه كعلامة على العهد المبرم مع إلههم. وكما في حالة موسى والوصايا العشر، بوسعنا أن نلاحظ هنا استعانةً بالمعتقد الديني لتعزيز وحدة وسلامة ومناقبية وشجاعة شعب تتهدده الأخطار.

إذن، قاد إبراهيم أتباعه نحو الشمال الغربي إلى بلاد كنعان، واستوطنوا قبل موسى بنحو ستمئة عام، ما يعتقدون من الآن فصاعداً أنها أرضهم التي وهبها الله لهم.

وفي الرواية الدينية أن يعقوب، ابن إبراهيم(*) البكر، تصارع مع كائن غريب، قيل لاحقاً إنه ملاك أو إله، وقد صارع يعقوب صراعاً ضارياً، حتى إن الرب منحه الاسم الجديد: «إسرائيل»، أي «هذا الذي جاهد مع الرب» (تكوين، 30-24:32). ومنذ ذلك الحين بات هذا الاسم يُطلق على القبيلة وعلى البلاد أيضاً.

أما يوسف، ولد يعقوب العزيز على قلبه، فقد رماه إخوته في الجبّ بدافع من الحسد والغيرة، لكنه أُنقذ من بعض السابلة وبيع كعبدٍ في مصر. غير أنه تمكّن من إعتاق نفسه بما أظهره من حكمة ودراية في تفسير الأحلام، فحاز على مكانة أثيرة لدى فرعون مصر، ولاسيما عندما أسداه النصيحة بأن يختزن الحبوب في سنوات الوفرة كي يُطعم بها شعبه في سنوات المحل. وقد جاءه إخوته من «إسرائيل» المنكوبة بالمجاعة يتوسلون إليه أن تجود عليهم مصر بالغذاء، فأطعمهم يوسف، ودعا يعقوب وعشيرته للقدوم والإقامة في مصر. فجاؤوا واستقروا في جاسان نحو سنة 1650ق.م (تكوين، 46).

ولمدة أربعمئة سنة تقريباً، عاشت ذريتهم في رخاء وبحبوحة على أرض مصر، وتضاعف عددهم كثيراً. ثم ولأسباب غير معروفة، انقلب المصريون عليهم، فارضين عليهم الأشغال الشاقّة والقوانين البغيضة. وإذا ما صدّقنا رواية التوراة، فإن فرعون. ويُعتقد أنه رعمسيس الثاني (أو أوزيمندياس حسب تسمية شيللي)، أوعز إلى القابلات أن يقتلن أي ذكر تلده العبرانيات (خروج، 16:1). وقد

(*) يعقوب هو ولد اسحاق ابن إبراهيم (المترجم).

أمكن تجنيب بعض المواليد الموت المحقّق عن طريق إخفائهم. ومن الجائز أن يكون أحد هؤلاء الناجين موسى نفسه. ولنا أن نقبله كشخصية تاريخية، على أية حال، وكذلك القصة حول سنوات التيه والعذاب التي عاشها اليهود في صحراء سيناء، بعناصرها الأساسية.

بوسعي أن أتخيّل دونما صعوبة تُذكر، أن الكثيرين من الهائمين على وجوههم قد فقدوا، خلال رحلة العذاب تلك، إيمانهم برب آبائهم، وارتدوا إلى عبادة الأوثان الغريبة، أملاً في الحصول على عونٍ خارق للطبيعة. ولي أن أعتقد أيضاً أن زعيمهم قد دعاهم، بما له من قوة شخصية وصلابة إيمان، للعودة إلى النظام والاحتشام والالتزام بالوصايا العشر، تلك التي نتوق نحن التائهين في بيدائنا الخُلقية إلى سماعها واحترامها مجدداً! ولي أن أصدِّق أن عابري السبيل المُنهكين أولئك بعدما عجمت العذابات والمواجهات عودهم قد حاربوا بشراسة، بل قُلْ بوحشية، في آخر مراحل رحلتهم الطويلة الشاقّة لاستعادة أرض كنعان، التي اضطر أجدادهم إلى مغادرتها بفعل الجوع والعطش قبل ذلك بأربعمئة سنة.

ولمدة قرنين من الزمن تقريباً، عاش المنتصرون في أرض كنعان على هيئة اتحادٍ رخو من القبائل (الأسباط)، المتنازعة فيما بينها من وقت لآخر. والمعرّضة تكراراً للغارات، في السلم كما في الحرب، من جانب الفلسطينيين، والمؤابيين، والعمونيين والأدوميين.

ولقد استتب القانون والنظام لفترة من الزمن بفضل القُضاة والكهنة، ولكن حين ازداد عدد السكان، واتسعت دائرة انتشارهم، برزت الحاجة إلى قيام سلطة مركزية ذات إمرة مطلقة نوعاً ما. ولكن صموئيل، القاضي البارز آنذاك، كان ضد قيام نظام ملكي كهذا. فالملك ـ كما حذّرهم ـ سوف

«يأخذ بنيكم ويجعلهم... فيزرعون أرضه، ويحصدون حصاده، ويصنعون عُدَّة حربه... ويأخذ أجود حقولكم وكرومكم وزيتونكم ويعطيها لحاشيته. ويأخذ عُشْرَ زروعكم وكرومكم... وأفضل شبّانكم وحميركم ويسخّرهم لعمله... وأنتم تكونون له عبيداً. فتستغيثون في ذلك اليوم من جور ملككم الذي اخترتموه، فلا يستجيب لكم الربّ في ذلك اليوم».

فأبى الشعب أن يستمع لنصيحة صموئيل، وردّ عليه:

«لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب، ويقضي لنا ملكنا، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا. فدعا شاول الناس إلى الاجتماع، واختاروه ليكون أول ملوك اليهود. وهتف الجميع «ليحفظ الرب الملكَ» (صموئيل الأول، 8:11-20).

لكن شاول فشل في المُلك، وقُتل في معركة لا طائل منها ضد الفلسطينيين. فتبوّأ العرش داود، الوسيم الوجه الرخيم الصوت، وكان ضابطاً في الحرس الملكي، وكان ذلك قبل الميلاد بألف سنة تقريباً. فغزا داود مناطق «إسرائيل»، ووحّدها كلها في بلاد واحدة، واتخذ له زوجات منهم ليدعِّم سلطانه، وجعل أورشليم عاصمة له، ودام حكمه ستاً وثلاثين سنة، عمّ خلالها الرخاء والازدهار، حتى إن اليهود كانوا يستعيدون تلك السنوات في ذاكرتهم إبّان المحن اللاحقة التي حلَّت بهم، متطلّعين بتوقٍ ولهفة إلى «مسيح» (شخص ممسوح بالزيت من صلب داود) يُعيد إليهم العظمة والسعادة اللتين تميّز بهما عهد داود.

لدينا هنا واحدٌ من أوائل أبطال التاريخ، وأكثر وجوههم تنوّعاً: محاربٌ مظفّر، مُنشد المزامير، عازفُ القيثارة، حبيب يوناثان، ابن شاول، وحبيب ابنه هو: أبشالوم (صموئيل الثاني، 11). لقد خطف بَثْشَبَع من زوجها أُوريّا، وأرسل هذا الأخير ليموت على الجبهة. إنه رجلٌ مذهل، ومع ذلك حقيقي؛ رجلٌ غني العناصر ومختلفها، ويحمل في داخله العديد من بقايا البربرية وكل وعود التمدّن!

ابنه وخليفته كان يُدعى «سليمان»، والاسمُ هذا مشتق من كلمة «شالوم» وتعني «السلام». وقد نال هذا الاسم لحفظه السلام ونشره الرخاء طوال مدة حكمه الذي دام سبعة وثلاثين عاماً. أقام علاقات ودّية مع أحيرام، ملك صور، وبذلك شجّع التجّار الفينيقيين على أن يسيِّروا قوافلهم التجارية عبر أرض فلسطين. وازدهرت في أيامه تجارة رابحة تقوم على مقايضة مصنوعات صور وصيدا بغلاّت إسرائيل الزراعية. وأنشأ أسطولاً تجارياً للاتّجار مع موانىء البحر المتوسط والبحر الأحمر؛ وفتح المناجم لاستخراج الذهب وحجارة «عوفير»(*) الكريمة (اكتُشف حجر عوفير مؤخراً في المملكة العربية السعودية).

وأحاط سليمان نفسه بالنساء، فكان له حريم مؤلَّف من 700 زوجة و 30

(*) أرض غنية بالذهب ورد ذكرها في التوراة بهذا الاسم (المترجم).

محظية(*). ولنا هنا أن نقسم العدد على عشرة، ونُدخل العدد المتبقي في باب العلاقات الودّية مع الدول الأخرى. ربما كان لدى الملك العظيم شغف بتحسين النسل لتوريث صفاته المتفوّقة إلى أكبر عدد من أبنائه.

وفي عهده، ازدانت أورشليم بهيكل عظيم، أضحى جماله مفخرة خالدة لليهود، وغدت المدينة ذروة عبادتهم، وفيما بعد مركز تجارتهم، كما درجت العادة. وقبل أن يوافي سليمان الأجل، كان التجّار قد فاقوا الكهنة عدداً ونفوذاً، فسيطروا على زمام الحُكم، وجمعوا ثروات الأمة في أيديهم. فكان أن نشأت طبقة من العمال الصعاليك، من لا يجدون عملاً دائماً يرتزقون منه، ولا يُكافؤون كما ينبغي على كدّهم وعرقهم. فكان ما قاسوه من الحرمان هو الذي حوّل عقيدة يهوه الحربية إلى إنجيل للأنبياء يكاد أن يكون اشتراكياً.

الأنبياء

كانوا مجرد عرّافين ومنجّمين بالصدفة، أي بقدر ما صدقوا في تنبّوئهم بسقوط أورشليم في أيدي الأغراب. بيد أنهم كانوا في حقيقة أمرهم أناساً ساخطين على الحاضر أكثر منهم متنبئين بالمستقبل. قدم العديد منهم إلى أورشليم من الأرياف، فصُدموا بما شاهدوه من تفشّي الاستغلال الحِرَفي والتحايل التجاري في العاصمة. كما هالهم ما لمسوه من انحرافٍ بالدين من دعوة إلى العدالة، إلى محض طقوس لتقديم النذور وإنشاد الترانيم.

كان عاموس في عداد هؤلاء الأنبياء. لم يدَّعِ قط أنه نبي، بل مجرد راعٍ قروي بسيط، هجر ماشيته ليُعاين العاصمة عن كثب (حوالى 760 ق. م). وقد انتابه الفزع لما رآه من تعقيدات غير طبيعية للحياة فيها، ومن حظوظ متفاوتة بين الناس، ومن مرارات التنافس والتزاحم، واستغلال لا يعرف الرحمة. لذا، «وقف لهم بالباب»، وضرب الأغنياء بالسوط، ولعن بذخهم وترفهم:

«من أجل أنكم تدوسون المسكين، وتأخذون منه هدية قمح، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها...

(*) في «قصة الحضارة»، يذكر المؤلّف أن عددهن كان 300 وليس 30 (المترجم).

ويل للمستريحين في صهيون... أنتم... المضطجعون على أسرّة من العاج... والآكلون خرافاً من الغنم، وعجولاً من وسط الصِّيرة، الهاذرون مع صوت الرباب، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود، الشاربون من كؤوس الخمر، والذين يدَّهنون بأفضل الأدهان... كرهتُ أعيادكم... إني إذا قدّمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي... أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع. وليجرِ الحق كالمياه، والبرّ كنهر دائم» (عاموس، 5-6).

وثمة نبي أعظم من عاموس، يُسمّيه الدارسون «إشعيا الأول»، قدّم هذه النصيحة في واحدةٍ من عيون النثر في الأدب العالمي:

«الرب يدخل في المُحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم، وأنتم قد أكلتم الكرم. سَلَبُ البائس في بيوتكم. ما لكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين؟... ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل!... ويل للذين يقضون أقضية البُطْلِ وللكتبة الذين يسجلون جوراً ليصدّوا الضعفاء عن الحكم (العدالة)، ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام. وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي التهلكة من بعيد؟ إلى من تهربون للمعونة، وأين تتركون مجدكم؟» (إشعيا، 14:3؛ 8:5؛ 1:10 وما بعدها؛ 11 متفرقة).

نفسُ إشعيا طافحة بالمرارة، ولكنه غير يائس من شعبه. وهو يختتم موعظته بإعلان رجاء اليهود المسيحاني في مجيء مخلِّص في المستقبل، يحمل معه عصراً من الإخاء الشامل والسلام الكوني:

«ها! العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل... لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى... رئيس السلام... يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفحة شفتيه. ويكون البرّ مِنْطَقَة متنيه، والأمانة مِنْطَقَةَ حَقْويه. فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجَدْي والعجل والشبل والمُسَمَّن معاً، وصبي صغير يسوقها... فيطبعون سيوفهم سِككاً، ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (إشعيا، 14:7؛ 6:9؛ 1:11؛ 4:2).

الشرور التي حذّر منها الأنبياء ها قد حلّت أخيراً وإنْ متأخرة. ففي عام 609 ق.م، أوقع جيش مصري هزيمة نكراء باليهود في معركة دامية على مقربة من مدينة مجدّو القديمة. ومنها، على ما يبدو، اقتبس الرسول يوحنا اسم «هَرْمَجَدُّون» لتلك الموقعة العظيمة التي ستقرّر مصير العالم (رؤيا، 16:16). وفي عام 597 ق.م، استولى نبوخذنصّر الأول، ملك بابل، على أورشليم، وسبى عشرة آلاف يهودي. وخلافاً لمشورة النبي المتجهِّم إرميا، قاد الملك صِدْقيّا اليهود في عصيان معلن ضد البابليين؛ فرجع نبوخذنصر في عام 586 ق.م، لينهب ويخرّب أورشليم، ويدمِّر هيكل سليمان، ويسوق جميع سكان المدينة تقريباً إلى السبي البابلي. اسمعوا إرميا يتفجّع حسرةً لتحقق نبوءاته ولخراب أورشليم:

«كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب! كيف صارت العظيمة كأرملة في الأمم؛ السيدة في البلدان صارت تحت الجزية!... أما إليكم يا جميع عابري الطريق. تطلّعوا وانظروا إن كان حزنٌ مثل حزني» (مراثي إرميا، 1:1، 12).

وفي عام 540 ق.م، ظهر على الساحة نبيٌّ أعظم بعدُ من إرميا، وقد دعاه الدارسون «إشعيا الثاني»، لأنه أضاف فصولاً جديدة إلى الأول. قام يبشِّر بين اليهود في المنفى باسم ربٍّ ليس لإسرائيل وحدها، بل لكل الناس؛ ربٌّ أعلى «كال بكفه المياه، وقاس السموات بالشبر... ووزن الجبال بالقبّان، والآكام بالميزان... ارفعوا إلى العلاء عيونكم، وانظروا من خلق هذا».

ثم إنه لن يعود إلى صب جام غضبه على الناس بعد الآن لارتكابهم الآثام والخطايا، بل سيعدهم بأن الربّ سيُخرج اليهود قريباً من إسار عبوديتهم في بابل:

«أعدوا طريق الربّ. قوّموا في القفر سبيلاً لإلَهنا. كل وطاءٍ يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوجّ مستقيماً، والعراقيب سهلاً... (و) كراعٍ يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحُملان، وفي حضنه يحملها ويقود المُرْضعات» (إشعيا، 40:3-4، 11) [هل تناهت إليك هنا موسيقى هاندل؟]

ولقد تحقّقت هذه النبوءة بالفعل عندما استولى قورش الثاني، ملك فارس، على بابل في عام 539 ق.م، وفكّ قيد اليهودِ، وحمى عودتهم إلى أورشليم، وتعهّد

بأن يمد إليهم يد المساعدة في إعادة بناء الهيكل. وبالفعل، اكتمل بناء الهيكل في عام 516 ق.م، وصار موئلاً للبعث الديني، حيث الملوك يعوّلون على الكهنة لاستتباب النظام الاجتماعي.

وفي عام 444 ق.م، دعا عزرا، وهو كاهن عالِم، الناس إلى اجتماع عام خطير، وشرع يقرأ عليهم عدة ساعات يومياً ولسبعة أيام كاملة ما كان يُسميه «سِفر شريعة موسى»، وهو الذي أسماه اليهود لاحقاً: «التوراة» أو «الرشاد»، ويسمّيه اليونانيون «البنتاتوخ» (اللفائف الخمس)، وهي الأسفار الخمسة الأولى من «الكتاب المقدس». وتتضمن هذه الأسفار «الوصايا العشر»، وشريعة موسى التي أمّنت لليهود النظام والاستقرار، وقدراً مقبولاً من الرخاء على مدى ثلاثة وعشرين قرناً حفلت بكل صنوف الاضطرابات المنقطعة النظير. ولعلنا واجدون في تلك المدوّنة، في ذلك السِفر المُسمى «ليڤتيكوس»، أعظم وأجرأ وأوجز صياغة للأخلاق المسيحية: أحبَّ جارك كما تحب نفسك.

وفي عام 332 ق.م، وبعد أن وجدت هذه الدولة الصغيرة نفسها مُحاطة بأباطرة متعطشين للفتوحات، لم تجد مناصاً من أن تقبل بسلام أن يكون الإسكندر الأكبر سيداً عليها وحامياً لها. ولكن بعد موت الإسكندر المبكر، عرفت اليهودا(*) ويلات الحروب بين خلفائه؛ هذا في حين لم ينجُ الفلاسفة والشعراء من التأثير المُسْكر للأدب والفكر اليونانيين.

الفلاسفة

يقول كارلايل عن سِفر أيوب: «إنه من أعظم ما خُط بالقلم... وفي اعتقادي أن لا شيء في التوراة أو في غير التوراة يضارعه في قيمته الأدبية». ويُرجع الباحثون وضع هذا السِفر إلى الفترة الواقعة بين سنتي 500 و 300 ق. م. وعندي أنه كتاب أساسي، كونه يطرح بقوة الأسئلة التي ما انفكت تُطارد كل لاهوت: «كيف يُزعم أن العالم يسوسه ربّ عادل ورؤوف، إذا كان الظلم هو الذي ينتصر المرة تلو المرة؟»

(*) الجزء الجنوبي من الضفة الغربية اليوم في فلسطين (الجزء الشمالي كان يُسمى السامرة). كان تابعاً لولاية سورية أيام المسيح، ومملكة يحكمها هيرودس أنتيبا، وعاصمتها أورشليم (المترجم).

يُقدِّم لنا السِفر المذكور أيوبَ منذ البداية كإنسان «كامل ومستقيم». ومع ذلك، يسمح يهوه بأن تنهال المصائب على رأس أيوب. وهكذا يظل المُعذَّب ينصت مغلوباً على أمره إلى أصدقائه وهم يصرّون على أن الله عادل، وأنه منصف لعباده، يثيب الإنسان الصالح في الحياة الدُّنيا. إلا أنه أعطاهم في النهاية أذناً صمّاء، ولم يعد مبالياً بما يهرفون به. وشأن اليهود ما قبل المسيحية على وجه العموم، لم يكن أيوب يؤمن بالآخرة، بل ينظر إلى الوجود الدنيوي على أنه التأجيل اليومي للموت المحتوم:

«الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً. يخرج كالزهر ثم ينحسم ويبرح كالظل ولا يقف... لأن للشجرة رجاء إنْ قُطِعتْ تُخْلِف أيضاً ولا تُعْدَم خراعيبها. ولو قَدُمَ في الأرض أصلها ومات في التراب جذعها، فمن رائحة الماء تُفرخ وتنبتُ فروعاً كالغرس. أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يُسلم الروح، فأين هو؟ قد تنفد المياه من البحر، والنهر ينشف ويجفّ، والإنسان يضطجع ولا يقوم... إن مات رجلٌ، أفيحيا؟» (أيوب، 14:1-14).

لقد فقد أيوب كل أمل لديه في العدل الإلهي، وانقلب على يهوه، ناعتاً إياه بـ «الخصم» اللدود؛ لا بل فكّر جدّياً في الانتحار. لكنه يسمع صوتاً آتياً من بين السحاب، صوتاً من العاصفة يتحدى أيوب الإنسان، ويتحدث حديثاً هو أجمل ما في التوراة كلها:

«من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟ أُشْدُدِ الآن حقويك كرجل، فإني أسألك فتُعلمني. أين كُنتَ حين أسَّستُ الأرضَ؟... من وضع حجر زاويتها، عندما ترنّمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق... وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلتُ إلى هنا تأتي ولا تتعدّى وهنا تُتْخَمُ كبرياء لججك؟... هل تربطُ أنتَ عُقَدَ الثريا أو تفك رُبَط الجبّار؟ ... هل عرفتَ سُنن السموات أو جعلت تسلّطها على الأرض؟... من وضع الطّخاء حكمةً، أو من أظهر في الشُهب (القلب) فطنةً؟... هل يخاصم القدير مُوَبِّخه، أم المُحاجُّ اللهَ يجاوبه؟» (أيوب، 38:1-40، 2).

كاد أيوب أن ينسحق فَرَقاً إزاء هذا الظهور الربّاني. فقال: «بسمع الأُذن

قد سمعت عنك، والآن رأتك عيني، لذلك أرفضُ وأندم في التراب والرماد» (أيوب، 42:4-6). فرقّ عندئذ قلب يهوه، وغفر لأيوب تحدياته، و«زاد على كل ما كان له ضعفاً»، وما لبث أن صار عنده «أربعة عشر ألفاً من الغنم وستة آلاف من الإبل، وألف فدّان من البقر، وألف أتان» (أيوب، 42:11-13). و«عاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة، ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعة أجيال» (أيوب، 42:16-17).

نهايةٌ سعيدة، أليس كذلك؟ لكنها تَفِهةٌ وكئيبة. إنما هذه أحسن ما لدينا. فمن نحن ـ معشر الفُقاعات الصغيرة في سديم عابر متبدّد ـ لنتنطح إلى فهم الكون؟! إن الفلسفة هي دراسةُ الجزء على ضوء الكل. ودرسها الأول يقول إننا أجزاء ضئيلة للغاية من كلٍّ هائل الضخامة. وتناغمُ الجزء مع الكل قد يكون أفضل تعريف للصحة، والجمال، والحقيقة، والحكمة، والأخلاق والسعادة.

مجدداً، هذا هو الجواب الوحيد الذي يُمكننا إعطاؤه لِسِفر الجامعة. إن السِفر الذي يحمل هذا الاسم، يُعدُّ أكثر الرسائل مرارةً في «الكتاب المقدس» أجمع. وعبارة «إكلسياتس» هي الترجمة اليونانية للفظة العبرية «كوهيليت»، أي المبشِّر أو الكرّاز. والمؤلِّف المجهول الهوية، يُطلق على نفسه هذه التسمية. ويزعم أنه سليمان الحكيم، ابن داود. لكن الدارسين الصارمين يرفضون هذا الزعم، ويُحيلون السِفر إلى رجل عبراني مُتهلين(*)، عاش قرابة العام 200 ق.م.

«أنا الجامعة (المبشِّر) كنتُ ملكاً على إسرائيل في أورشليم. ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عُمل تحت السموات. هو عناء رديء جعلها الله لبني البشر ليعنوا فيه. رأيت كل الأعمال التي عُملت تحت الشمس، فإذا الكل باطلٌ وقبض الريح... لأن في كثرة الحكمة كثرة الغمِّ، والذي يزيد علماً يزيد حُزناً» (الجامعة، 12:11-18).

لقد درس «الجامعة» التاريخ، وخَلُصَ إلى أنه، هو الآخر، باطلٌ وقبضُ الريح. ذلك أن التاريخ، على وجه العموم، يعيد ويكرر نفسه، وهو مثل «الكتاب المقدس» العائد للعائلة، مجرد سجلٍ للمواليد والوفيات ليس إلاّ؛ إنه، على حد وصفه:

(*) اي يعتنق المذهب أو الفلسفة الهيللينية (المترجم).

«دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة إلى الأبد. والشمس تشرق والشمس تَغْرُبُ وتسرع إلى موضعها حيث تشرق... كل الأنهار تجري إلى البحر، الأنهار إلى هناك تذهبُ راجعةً... فغبطتُ أن الأموات الذين قد ماتوا منذ زمانٍ أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعدُ... الصيتُ خيرٌ من الدُهنِ الطيِّب، ويوم الممات خيرٌ من يوم الولادة... فليس للإنسان مزية على البهيمة... يذهب كلاهما إلى مكان واحد... الكل باطل وقبض الريح».

الشعراء

هل نجد لدى شعراء «العهد القديم» أية إجابة عن أسئلة سِفري الجامعة وأيوب؟ إنهم يعطون إجابتين: تصالحْ مع الله والكون؛ وأبهجْ حياتك بالحب. الأولى تجدها في سِفر «المزامير»، والأخرى في «نشيد الأنشاد».

من يستطيع يا تُرى أن ينشد «تسبيحة» تمجيدية تليق بتلك الأناشيد التسبيحية المسماة «المزامير»؟ إن أعزّ ذكرياتي عن فترة الدراسة الثانوية هي أصداء «المزامير» التي كنا نحن مساعدي القسيس نرتّلها باللغة اللاتينية الرنّانة، بترجمة القديس جيروم المعروفة. ومع ذلك، وبكل أسف أقول، إننا لا يُمكن أبداً أن نشعر بتلك الثقة المُطَمئِنة في العناية الإلهية بمصيرنا وعلى ذلك النحو العميق الذي كان يشعر بها قدامى اليهود. وإنْ أنسَ، لا أنسى كيف أن زوجتي أريل، وكانت لا تزال تتألم في غرفة العناية الفائقة في «مستشفى الأرز ـ سيناء»، أخذت تستظهر البيت الأول من المزمور الثالث والعشرين، فتجيبها مريضة أخرى، كانت قد عادت لتوها من مناوشة قصيرة مع الموت، بالبيت الثاني، ومريضة غيرهما بالبيت الثالث من ذاك الجواب المتواضع الموجَّه إلى أيوب:

الرب راعي، فلا يعوزني شيء.
في مراعٍ خُضْرٍ يُربضني، إلى مياه الراحة يوردني.
أيضاً إذا سِرتُ في وادي ظل الموت، لا أخاف شراً.
(...)
إنما خيرٌ ورحمةٌ يتبعاني كل أيام حياتي.

وهل من حُزنٍ أفدح وأسى أعمق مما كان من بلاء العبودية في بابل؟
على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون.
على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا.
لأنه هناك سَألنا الذين سبونا كلام ترنيمة...
قائلين: رنّموا لنا من ترنيمات صهيون.
كيف نرنّم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟
إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني.
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك؛
إن لم أفضّل أورشليم على أعظم فرحي.

(المزمور 37)

إني لا أعرف لغة أو مخيلة بلغت من الشهرة والمجد ما بلغته «المزامير»:

السموات تحدّث بمجد الرب... جعل للشمس مسكناً فيها،
وهي مثل العروس (العريس) الخارج من حَجَلَتِهِ،
يبتهج مثل الجبّار للسباق في الطريق.
من أقصى السموات خروجها، ومدارها إلى أقاصيها،
ولا شيء يختفي من حرّها.

(المزمور 19)

من نَظَم هذه «المزامير»؟ تنسب الرواية المقدسة حوالى سبعين مزموراً منها إلى داود، فيما لا ينسب الدارسون إليه إلا عدداً قليلاً منها. ربما تكون «المزامير»، في غالبيتها، أصواتاً لقيثارات عديدة عزفت على مدى سبعة قرون، من داود إلى دانيال (900-167 ق.م). وكثيرٌ منها كانت تُنشد في الهيكل. ويحدونا شعور عندما نسمعها بأننا إزاء شعر شرقي قديم، ونكاد نسمع فيها أصوات المرنّمين وهم يردون على جوقة المنشدين.

وهنالك قصيدة أخرى في «العهد القديم» لا بد لنا من تكريمها هنا. كانت تُدعى قبلاً «نشيد سليمان»، لأنها في جزء كبير منها ابتهالٌ يُسبِّح بمفاتن الملك

الشاب. اليهود يدعونها «شير هاشيريم»، ويترجمها «الكتاب المقدس» الكاثوليكي بـ «Canticum canticorum»، ونسميها نحن عن صواب: «نشيد الأنشاد». فنادراً ما اتسم الشعر بهذه الدرجة الرفيعة من الصراحة والإشراق وهو يحتفي بالاستسلام المبهج إلى الحب المتبادل.

الله وحده يعلم كيف وجد هذا «النشيد» طريقه إلى قلب «الكتاب المقدس»، العقيدة الأرثوذكسية تؤوِّله بجرأة على أنه مجاز لحب الكنيسة للمسيح. فيما يعتقد الباحثون الأكاديميون أنه من آثار بعض طقوس الخصب والنماء الوثنية. لكن حرارة النشيد الملتهبة، لا تدع مجالاً للتفكير في حقلٍ أو في طفلٍ.

كذلك، فإن تأريخ تأليف النشيد غير معروف. وثمة إشارات تدلّ على وجود مؤثرات يونانية - مصرية واضحة فيه. فالعاشقان على غرار الأسلوب المتبع في مصر، يُنادي الواحد منهما الآخر بأخي وأختي.

وهناك مقطعٌ شهير في النشيد، اختار له القديس جيروم عنواناً باللاتينية يقول: «أنا سوداء لكن جميلة»(*) ويُوحي الكلام بأن المرأة المعنية هي من أصول إفريقية وذات مزاج حار. لذا، بمقدور إخوتي وأخواتي الزنوج أن يجدوا ترخيصاً توراتياً لرفعهم شعار: «الأسود جميل». إنما لندع النشيد يحكي عن نفسه بنفسه:

صُرّة المُرّ حبيبي لي بين ثدييّ يبيت.
طاقة فاغية حبيبي لي في كروم عين جَدْي،
ها أنت جميلة يا حبيبتي، ها أنت جميلة، عيناك حمامتان...
أنا نرجس شارون(**) وسوسنة الأودية...
أسندوني بأقراص الزبيب، أنعشوني بالتفاح، فإني مريضة جداً...
أحلّفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تُوقِظْنَ ولا تنبهنّ الحبيب حتى يشاء...
حبيبي لي وأنا لحبيبي، الراعي بين السوسن، إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال...

(*) "Nigra sum sed formosa".

(**) سهل خصب يقع على الساحل الغربي لفلسطين (المؤلّف).

اهرب يا حبيبي، وكن كالظبي أو كغُفْر الأيائل على جبال الأطياب...
تعال يا حبيبي، لنخرجْ إلى الحقل ولنبتْ في القرى،
لنبكرنّ إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم؟ هل تفتح القُعال؟ هل نوَّر الرمّان؟ هنالك أعطيك حبي.

نشيد رائع إلى حد بعيد! حتى الرجل العجوز المنهوك القوى، قد يشعر بالحمى تدبّ في أوصاله حين يقرأه. وإنْ كان داعية الحب التسعيني يريد ابتهالاً أعمق من مجرد التغنّي ببهاء الشكل البشري. هذا ولئن كانت فرحة الجسد المُعافى غير مُطالبة بأن تستغفر أحداً، أو تحامي عن نفسها، إلاّ أننا نسأل: كيف كان ردّها على محنة أيوب، أو على تعطّش الروح إلى دلالة أسمى من مجرد الاتحاد الجسدي أو البقاء البهيمي؟ لقد اقترح دوموباسان(*) صيغة ألطف للحب، حين قال: «في الحب الحقيقي، الروح هي التي تعانق الجسد».

إن أنبل أشكال الحب هو ذاك الذي يوسّع الذات إلى أقصى حد، ويفتح القلب والذراعين لكل الكائنات الحيّة والمسالمة. فطوبى للروح التي توسّع حبها على هذه الشاكلة!

(*) Guy de Maupassant، كاتب أقصوصة فرنسي، عاش في القرن التاسع عشر (المترجم).

الفصل السادس

الطريق إلى بركليس

الخلطة العِرْقية

من هم قُدامى الإغريق، ومن أين جاؤوا؟ يبدو أنهم جاؤوا من كل الجهات: من غرب آسيا، ومن جزر بحر إيجة، ومن جزيرة كريت ومصر وبلاد البلقان، وبعضهم جاء حتى من سكيزيا(*)، أي من جنوب روسيا. فرعوا قطعان ماشيتهم، وزرعوا الأرض، وتاجروا بالبضائع، وبنوا القرى والمدن، وخاضوا غمار الحروب، وخضعوا لزعماء وملوك، من أمثال أغاممنون الميسّيني، وكودروس الأثيني.

لعلّ الميسينيين استمدّوا حضارتهم من كريت ومصر، فيما استقدمت المستوطنات الكائنة في الشطر الشرقي من بلاد اليونان عناصرها الثقافية من غرب آسيا، وجزر بحر إيجة. وهذا التزاوج ما بين الرقة الآسيوية والكريتية والإتقان المصري من جهة، والحيوية والصلابة البربرية للقبائل النازلة على

(*) منطقة تقع شمالي البحر الأسود في الجزء الجنوبي من روسيا اليوم (المترجم).

هيلاس (بلاد اليونان) من الشمال من جهة أخرى، هو الذي أعدّ الأساس أو الأرضية البيولوجية لذلك «المجد الذي كانته اليونان».

الانتشار الجغرافي

لكن ما هو أخطر وأكثر أهمية بعدُ من هذا التلاقح والتزاوج، انتشار اليونانيين المُذهل وتطوّرهم المدهش في طول العالم المتوسطي القديم وعرضه: من بيزنطة (التي صارت القسطنطينية) شرقاً، إلى «عمودي هرقل» (التي غدت جبل طارق) غرباً. فسواء هرباً من الغزوات الدورية وغيرها، أو للتخفيف من نموهم العددي الكثيف، أمضى اليونانيون ستة قرون، ما بين أغاممنون وبركليس، وهم يُرسلون فائضهم المُغامر من أتيكا والبيلوبونيز لإنشاء مستعمرات إغريقية بلغت شمالاً جزيرة القرم، حيث أسّس أوريستس إيفغينيا؛ وشرقاً كولشيس، عند الطرف الأقصى للبحر الأسود، حيث عثر چاسون على ميديا و«الجزّة الذهبية»(*).. ناهيك عن وصولهم إلى السواحل الجنوبية للبحر الأسود، والشواطىء الشرقية للبحر المتوسط.

لنتوقف هنا قليلاً. ذلك أنه على امتداد هذا الخط الساحلي المعروف، أو على مقربة منه، نثر اليونانيون عقداً من اثنتي عشرة مدينة، عُرفت باسم «الاثني عشرية الأيونية»، وكان ذلك قبل أن يمنحوا أثينا تلك الشهرة العالية. وقد ساهمت دزينة المدن هذه في صنع تاريخ اليونان، وبما لا يقل بأي حال عن مساهمة مدن أتيكا نفسها. ففي تيوس، غنّى الشاعر أناكريون (570 ق.م) للأنبذة الملهمة والحب المراوغ؛ وفي ميلتوس، أسس طاليس (حوالى 600 ق.م) أول مدرسة للفلسفة اليونانية، وأعطى دفعة قوية لتقدم الهندسة وعلم الفلك اليونانيين.

(*) ميديا، بلاد كانت تقع في غرب آسيا ما بين إيران وأذربيجان الحاليتين، عاصمتها إيكباتانا. أما «الجزّة الذهبية»، فأسطورة إغريقية تتحدث عن مغامرة جاسون ورفاقه للعثور على جزّة من صوف كبش معلقة في غابة يحرسها تنين في بلاد كولشيس (المترجم).

هراقليطس

في أفسس، المدينة التي كان معبدها المكرّس لأرتميس ديانا(*) يُعدّ من بين عجائب العالم القديم السبع، وقبل مجيء أفلاطون بثلاثمئة سنة تقريباً، بسط هراقليطس نظرية فلسفية حول النشوء والارتقاء على هيئة أقوال مأثورة وحِكَم ملغزة. وكانت هده الفلسفة بالذات مبعث سرور لكل من هيغل، وداروين، وسبنسر ونيتشه فيما بعد.

فكرتان اثنتان استحوذتا على عقل هراقليطس: إن التغيّر كلّي وشامل، والطاقة غير قابلة للتلف أو الزوال. لا شيء **يكون**، بل كل شيء **يصير**. إن كل شيء يكفّ دائماً عن أن **يكون** ما هو، **ليصير** ما سوف **يكونه**. وعلى حد قوله: «إن كل شيء يجري؛ ومحال على المرء أن يغطس قدمه في الماء نفسه في الجدول الجاري». إن الكون واحد، فسيح، لا يهدأ، ولا يتوقف عن **الصيرورة**. وتجدون هـهنا، في هذه العبارة أو العبارتين، نصف فلسفة هيغل التي بسطها عام 1830.

لكن هراقليطس رأى تحت هذا الجريان واقعاً لا يعرف الانكماش أبداً؛ ذلك هو «النار»، أو لعله كان يقصد بها «القوة» أو «الطاقة». فالنفس الفردية هي مجرد لسان زائل من ألسنة نار الحياة المتبدلة المتغيّرة بلا انقطاع. والإنسان إنْ هو إلا لحظة متقطّعة في تلك النار، «تُضاء وتُطفأ مثل النور في الظلام». والربّ أو الإله، هو النار الأبدية، الطاقة الكلّية الوجود للعالم الجاري. وفي خضم هذا الجريان الكوني، أي شيء يُمكن أن يتحوّل مع مرور الزمن إلى نقيضه. فالخير يُمكن أن يصبح شرّاً، والشرُّ يمكن أن يصبح خيراً؛ والحياة موتاً، والموت حياتاً. والأضداد هي طرفا الشيء نفسه، والقوة ما هي إلاّ توتر الأضداد أو النقائض. و «النزاع (بمعنى التنافس)، هو أبو الكل ونسيب الكل. وقد وسم بعضهم ليكونوا آلهةً، وبعضهم الآخر ليكونوا بشراً. منهم من جعله عبداً، ومنهم من جعله حُرّاً»، وخلص هراقليطس إلى «أن النزاع هو العدل» في النهاية. فالتنافس بين الأفراد، والجماعات، والمؤسسات، والدول، والامبراطوريات، هو محكمة الطبيعة العُليا التي لا تقبل أحكامها أي استئناف.

(*) أرتميس: إلهة الصيد عند الإغريق؛ وقد سمّاها الرومان ديانا (المترجم).

سافو

على مسافة غير بعيدة من تلك المدن الأيونية الآنفة الذكر، تقع جزيرة ليسبوس، المنهمكة بالتجارة والمتألقة بالشعر. وفي عاصمتها ميتليني، عاشت ثانية أشعر شاعرات الإغريق: سافو، أو كما كانت تُسمى بلغتها المحلية الرقيقة: پسافا. وُلدت سافو في عام 612 ق.م؛ لم تشتهر بحُسنها وجمالها، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها وأناقتها، وبرقّتها ودماثة أخلاقها وحصافة عقلها. وقد تزوجت، وهي في العشرين ربيعاً، من تاجر ثري، وافته المنية بعد وقت قصير على زواجهما.

ومن شدّة توقها إلى الحياة المفعمة بالحركة والنشاط، أنشأت مدرسة للفتيات، تعلّمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص. ولعلها كانت أول «مدرسة للبنات» في التاريخ كله.

أحبّت سافو ـ وكانت وقتئذ أرملة ـ فتاةً من تلميذاتها تُدعى أثيس. وقد جنّ جنونها عندما استجابت الفتاة لملاطفات أحد الشبّان، مما حدا بوالدي أثيس أن يخرجاها من المدرسة. ولعل هذا ما كان يجول في خاطرها عندما كتبت:

«بكت [أثيس؟] بكاءً مرّاً لتركها إياي، قائلة: «واحسرتاه! يا لحظنا العاثر يا سافو! أقسم لك أن تركي لك ليس بإرادتي». وأقسمت لها بدوري: «اذهبي في حال سبيلك وامرحي. لكن تذكّريني، فأنت تعلمين مدى شغفي بك. وإذا لم تفعلي، واخوفاه! إذن سأذكّرك بما تنسين... ألا ما أعزّ وأجمل الأيام التي قضيناها معاً! لقد كُنتِ تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبي، وتحيطين جيدك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار. وبالأدهان الكثيرة الغالية الثمن الخليقة بالملوك دهنتُ إهابك الأبيض النضر وأنت بين ذراعيّ. ولم يكن في المكان كله تلٌّ، أو موضع مقدس، أو غدير لم نذهب إليه معاً. ولم تملأ الأصوات المتزاحمة في بواكير الربيع غابةً هناك بسجع العنادل، إلاّ وكُنتِ تجولين في أرجائها معي».

ولقد ثأرت ذكورية الأجيال التالية لنفسها بأن نقلت عن سافو، أو لعلّها

اختلقت من عندها، قصة تروي كيف ماتت الشاعرة قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب. وثمة فقرة في معجم «سويداس» تروي كيف رمت «العاهر سافو» بنفسها من فوق جرفٍ هار في جزيرة لوكاس، لأن البحّار فاؤون أبى أن يُبادلها حباً بحب. وفي الحقيقة، إننا لا نعلم متى ماتت سافو وكيف قضت نحبها. وكل الذي نعرفه أنها خلّفت وراءها ذكرى حيّة، مفعمة بالعاطفة والشعر والظرف، وأنها بزّت ألكيوس نفسه، فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً.

وفي اتجاه الغرب، اندفع الإغريق المتدفقون حيويةً والمتكاثرون عدداً، اندفعوا بسفنهم وخيامهم، فاستعمروا الجُزر الواقعة في جنوب البحر الأدرياتيكي، ومنها وثبوا إلى إيطاليا، حيث أنشأوا فيها مدينتي سيباريس وكروتونا، اللتين حازتا شهرة واسعة في يوم من الأيام. فسيباريس أعطت اسمها للترف المتكاسل، وكروتونا وهبت التاريخ اللاعب الرياضي النباتي: ميلو، المجلّي في الألعاب الأولمبية والألعاب البيثيادية(*) على السواء؛ فضلاً عن فيثاغورس، أعظم فيلسوف يوناني ما قبل سقراط.

فيثاغورس

وُلد فيثاغورس في جزيرة ساموس الإيجية عام 580 ق.م؛ ويروى عنه أنه قام برحلات استطلاعية طويلة، فزار غالة(**)، وبلدان الشرق الأدنى والهند، ولم يتخلّص قط من تأثير هذه الأخيرة عليه: فقد تقبّل نظرية «الكارما»، أي التقمّص العقابي؛ ويُحكى عنه في هذا الصدد، أنه أوقف رجلاً عن ضرب كلبٍ ذات يوم، زاعماً أنه تعرَّف في زعيقه على صوت صديق له متوفى. كان فيثاغورس قد تعدّى سنّ الخمسين عندما استقرّ في مدينة كروتونا، حيث أخذت دروسه تستقطب طلاباً متحمسين من كلا الجنسين. وقد نظّم أشد طلابه إيماناً به ووفاءً لتعاليمه ضمن جماعة شيوعية متعاهدة على الإمساك عن أكل اللحوم والبيض

(*) الألعاب البيثيادية هي أحد المهرجانات الوطنية الكبرى عند الإغريق، وكان يُقام في دلفي كل أربع سنوات تكريماً للإله أپولو (المترجم).

(**) Gaul، غاليا أو بلاد الغال، هو الاسم القديم الذي عُرفت به فرنسا وبلجيكا وشمال إيطاليا (المترجم).

والفول، من أجل تنقية أجسامهم بواسطة الانقطاع عن بعض المآكل والمُسكرات، والسيطرة على الذات ولجم الشهوات؛ وتطهير عقولهم بواسطة العلم والموسيقى.

أعطى فيثاغورس علم الهندسة شكله الكلاسيكي قبل إقليدس بقرنين من الزمن، وصاغ بنفسه النظرية التي تحمل اسمه(*). كما اكتشف العلاقات العددية للنوطات الموسيقية، كما هي على أوتار القيثارة مثلاً. ولما كانت كل الأجرام التي تتحرك في الفضاء تُصدر أصواتاً، فإن كل كوكب يُحدث صوتاً منتظماً أثناء حركته في مداره. ومن هذه الأصوات مجتمعة، يتكوّن ائتلاف صوتي أو «موسيقى الأفلاك» على حد وصفه، وهي موسيقى لا نسمعها أبداً لأننا نسمعها على الدوام. ويقول ديوجينوس ليرتيوس إن فيثاغورس هو أول من أطلق لفظة «كوزموس» (الكون) على العالم، نظراً للنظام والجمال اللذين يسمان الأجرام السماوية. وقد غدت «كوزموس»، أو «النظام»، الفكرة الهادية لفيثاغورس: فالفضيلة هي النظام في شهواتنا وفي علائقنا بالمجتمع؛ والحكم القويم هو استتباب النظام في الدولة. وهذا ما يُمكن تأمينه على أفضل وجه، كما رأى فيثاغورس، على يد فئة أرستقراطية متعلّمة، ويُفضَّل أن تكون من خرّيجي المدرسة الفيثاغورية بالذات. وفي هذه النقطة كما في غيرها، حذا أفلاطون حذو فيثاغورس. وعندما كان اليونانيون يتحدثون عن «الفيلسوف»، فإنما كانوا يعنون فيثاغورس على وجه التحديد.

إذا ما دُرنا حول أصبع القدم في الساق الإيطالية(**)، نمرّ ما بين البرّ الإيطالي وجزيرة صقلية بمضيق مسّينا (ولعلّه هو الذي سمّته **الأوذيسة**، ملحمة هوميروس، بـ «سيلاّ وخاربديس»)؛ ومن ثم نصل إلى مدينة فيليا، المعروفة قديماً باسم إليا، حيث أسَّس بارمنيدس، وأحد الزينونيين(***) الكُثُر، مدرسة شهيرة للفلسفة والألغاز في عام 445 ق.م. ومن فيليا نتجه شمالاً نحو بيستو، المعروفة لمؤسسيها الإغريق باسم «بوسيدونيا»، وللرومان باسم «بايستوم». هناك، وقبل الميلاد بنحو 600 سنة، بنى الإغريق هياكل ومعابد، لا تزال تحتفظ

(*) مؤدى «النظرية الفيثاغورية» أن المربع المقام على الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث القائم الزاوية يُساوي مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين (المترجم).

(**) إشارة إلى شكل إيطاليا على الخارطة (المترجم).

(***) نسبةً إلى الفيلسوف زينون الإيلي (المترجم).

بجمالها الرائع إلى يومنا هذا، رغم أنها خرائب وأطلال. وإلى مسافة أبعد شمالاً، أنشأ الإغريق مدينة نيابوليس (أو المدينة الجديدة) التي نسمّيها اليوم: نابولي.

ومن هناك يُمكننا ركوب الطائرة في رحلة إلى صقلية تستغرق ساعة واحدة. في صقلية، بنى الإغريق الذين لا يروي ظمأهم شيء، مدن سيراكوزا (سرقوسة)، ومسّينا، وغِلاً، وأكراغاس. وفي سيراكوزا، وُلد أرخميدس (287 ق.م)، أعظم الرياضيين اليونانيين. وقد بلغ به الولع بالعتلات حداً جعله يجزم بأنه لو أُعطي عتلة ومكاناً يضع عليه قدمه، لأمكنه أن يُحرّك الأرض ذاتها. وفي أكراغاس (غرغنتي الحالية)، الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي لصقلية، أقامت المستعمرة اليونانية المزدهرة هناك هيكلاً للإلهة كونكورد، ما برح منتصباً كما هو لم يُمس بعد مرور ثلاثة وعشرين قرناً من أهوال الحروب وأفانين السياسة. وفي أكراغاس أيضاً، رأى أنباذوقليس النور في نفس عام موقعة المارثون تقريباً (492 ق.م)؛ ولعله توفي فيها وليس في فوهة بركان إتنا كما تذكر الروايات. هذا وسوف نعود إلى هذا الفيلسوف عند الحديث عن عصر الإغريق الذهبي.

ثم انعطف التجّار اليونانيون شمالاً، فأنشأوا مُدن انتيبوليس (أنتيب الحالية)، ونيسيا (نيس الحالية)، ومونوخوس (موناكو اليوم)، وماسيليا (مرسيليا الحالية). وإلى الغرب منها، أقام التّجار اليونانيون حصوناً في إسبانيا عند أمبورياس وماناغا (على مسافة قريبة من ملقة). ولعلهم خافوا من الرياح العاتية القادمة من المحيط الأطلسي، فقفلوا عائدين إلى مواطنهم الأصلية، ليعملوا من ثم على إثرائها بثمرات فتوحاتهم ومعاملاتهم التجارية.

كان لا مناص من القيام بهذه الدورة الطويلة من أجل أن نرى ونلمس عن كثب مدى التوسّع والتعدد والتنوّع والجرأة التي بلغتها الحضارة اليونانية. لقد اكتفى أرسطو بالحديث عن تاريخ تكوّن 158 «مدينة ـ دولة»(*) يونانية، فيما هناك الكثير الكثير غيرها. وقد أدلت كل واحدة من هذه «الدول المدينية» بدلوها في صُنع «اليونان القديمة»، سواء من خلال التجارة، أو الصناعة، أو العلوم، أو الفلسفة، أو الأدب، أو الفن. ففي المستعمرات اليونانية، كما في بلاد اليونان

(*) بمعنى أن كل مدينة دولة قائمة بذاتها، ولذلك سُميت «دول المدن» أو «الدويلات المدينية». أما نحن فنسميها من الآن فصاعداً «الدولة المدينية» (المترجم).

نفسها، وُلد الشعر، والنثر، والرياضيات، والماورائيات. ولولا هذه «الأذرع» الاستعمارية (الاستيطانية)، لما قُيّض للحضارة اليونانية، وهي أغلى ثمرات تراثنا العلماني، أن ترى النور أصلاً.

الأوطان

عندما كانوا يضجرون من وطء رمال مصر والشرق الأدنى، أو من مخر عباب البحر المتوسط، إلى أن أصبح في جزئه الشمالي على الأقل بحراً يونانياً بالكامل، كان المغامرون الشرهون يقفلون عائدين إلى البر اليوناني: إلى البيلوبونيز، وبيوتيا، وأوبيا، وأتيكا، بدولها المدينية النابضة بالحيوية والنشاط، والمتحاسدة المتنافسة فيما بينها: إسبارطة، إيلوسيس، بلاتيا، أثينا؛ وإلى المدن الأيونية: هليكارناسوس، ميليثوس، ساردیس، سميرنا [إزمير الحالية]، برغامون؛ أو إلى الجُزر الإيجية: جزيرة ساموس مسقط رأس فيثاغورس، وجزيرة كيوس مسقط رأس سيمونيدس، وجزيرة خيوس مسقط رأس هوميروس، وجزيرة «النصر المجنّح»(*) ساموتراس.. تلك الجزر الساحرة حيث شبّ وترعرع التجار والبحّارة الإغريق في جو عابق برائحة البحر.

... إلى هذه الأماكن وغيرها، المتجذّرة بحنين وإعزاز في الذاكرة اليونانية، كان يعود هؤلاء وفي جعبتهم آلاف الحقائق المعرفية لاستنباط علم من العلوم أو لتطويره في حال كان قائماً، فضلاً عن الخبرات الغنية لإدارة دفّة الفلسفة والسياسة، والروح التنافسية الحامية لإلهاب الفن المسرحي والفنون الأخرى على نحو لم يسبق له مثيل.

لكن يبدو أن هذه الحماسة الملتهبة لتقدّم المعرفة وتجميل المُدن لم تعرف طريقها إلى إسبارطة إلا في أضيق الحدود. ذلك أنها كانت ترى في نفسها «حارسة البوابة» ضد غارات «البرابرة»(**) أو تسلّلهم من جهة الشمال. ولذلك أخضعت مواطنيها وعبيدها على السواء، لانضباط عسكري صارم لم يدعْ كبير مجال للإنسانيات وجمالات الحياة. على النقيض من إسبارطة، عُرف عن الأثينيين

(*) تمثال موجود في متحف اللوفر صُنع تخليداً للانتصار في موقعة ساموتراس في القرن الرابع قبل الميلاد (المترجم).

(**) المقصود بهم هنا، وحيثما وردت هذه التسمية لاحقاً: الغرباء وكل من هو غير يوناني (المترجم).

ميلهم إلى التفكّر وتذوق الجمال، ربما لشعورهم بأنهم في أمان بحماية أسطولهم البحري. فكان أن جعلوا من مسارحهم أبواقاً جهورية للفلسفة، ومن هياكلهم تراتيل رخامية لآلهتهم.

لقد نشأنا نحن الأمريكيين على فكرة أن آلهة اليونان مخلوقات من بنات المخيلة الرومانطيقية، أو أنها مجرد استعارات قابلة للتوظيف في أشعارنا وقصائدنا. وهكذا، كان زيوس، بالنسبة إلينا، زانياً لا يعرف الكلل؛ وأفروديت حُلماً للحُسن والجمال. وقد نسينا أو تناسينا آلاف المقاطع من الأدب الكلاسيكي التي تُظهر الإغريق وهم يُقدّمون حيوانات جذّابة كأضاحيّ على مذبح الآلهة، أو وهم قانعون، على غرار أغاممنون، الذي لم يتردد في التضحية بابنته في مقابل هبة ريح لأشرعته.

وقبل أن يبدأ السوفسطائيون (المغالطون) بتقويض المعتقدات الدينية بين اليونانيين، أي نحو 450 ق.م، كان الدين عزيزاً على قلوب الناس، وخير معوان لهم في تعزيز حياتهم الأخلاقية. فكان لكل بيت آلهته، وتواجدها المنظور هذا كان وراء قوتها وتماسكها. كما كان لكل مدينة إلهها الحارس أو إلهتها الحامية، كالإلهة أثينا لمدينة أثينا. وفي عبادتهم هذه الآلهة، كان يتسنى لليونانيين أن ينسوا، ولو لبرهة قصيرة، وسوسة التنافس الذي لا ينقطع بينهم، وأن يسيروا بأقدامهم إلى شفير الإفلاس ببنائهم البارثنون(*). كانت ديانتهم، مثل وطنيتهم، ذات صلة بالمدن، وبالمنطقة الواقعة خلف الشريط الساحلي، ولا تصل إلى أبعد من أولمبيا. كانت لديهم كونفدراليات، إنما بالكاد كانت لديهم دولة. ولمّا تحدّتهم فارس الموحدة، أوشكوا أن يفقدوا حرّيتهم بسبب تعلّقهم الشديد باستقلالية كل منطقة من المناطق المحلّية.

وإذا كانت أثينا، عاصمة أتيكا، تسترعي انتباهنا بشكل مخصوص، فذلك لأنها خاضت تجارب مضيئة في مجال الحُكم والسياسة، وحقّقت تفوقاً غير مسبوق في الأمور العقلية. لقد جرّبت الملكية كما جرّبت الديكتاتورية، لكنها فضّلت في معظم سنواتها المرموقة ضرباً من الديمقراطية المحدودة. وعلى نسق آبائنا المؤسّسين(*)، كانت أثينا تستمتع بخدمة العبيد الأرقاء لها. بيد أن هؤلاء

(*) معبد الإلَهة أثينا على هضبة الاكروبولس في أثينا (المترجم).

كانوا أقليّة لا يُعتد بها، وهم في العادة من أسرى الحرب الذين احتفظوا بذاكرتهم وقبعوا ينتظرون على رجاء الحرية.

ومرة أخرى، على غرار ما كانت عليه «جمهوريتنا» في أيامها الأولى، وحدهم ملاّك الأراضي والعقارات كانوا يُعتبرون مواطنين؛ ومن بين هؤلاء، تمكنت الأسر العريقة (باليونانية: البتريديون(**)) من السيطرة عام 507 ق.م، على «البولا» أو مجلس الحكم الذي كان يرسم السياسات من مقرّه العالي فوق هضبة الأكروبولس، ويختار «الأراخنة» المولجين بإدارة شؤون الدولة.

لكن في ظل حكم شبه إقطاعي كهذا، كان لا بد أن تسوء أحوال الفلاحين في أتيكا، إلى أن بلغت في القرن السابع ق.م، حالاً خطيرة شبيهة بحال الفلاحين الفرنسيين بعد ذلك بألفين وخمسمئة سنة. كتب أرسطو عن ذلك يقول: «بضعة ملاّك يمتلكون كل الأرض»، والزرّاع معرّضون للبيع بيع الرقيق مع زوجاتهم وأطفالهم فيما لو عجزوا عن سداد الفوائد على ديونهم. وكان العديد من الفلاحين يتدبّرون أمرهم بصعوبة من خلال رهن أراضيهم بفوائد عالية. وإذا ما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الدفع، كانوا يفرّون إلى المدن ويسلّمون أنفسهم كأقنان إلى المتموّلين. لقد بلغ الضنك في أتيكا درجة رحّب معها العديد من الفلاحين بالحرب وعدّوها نعمة وبركة، طالما أنها قد تؤدي إلى كسب أراضٍ إضافية للاستيطان، وتقلّل من عدد الأفواه المتعيّن إطعامها.

ومع اقتراب القرن السابع ق.م من نهايته، «وصل التفاوت بين الأغنياء والفقراء إلى ذروته»، بحيث بدت مدينة أثينا، بشهادة بلوتارخ(***)، «واقعة في خطر حقيقي، وما من وسيلة ممكنة تنجيها من الفتن... إلاّ الحكم الاستبدادي». وبالفعل، شرع المُعدمون يتحدّثون عن ثورة عنيفة، وعن إعادة توزيع كاملة للثروة. أما ميسورو الحال، ممن لم يعودوا قادرين على تحصيل الديون المتوجبة لهم من المدينين، وينتابهم القلق للأخطار المحدقة بممتلكاتهم وادّخارتهم، فقد

(*) يقصد المؤلّف هنا مؤسّسي الولايات المتحدة الأمريكية من أمثال: واشنطن وجفرسون وآدمس وجاكسون.. إلخ. (المترجم).

(**) مفردها بتريد eupatrid: أحد ارستقراطيي أثينا الوارثين (المترجم).

(***) مؤرّخ يوناني عاش في روما وجال في الشرق (نحو 50-125م). يرد اسمه في الكتابات العربية بصيغ مختلفة: بلوتارخوس، فلوتارخ، أفلوطرخس... الخ (المترجم).

استحضروا قوانين قديمة، وساندوا تشريعات دراكون (620 ق.م) القاسية، وراحوا يتحضّرون للدفاع عن أنفسهم في وجه أية انتفاضة قد تتهدّد كل أملاكهم، والنظام القائم برمته، وحتى المدينة نفسها.

صولون

قد يبدو أمراً عجيباً صعب التصديق أن يظهر عند هذا المنعطف الخطير الذي وصلت إليه الحال في أثينا، رجلٌ قادر من دون اللجوء إلى العنف، لا بالقول ولا بالفعل، على إقناع الأغنياء والفقراء معاً على تسوية الأمور فيما بينهم تسويةً لم تحل دون نشوب الفوضى الاجتماعية فحسب، بل وأن يقيم فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصادياً جديداً وأكثر إنسانية من النظام السابق، من أجل البقية الباقية من تقاليد أثينا الحرة. حقاً، إن ثورة صولون السلمية لهي من معجزات التاريخ التي تبعث الشجاعة والأمل في النفوس!

كان والد صولون من الأشراف الكرام، ومن أرفعهم بيتاً وأنقاهم دماً؛ لكنه «بدّد ثروته في التصدّق على الناس والإحسان إليهم» على حد قول بلوتارخ. ولما لم يتبقَّ لصولون إلاّ موارده الخاصّة، فقد عزّى نفسه بقول له شهير: إن ثروة الغني «ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورئتيه وقدميه، وهي الأعضاء التي تأتيه بالسرور لا بالألم. كما أنها ليست خيراً من محاسن الشباب النضير، أو من وجود دائم الانسجام مع تقلّبات الحياة». وقد اشتغل صولون بالتجارة، وصار من التجّار الناجحين ذا مصالح موزّعة على نطاق واسع، أكسبته خبرة واسعة وسمعة رفيعة، واشتهر بين الناس بالفطنة والاستقامة. ولم يكن قد ناهز بعد الخامسة والأربعين من عمره، حين اختير في عام 594 ق.م، أرخوناً بالاسم «archon eponymos» (حرفياً: من يمثّل محلّةً معيّنة فتُسمى باسمه). وبموافقة جميع الطبقات والمناطق، أنيطت به سلطات ديكتاتورية مطلقة لإخماد الصراع الطبقي، ووضع دستور جديد للبلاد، وإعادة الاستقرار إلى الدولة.

وقد خيّب صولون آمال غلاة المتطرفين بإحجامه عن إعادة توزيع الأراضي. ولو أنه فعل هذا لأدّى ذلك إلى إشعال حرب أهلية واستفحال الفوضى مدة جيل كامل، وإلى عودة الفوارق بسرعة. ولكن صولون استطاع بفضل إجرائه

الشهير: «السيساكثيا» (أو رفع الأعباء)، أن يلغي - كما يقول أرسطو -: «جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة». وهكذا حرّر أراضي أتيكا من جميع الرهون بجرّة قلم؛ هذا إلى جانب أنه أطلق سراح جميع من استُرقوا أو احتجزوا بسبب الدَّين؛ وكل من بيعوا رقيقاً للخارج، جرى استردادهم وعتقهم، وحرَّم مثل هذا الاسترقاق في المستقبل. احتجّ الأغنياء بأن هذا التشريع هو في حقيقة الأمر مصادرة كاملة ومكشوفة لأموالهم؛ لكن لم تمضِ عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس، أو كادوا يجمعون على أنه أنقذ أثينا من لهيب الثورة.

وما هو أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية، تلك المراسيم التاريخية التي أنشىء بمقتضاها دستور صولون. وقد قدّم لها صولون بعفو عام عن كل الأشخاص الذين حُكم عليهم بالسجن أو بالنفي لارتكابهم جرائم سياسة لا تصل إلى حدود محاولة اغتصاب السلطة. وقد قسّم سكان أتيكا الأحرار إلى أربع شرائح تبعاً لمقدار ثروتهم، وفرض على الشريحة الأولى ضريبة دخل سنوية مقدارها 12% تقريباً، وعلى الثانية 10%، وعلى الثالثة 5%، ولا ضريبة بالمرة على الشريحة الرابعة. صحيح أنه استُعيض عن النظام الإقطاعي بنظام حُكم بلوتوقراطي(*) صريح، غير أن الدستور الجديد خطا عدة خطوات باتجاه الديمقراطية؛ وفتح أبواب «الإكليزيا» (الجمعية الوطنية) أمام كل المواطنين بصرف النظر عن ثروتهم، ومنحها صلاحية اختيار الأراخنة (من بين أعضاء الشريحة الأولى)، وإخضاعهم للمراقبة والمُساءلة. وكان من حق جميع المواطنين كذلك أن يتمّ اختيارهم بالقرعة (كوسيلة لتفادي سلطة المال) لعضوية مجلس أكبر حجماً هو «الهيليائيا»، ويضم ستة آلاف من المحلفين تتألف منهم محاكم متنوعة تنظر في جميع القضايا ما عدا جرائم القتل والخيانة، كما يقوم المجلس المذكور بدور محكمة الاستئناف العُليا. وهذه السلطة الممنوحة للمحاكم الشعبية كانت بمثابة الإسفين الذي أدخل الديمقراطية الأثينية إلى الحياة العامة، كما كان حصنها الحصين في مستقبل الأيام.

ولم يحجم صولون عن التشريع في ذلك الميدان المحفوف بالمخاطر، ألا وهو ميدان الأخلاق والآداب العامة. فقد اعتُبر الإصرار على البطالة جريمة؛

(*) حكم الطبقة الثرية أو حكومة الأثرياء (المترجم).

والرجل الذي ينغمس في الفجور، يُمنع من مخاطبة الجمعية. وجعل البغاء قانونياً، وفرض ضريبة على امتهان الدعارة، وأنشأ المواخير العمومية بترخيص من الدولة وإشرافها. وفرض غرامة متواضعة قدرها 100 دراخما على من يتحرش بامرأة حرّة، لكنه أباح لأي فرد يضبط زانياً بالجرم المشهود أن يقتله لساعته.

وجعل الإساءة إلى الأموات جريمةً، وكذلك كان اغتياب الأحياء في المعابد والمحاكم والدوائر العامة والملاعب الرياضية. إنما هيهات له أن يلجم ألسنة الناس في أثينا حيث كانت الغيبة والنميمة تبدوان من مستلزمات الديمقراطية. وقرّر أن كل من يلتزم جانب الحياد في أية فتنة أو عصيان، يفقد حقه كمواطن، لأنه شعر أن في لامبالاة الجمهور خراباً للدولة. وطالب بوجوب تربية وتعليم أبناء الذين يُقتلون دفاعاً عن بلادهم على نفقة الحكومة.

دأب المتطرفون على انتقاد صولون لإخفاقه في إقامة المساواة التامة بين الناس في المُلكية وفي السلطة. فيما راح المحافظون يندّدون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصّة القضاء. بل إن صديقه أناخارسيس، الحكيم السكيزياني الغريب الأطوار، سخر من دستوره الجديد، وقال في ذلك: إن الحكماء قد أصبحوا الآن هم الذين يترافعون، والحمقى هم الذين يحكمون. وأردف قائلاً: إنه لمن المستحيل أن تقوم بين الناس عدالة دائمة، لأن في وسع الأقوياء والأذكياء أن يحوّروا أي قانون يُسن لكي يتفق مع مصلحتهم الشخصية. إن القانون أشبه بشبكة العنكبوت، يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير.

كان صولون يتقبل كل هذه الانتقادات بصدر رحب، معترفاً بوجود ثغرات في شرائعه. ولما سُئل هل سنّ للأثينيين أحسن الشرائع، أجاب: «لا، بل سننت لهم أحسن ما يُمكن إعطاؤه لهم»، ونقول نحن: أفضل ما كان يُمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة في أثينا بأن تقبله كلها في ذلك الوقت. لقد اتبع الاعتدال، وبذلك صان الدولة. وكان تلميذاً نجيباً لأرسطو قبل أن يولد أرسطو. وتعزو إليه الروايات الشعار المنقوش على معبد أبولو في دلفي، وهو: «meden agan»، أي «لا إفراط في شيء». وقد أجمع اليونان على وضعه بين الحكماء السبعة.

وبعد أن ظل «أرخوناً» لمدة اثنتين وعشرين سنة، آثر صولون وقد بلغ

الثامنة والستين من عمره أن يعتزل الحياة العامة، وكان ذلك في عام 572 ق.م. وسافر بعدئذ ليطلع على الحضارة وأنظمة الحكم في مصر وبلدان الشرق الأدنى. وفي ذلك الوقت، على ما يظهر، قال مقولته الشهيرة: «لقد شختُ وما فتئتُ أتعلّم». وعقب عودته إلى أثينا اعتراه الأسى إذ رأى بيزستراتس يقيم حكماً ديكتاتورياً مطلقاً. لكن هذا الأخير ما لبث أن أعاد العمل بجميع شرائع صولون تقريباً، خاصّةً بعدما تمّ له ترسيخ وضعه في السلطة.

في غضون ذلك، كانت التجارة الأثينية تزداد توسعاً وأرباحها في ازدياد مطّرد، وهذا ما ضاعف من تطوّر الصناعة أكثر فأكثر. فعزمت طبقة رجال الأعمال على وضع حد نهائي للهيمنة السياسية لطبقة الأعيان مالكي الأراضي. وانتشر التعليم انتشاراً واسعاً، ووجد الخطباء جمهوراً متقبلاً للدعوة إلى حكم جمهوري أوسع. وفي عام 507 ق.م، أرسى كليستنيز، وكان هو نفسه حفيداً لديكتاتور، دعائم الديمقراطية الأثينية التي ستحافظ على شكلها الذي أُعطي لها حتى عام 338 ق.م. فأُنيطت السلطة العليا بمجلس جديد مؤلّف من خمسمئة عضو وعضو (501). وكان هؤلاء الأعضاء يُختارون لمدة عام واحد مداورة من جميع المواطنين الملاكين ممن بلغوا سن الثلاثين. وكان هذا المجلس يصرّف الكثير من الشؤون الإدارية ويُشرف على دواوين الموظفين، ويُحدّد ما هي المسائل والاقتراحات الواجب إحالتها إلى الجمعية؛ كما كان يحتفظ لنفسه بسلطات قضائية معيّنة. كان يحق لكل مواطن ـ وكانوا يبلغون زهاء 30 ألفاً ـ أن يحضر جلسات الجمعية. ويكفي حضور ستة آلاف منهم ليكتمل النصاب. فلم يحدث أن رأى العالم من قبل حقاً دستورياً على هذا القدر من الليبرالية، أو سلطة سياسية ذات قاعدة شعبية عريضة كهذه السلطة.

واغتبط الأثينيون أشد الاغتباط بهذه الوثبة الكبيرة نحو سيادة الشعب. ولقد عرفوا منذ ذلك الوقت طعم الحرية في العمل والقول والتفكير، وبدأوا يتصدّرون بلاد اليونان كلها في مجالات الأدب والفلسفة والفن، بل في الحنكة السياسية والحرب لفترة من الوقت. وعندما همت أعظم امبراطورية في ذلك العصر، الامبراطورية الفارسية التي غزت القاصي والداني، من أفغانستان إلى مصر، أن تفرض الجزية على هذه المدن المتفرقة المسماة بلاد اليونان، نسيت

أنها ستلقى في أتيكا مقاومة ضارية من أناس يمتلكون الأرض التي يفلحونها، ويديرون شؤون الدولة التي تحكمهم.

وكان من حسن حظ بلاد اليونان أن كليسثنيز قد أتمّ عمله وعمل صولون قبل وقوع معركة الماراثون باثنتي عشرة سنة. ففي تلك الموقعة، وكذلك في سلاميس، تقدّم الأثينيون الصفوف لردّ التحدّي الفارسي، ممهّدين بذلك الطريق لمقدم عصر أثينا الذهبي.

الفصل السابع

عصر أثينا الذهبي

بركليس

كتب الشاعر شيللي في عام 1820 يقول: إن «الفترة الواقعة بين مولد بركليس وموت أرسطو هي الفترة الأكثر رسوخاً في الذاكرة في تاريخ العالم كله».

وإذا كانت أثينا قد هيمنت على تلك الحقبة من الحضارة الأوروبية، فذلك لأنها قادت اليونانيين إلى الانتصار على الفرس في موقعة الماراثون (490ق.م)، ثم في معركة سلاميس (480 ق.م)، وخرجت من هذه المحن بأسطول بحري مكّنها من التحكّم بخطوط التجارة في البحر المتوسط، ومن السيطرة على حلفائها السابقين ووضع يدها على أموالهم المودعة في هيكل على جزيرة ديلوس(*). وبذلك أضحت تلك المدينة الصغيرة في أتيكا، الزعيم المُعترف به للامبراطورية الأثينية.

(*) في ذلك الوقت، كانت المدن اليونانية في آسيا الصغرى، وبحر إيجة، قد شكّلت «اتحاد ديلوس» بزعامة أثينا، وتبرعت كل منها بمقدار من المال أودع في هيكل أبولو في جزيرة ديلوس (المترجم).

ولحكم هذا «العالم»، ظل المواطنون ينتخبون بركليس، ابن زانثيبوس، المرّة تلو المرّة. فقد كان يملك كل المؤهّلات المطلوبة من تنشئة وتعليم. أبوه حارب في سلاميس، وأمه حفيدة النبيل الارستقراطي كليسثنيز، الذي منح أثينا شكلاً مُحَسَّناً من الديمقراطية. وبحسب ما وصفه بلوتارخ، كان بركليس الشاب «تامّ الهيئة لولا أن رأسه متطاول بعض الشيء ومختل التناسب». وكثيراً ما سخر منتقدوه منه بسبب رأسه المتطاول هذا. كذلك كان بركليس متمرساً تمرساً جيداً في فنون السياسة، والموسيقى، والأدب؛ وأصبح تلميذاً مجتهداً لكلٍ من أنكساغوراس وسقراط، وزوجاً لأسپازيا، أكثر نساء زمانها تحرّراً.

ذاع صيته كخطيب مفوّه فصيح اللّسان، لكن خطبه كانت باردة تعوزها العاطفة، وتروق أكثر للعقول الناضجة. وقد وصفه بلوتارخ بأنه «المبرأ بلا جدال من كل ضروب الفساد، والمترفّع عن جميع اعتبارات المال». بيد أن ذلك تأتى لشخصٍ دونما عناء، لأنه ورث عن أبيه ثروة طائلة.

لاحظ بركليس تأخّر طبقة النبلاء مالكي الأراضي عن ركب الاقتصاد التجاري النامي وعدم مسايرته كما ينبغي، فانتسب إلى الحزب الصاعد نجمه آنذاك، حزب «الديموس»، أي «سكّان أتيكا الأحرار». اختاره الناخبون ثلاثين مرة بين 467 و 428 ق.م، بدافع من الإعجاب والثقة به، وذلك لعضوية الهيئة الحاكمة: «الستراتيغوي» (أو قادة الدولة)؛ كما انتُخب لمنصب «الستراتيغوس أوتوكراتور» (القائد الأعلى، أو صاحب السلطة العليا).

وما عزّز من نفوذه بين العامة، المبالغ المالية التي كان يدفعها للمحلّفين في المحاكم، أو لمشاهدي المسرحيات الديونيزية(*)، أو الألعاب الرياضية الرسمية. والهيئة الأرخونية التي كانت حتى ذلك الوقت حكراً على الأغنياء، أصبحت بفضل إصلاحاته مشرّعة أمام كل الطبقات دونما استثناء. كما أمّن الأشغال للعاطلين عن العمل بتدشينه مشاريع عامة كبرى، من قبيل بناء «الأسوار الطويلة» التي تضع أثينا ومرفأيها (فاليروم وبيريوس) ضمن منطقة مسوّرة يتعذر على الأعداء دخولها إلاّ من جهة البحر ـ الذي كان الأسطول الامبراطوري يسيطر عليه سيطرة تامّة.

(*) نسبةً إلى ديونيزوس، إله الخمر والسكر عند الإغريق (المترجم).

وأملاً في جعل عاصمته أثينا تاج هيلاس(*) الثقافي، ورغبةً منه في إعادة بناء المعابد القديمة التي خرّبها الفرس توطئةً لمعركة سلاميس، على نطاق أفخم وأضخم من ذي قبل، جنَّد بركليس كل فنّاني أثينا، ومن بقي فيها من العاطلين عن العمل، في برنامج جريء يستهدف تزيين الأكروبولس بالصروح والروائع المعمارية. ومن أجل تمويل هذا المشروع الجبّار، أقنع بركليس «الجمعية» المتردّدة بنقل الأموال المودعة من قبل الاتحاد الديلي(**) في جزيرة ديلوس، إلى أثينا بحجة أنها موجودة هناك بصورة غير مأمونة ولا يُنتفع منها بشيء. كما أمر بتخصيص جزء من تلك الأموال لتجميل العاصمة النابضة بالحيوية والنشاط.

وبينما كانت هذه الأشغال جارية على قدم وساق، منح بركليس حمايته ودعمه اللامحدود لفيدياس وإكتينوس وغيرهما من الفنانين الذين شمّروا عن سواعدهم لتحويل حلمه إلى حقيقة واقعة. كما خصّ الآداب والفلسفة هي الأخرى برعايته. وبينما كان الشقاق بين الأحزاب يستنفد القدر الأكبر من جهود المواطنين، وغصن الأدب يذوي ويذبل في المدن اليونانية الأخرى، اقترنت في أثينا حوافز الثروة المتزايدة والحريات الديمقراطية مع القيادة المستنيرة لتصنع لأثينا عصرها الذهبي المجيد. وعندما كان بركليس وإسپازيا وفدياس وأنكساغوراس وسقراط يُشاهدون معاً إحدى مسرحيات يوريبيديس في مسرح ديونيزوس، كان في وسع أثينا أن ترى فيهم قمة الحياة اليونانية ووحدتها ـ الحنكة السياسية، والفن، والعلم، والفلسفة، والأدب، والدين والأخلاق؛ لا تعيش كمهن منفصلة كما في صحف المؤرِّخين، بل متشابكة معاً في نسيج واحدٍ متعدّد الألوان لتاريخ الأمة.

الشعب

ثمة جوانب للعصر الذهبي قد تثير حفيظتنا أو تخدش مشاعرنا. ومع ذلك، يجب أن نأتي على ذكرها ولو عابراً، إذا ما كنا نحرص على تجنب إضفاء المثالية الرومانطيقية على مشهد إنساني أولاً وأخيراً.

(*) هيلاس: اللفظ الإغريقي للتعبير عن بلاد اليونان (المترجم).

(**) نسبة إلى حلف ديلوس الذي سبق لنا تبيانه (المترجم).

بادىء ذي بدء، نذكر أنه من أصل 315 ألف نسمة كانوا يقطنون شبه الجزيرة الصغيرة المسماء أتيكا، 43 ألفاً فقط كانوا يتمتعون بالحق الدستوري في الاقتراع، و 115 ألفاً كانوا من العبيد الأرقّاء. وقد تجمّع كل هؤلاء العبيد في أتيكا بعدة طُرُق: فثمة أسرى الحرب ممن لم تُدفع فديتهم؛ وهناك غارات الاسترقاق على الدول غير اليونانية، وهناك المجرمون والعاطلون عن العمل والمتشردون.. إلخ. كان التجار اليونانيون يبتاعون العبيد أثناء شرائهم البضائع، ويبيعونهم في أثينا وكورنثيا، أو حيثما يجدون شارين لهم. في أثينا (كما في الولايات المتحدة حتى عام 1863)، كانت هناك أسواق نخاسة يتمّ فيها فحص العبيد وهم عراة قبل ابتياعهم. بل إن أفقر الفقراء من المواطنين كان يملك عبداً. ولكي يدلّل آيسكين على فقره ورقّة حاله، اشتكى من أن أسرته لا تملك سوى سبعة عبيد فقط. إنّ جميع عمال المناجم، بمن فيهم المناظرون والمهندسون، كانوا عبيداً؛ وسائر مناجم أتيكا والعاملين فيها كانوا مُلكاً للدولة.

كان الاقتصاد الأثيني لا يزال زراعياً في الأغلب. أما الصناعة فكانت تتم بمعظمها في البيوت، وإن كانت توجد عدة مصانع في المدينة، يعود أحدها إلى بركليس شخصياً. إن اليونانيين ميالون بطبيعتهم إلى التجارة أكثر من الصناعة. ونصف حياة اليونان باتت تتمحور بكل بساطة حول المعادلة التالية: تشتري بثمن بخس في مكان، وتبيع بثمن غالٍ في مكان آخر. إن الأميال الخمسة الممتدة بين أثينا وميناتها الرئيسي: بيريوس (البيريه)، كانت في العادة طريقاً تعجّ بالحركة والمواصلات التجارية أثناء النهار. فالسفن التجارية، الشراعية منها والمجذافية (وبعض هذه الأخيرة كان يستوعب 200 مجذّف من العبيد)، تمخر عباب البحر بسرعة ثمانية أميال في الساعة، متّجهة إلى زهاء مئة محطة تجارية موزّعة على سواحل البحر المتوسط الشرقية والشمالية.

وعلى ضوء هذا التفوّق البحري والازدهار التجاري، كان من الطبيعي أن يعمّ الرفاه ويزداد الترف وتتدهور الأخلاق. فكَثُر عدد البغايا، لكن نادراً ما كان الرأي العام ينحو باللائمة على القوّادين الذين يحمونهن. فقد اعترفت أثينا بمهنة الدعارة رسمياً وأعطتها صبغة قانونية، وفرضت ضريبة خاصة على ممتهناتها اللواتي كان من بينهن متمرّسات بالموسيقى والرقص وصنوف اللهو والترفيه الأخرى. بنات الهوى من الفئة الأرفع، المدعوات «هيتايراي» (أو الوصيفات)، كنّ

على درجة عالية من التعليم. فكنّ يرفهن عن سادتهن بالتحادث معهم في شؤون الأدب والفن أو الفلسفة. وقد راقت إحداهن لسوفوكليس، وأخرى - وهي أسپازيا - تزوجت من بركليس.

مشكلة البغايا لم تكن في القانون، بل في الغلمان. لقد دأب التجار على إحضار أجمل الصبيان لبيعهم إلى من يقدّم أعلى سعر في المزايدات، وكان الشارون يستخدمون الصبيان بمثابة «سرائر» أولاً ثم كعبيد. القانون الأثيني يحظر العلاقات الجنسية المثلية، لكن الرأي العام يتسامح معها. وحين تكلّم أفلاطون في كتابه «فدروس» عن الحب الإنساني، فإنما كان يعني به الحب بين اللواطيين. وقد رفعه المجادلون في «محاوراته» إلى مرتبة أسمى من الحب الطبيعي، حب الرجل للمرأة. وقد فسَّر أرسطو انتشار هذا الشذوذ الجنسي بخوف الإغريق من تكاثر السكان؛ أو لعله كان جزءاً من تراث أوروبا الشرقي، ويدين بالكثير لعزلة النساء. فالحياة في «الأغورا» (السوق العامة)، أو في الملاعب ومعاهد المصارعة (البلايسترا)، في أثينا، لم يكن يرى فيها الشبّان إلاّ صور الذكور. بل إن الفن نفسه لم يكن يكشِف عن الجمال الأنثوي قبل براكستلين، أي بعد بركليس بقرن كامل. وقلّما كان الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية. ذلك أن عدم انتشار التعليم بين النساء خلق فجوة بين الجنسين، فكان أن اُضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموا زوجاتهم من حيازتها.

لم يكن البيت بالنسبة للرجل الأثيني حصناً وملجأً، بل كان مهجعاً للنوم ليس إلاّ. فكان في كثير من الحالات يقضي النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها في المدينة، وقلّ أن يكون بينه وبين النساء المحترمات أية صلات اجتماعية. لهذا كان المجتمع اليوناني أحادي الجنس، يفتقر إلى الحيوية والظرف والمجاملة والاستثارة، وهي الصفات التي اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا عصر النهضة وفرنسا عصر التنوير.

وتبعاً لذلك، كانت تعوز الرجل الأثيني العادي كل عناصر الرقة والنعومة في شخصيته. فباستثناء السنوات الست الأولى من عمره، كان يقضي بقية عمره مع الذكور. وكانت شخصيته عند البلوغ تتكوّن في الأسواق تحت وطأة التنافس

التجاري، وفي معترك السياسة والفلسفة والحرب، وكذلك من خلال التفاعل الحادّ بين عقول واقعية مجرّدة من الأخلاقيات القائمة على الدين. ولئن سلَّم اليونانيون بأن الاستقامة هي السياسة الفضلى، ألاّ أنهم آثروا تجريب كل شيء أولاً.

لقد ماثل ثرازيماخوس السوفسطائي ما بين القوة والحق؛ وثوسيديدس، أعظم مؤرّخي اليونان، وافقه الرأي على وجه العموم. كان معظم اليونانيين رفقاء بالحيوانات، قُساةً على البشر، فكانوا يستخدمون بانتظام وسائل التعذيب لانتزاع المعلومات أو الاعترافات من العبيد غير المتهمين بأية تهمة، وينامون ملء جفونهم بعد أن يبيدوا مدينة برمّتها من المدنيين الأبرياء. غير أن المضطهَدين والمطاردين من الدول الأخرى كانوا يجدون ملاذاً حانياً لهم في أثينا. كانت الحرب، بشكل أو بآخر، ظرفاً عادياً في بلاد اليونان. فقد التحم اليوناني باليوناني آلاف المرات في معارك ضارية. وبعد مرور قرن من الزمن على معركة الماراثون، استنفدت ألمع حضارة في التاريخ القديم طاقاتها في حربٍ دامت سبعاً وعشرين سنة؛ حربٍ أشبه ما تكون بالانتحار الوطني.

لم يكن الأثينيون طيّبين نظراً لشدة ذكائهم. وكانوا يزدرون السذاجة أكثر مما يبغضون الرذيلة. وما من شعب قط كانت له مثل هذه الاستجابة الفورية للنزوات، أو هذه الرشاقة الكلامية مثلما كانت عند الأثينيين! التفكير الجلي، ووليده التعبير الجلي، كانا على ما يظهر أشياء مقدسة لدى المواطن الأثيني. فما كان يطيق صبراً على لُبْس المتعالم، وينظر إلى الحوار القائم على المعرفة والذكاء باعتباره أسمى رياضات الحضارة. كان يتفق مع بروتاغوراس على أن الإنسان هو معيار كل الأشياء الأخرى. والرغبة في المعرفة والفهم كانت أنبل «شهواته» على الإطلاق؛ شهوة لا تعرف الاعتدال مثل بقية الشهوات. لكنه سيكتشف فيما بعد محدودية العقل؛ والغريب أنه سيسقط في حالٍ من التشاؤم تتعارض والطبيعة المرحة لروحه. وحتى في الطفرة التي حقّقها في عهد بركليس، لم ينجُ الفكر الأثيني كما نراه عند أعمق مفكّريه، وهم بالمناسبة مسرحيون وليسوا فلاسفة، لم ينجُ من تلك المسحة القاتمة جداً لما رآه من قصر أمد الجمال والعناد الصبور للموت.

الفن في عهد بركليس

لم يحدّ من تعطّش اليونانيين إلى الثروة والجاه إلاّ حبّهم الجارف للذوق والجمال. تقول إحدى الشخصيات في مسرحية «المأدبة» لزينوفون: «أُقسم بجميع الآلهة أنني لن أفضّل سُلطان ملك فارس على الجمال». وتضيف شخصية أخرى في مسرحية «الاقتصاد» لزينوفون نفسه: «وجميل أيضاً أن ترى أواني الطبخ مرتبة بشيء من التناظر، وإنْ سخر من ذلك الحمقى المتفيهقون. أجل إن الأشياء جميعها دونما استثناء تبدو جميلة عندما توضع بترتيب بسبب التناظر».

هذا الإحساس بأهمية الشكل والتناسق، بالدقة والوضوح، وبالتناسب والنظام، هو العنصر الأساسي في الفن اليوناني. إنك تراه واضحاً في شكل وزخرفة كل قطعة ومزهرية، كل تمثال ورسمة، كل هيكل وضريح، كل قصيدة ومسرحية، وفي كل مؤلّف يوناني في العلم والفلسفة، ولا تراه ضعيفاً أو ناقصاً إلاّ في مجالات السلوك والدين والسياسة فقط. إن الفن اليوناني هو العقل مجسّماً بوضوح؛ والرسم اليوناني هو منطق الخطوط؛ والنحت اليوناني هو عبادة التناسق والتناظر؛ والعمارة اليونانية هي الهندسة في إهاب الرخام. ليس في الفن البركليسي مغالاةٌ في الأحاسيس والانفعالات؛ وليس فيه شذوذ أو غرابة في الأشكال (كما نجدها في الطقوس الديونيزية مثلاً)، ولا من تكلُّف بالجديد عن طريق الغريب واللامألوف. يقول ثوسيديدس على لسان بركليس: «نحن نحب الجمال من دون إسراف». فليس الغرض من الفن هو تمثيل ما في الواقع من تفاصيل لا تُعد ولا تحصى بصورة عشوائية، بل الغرض منه هو التقاط جوهر الأشياء التي ينيرها، وتصوير الإمكانيات المثالية للأشكال والحياة.

وبصرف النظر عن الصورة الساحرة التي يرسمها له الرومانطيقيون في العصور التي تقلّ عن عصره رجولةً، فإن اليوناني لم يكن بأية حال ذلك المخنّث الذوّاقة للجمال، أو إنساناً مهذاراً يتغنى بأسرار الفن حباً بالفن، بل كان يُخضع الفن في فكره للحياة، ويرى في العيش أعظم الفنون على الإطلاق. وكان ذا نزعة نفعية حسنة تميل به عن الجمال الذي لا نفع فيه. وقد ارتبط النفع والجمال والخير في فكره ارتباطاً وثيقاً شأنها في فلسفة أفلاطون. ولأنه يمتلك إحساساً

شديداً بالدولة، فقد وحَّد بينه وبين سؤدد مدينته وعظمتها، فاستخدم آلاف الفنانين لتجميل ساحاتها العامة، وتعظيم أعيادها وإحياء تاريخها.

وأهمّ من هذا كله، أن اليوناني كان حريصاً على أن يكرّم آلهته، ويستعطفها ويسترضيها، وأن يعبِّر عن شكره وعرفانه لها لما وهبته من حياةٍ أو نجاةٍ أو انتصار. فكان يقدّم لها النذور، وينفق بسخاء على المعابد والهياكل، ويستأجر الفنانين لينحتوا صوراً شبه خالدة لآلهته أو موتاه من الحجر. لذلك، لم يكن الفن اليوناني فناً يوضع في المتاحف ليتأمله الناس برهبة مستعارة، بل كان فناً يمتّ إلى مصالح الناس ومشاريعهم الحقيقية. لم يكن الفنان في المجتمع الأثيني ناسكاً يعتزل الناس، مفلساً في مرسمه، يعبّر عما يختلج في نفسه بلغة لا يفهمها المواطن العادي، بل كان في حقيقة أمره صانعاً ماهراً، يشتغل مع عمال من جميع الدرجات لإنجاز أعمال واضحة يفهمها جميع الناس. وقد استقدمت أثينا من كل أنحاء اليونان حشداً من الفنانين، ومن الفلاسفة والشعراء، أكبر مما استقدمته أية مدينة أخرى في أوروبا القديمة. وكان هؤلاء الفنانون يتنافسون أشدّ التنافس وفي الوقت نفسه يتعاونون كل التعاون فيما بينهم، في ظل حكم مستنير، وبذلك حقّقوا أحلام بركليس على نطاق ملحمي.

لن أتحدث هنا عن الخزف أو الفخّار الإغريقي، بل سأكتفي بتذكيركم بقول شيللي، وهو ينظر إلى جرّة إغريقية مزدانة بالرسوم: «ما برحت عروساً فاتنة للسكينة!». هنالك الكثير الكثير في أي شيء، شرط أن نعاينه «في صمت وأناة». ولكن كيف لنا أن نتحسس اليوم عبقرية رسّامين بركليسيين، من أمثال بوليغنوتس وزيوكسيس، ممن تركوا بالكاد خطاً واحداً لم يأتِ التاريخ المُهْمِل والمُثْقَل على محوه؟ حسبي أن أُخبركم هنا عن هذه السالفة التي تروى عن الرسام زيوكسيس. عندما جاءه رسام آخر متفاخراً بسرعته في الرسم، ردّ عليه زيوكسيس في هدوء: «إني أحتاج إلى وقت طويل».

لقيت التماثيل والمنحوتات نجاحاً أكبر من الرسومات على صعيد الفن اليوناني. وسأقتصر على ذكر منحوتتين رائعتين تعودان إلى ذلك العصر: «مولد أفروديت»، وهي عبارة عن نقش رخامي نافر، عُثر عليه بين خرائب «ڤيلا لودفيزي» الرومانية عام 1887. هنا نرى ربة الجمال، التي يعني اسمها «ابنة

الزَّبَد»، وهي تصعد من البحر والماء يتقطّر من جسدها، خارجةً مظفَّرة من قلب لجة هائلة؛ أو لعلكم تفضلون تمثال «ديسكوبولوس» (أو رامي القرص) المصبوب من البرونز للنّحات مايرون حوالى 470 ق.م. هذا الرياضي ليس كتلة مسعورة من العضلات المشدودة، بل رجل هادئ تعلو وجهه أمارات الثقة بالنفس؛ رجل دمث وحسّاس، في وسعه تأليف الكتب إن شاء.

أما فيدياس، الذي ظل بلا نظير في النحت حتى مجيء ميكلانجلو، فقد كان عزيزاً على قلب بركليس لاستهلاكه الذهب بلا حساب، ولكونه كبير النحّاتين العاملين على تزيين البارثنون. إنه هو من وضع التصاميم للمجموعات النحتية التي ستملأ الطُّنُف والأفاريز والقوصرات، وترك لتلاميذه أن ينفّذوها. لكنه هو نفسه من شكّل ثلاثة تماثيل للإلهة الحارسة أثينا لتُنصب فوق الأكروبولس، وأشهرها تمثال «أثينا بارثينوس» الذي يرتفع ثمانية وثلاثين قدماً داخل هيكل البارثنون، ويمثل الإلهة البتول للحكمة والعفّة.

كان البارثنون (أو هيكل العذراوات)، إحدى الروائع المعمارية العديدة التي نبتت في أثينا والمدن المنتسبة إليها إبّان ولاية بركليس. وتخريب العاصمة على أيدي الفرس في عام 480 ق.م، لم يدع مبنى واحداً ذا قيمة أو شهرة إلاّ وأحاله إلى رماد. وقف المنتصرون العائدون إلى المدينة محبطين، مثبطي الهمّة، إزاء هول الدمار من حولهم. لكن سرعان ما أمدتهم المناطق الداخلية الزراعية بالمؤن الغذائية، وحمل إليهم أسطولهم المظفّر المدد والدعم من عدة مدن. ووفّرت خزانة ديلوس الأموال اللازمة، وجلبت التجارة وأرباحها المزيد منها. فيما تولت فصاحة بركليس وبلاغته الضرب على أوتار الشجاعة والفخار لدى الأثينيين. وخلال السنوات الثماني عشرة الأخيرة من حياته (447-429 ق.م)، أنفقت المدينة مبلغ 60 مليون دراخما على أشغال العمارة والنحت والرسم. فكانت مدّخرات الأثرياء تُوزّع بسخاء على الفنّانين والحرفيين والعبيد. وبذلك أصبحت أثينا أعجوبة العالم لمدة قرن كامل.

الفلاسفة

في غمرة الخير الوفير المستجدّ هذا، شرعت العلوم والفلسفة تُسمع الناس

صوتها. كانت العديد من المدن اليونانية، وعلى رأسها إسبارطة، تحظر على الجمهور التداول في النظريات الفلسفية «بحجّة ما تثيره من حسد وشقاق ومماحكات لا طائل تحتها»، على حد تعبير أثينايوس. أما في أثينا البركليسية، فقد ملكت «البهجة العزيزة» للفلسفة (كما كان يدعوها أفلاطون) أفئدة ومخيلة أبناء الطبقات المتعلّمة؛ ففتح الناس الموسرون بيوتهم لاستقبال الفلاسفة وتكريمهم على نحو ما رأينا لاحقاً في فرنسا عصر التنوير. وحظيت المجادلات الذكية باستحسانٍ شبيه بالتصفيق والتهليل في الألعاب الأولمبية.

في تلك الفترة، قدم إلى أثينا الطبيب والنباتي والشاعر الصوفي الصقلّي أنباذوقليس، الذي كان قد طرح نظرية حول نشوء الإنسان وكل الكائنات الأخرى من خلال الصراع على الوجود، وبقاء واصطفاء الأصلح من بينها، وزوال الأنواع والأشكال بفعل التحلل الداخلي على اختلاف صوره.

ومن عبديرا الواقعة في الشمال المحسوب «بربرياً»، جاء ديموقريطس ليعلّم الأثينيين أن ما من شيء في الوجود لا يتألف من جسيمات مادّية؛ وأن الأفكار هي مجرد جسيمات دقيقة وغاية في النعومة. لكن زينون الإيلي كان قد سبقه إلى أثينا، ومتّع الفلاسفة هناك بأحاجيه الفكرية المعدّة لإثبات فلسفة المثالية النفسانية لأستاذه بارمنيدس، ومؤداها أنه ما دامت المادة لا تُعرف إلا بالعقل، فإن المادية ـ منطقياً ـ غير منطقية. صارت الفلسفة أشبه بالحُمّى في أثينا، وخشي رجال الدولة المحافظون أن يستتبع ذلك انحلال الأخلاق وتفكك الدولة.

حوالى 440 ق.م، أصدر أنكساغوراس، صديق بركليس، رسالته «في الطبيعة»، وقد رسمت الرسالة صورةً للكون كمزيج من الجسيمات أُبتعثها «نوس»، أو عقل مادي رقيق القوام، مماثلٌ لمصدر الحياة والحركة فينا. وجميع الكائنات العضوية إنما ولدت، في الأصل، من التراب والرطوبة والحرارة، وفيما بعد من بعضها بعضاً. وينبغي تفسير الظواهر كافة بأسباب طبيعية. ولما لم يعثر غريم بركليس الديماغوجي كليون(*) الملقّب بالدبّاغ، على وسيلة لإضعاف خصمه، رفع دعوى رسمية بالكفر والتجديف على أنكساغوراس، متهماً إياه بأنه

(*) بعض المترجمين العرب يسمّونه: أقلايونتس (المترجم).

وصف الشمس (وكانت لا تزال تمثّل إلهاً بالنسبة إلى الشعب) ككتلة حجرية ملتهبة. وقد تابع كليون الدعوى بإصرار وعناد شديدين حتى أُدين الفيلسوف فعلاً (حوالى 434 ق.م)، برغم دفاع بركليس عنه. فالتجأ أنكساغوراس إلى لمسباقيوس على الهلسبونت (الدردنيل)، حيث مات بعد بضع سنوات عن عمر يناهز الثالثة والسبعين.

كان من البديهي أن تضعف مخافة الآلهة في أوساط الأقلّية المثقفة في أثينا. وهنالك عاملان ساعدا على ذلك: تنامي الطبقة الوسطى الكثيرة التسفار، وانتشار التعليم الثانوي على أيدي المعلمين المتجوّلين الذين كانوا يعطون دروساً في البلاغة، والأدب، والعلوم، والفلسفة والسياسة. وبعضهم، مثل بروتاغوراس، سمّى نفسه «سوفيسطاي»، أي «معلِّم الحكمة». ومنهم من كان يتقاضى أجوراً مرتفعة جداً. ولما كان العديد من تلاميذهم قد فقدوا إيمانهم الديني، فقد اتُّهم معلموهم بالسفسطة (المغالطة) المُفسدة، التي لا تزال إلى اليوم سبّة ملتصقة باسمهم. لقد أذهل بروتاغوراس عصره بإعلانه أن «الإنسان هو معيار كل شيء»؛ وفي موطن يوريبيدس بالذات، بشّر بلاأدرية صريحة عندما قال: «فيما خصّ الآلهة، فأنا لا أدري إن كانت موجودة أم لا». فأمرته «الجمعية» بمغادرة أثينا، وصادرت جميع نسخ كتبه وأحرقتها في ساحة السوق.

وفي إطار هذا النزاع تحديداً، يجب النظر إلى مسار حياة سقراط والمصير الذي آل إليه. ربما كان سقراط أشهر يوناني من عهد بركليس. فنصف العالم الغربي يعرف رأسه الأصلع، ووجهه العريض، وأنفه الثخين، ولحيته الكثّة، ناهيكم بزوجته المُهْمَلَة، وأسلوبه المزعج في مُساءلة الآخرين، من دون أن يورّط نفسه أو يُلزمها بشيء إلاّ فيما ندر.

غير أننا نسمع الشيء القليل في التأريخ للفلسفة عن ميل تلاميذه إلى التخلّي عن إيمانهم الديني. واحدٌ من هؤلاء الشباب الشكّاكين القلّة كان ابن أنيتوس، زعيم الحزب الديمقراطي الأثيني. لم يكن أنيتوس هذا راضياً عن انتقادات سقراط للديمقراطية، فانتظر الفرصة السانحة للقضاء عليه. إنما دعونا أولاً نصعد وإياكم إلى القمة مع المسرح اليوناني.

الفن المسرحي اليوناني

إنه لأمر طبيعي أن تكون فلسفة عصر من العصور هي أدب العصر الذي يليه. فالأفكار والمسائل التي يُصار إلى حسمها في غضون جيل واحد على صعيد التأمل أو البحث، هي التي توفّر في الجيل اللاحق الأرضية للمسرحية والرواية والقصيدة الشعرية. أما في اليونان، فالأدب لم يتخلّف قط عن ركب الفلسفة؛ بل إن الشعراء أنفسهم كانوا فلاسفة، يُعملون تفكيرهم الخاص، ويتصدّرون الطليعة المفكِّرة في زمانهم. وهذا الصراع نفسه بين مذهب مقاومة التغيير ومذهب الدعوة إلى التغيير الجذري الذي أجَّج الدين والعلم والفلسفة اليونانية، وجد ما يُعبّر عنه كذلك في الشعر والمسرح، بل وفي كتابة التاريخ أيضاً. فوجدنا ثوسيديدس يخترع الخطب لشخصياته التاريخية كيما يلعب دور الفيلسوف. وحيث أن امتياز الشكل الفني اقترن بعمق التفكير التأمّلي في الآداب اليونانية، فقد وصل أدب العصر الذهبي إلى قمم شاهقة لم يبلغها أحد قط إلى حين مجيء شكسبير ومونتنيه(*).

انهارت المقاعد الخشبية في أحد مسارح أثينا حوالى 500 ق.م، مما أثار ذعر الحكومة، وحملها على بناء مدرّج ضخم من الحجارة في معظمه، على أحد منحدرات هضبة الأكروبولس. وقد سُمّي على اسم إله الخمرة: ديونيزوس. وفي ذلك الصرح المهيب المكشوف، الناهض على شكل صفوف نصف دائرية نحو البارثنون، والمواجه لربوة هميتوس والبحر، كانت تُعرض التراجيديات والكوميديات اليونانية تقديراً للآلهة، وفي حضور كبار الكهنة والمسؤولين في الدولة. ويُمكن القول إن تلك المسرحيات شكّلت مرحلة حاسمة في الحرب الناشبة ما بين الإيمان القديم والفلسفة الجديدة. وقد انصهرت كافة مراحلها في سيرورة فكرية واحدة واسعة النطاق، وما لبثت أن غيّرت وجه التاريخ الداخلي لليونان القديمة.

(*) ميشيل مونتنيه (1533-1592): كاتب ومفكّر فرنسي، عاش في التأمل والقراءة. دوّن أفكاره واختباراته في كتابين: «المحاولات»، وأظهر فيه عجز الإنسان عن بلوغ الحقيقة والعدل؛ و «اليوميات». وفيه أثبت نسبية الشؤون البشرية. فلسفته على العموم فلسفة شكوكية (المترجم).

في عام 460 ق.م، كان بركليس سنتذاك في الخامسة والثلاثين من عمره، أبدع إسخيلوس أولى مسرحياته العظيمة: «بروميثيوس مقيّداً». وفيها يحكي قصة رجل تحدّى الآلهة بتلقينه البشر فنون النار والمدنية، فأمر زيوس بمعاقبته على ذلك بأن يُقيّد بالسلاسل إلى صخرة في القوقاز كي ينهش نسرٌ قلبه، فيسترده ثانيةً في الليل ليعود فيؤكل من جديد نهاراً.. وهكذا. وفي الخلاصة الضائعة لثلاثيته، يُرينا الكاتب بروميثيوس وقد تصالح مع زيوس. لكن موضوعة تمرد الإنسان على إله قاس متحجر القلب، لبثت حيّة طوال اثنين وعشرين قرناً لتجد تعبيراً عاصفاً لها في قصيدة شيللي: «بروميثيوس طليقاً».

وفي ثلاثية أخرى بعنوان «أورستيا» (458 ق.م)، تناول إسخيلوس طرفَيْ المحاجّة كليهما، وصوّر جرائم الإنسان كأعمال تُشارك فيها الآلهة وتُعاقب عليها في آن. فعندما توقف أسطول أغاممنون المتجه صوب طروادة من جرّاء انحباس الريح، أقدم هذا الأخير على ذبح ابنته إيفغينيا في طقسٍ من طقوس الأضاحي كي تُرسل إليه السماء ريحاً مؤاتية. وأثناء حصاره لطروادة، زايل زوجته كليتمنسترا كل شعور بالحب تجاهه، ومالت إلى إيغيستوس وخانت زوجها معه. ولدى عودته من طروادة، قُتل أغاممنون غيلةً على يد زوجته الخائفة وعشيقها. لكن ابنها أُورستس، الذي شبّ وسط هذه الأهوال، يستجيب لتحريض أخته إلكترا، ويُجهز على أمه كليتمنسترا وخليلها إيغيستوس، ليُطارده من ثم غضب الآلهة الناقمة المنتقمة، جسداً وعقلاً. فكيف تأتى لهذا القدر الهائل من الشرّ أن يجد سبيله إلى طقوس العبادة وإلى قلب الإنسان؟ إن هذه الثلاثية الدموية ليست مجرّد من قصص الجريمة، بل هي إدانة قوية للبشر وللآلهة التي تخيلوها على حد سواء. وتُعدّ «أورستيا» أرفع إنجاز يحقّقه الأدب اليوناني بعد «الألياذة» و «الأوذيسة»، ولربما لم يبدع شكسبير ذاته ما يضاهيها قط.

في عام 468 ق.م، وكان إسخيلوس قد ذرّف على السابعة والخمسين، خسر المسرحي الكبير جائزة المسرح ليفوز بها شاب في السابعة والعشرين، يحمل الاسم المفعم بالتحدي: سوفوكليس، أي «الحكيم والمُهَلّل له». بلى، لقد كان خليقاً بالصفتين كلتيهما، إذ جعل يفوز بالجائزة تلو الجائزة، في مسرح ديونيزوس وعلى خشبة الحياة معاً. فأبوه صانع سيوف، وقد اغتنى من هذه الصنعة نظراً لولع الإغريق بالحروب. فلم يكن الابن يملك ثروة طائلة فحسب، بل

ويتحلى بالوسامة والنباهة كذلك. كان سوفوكليس لاعب كرة، وعازف قيثارة وراقصاً ماهراً. وصار من أصدقاء بركليس، وتولى مناصب رفيعة تحت قيادته: في عام 443 ق.م، عمل أميناً للخزانة الامبراطورية، وفي عام 440 ق.م، عُيِّن قائداً عسكرياً بارزاً. كان شديد الورع، إنما يحب مباهج الحياة مع ذلك. في سن النضوج، عُرف عنه استلطافه للغلمان، لكنه في سنوات الشيخوخة صار يفضّل عليهم الداعرات. لقد تذوَّق أطايب الحياة جميعاً، معتبراً أن أكثر الناس حظًّا هو الإنسان الذي لم يولد قط. وامتد به العمر حتى ناهز الحادية والتسعين.

ظلّت مسرحيات سوفوكليس معروفة بين أوساط الباحثين والدارسين فقط إلى قرننا هذا (القرن العشرين)، حين أفادنا (سيغموند) فرويد وأتباعه بأن فتاة مثل إلكترا، من الطبيعي جداً أن تحب أباها وتغار من أمها؛ وأن يُقدم من جهة أخرى ابن حقيقي مثل أوديب، وإنْ عن غير قصد، على قتل أبيه والزواج من أمه. إنما لا يجوز الإنحاء باللائمة على سوفوكليس لهذا التضخيم للحالات العُصابية العَرضية. فكل ما فعله هو قصّ حكاية مألوفة على مسامع الجمهور. وما أضافه كان فقط البنية الحاذقة والمهذّبة لمسرحياته، والانسياب الشجي لأشعاره الجليلة. يُعتبر شعره بمثابة الشكل «الكلاسيكي» النموذجي للتعبير: مصقول، ورائق وجليل؛ مفعم بالحيوية دون انفلات؛ كل بيت فيه وثيق الصلة بالموضوع؛ وكل حادثة عنده تتجه إلى الذروة وتكشف المغزى.

لكن، وحيث إنني معجب بالكلاسيكي وأُحب الرومانطيقي، فأنا أؤثر يوريبيدس عليه. ذلك أن يوريبيدس كان رومانطيقياً دونما خجل، وتمتزج المشاعر في فكره، ويبغض الظلم أشدّ البغض، ويحلم بعوالم أكثر عقلانية. ومن أصل مسرحياته الخمس والسبعين لم يتبقّ سوى ثماني عشرة مسرحية، لكنها كلها تقريباً كانت مجنَّدة في حملته ضد الخرافة والظلم والحرب. أخبر الأثينيين أن الآلهة التي يُطلب منهم عبادتها، ما هي إلاّ خيالات صبيانية؛ وهي قاسية لا تعرف الرأفة.

وفي إحدى مسرحياته، يقدّم لنا يوريبيدس ميديا في عنفها الهمجي وحقدها البربري كله، لكنه أفهم الرجال المتفاخرين الذين يحكمون أثينا أنه لم يرَ...

من كل الكائنات على الأرض التي تنمو وتنزف،
عُشبةً أكثر عرضة للتهشيم مثل المرأة. علينا أن ندفع
ما لدينا من ذهب، المدّخر لذلك اليوم بالذات،
لنشتري لأنفسنا حب رجلٍ ما. فيأتينا ـ انظروا! ـ
بسيدٍ للحمنا!... وبعد ذلك الخطر الداهم:
فمن عساه يكون، لحسن الحظ أو لسوء الحظ، ذلك السيد؟...
وما لم يعلّمها إياه البيت: ما هي أفضل طريقة للأخذ بذاك الشيء
المضطجع بجانبها إلى الطمأنينة والسلام؟
إنها، وهي التي جهدت طويلاً، ستجد وسيلة ما
لتجعل سيدها يتحمّلها، فلا تنسّل نيره بضراوة.
مباركٌ هو النَّفَس الذي تشهقه المرأة!
وإلاّ فدعها تصلّي لموتها.

لعل أجرأ مسرحياته على الإطلاق، مسرحية «الطرواديات» التي عُرضت في العام 415 ق.م، في غمرة الحرب البيلوبونيزية الضارية بين أثينا وإسبارطة. وقد بلغت به الجسارة حدّ إظهار مشاعر الجيش المهزوم، وتصوير خراب طروادة بعدما أحرق المنتصرون المدينة وأحالوها رماداً، فيما هم يقتادون نساءها المترملات إلى التسرّي أو إلى العبودية.

الملك بريام ميت الآن؛ وابنه وولي عهده، هكتور، قُتل في المعركة مع أخيل. أرملته العجوز، هيكوبا، تتضرّع إلى أرملة هكتور الشابة، آندروماك، أن تسلّم نفسها بصمت للتسرّي، أملاً في أن يُبقي آسروها على طفلها الملكي، آستياناكس، حيّاً. لكن اليونانيين يخشون من أن الطفل قد يعمد إلى الانتقام لاحقاً، ويُطالب بعرش طروادة، فإذا بهم يطوحون به من فوق أسوار المدينة ليلقى حتفه. يأتون بجثته إلى هيكوبا لتتولى دفنه بشكل لائق. فتخاطبها العجوز بلغةٍ هي ذروة الوجدان والشجاعة اليوريبيديين، متحديةً في الوقت نفسه الإغريق المنتصرين وترميهم بالخزي والعار:

(تتناول هيكوبا الطفل الصغير)

هيكوبا: آه! أية ميتة تلقفتك يا صغيري!...

يا للذراعين الغضَّتين! تقاطيعك العزيزة هي

نفسها تقاطيعه... وشفتاك الأبيَّتان العزيزتان،

المفعمتان بالأمل، أطبقتا إلى الأبد!

أي كلام كاذب جئت تُسمعني إياه عند الفجر،

حين تسلَّلت إلى مخدعي وأخذت تناديني بأسماء لطيفة،

وتعدني: «إذا مُتُّ يا جدتي، سأقص شعري قصيراً، وأدع القادة جميعاً

يمشون في جنّازك». فلماذا كذبتَ عليّ؟

كان الأحرى بي، أنا المرأة العجوز، الطريدة الثكلى

أن أبكيك بالدمع الغزير،

أبكي طفولتك، وأبكي ميتتك التعسة.

يا إلهي! وأبكي ترحيبات خُطاك الخفيفة الوقع بي،

وأبكي جلوسك في حجري، وأبكي رقادنا العذب معاً!

لقد ذهب كل هذا ولن يعود.

وإذا شئتُ أن أحكي حكايتك على حقيقتها،

أكتب على شاهد قبرك:

«هنا يثوي طفل خافه اليونان،

فقتلوه لأنهم خافوه».

أجل! وستحفظ اليونان كلها هذه الحكاية!

ألا ما أشد غرور الإنسان!

إنه يتباهى بمسرَّاته ولا يخاف شيئاً،

فيما عاديات الزمن ترقص جيئة وذهاباً،

كالأبله في مهب الريح!...

(تلفُّ الطفل في أكفانه)

إنّ بهاء اللباس الفريغياني، هذا الذي اّدخرته
ليوم زفافك من ملكة شرقية
نأتيك بها من أقاصي المعمور،
يجلّلك الآن إلى الأبد.

إن موجة الاستياء العام التي قُوبلت بها مسرحية «الطرواديات»، جعلت يوريبيدس يشعر كما لو أنه لم يعد له أي صديق في أثينا، ماعدا سقراط. وفي عام 408 ق.م، وكان قد مضى زمن طويل على وفاة بركليس، وناهز هو الثانية والسبعين، جاءته دعوة من الملك أرخلاوس لينزل ضيفاً عليه في بلاّ، عاصمة مقدونيا، فقبلها. وهناك ذاق يوريبيدس طعم الراحة والطمأنينة لمدة ثمانية عشر شهراً؛ وهناك أيضاً لقي حتفه، في عام 406 ق.م، إثر مهاجمة كلاب الصيد الملكية له، وتمزيقها إياه شرّ ممزق، حسب رواية اليونانيين الثُّقاة.

أحرز يوريبيدس شعبيةً بعد مماته حتى في أثينا ذاتها. والأفكار التي طالما ناضل من أجلها، أضحت المفاهيم والتصورات السائدة في القرون التالية. والعصر الهلّينستي، على وجه الخصوص، عاد ينظر إليه وإلى سوفوكليس بوصفهما أكبر حافزين فكريين عرفتهما بلاد اليونان في تاريخها. وفي الوقت الذين اّنزلقت فيه مسرحيات أسلافه إلى مطاوي النسيان النسبي، كانت مسرحياته هو تُستعاد على الخشبة سنةً بعد سنة وحيثما وُجد مسرحٌ في العالم الإغريقي. يُخبرنا بلوتارخ أنه حين واجه الأثينيون الموت أحياءً كعبيد في مقالع الحجارة الإيطالية، بعد فشل الحملة العسكرية لأثينا على سيراكوز بصقلّية عام 415 ق.م، وحدهم الذين اّستطاعوا استظهار مقاطع من مسرحيات يوريبيدس أُعيدت إليهم حريتهم. واّنبعاث النزعات الليبرالية والإنسانوية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جعل من يوريبيدس شخصيةً مُعاصرة تقريباً. وبالإجمال، وحده شكسبير بلغ شأواً يُضاهيه، وإنْ كان غوته ليس من هذا الرأي. تساءل غوته ذات يوم: «هل أنجبت أمم الأرض بعد يوريبيدس كاتباً مسرحياً جديراً بأن يخلفه؟» والجواب على هذا أنها لم تنجب سوى كاتب واحد فقط.

الكارثة

وبقية قصة أثينا بركليس تُختصر بكلمتين: decrescendo doloros(*) فمن قمم المسرحيات الدرامية الشامخة، نهبط إلى هزليات أريستوفان. إنها أعمال ذكية، لكنها فظّة لا تعرف الشفقة؛ تستهزئ ببركليس ويوريبيدس وسقراط؛ وتهاجم الديمقراطية والشكوكية والتسيُّب الخُلقي؛ وتدعو للعودة إلى سلوكيات عفّى عليها الزمن تقريباً، وتنادي بوضع حد للحرب.

في عام 431 ق.م، بدأت إسبارطة وأثينا حربهما التي عُرفت بحرب البيلوبونيز، والتي دامت 27 عاماً، بسطت خلالها رداءً من التعاسة والقساوة والكآبة على بلاد اليونان وروحها. وقد شارك ثوسيديدس في ذلك النزاع، وسجَّل مجرياته بالتفصيل في واحدة من عيون الأدب الكلاسيكي العالمي.

خشيت إسبارطة من أن تطوِّقها امبراطورية أثينا المتعاظمة شأناً وقوة بأسطولها الجبّار، فحشدت من حولها الحلفاء وأعلنت الحرب عليها. فغزت أتيكا وعاثت فيها دماراً وخراباً. أما أثينا التي أهملت جيشها، متّكلة أكثر مما ينبغي على أسطولها البحري، فقد عجزت عن الدفاع عن منطقتها الخلفية، وأُجبرت على استدعاء السكان ليحتموا داخل أسوار المدينة. وهناك تحمّلت الأُسر المكتظّة الحصار والجوع والطاعون والغليان السياسي على مدى جيل كامل. كان بيركليس قد توفي (429 ق.م) بعد عامين من اندلاع الحرب؛ فكان أن سلّم الأثينيون، الذين سئموا من ديمقراطيته الأرستقراطية، زمامهم لجماعة أوليغارشية (أقلّية) من الدهماء الذين راحوا يقودونهم من نكبة إلى أخرى.

وأخيراً وضعت الحرب أوزارها (404 ق.م)، تاركةً أثينا ترتع في الفوضى واليأس. فاستغلت ثلّة من الأعيان الأرستقراطيين بزعامة كريتياس حالة الفوضى السياسية هذه، وشكّلت «مجلس الثلاثين» لحُكم أثينا في عام 404 ق.م. فصادر المجلس الممتلكات، وهذا ما أفقده تأييد العديد من التجّار الأغنياء. كما نهب الهياكل، وباع بثلاثة طالنات فقط أرصفة ميناء بيريوس التي كلّف بناؤها ألف طالن. وأرسل إلى المنافي زهاء خمسة آلاف ديمقراطي، وحكم على ألفٍ

(*) ومعناها حرفياً: «التقهقر المُحزن» (المترجم).

وخمسمئة آخرين بالموت. وعلّق الحريات كافة، ولاسيما حرية التجمّع وحرية التعبير. ومنع كريتياس سقراط من مواصلة إلقاء خطبه وأحاديثه على الملأ.

نسي الناس جميع أخطاء الديمقراطية مع تعاظم أزمة الطُغمة الأوليغارشية، وازداد يوماً بعد يوم عدد الرجال، وحتى الأغنياء، الذين بدأوا يعملون لوضع حد نهائي لحكم الطغيان. وحين اقترب ألف ديمقراطي مسلح بقيادة ثراسيبولس من ميناء بيريوس، تصدى لهم كريتياس على رأس عُصبة صغيرة، لكنه هُزم ولقي مصرعه. هنا دخل ثراسيبولس أثينا وأعاد إليها الحكومة الديمقراطية.

ومن بين الديمقراطيين المنتصرين، كان أنيتوس، الرجل عينه الذي كان قد تعهّد قبل سنوات بالثأر من سقراط لأنه أثخنه جراحاً في مجادلاتهما، وكذلك «لإفساده» ولده. ما كان أنيتوس لينسى أنه أثناء نفيه من قبل «مجلس الثلاثين»، بقي ابنه في أثينا مع سقراط، وصار سكّيراً. بدا لأنيتوس أن سقراط، وأكثر من أي سوفسطائي آخر، كان له تأثير شرير على الدين والأخلاق، وأنه قوّض إيمان الأثينيين المتعلمين بالديمقراطية. وأن الطاغية كريتياس نفسه كان واحداً من تلاميذ سقراط، وألكيبيادس، المتهتك والخائن، كان خليلاً لسقراط، وأن خارميدس، محبوبه الأول، قُتل لتوّه في المعركة ضد الديمقراطية. وخُيِّل لأنيتوس أن الفرصة قد سنحت أخيراً لإجبار الفيلسوف على مغادرة أثينا.. أو الموت.

وُجِّه الاتهام إلى سقراط في عام 399 ق.م، والذين رفعوا القضية عليه كانوا ثلاثة وهم: أنيتوس، وملاتوس وليقون. وقد أدّعوا أن «سقراط أساء إلى المجتمع في أنه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها الدولة ... وأنه مذنب في إفساده الشباب». فجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية مؤلّفة من خمسمئة مواطن، معظمهم من الفئات الأقلّ تعليماً. ردّ سقراط بأنه يؤمن بآلهة الدولة، وحتى بألوهية الشمس والقمر. لكنه رفض أن يعد المحكمة بالتزام الصمت: «لن أتوقف مطلقاً عن تعاطي الفلسفة وتدريسها... ومهما فعلتم، اعلموا أنني لن أغيّر من طُرُقي أبداً، حتى ولو تحتّم عليّ أن أموت مرّات عديدة». فصدر الحكم عليه بالإدانة، وذلك بأغلبية ستين صوتاً. وكان لديه امتياز وهو أن يقترح عقاباً آخر

بدل الإعدام. ولكنه أبى أول الأمر. فلما ألحّ عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ووقعوا وثيقة تعهّده بصفة ضامنين له، عرض أن يدفع غرامة قدرها 30 «مينا» (حوالى 5,000 دولار). لكن الاقتراع الثاني للمحلّفين اعتبره مذنباً بثمانين صوتاً إضافية عن الاقتراع الأول. هنا، أعرب أصدقاؤه عن استعدادهم لدفع رشوة تسهيلاً لفراره، لكنه رفض ذلك وقال لهم إنه لن يتخلى إلا عن أكثر مراحل الحياة خرفاً ومشقّة.

وانتهى العصر الذهبي بموت سقراط. كانت أثينا قد استنفدت جميع طاقاتها المادية والمعنوية، وأحسّت بانحطاط شخصيتها من جراء النزاعات الضارية التي دامت قرابة جيل كامل. شيئان اثنان حفظا لها حياتها وأطالا بقاءها: عودة الديمقراطية، وشعورها بأنها في خلال الستين سنة الأخيرة، وبرغم الحرب، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يدانيهما نتاج أي عصر آخر قصير الأمد كعصرها في تاريخ البشرية.

صحيح أن أنكساغوراس قد نُفي، وسقراط قد أُعدم، لكن القوة المحفّزة التي بعثاها في الفلسفة كانت كافية لأن تجعل أثينا قمينةً بأن تولّد في السنوات الستين التالية منظومات فكرية سوف تزدهر وتينع في أوروبا لقرون عديدة آتية. ولن تلبث أن تحلّ محل السوفسطائيين الجوّالين في ميدان التعليم العالي، جامعات ستجعل من أثينا في مستقبل الأيام «مدرسة هيلاس» بحق وحقيق.

هذا ولم تقضِ الحروب والنزاعات، وما أُريق فيها من دماء، على مقومات الفن وتقاليده تماماً. فعمّا قريب سيأتي أبيلز وبراكستيلز، وسيظل الرسّامون والنحّاتون والمعماريون اليونانيون، ولعدة قرون قادمة، يرسمون وينحتون ويبنون لجميع بلدان البحر المتوسط.

ومن قلب اليأس الذي دبّ فيها بعد هزيمتها، نهضت أثينا من جديد بحيوية مذهلة لتنعم بثروة جديدة، وثقافة جديدة، وقوة جديدة؛ وكان خريف حياتها وافر الثمرات حقاً.

الفصل الثامن

من أفلاطون إلى الإسكندر

بعد الحرب

نحن الآن في عام 399 ق.م، العام الذي مات فيه سقراط وكان فيه أفلاطون بعد شاباً في الثامنة والعشرين من عمره. أثينا تنهض من وعثاء هزيمتها، وإسبارطة تسترخي هانئة بالنصر.

أثينا لديها اقتصاد وصناعة منتعشتان؛ وإسبارطة تعرف زراعة راكدة يعمل فيها عبيدٌ فاترو الهمّة. كتب أرسطو يصف هذه الحالة: «بعض الإسبارطيين يملكون أراضي شاسعة، والآخرون لا يملكون شيئاً تقريباً. فالأرض كلها في حوزة قلّة قليلة».

وعندما حاولت إسبارطة أن تملي إرادتها على طيبة، تمكّن جيش تابع لها بقيادة إپامينونداس وثلاثمئة من «العشاق الإغريق» (ممن تجمعهم آصرة اللواط)، من إلحاق الهزيمة بالإسبارطيين عند لوكترا (371 ق.م)، وبذلك أُسدل الستار على هيمنة إسبارطة على بلاد اليونان.

أما وقد تحرّر الأثينيون من خوفهم من إسبارطة، فقد أعادوا بناء أسطولهم التجاري، وبحريتهم الحربية، وامبراطوريتهم المتوسطية. لقد استؤنف العمل في

مناجم لوريوم على أيدي العبيد، واستُخرجت الفضة منها بكميات هائلة، حتى إن المال تضاعف بأسرع من البضائع، والأسعار ارتفعت بأسرع من الأجور، وتعيّن على الفقراء أن يتحمّلوا أعباء كل هذه التحوّلات. كان الناس يجمعون ثروات طائلة عن طريق شراء المنتجات المحلية بأبخس الأثمان، ثم يبيعونها لقاء ربح معلوم في ربوع البلاد أو خارجها. فازدهرت أحوال النبهاء؛ أما البسطاء أو المحرومون، فوقفوا ينظرون باستياء متعاظم إلى هذا التركّز السريع للثروة. تضاعف عدد المصارف وتنوّعت خدماتها وأستثماراتها وقروضها. وقد ابتدعت فعلاً نظاماً جديداً للائتمان. وهذا التحوّل من الثروة العقارية إلى الثروة المنقولة، أفرز صراعاً وتنافساً شديداً على المال، وأدى إلى بروز تعابير يونانية جديدة، مثل: «كرماتستيكه» (السعي المحموم وراء الثروة)، و «بليونكسيا» (الشهية لابتلاع المزيد والمزيد)، و «نيوبلوتوي» (الأثرياء الجدد).

ووسط هذه اللّجة من المال والثروة، مضى الفقر يتعاظم والبؤس يتفاقم. فنفس حرية التبادل وتعدّد أشكاله اللذين أتاحا للإنسان الفطن أن يجني المال الوفير، دفعا الإنسان البسيط إلى فقدان ماله بسرعة أكبر، وبأساليب أكثر تنوّعاً من ذي قبل. وعلى حد وصف أفلاطون: «أضحت أثينا مدينتين، إحداهما للفقراء، والأخرى للأغنياء؛ والواحدة منهما في حرب مع الثانية». الفقراء يُخططون لسلب الأغنياء ثرواتهم إما بواسطة القانون أو بالثورة؛ والأغنياء ينظّمون صفوفهم لحماية أنفسهم من الفقراء. والمثقفون، على وجه العموم، يأخذون جانب الفقراء في هذه المواجهة. وحتى الأغنياء من بين هؤلاء، كأفلاطون مثلاً، كانت ثمة أفكار شيوعية تدغدغهم.

وفي النهاية، تمكّن أشدّ الناس فاقةً من الاستيلاء على «الجمعية»، وشرعوا يصوّتون لنقل ممتلكات الأغنياء إلى خزانة الدولة، ليُصار إلى توزيعها ثانيةً على أفراد الطبقات الدنيا. هنا عصر المشترعون أدمغتهم بحثاً عن مصادر جديدة للإيرادات العامة. وكان من نتيجة ما فُرض من ضرائب ورسوم جديدة أن حدث اختفاء بالجملة للثروات والمداخيل. وبات التهرّب من الضرائب شاملاً وحاذقاً مثل فرضها تماماً. فكانت البيوت تُداهم، والسلع تُصادر، والناس يُزجّون في السجون لإجبارهم على دفع ما عليهم من ضرائب. كتب إيزوقراط في عام 353 ق.م. يشتكي: «عندما كنتُ صبياً، كان يُنظر إلى الثروة على أنها شيء

مُطَمْئِن ورائع، حتى إن كل فرد كان يتظاهر بامتلاك فوق ما يمتلك فعلاً،... أما الآن، فقد بات على المرء أن يكون مستعداً ليدفع عن نفسه تُهمة الغنى كما لو كانت من أشنع الجرائم». وحتى الطبقات الوسطى، ناهيك بالغنية، بدأت تفقد ثقتها بالديمقراطية وتنظر إليها على أنها حسد أُتيح له سلطان. كما أخذ الفقراء يرتابون بها ويرونها مساواة صورية بين الناخبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات. وقد تركت هذه الأحقاد المريرة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً حين انْقضّ عليها فيليب المقدوني. فلا غرو أن يرحب بقدومه كثيرون من الأغنياء اليونانيين باعتباره البديل عن خيار الثورة.

هذا وقد صاحب ازدياد الترف واستنارة العقل انحلال خُلقي. كانت الجماهير ضنينة بخرافاتها، وقد ازدادت تشبثاً بأساطيرها التي تمنحها العزاء. صحيح أن آلهة الأولمب كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، إلا أن آلهة أخرى جديدة كانت في طور الولادة، دع عنك تلك الدخيلة التي جُلبت من مصر وآسيا. فلم تعد للدين التقليدي القديم أية رهبة تُذكر لدى الطبقة الوسطى الأثينية شبه المتغرّبة الآخذ شأنها في الارتفاع. وكما قال أفلاطون «أما وأن في الناس الآن طائفة لا تؤمن البتة بوجود الآلهة... فصار من الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التي تقسمها كلتا الطائفتين».

سعت الفلسفة جاهدة إلى إيجاد بديل طبيعي عن الوصايا السماوية والآلهة التي تُراقب التقيّد بها في الولاء المدني والعقل المستنير. لكن الأخلاقية الجنسية والاجتماعية والسياسية استمرت في التدهور والانحطاط. وزاد عدد العزّاب والسراري، وأصبحت العلاقات بين هؤلاء وأولئك موضة العصر؛ ورجحت كفة الارتباط الحرّ على كفة الزواج الشرعي. اسمعوا إحدى الشخصيات في ملهاة تعود إلى القرن الرابع ق.م، تسأل: «أليست المحظية مرغوباً فيها أكثر من الزوجة؟ لِمَ لا؟ فإحداهما تملك القانون إلى جانبها، القانون الذي يُرغمنا على الاحتفاظ بها مهما كانت منفّرة لنا، والأخرى تعرف أن عليها أن تستحوذ على الرجل بحُسن تصرّفها، وإلاّ فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره». وأصبح تحديد عدد أفراد الأُسرة عُرفاً ساري المفعول في ذلك الوقت، سواء بواسطة وسائل منع الحمل، أو الإجهاض أو حتى قتل الأطفال.

واستمرت الأخلاق السياسية على تدهورها المتواصل. فكانت الرشوة متفشّية على مستويات الحكم كافة. ولم يجد الفرس أية صعوبة في إرشاء ساسة اليونان لتسعير نيران الحروب ما بين الدول اليونانية. وكان المرتزقة اليونانيون يبيعون أنفسهم للزعماء في بلادهم وللبرابرة (أي من غير اليونانيين) لا فرق. فالجيوش الفارسية التي واجهها الإسكندر كانت تغصّ باليونانيين.

في غضون ذلك كله، كانت جماعة الخطباء، أو البلغاء، الصاعدة تصطبغ شيئاً فشيئاً بطابع المحامين والساسة المحترفين. فكان أفرادها ينظّمون الحملات الانتخابية ويديرونها ويجمعون التبرعات لقاء وعود بتقديم الخدمات للمتبرعين. فاشتدت حمأة السياسة أكثر من أي وقت مضى، في حين ضعفت الروح الوطنية واستشرى الفساد. ومع تنامي النزعة الفردانية بين الناس، أخذ كيان الدولة بالتفسخ.

في تلك الأثناء، كان هنالك ملك قوي، متعطش للسيطرة، في مقدونيا، البلاد الجبلية «شبه الهمجية»، يفكّر جدّياً في غزو بلاد اليونان.

فيليب وديموستين(*)

كان فيليب مهيأً للعب دوره في التاريخ بفضل توليفة من الحيوية البدائية والمراس الحربي، معطوفين على نصيب من التعليم وحدّة الذهن.

كان قوي الجسم والإرادة، مولعاً بالرياضة البدنية، وسيماً. وجملة القول إنه كان حيواناً جباراً يحاول بين الفينة والفينة أن يكون إنساناً متمدّناً. وكان كابنه الشهير ذا مزاج حادّ عنيف وكرم فائق، مولعاً بالحرب إلى حد كبير، وبالشراب إلى حد أكبر. ولكنه بعكس الإسكندر، كان ضحوكاً، مرحاً، يحب الغلمان، ولكنه يهوى النساء أكثر، وتزوّج العديد منهن. وحاول لفترة من الزمن أن يقتصر على زوجة واحدة هي أولمبياس، الأميرة المولوسية البارعة الجمال، التي أنجبت له الإسكندر. غير أن هوسه القديم بالنساء عاد إليه لاحقاً، فكان على أولمبياس أن تفكّر ملياً في طريقة للانتقام منه.

ولعلّه أحب أكثر ما أحب الرجال العُتاة الأشدّاء الذين يجازفون بأرواحهم

(*) آثرت استعمال هاتين التسميتين الشائعتين في الترجمات العربية بدلاً من اسميهما اليونانيين: فيليبوس وديموستينوس (المترجم).

طوال النهار، وينادمونه على الشراب إلى منتصف الليل. وكان، إلى ما قبل الإسكندر، أشجع الشجعان بلا منازع، وخلّف قطعة من جسده على كل ساحة وغى، حتى قال فيه ألدّ أعدائه، ديموستين، ذات مرة: «يا له من رجل! لقد خسر في سبيل القوة والسلطان عيناً فُقئت، وكتفاً كُسرت، وذراعاً وساقاً أصيبتا بالشلل!». وفي الدبلوماسية، كان دمثاً إنما غدّارا، لا يبالي إن حنث بوعده، ويجدد هذا الوعد لساعته. لا يعترف في الحكم بأية مبادىء أو مناقب، ويرى أن الكذب والرشوة بديلين رحيمين عن القتل وسفك الدماء. ولكنه كان رحيماً متساهلاً عند الانتصار. وقد منح اليونانيين المنهزمين شروطاً أحسن مما كان يعرضها بعضهم على بعض. وقد أحبه كل من التقى به، فيما عدا ديموستين، ووصفوه بأنه أقدر رجال زمانه وأجدرهم بالاهتمام.

أعدّ فيليب جيشاً من الفرسان المدرَّبين على إشاعة الفوضى والبلبلة في صفوف الأعداء عن طريق شن الهجمات المتتالية على أهداف متعدّدة. وإلى جانب هؤلاء الخيّالة، كان هنالك المشاة الذين يتراصفون في كتائب متتابعة وهم يشهرون رماحهم فوق رؤوسهم، وكان طول الرمح 21 قدماً. وخلفهم كان الرماة يُطلقون سهامهم من فوق كتائب الرمّاحين نحو الأعداء. ومن وراء هؤلاء كانت ثمة قوة ضاربة للتطويق والحصار بمناجيقها ومدكّاتها المدمّرة. وقد اعتزم فيليب أن يستخدم هذه الترسانة من الأسلحة لطرد الفرس مجدداً من المدن اليونانية على الساحل الآسيوي، لكنه شعر أن عليه أن يوحّد اليونانيين أولاً في أوروبا تحت سلطانه.

شرع فيليب بالاستيلاء على بعض المدن المتحالفة مع أثينا، والواقعة على ساحل مقدونيا وتراقيا. فلم تكن هذه المدن تسد طريقه إلى آسيا وحسب، بل كانت فوق ذلك تحوي مناجم غنية بالذهب، وتتحكم بمسالك التجارة التي يمكنه أن يفرض عليها الضرائب. وبينما كانت أثينا منهمكة في حرب أخرى(*)، استولى فيليب على پيدنا وپوتيديا في عام 356 ق.م. ولمّا احتجّت أثينا على هذا العمل العدواني، أجابها بالثناء على آدابها وفنونها. وحين اقترح على الأثينيين الدخول طوعاً تحت زعامته، هبّوا إلى المقاومة، تستنهض هممهم الفصاحة الملتهبة لأشهر خطيب عرفه التاريخ.

(*) يقصد المؤلف هنا: الحرب الاجتماعية التي انتهت بها الامبراطورية الأثينية الثانية (المترجم).

ديموستين

إن تمثال ديموستين المنصوب في الفاتيكان، يُرينا وجهاً أضناه الهمّ والقلق، كما لو أن كل نصر أحرزه فيليب قد أحدث غضناً جديداً في جبهته. جسمه نحيل ومنهك، وملامحه ملامح رجل أدلى بدفاعه الأخير عن قضية خاسرة سلفاً.

ترك له أبوه ثروة معتدلة، لكن الأوصياء بدّدوها على أنفسهم. عمل لكسب عيشه في كتابة الخطب للمتقاضين. وعلى ذمة بلوتارخ، كان في بعض الأحيان يعدّ المطالعات الدفاعية لكلا الطرفين المتنازعين.

كان ديموستين أقدر على الإنشاء منه على الكلام، لأنه كان ضعيف الجسم عييّ اللسان. وللتغلّب على ما فيه من نواقص طبيعية، كان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء، أو يخطب فيما هو يصعد تلةً راكضاً. وبعد جهود مضنية دامت عدة سنين، أصبح الرجل من أغنى المحامين في أثينا، مرناً في أخلاقه لكنه جسور لا يعرف الخوف في إبداء آرائه.

قال للأثينيين دونما مواربة إنهم قوم كسالى منحلّون، فقدوا الإرادة الحربية اللازمة لإنقاذ وطنهم، وشجب دعوة فيليب إلى توحيد بلاد اليونان بأنها ليست إلا مكيدة لإلحاق اليونان بمقدونيا. وناشد مواطنيه أن يقاوموا فيليب حتى آخر رجل، بينما دافع غريمه آيسكين عن فيليب، وأتُّهم الاثنان بتلقي رشاوى: آيسكين من فيليب، وديموستين من ملك الفرس.

زاد تقدم فيليب جنوباً من بلاغة ديموستين الخطابية، وهذان معاً أديا في آخر الأمر إلى إقناع الأثينيين بتحويل حتى الإعانة للفقراء إلى المجهود الحربي. وفي عام 338 ق.م، نظموا على عجل قوةً زحفوا بها شمالاً لمواجهة كتائب فيليب عند قيرونيا. ورفضت إسبارطة أن تقدم العون لأثينا، لكن طيبة أرسلت «الفرقة المقدسة» التابعة لها للقتال إلى جانب الأثينيين. وقد قُتل الثلاثمئة جندي الذين تتألف منهم هذه الفرقة في الميدان، وحارب الأثينيون هم أيضاً بنفس البسالة، لكنهم لم يكونوا منظّمين أو مجهّزين بما فيه الكفاية لصد بحر من الرماح كان يتساقط عليهم من السماء. فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتتت شملهم ففروا من الميدان وفرّ ديموستين معهم.

عاقب فيليب طيبة عقاباً عسيراً، لكنه أطلق سراح الألفي أثيني الذين وقعوا أسرى في يديه. وأوفد ابنه الساحر، الإسكندر، ليعرض الصلح على أثينا، شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان كلها ضد عدوهما المشترك: الفرس. قبلت أثينا هذا الشرط، فعقد فيليب اجتماعاً للدول اليونانية في كورنثيا، حيث عرض عليه خطته الهادفة إلى تحرير آسيا اليونانية من السيطرة الفارسية. وقد اختير فيليب بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى. فترك قدراً كبيراً من حرية التصرف للدول المساهمة فيها، وشرع يعدّ العدّة للحرب المقدسة.

لقد نجح فيليب في استمالة جميع أعدائه إليه، إلا زوجته أولمبياس، التي كانت شديدة الاستياء من علاقاته الغرامية. وبعد عامين على معركة قيرونيا، أقدم أحد ضباط فيليب، ويدعى پوزانياس، على اغتيال الملك لإساءة تلقاها منه من جهة، ولما يلقاه من عذاب لشدّة هيامه بأولمبياس من جهة أخرى. كان الإسكندر محبوباً من الجيش حباً يقرب من العبادة، فتبوأ العرش بعد أبيه، وشرع يستعد، وهو بعد في العشرين ربيعاً، لفتح العالم.

الفن

بعد ثوران العبقرية المسرحية في القرن الخامس ق.م، همد الأدب اليوناني وآل إلى أشخاص من درجة أدنى، مثل زينوفون، القائد العسكري الذي عبّأ صفوف الشباب عبر بلاد اليونان كلها بعمله القصصي «أناباسيس»، وإيزوقراط، المعلّم، ومؤلّف الكراريس الذي ابتكر فن المقالة.

واستمر الفن بالتفتح والازدهار. كتب پليني الأكبر يقول: «إن أبيلز القوسي قد فاق كل من عداه من الرسامين، السابقين واللاحقين». وما من شك في أن أبيلز كان أعظمهم فناً وأرفعهم شأناً، وإلا لما استطاع أن يسرف كل هذا الإسراف النادر في مدح أنداده وتقريظهم. من ذلك أنه لمّا علم أن بروتوجنيز، أكبر منافسيه، يعيش في فقر مدقع، ركب السفينة إلى جزيرة رودس لزيارته. لم يكن بروتوجنيز في مرسمه حين وصل أبيلز لأن أحداً لم ينبئه بهذه الزيارة. فقابلت الخادمة العجوز الزائر وسألته عن اسمه لتبلّغه إلى سيدها عندما يعود.

فما كان من أبيلز إلاّ أن تناول فرشاةً ورسم على لوحة إطاراً غاية في الدقة بجرةٍ واحدة. ولما رجع بروتوجنيز، لم تتمكن الخادمة العجوز من إخباره باسم الزائر المختفي. لكن عندما شاهد الرسّام الإطار الذي رسمه الزائر ومدى دقّته، صاح قائلاً: «إن أحداً لا يستطيع رسم إطار كهذا إلا أبيلز». ثم رسم في داخله إطاراً أدقّ منه، وأوعز إلى المرأة أن تُطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد. وفعلاً، عاد أبيلز ودُهش من حذق بروتوجنيز الغائب، ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً بلغ من الرشاقة والرقة حداً لم يسع بروتوجنيز معه إلا أن يعترف بأنّ منافسه قد غلبه، ثم هرع من فوره إلى الميناء ليُدرك «المعلّم» ويرحّب به.

وأخذت هذه الآية الفنّيّة تنتقل من جيل إلى جيل، حتى اشتراها يوليوس قيصر، ثم احترقت في النار التي دمّرت قصره القائم على تل البلاتين. ويروي پليني أيضاً أن هناك رسماً آخر لأبيلز بيع لقاء مبلغ يساوي ما في خزينة مدينتين كاملتين. إنما لا شيء بقي من تلك الروائع.

إن النحت، كما تعرفون، يستلزم وقتاً أطول، لكن الزمن يحفظه ويصونه. هذا الفن المُجْهِد كان قد بلغ آنئذ أوجه من نواحٍ كثيرة. صحيح أنه كان ينقصه الحافز الديني، ولم يبلغ ما بلغته قوصرات وأفاريز البارثنون من جلال وقوة، ولكنه اُستمدّ إلهاماً جديداً من الجمال الأنثوي، وبلغ من الروعة ما لم يبلغه ذلك الفن من قبل ولا من بعد.

نحت فنّانو القرن الخامس ق.م رجالاً عُراة ونساء مكتسيات. وقد مَثْلَنَ الفنانون نماذجهم، فصبّ المثّالون أو نحت النحّاتون صور خلائق مجردين من العواطف يستريحون من عناء الحياة وشؤونها في وضعيات ساكنة لا تريم حراكاً. أما القرن الرابع ق.م، فقد حاول فنّانوه أن يمثّلوا في الحجر شيئاً من الفردانية والأحاسيس الإنسانية. فأُعطي الرأس والوجه أهمية أكبر من بقية أجزاء الجسم في التماثيل الرجالية. وحلّت دراسة الشخصية محل الإعجاب الشديد بالعضلات. وأصبحت «البورتريه»، المنقوشة في الحجر، موضة سائدة، وفيها تخلّى الجسم عن تيبّسه وتشامخه، وصار يتكىء مستريحاً على عصا أو شجرة، فيما شُكّل السطح لكي يتفاعل الضوء والظل تفاعلاً حيّاً. وقد بلغ من حرص ليزيستراتوس السيكيوني على التزام الواقعية في عمله، أنه كان يكسو وجه

الشخص المراد تصويره بالجصّ ليصنع منه قالباً يُهتدى به عند صبّ التمثال، ولعله كان أول من فعل ذلك من اليونانيين.

وبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقته حد الكمال على يد براكستيلز. والعالم كله يعرف أنه أحب فيريني، وأنه صوّر جمالها تصويراً مخلّداً. لكن أحداً لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفي. كان ابناً لنحّات وأباً لنحّات أيضاً. ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثّل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجدِّين الصابرين. وكان يعمل في البرونز وفي الرخام على حد سواء، وأحرز من الصيت والشهرة أن عشرات المدن كانت تتنافس للحصول على خدماته.

حوالى 360 ق.م، كلّفته جزيرة كوس بنحت تمثال لأفروديت(*)، فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فيريني. ولكن أهالي كوس ساءهم أن وجدوا الإلهة مجرّدة من الثياب، فما كان من بركستيلز إلا أن هدأ ثورة غضبهم بأن صنع تمثالاً لأفروديت مكتسية هذه المرة. ابتاعت سنيدس التمثال الأول. وعرض نيكومدين، ملك بثينيا، على سنيدس أن يبتاع التمثال الذي في حوزتها لقاء دفع كل ما على المدينة من ديون. ولكن سنيدس آثرت الاحتفاظ بالخلود. وأقبل السيّاح من جميع أنحاء البحر المتوسط لمشاهدة التمثال. وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صُنع حتى ذلك الحين في بلاد اليونان كلها. وراجت أقاويل عن إصابة رجال بالغُلمة لدى رؤيتهم التمثال.

وألمح الجغرافي بوزانيوس وبإيجاز يؤسف له إلى أن من بين تماثيل «الهيرايوم» في أولمبيا(**)، تمثالاً من الحجر للإله هرمس(***) وهو يحمل بين ذراعيه ديونيزوس طفلاً، من عمل براكستيلز نفسه. وبينما كان علماء الآثار الألمان ينقبون في هذا المكان عام 1877، إذ تُوِّجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً تحت طبقات من الأقذار والطين ظلّت تتراكم عليه عدة قرون، كأن الزمن عمي عنه تماماً. وليس في وسع المرء أن يتخيل صورة حقيقية للتمثال من

(*) ربّة الحب والجمال عند الإغريق (المترجم).

(**) مدينة في البيلوبونيز (شبه جزيرة المورة) في جنوب اليونان. كانت مركزاً للعبادة يؤمه الناس من أنحاء اليونان كافة وكانت مشهورة بالهيكل الضخم الذي بُني فيها لكبير الآلهة زيوس. (المترجم).

(***) إله الفصاحة والتجارة ورسول الآلهة عند اليونان (المترجم).

المقالات الوصفية والصور الفوتوغرافية والنماذج النسخية التي عُملت وتُعمل له. بل عليه أن يذهب بنفسه ويشاهد التمثال في متحف أولمبيا الصغير، ويمرر أنامله خلسةً على وجهه لكي يُدرك ما في نسيج هذا اللحم الرخامي من نعومة وحياة! ومعاينة رأس التمثال متعة استثنائية حقاً، بسيمائه الارستقراطية، وملامحه الهادئة المنحوتة بدقة فائقة، وشعره الأجعد. دع عنك أن قدمه اليمنى تكاد تكون كاملةً حيث الكمال نادر في التماثيل. وكان الأقدمون يعدّون هذا التمثال من أعمال الفنان الثانوية؛ فتخيّلوا بناءً على ذلك حجم الثروة الفنية التي كان يملكها ذلك العصر!

إننا نفتقد في الأعمال القليلة التي تركها لنا براكستيلز قوّة أعمال فيدياس وسموّها. فهنا الآلهة أخلت مكانها لفريني، وقضايا الحياة الوطنية الكبرى أُزيحت جانباً ليحل محلها الحب الخاص. ولكن ما من مثّال فاق براكستيلز في دقة الصياغة، وفي قدرته شبه الإعجازية على سكب الوداعة والطمأنينة، وأرقّ العواطف، وبهجة الحواس، ومتعة الغابات، في الحجر الأصم.

وما بين النحت والعمارة، ينتصب ضريح مهيب في هاليكارناسوس، الدولة المدينية الأيونية. وقد بلغت مكانة حاكمها موزولوس في قلب زوجته أرتميسيا مبلغاً جعلها تستقدم اسكوباس وفنانين آخرين لبناء ضريحه وزخرفته عندما توفي عام 353 ق.م. إن الأفريز الحيّ، الموجود حالياً في المتحف البريطاني، لهو أحد إنجازات النحت اليوناني المرموقة. وأضاف هذا النُصب كلمة جديدة إلى عشرات اللغات، وعدّه القدماء من بين عجائب الدنيا السبع.

وضمن لائحة الروائع هذه، أدرج القدماء الهيكل الثالث الذي بُني في أفسس عام 356 ق.م، للإلهة أرتميس. وقد ارتفع الهيكل المذكور ثمرة جهد متواصل دام خمسين سنة، وأضحى أضخم هيكل في العالم الإغريقي على الإطلاق. وفيه أُقيمت الطقوس لعبادة الإلهة العذراء من قبل اليونان في البداية باسم أرتميس، ثم من قبل الرومان باسم ديانا، وأخيراً من قبل المسيحيين باسم مريم العذراء. وفي التاريخ، كما في الصُحف، الأسماء والتواريخ هي وحدها التي تتغيَّر، أما الأحداث فهي نفسها دائماً.

أفلاطون

في فترة شبابنا الفكري، اكتشفنا أفلاطون وتصوَّرناه شاباً وسيماً يدلّل الفلسفة بوصفها «البهجة الأثيرة»، وتخيّلنا عالماً طوباوياً يقوم على هديه وإرشاده فلاسفة أفاضل. وفي أيام شيخوختنا، اكتشفناه هو نفسه يقترح إقامة حكومة من الحكّام المستبدين، تسيطر على الفنانين والشعراء وتنفيهم، وتفرض دين دولة على الناس تحت طائلة الموت. فكيف تأتى له أن يتبدّل كل هذا التبدُّل؟

دعونا نتذكر من دروسنا في السنة الثانية بالجامعة، أن أفلاطون ولد في عام 427 ق.م، لعائلة كريمة المحتد وميسورة الحال، وأنه أمضى سنوات عديدة كنصير متحمس لسقراط، وأيّد بسهولة موقف معلِّمه المناهض للديمقراطية، حتى إذا أُعدم سقراط على يد حكومة ديمقراطية، انقلب كُره الديمقراطية إلى احتقار شديد لها. فقد رأى كيف يتملّق الساسة الديمقراطيون نزوات الدهماء من العامّة، حتى تحولت الحرية إلى فوضوية في نظره، وانحطّت أعراف السلوك والذوق القديمة، التي طالما حمت الحضارة من ناحية الأخلاق والمناقب والفنون، من جرّاء تفشي السوقية والابتذال وتغلّبهما. وقد جعل أفلاطون «سقراطه» المتخيَّل يعقّب، كما لو كان يصف الحال في يومنا هذا:

سقراط: في دولة كهذه، تسود الفوضى وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد... فيتعوّد الأب النزول إلى مستوى أبنائه، ويتعود الابن أن يضع نفسه في مستوى أبيه، فلا يخشى أبويه، ولا يستحي منهما... ويخاف المعلم من طلابه ويتملّقهم، ويحتقر الطلاب معلّميهم.

أديمنتوس: ولكن ما هي الخطوة التالية؟...

سقراط: إن ازدياد أي شيء فوق حده، كثيراً ما يؤدي إلى رد فعل في الاتجاه المعاكس... ولهذا، فإن الإفراط في الحرية، سواء أكان ذلك عند الأفراد أو عند الدول، لن يؤدي إلا إلى العبودية... وأخطر أشكال الاستبداد إنما تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرّفاً.

وفي الكتاب الثاني من مؤلَّفه «الجمهورية»، يُمعن أفلاطون النظر في طوباوية شيوعية، إلا أنه يستدرك قائلاً إنها غير عملية، لأن البشر بطبيعتهم ذوو نزعة فردانية، مولعون بالاكتساب، وأحياناً قتلة. ومضى إلى تصوير دولة هي «الثانية في ترتيب الأفضلية»، وتتمحور حول نظام تعليمي مفتوح للجميع، ويحكمها «حراس» يخرجون أحياء، وقد ناهزوا الخمسين، من أقسى التجارب بين رحى الطاحون التعليمية. ويشدّد أفلاطون على وجوب ألا تكون لهؤلاء «الحرّاس» أية أملاك أو مال أو أُسر أو زوجات، بل ينبغي لهم أن ينذروا أنفسهم لحياة البساطة والفلسفة الرفيعة. يجب أن يكونوا بمثابة جزيرة شيوعية مُحاطة ببحر من العمل الحُرّ. وعليهم الإشراف على الزواج إشرافاً تاماً طبقاً لمبادىء تحسين النسل، بمعنى «أن يتحد الأفضل من كلا الجنسين مع الأفضل قدر الإمكان، وأن يتحد المنحطّون من الرجال بالمنحطّات من النساء، ثم يُربَّى أبناء الأولين ولا يُربَّى أبناء الأخيرين، لأن ذلك هو السبيل الوحيد للإبقاء على الشعب في حالة جيدة».

وعلى الدولة أن تتولّى بنفسها تربية الأطفال جميعهم، وتقدّم لهم فرصاً للتعليم متكافئة. ويجب ألا تكون الطبقات وراثية، وأن يكون للبنات من الحظوظ مثل ما للصبيان، وألا تُمنع النساء من تولّي مناصب الدولة لمجرد أنهن نساء.

قد يتراءى كل ذلك غير قابل للتطبيق، بيد أن أفلاطون خلص إلى النتيجة التالية: «وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكاً، أو أن يتشبع ملوك العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوّتها... ستبقى المدن عليلة سقيمة، وكذلك الجنس البشري».

وحتى في شيخوخته، لم تزايل أفلاطون حماسته للطوباويات، غير أنه تصدّى للانحلال المتواصل للديمقراطية الأثينية متسلحاً بالديكتاتورية في آخر أعماله: «القوانين». تتمثل فكرته المثالية الجديدة بقيام مجتمع ريفي في مكان موغل داخل البلاد وبعيد عن البحر، حتى لا تفسده الأفكار الأجنبية. ويجب أن يقتصر عدد المقترعين فيه على 5040، لأنه عدد قابل للقسمة حسب الحاجة. ويختار هؤلاء من بينهم 360 حارساً يتدبرون أمر الاقتصاد والقضاء؛ ويختار الحراس بدورهم «مجلساً ليلياً» مؤلَّفاً من 26 عضواً يجتمع في الليل ويشرّع لكل شؤون المجتمع الحيوية، الاقتصادية منها والثقافية. وينبغي تشجيع كل فرد على

أن يكون مزارعاً نشيطاً، مع الابتعاد قدر الإمكان عن العمليات المالية المعقّدة، والحدّ من التوريث الاقتصادي بشكل صارم.

ويجب أن تُعطى النساء فرصاً تعليمية واقتصادية وسياسية متكافئة مع الرجال. ومن الواجب تنظيم شرب الخمر وغيره من وسائل اللهو في الأماكن العامة للمحافظة على أخلاق الشعب. ويجب أن تحلّ السلطة محل الحرية داخل العائلة وفي المدرسة. ولما كانت طاعة الوالدين والمعلمين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر، فإن الدولة هي التي تقرر أي الآلهة تُعبد وكيف تُعبد ومتى تُعبد.

ويجب فرض رقابة على الآداب والعلوم والفنون لدرء انتشار الأفكار المناهضة للدين أو الدولة. وارتياب أي شخص في ديانة الدولة يستوجب سجنه، وإذا ما تمادى في ذلك، فيجب الحكم عليه بالإعدام.

وحين لم يعد لدى أشهر فلاسفة أثينا الكثير مما يقوله لمصلحة الحرية، كانت الفلسفة قد أصبحت ناضجة لديانة جديدة، ومهيأة لقدوم «ملك» جديد.

أرسطو

قد نلهو مع أفلاطون، إنما يجب أن نعمل مع أرسطو. وإنه لمن مفارقات التاريخ أن تنجو «محاورات» أفلاطون الشعبية من الاندثار، وتخلب ألبابنا في أغلب الأحيان، بينما ابتلعت تصانيفه التقنية تفاهات الزمن، وفي المقابل، أن تهلك مؤلّفات أرسطو الشعبية وتندثر، ولا يتبقى سوى تصانيفه التقنية، هذه التي تتطلب انتباهاً مضنياً كثمن لا بد من دفعه للحصول على المعرفة المتركّزة فيها.

وُلد أرسطو لأبٍ طبيب في مدينة أسطاغيرا من أعمال تراقيا، وأخذ عنه اهتمامه الواسع بالعلوم. تسجّل حال قدومه إلى أثينا في مدرسة (أكاديمية) أفلاطون، التي كُتب على بوابتها التحذير التالي: «لا يدخل هذا المكان إنسانٌ بلا هندسة». وبعد وفاة أفلاطون، توجه أرسطو إلى بلاط هرمياس، الذي كان درس معه في الأكاديمية، وارتقى من درك العبودية إلى مصاف ديكتاتور وأصبح سيد أترنوسة وآسوس في آسيا الصغرى.

تزوج أرسطو من بيثياس ابنة هرمياس(*)، وكان على وشك الاستقرار في آسوس عندما اغتيل هرمياس على يد أحد الفرس. فرّ أرسطو مع بيثياس إلى جزيرة لسبوس القريبة، حيث ماتت زوجته بعد أن رزق منها بنتاً، ثم تزوج بعدئذ الغانية هربليس - وبعضهم يقول إنه عاشرها فقط - ولكنه ظل إلى آخر أيامه يكنّ حباً وإخلاصاً شديدين لبيثياس، وأوصى وهو على فراش الموت أن تُدفن عظامه بجوار عظامها. فلم يكن أرسطو بالرجل المنكبّ على الدرس والكتب والمجرّد من العواطف والأحاسيس، كما قد يتبادر إلينا بالنظر إلى مؤلَّفاته التي وصلتنا.

وفي عام 343 ق.م، دعاه فيليب للمجيء إلى بلاً ليتولى تربية وتهذيب الأمير الإسكندر، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً جامحاً في الثالثة عشر من عمره. وقد بقي أرسطو يؤدي هذه المهمة الموكولة إليه مدة أربع سنين. وفي عام 334 ق.م، عاد إلى أثينا - وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من مال بعدما صار الآن ملكاً - حيث افتتح مدرسة لتعليم البلاغة (الأدب والفلسفة)، واختار مكانها في أجمل دار للتدريب الرياضي (جمنازيوم) في أثينا، وكانت عبارة عن مجموعة من المباني المكرّسة لأبولو لوقيوس (إله الرُّعاة)، تحيط بها حدائق غنّاء ومماشٍ مسقوفة.

اشتهرت المدرسة باسم «اللقيون»، كما سُمّي الطلاّب بالمشّائين وفلسفتهم بالمشّائية، نسبة إلى المماشي التي كان يطيب لأرسطو أن يعلّم تلاميذه وهو يتمشّى عليها. وكان يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات ويصنّفوا المعارف في الميادين العلمية المختلفة: تقاليد الشعوب الأجنبية (البرابرة)؛ دساتير الدول المدينية اليونانية؛ جداول زمنية بانتصارات اليونان في الألعاب البيثيادية والمهرجانات الديونيزية بأثينا؛ أعضاء الحيوانات وعاداتها، وأوصاف النباتات وتوزّعها؛ تاريخ العلوم والفلسفة. وقد أضحت هذه الأبحاث ذخيرة طيبة من المعلومات، يستمد منها أرسطو رسائله المتنوعة والعديدة، ويوليها من الثقة أكثر مما تستحق. وإذا ما تناولنا عيّنات منها، فلا نتوقع أن نرى مبارزات حوارية شيّقة ورشيقة كالتي نجدها عند أفلاطون، بل خزانة طافحة من المعارف والأفكار، ومن الحكمة المحافظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش على أفضالهم.

(*) مصادر أخرى تقول إنها ابنة أخت هرمياس (المترجم).

وفي ميدان العلم، غطى أرسطو المجالات العلمية بالملاحظات والتقارير والاختبارات، وكان أول رجل عُرف عنه تنظيمه فريقاً للبحث العلمي. لقد أدلى بمئات الملاحظات الباهرة، واقترف المئات من الأخطاء الفاضحة ـ من قبيل اكتشافه وتوكيده مجدداً من أن عدد أسنان النساء أقل من عدد أسنان الرجال! لكنه في كتاب «تاريخ الحيوان» اقترب كثيراً من نظرية النشوء والارتقاء؛ وفي كتابه الآخر: «رسالة في الروح»، عرّف الروح، أو النفس، بأنها «القوى الحيوية في الكائن العضوي من أجل الغذاء والنمو والفساد». أما تصوّره للإله بوصفه «المحرّك الأول»، أو الطاقة الأساسية الكلّية الوجود، فيتماشى مع التصوّر الحديث للكون كطاقة في حالة حركة.

إن غاية السلوك عند أرسطو هي السعادة. لكن سرّ السعادة يكمن في الفضيلة؛ وخير الفضائل هو التفكير، أي النظر الدقيق والحَذِر في الواقع والهدف والوسيلة. وعادةً ما تكون الفضيلة حدّاً وسطاً بين حدّين متقابلين، والسياسة هي فن التسوية بين الطبقات المكوِّنة للمجتمع. فالناس خُلقوا غير متساوين، والطبقات العليا مستعدة للثورة إذا ما فُرضت عليها مساواة غير طبيعية، مثلما أن الطبقات الدنيا قابلة للثورة، هي الأخرى، إذا ما كان التفاوت شديداً على نحو غير طبيعي. لذلك، حبَّذ أرسطو نظاماً «تيموقراسياً» (حكم الشرف)، وهو مزيج من الارستقراطية والديمقراطية، وفيه يكون حق الاقتراع محصوراً بأصحاب الأملاك، وتكون الطبقة الوسطى الكثيرة العدد بمثابة محور السلطة وعجلة التوازن فيها.

وبالإجمال، كان دانتي محقاً في تسميته أرسطو بـ «معلم العالِمين»(*)، كما كانت أوروبا على حق في دعوته على مدى ألف وخمسمئة سنة تقريباً بـ «الفيلسوف»(**).

الإسكندر

حاز الإسكندر، تلميذ أرسطو الأشهر، على رضى معلمه عدّة سنوات بعد

(*) باللاتينية في النص: "Il maestro di color chi Sano".

(**) باللاتينية في النص: "Ille Philosophus".

أن تسنّم عرش مقدونيا، وصار القائد الأعلى لجميع القوات اليونانية في مواجهة الفرس. كتب التلميذ إلى معلمه يقول: «خير لي أن أتفوّق على الآخرين في معرفة ما هو صالح، من أن أتفوّق عليهم في مدّ نطاق سلطتي وسيطرتي». ويقول بلوتارخ: «كان لديه ظمأ شديد للمعرفة وولع جارف بالتعلّم. ولقد ازداد ذلك عنده مع مرور الأيام». لكن توجيهات الفيلسوف وإرشاداته كانت جزءاً بسيطاً من المؤثرات التي صنعت شخصية الملك الشاب وسياساته.

قَبِل الإسكندر بحماسٍ خطة والده لتحرير اليونان الآسيوية من النير الفارسي، لكنه دأب على توسيع تلك الخطة مع كل انتصار يُحرزه. ادّعت أمه أنها تتحدر من سلالة أخيل، وردّت على خيانات فيليب لها بالتلميح إلى أن الأب الحقيقي لابنها هو الإله آمون. إلاّ أن الإسكندر رفض رفضاً باتّاً مثل هذا النسب البطولي والإلهي. لقد قرأ «الألياذة» وأعاد قراءتها إلى أن حفظ مئات المقاطع منها عن ظهر قلب. وحَسَدَ أخيل لأنه وجد شخصاً مثل هوميروس ينشد حكايته. ولطالما شكا من الوقت الذي يقضيه في النوم، قائلاً إن النوم والتوالد جعلاه يحسّ أنه فانٍ.

كان الإسكندر من الناحية الجسمانية في مرتبة تلي الآلهة مباشرة. فقد برع وتفوَّق في كل لون من ألوان الرياضة، ومارس صيد الأسود على سبيل الهواية. وقد سمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يقاتل كما لو أن نتيجة النزال هي التي ستقرّر أيهما يكون هو الملك. فسُرّ من هذا القول أيما سرور. وجميعنا يعلم أنه استطاع أن يروّض الجواد الجامح الجبّار بوسفالوس فيما أخفق سائر الفرسان الآخرين في ذلك. وإذ ذاك صاح فيليب: «مقدونيا صغيرة جداً عليك يا بُني؛ ابحث لك عن امبراطورية أوسع منها تليق بك». أضف إلى ذلك أن الإسكندر كان وسيماً بدرجةٍ لم يسبق إليها أحد من الملوك قبله.

وبالنسبة لفتى ينوء تحت كل هذه الكمالات والسُلطات، كان من المستحيل أن يطوّر لنفسه ملكة حُكم ناجحة أو عقلاً مستنيراً. لقد أرخى التاج بثقله عليه وهو بعد في العشرين ربيعاً، وابتلعته دوامة الحروب والحكم حتى آخر لحظة من حياته. وقد اُختطفته المنية في سن الثالثة والثلاثين قبل أن يتسنّى له الوصول

إلى صفاء الذهن الذي عُرف به يوليوس قيصر، أو إلى سرعة الفهم التي امتاز بها نابليون. كان بارعاً في الحديث، لكنه لا يلبث أن يقع في مئات الأخطاء عندما يحيد عن الحديث في شؤون السياسة والحرب. وكان يسمو فوق العقائد الجامدة، إلا أنه بقي حتى النهاية عبداً للخرافات والخزعبلات، شديد الثقة بالمنجِّمين والعرّافين الذين كان يعجّ بهم بلاطه. كان في مقدوره أن يتحكّم بملايين الناس، لكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه. وكان يغترّ بالثناء والمداهنة اغتراراً يفسد عليه حكمه وتقديره. وقد عاش طول حياته في جو من الاستثارة والمجد، وأحب الحرب حباً استحوذ على عقله، فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام الذهني.

وعلى صعيد الأخلاق أيضاً، لم يبلغ الإسكندر الاتّساق أو النضج قط. أما من ناحية الجنس، فكان عفيفاً نوعاً ما، ليس من باب المبدأ بقدر ما حتّمت عليه ذلك كثرة المشاغل. ابتنى بعدة زوجات، لكن زيجاته العديدة كانت مجرد وسيلة من وسائل الحُكم. كان كَلِفاً بالنساء، إنما كان يفضّل عليهن صحبة القادة والغلمان. فقد أحب هفايستيون إلى حد الجنون، وأضفى على الصداقة ما قد يضفيه آخرون على الحب نفسه من لمسات الرقة والوفاء والعناية الفائقة. ولعلّ ما حبَّب جنوده به ما كان يُبديه من اهتمام بالغ بشؤونهم. ولئن كان يدفع بهم إلى المخاطر، لكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً أو عن تهوّر، وبدا أنه يحسّ بجميع جراحهم. وأكثر من مرة وجدناه يعفو عن الإساءة، ويصادق قادة عسكريين وقعوا في الأسر. وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عوناً له في حروبه. فقد كان كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه، ثقةً منهم بشروطه المتساهلة. كما كانت المدن تفتح أبوابها له دونما مقاومة. ومع ذلك، كان الإسكندر ابن أمه: وتجري في عروقه شراستها النمرية، ويمكن أن تجرّده نوبات القسوة والفظاظة من صفاته الرجولية.

لا بد أنكم تعرفون القصة الكاملة لفتوحاته. فعلى رأس جيش صغير قوامه 30 ألف جندي فقط، التقى الإسكندر ـ على ما تقول الرواية ـ بجيش الفرس المؤلَّف من 600 ألف جندي عند نهر إيسوس (قرب الإسكندرونة) عام 333 ق.م. وقد أربكت هجمات فرسانه غير المحسوبة الفرس أيما إرباك، جعلهم يتخلّون عن القتال ويفرّون من أرض المعركة ومعهم الملك دارا الثالث، الذي خلّف وراءه

خزانته وابنته. وتابع الإسكندر زحفه، فاستولى على دمشق، وصيدا، وصور. واستسلمت له أورشليم بلا مقاومة، فأحسن معاملتها.

ثم سار مخترقاً صحراء سيناء إلى مصر، فطرد الفرس الذين كانوا يحكمونها منذ عام 525 ق.م، وأسَّس مدينة الإسكندرية. ثم عاد بجيشه إلى آسيا، والتقى قرب أربيل بجيش دارا الثالث المؤلّف من خليط من الأمم، وارتاع لكثرة عدده. لكن جنوده هدأوا من روعه، قائلين: «طبْ نفساً أيها السيد المعظَّم، ولا ترهبك كثرة الأعداء. فلن يستطيعوا الوقوف أمام رائحة الماعز الملتصقة بلحمنا». إن بسالتهم وفروسيتهم وكتائبهم وانضباطهم والتزامهم بقيادة قائدهم الحكيمة هي التي أكسبتهم المعركة في ذلك النهار. فهرب دارا مرة أخرى، وقُتل بأيدي أفراد من حاشيته. ثم استولى الإسكندر بعد ذلك على بابل، وزحف شرقاً على شوشن، وهناك عثر على أموال الحكومة المختزنة، فوزّع بعضاً منها على رجاله.

وإذ أسكرته الانتصارات وغرّه الذهب، قاد الإسكندر قواته على كره منها عبر جبال الهيمالايا إلى داخل بلاد الهند نفسها. فاجتاز نهر السند، وهزم الملك پوروس. وأفصح عن عزمه على المضي قُدماً حتى نهر الغانج. لكن جنوده أبوا أن يتقدموا خطوة واحدة، فقد كانوا منهكين جسدياً ومعنوياً، كما كانوا يدركون أنهم يبتعدون أكثر فأكثر عن أُسرهم وحضارتهم اليونانية. وحتى النصر نفسه بات مملاً بالنسبة إليهم. فأذعن الإسكندر لهم ونفسه حزينة، ولحق بهم إلى بلاد فارس في تقهقر طويل ومدمِّر شبيه بتقهقر نابليون عن موسكو. وحين وصلوا إلى شوشن، كان عشرة آلاف من رجاله قد ماتوا من القيظ أو من العطش.

أما وقد وجد الآن نفسه بين ظهراني الفرس، فقد أدرك الإسكندر أن جنوده قد غزوا شعباً أكثر تمدُّناً وتحضّراً منهم. فخطرت له فكرة التزاوج بين الغُزاة والمغزوّين، فتزوَّج شخصياً من أميرتين فارسيتين، ودعا ضباطه وجنوده إلى الاقتداء به. واستجاب الآلاف منهم لدعوته. كما فتح مناطق في بلاد فارس وآسيا الصغرى بوجه الاستيطان اليوناني. وتفاعل الحضارات المتعددة والمتنوعة هذا، أفسح في المجال للمزيد من هلينة الشرق الأدنى، ومن ثم بحركة معاكسة، سهَّل من انسياب الديانات الشرقية غرباً. وهكذا أنتشرت

اليهودية ـ والمسيحية ولاحقاً ـ على امتداد العالم الإيجي؛ والدين الذي ولد في أورشليم صار عقيدة لأوروبا.

كان الإسكندر ما فتيء يحلم بالانتصارات والقارات، لكن جنوده هدّدوا بإعلان العصيان. وأخيراً أذن لهم بالعودة إلى أرض الوطن، لكنه أردف مؤنّباً إياهم: «عودوا وأخبروا أنكم تخلّيتم عن مليككم وتركتموه تحت حماية الأغراب المغلوبين». ثم انسحب ـ بحسب رواية مشكوك في صحتها ـ إلى حجرته، ورفض رؤية أيٍّ كان. جاءهْ زعماء التمرُّد وقد أنّبهم ضميرهم مستغفرين. ركعوا أمام بابه، قائلين إنهم لن يبرحوا أماكنهم إلا بعد أن يغفر لهم ويقبلهم ثانية في عداد جيشه. وعندما ظهر لهم بعد لأي، أجهشوا بالبكاء، وأصرّوا على تقبيله. وبعد أن صالحهم، عادوا إلى معسكرهم وهم ينشدون نشيد الشكر: «Sin non è vero è ben trovato».

وفيما كان الإسكندر مع جيشه في إكباتانا، توفي صديقه الحبيب هفايستيون. عندئذ أحسّ الإسكندر كما لو أن نصف لحمه ودمه قد سُلخ عنه، فسقط عليلاً من شدة الحزن والأسى. ولدى عودته إلى بابل، انصرف بكليته إلى معاقرة الخمرة. وذات ليلة، وفيما هو يعربد مع ضباطه، اقترح عليهم أن يُجروا سباقاً في الشراب. فعبَّ بروماخوس قدر ثلاثة غالونات من النبيذ وربح الجائزة: طالن واحد (12,000 دراخما). وبعد ثلاثة أيام قضى نحبه. وفي مأدبة أخرى أُقيمت بعد الأولى بوقت قصير، ابتلع الإسكندر غالوناً ونصف. وفي الليلة التالية أعاد الكرة وأفرط في الشرب مجدداً. وتغيّر الطقس نحو البرودة فجأة، فأصابته حُمى ونُقل إلى فراشه. لم تمهله الحمى سوى اثني عشر يوماً، مات بعدها، وكان ذلك في صيف عام 323 ق.م، وهو بعد في الثانية والثلاثين من العمر. وحين سأله قادته لمن يترك امبراطوريته، أجابهم: «للأقوى».

وكان في صالح الإسكندر أن يموت وهو في قمة المجد، لأن بضع سنوات أخرى كانت ستحمل إليه قطعاً خيبة الأمل. ولعله لو عاش أطول مما عاش، لأقضّت مضجعه الهزائم والآلام، ولأحبّ السياسة ـ وكان قد بدأ يحبّها ـ أكثر مما يحب الحرب. لكنه أجهد نفسه فوق طاقته، وأكبر الظن أن ما كان يتطلّبه حفظ دولته العظمى قوية موحّدة، والسهر على أجزائها كلها في وقت واحد، قد بدأ

يُحدث الاضطراب في عقله اللامع النيِّر، ذلك أن الجدّ هو نصف العبقرية، ونصفها الآخر السيطرة على أعنّة هذا الجدّ. والإسكندر كان كله جدّ.

إننا نفتقد فيه - وإنْ لم يكن من حقنا أن نتطلّب منه - نضج قيصر الهادئ أو حكمة أُغسطس ودهاءه. ونحن إذ نُعجب به (كما نُعجب بنابليون)، فلأنه واجه بمفرده نصف العالم، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بحقيقة أن القوة الخارقة إنما تكمن في نفوس الأفراد.

كما نشعر بتعاطف طبيعي معه، برغم معتقداته الخرافية وتصرفاته الوحشية، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يُقال فيه إنه كان شاباً كريم النفس، عطوفاً، كما كان رجلاً قديراً وباسلاً لا يكاد يُدانيه أحد في قدرته وبسالته؛ وأنه ظل يكافح للتخلّص مما في دمه من تراثٍ من الهمجية يذهب بالعقل الحصيف؛ وأنه فيما خاض من معارك وفيما أهرق من دماء، لم يغب عنه قط حلمه العظيم، ألا وهو نشر نور أثينا في العالم الأوسع.

الفصل التاسع

الجمهورية الرومانية

لن نتناول في هذه الصفحات الاستهلالية تاريخ روما الجمهورية، بل سنجري تحليلاً مقتضباً للكيفية التي صاغ بها كل من الدين، والأسرة والانضباط الشخصية الرومانية؛ وكيف أنتجت الصراعات بين الطبقات والنزاعات بين الأجيال الحكومة الرومانية؛ وأخيراً، كيف اقترنت الشخصية بالحدث بما أتاح لروما أن تبسط سيطرتها على عالم البحر المتوسط.

لنبدأ أولاً بالشعب.

الشعب

من هم الإيطاليون الأوائل؟ إنهم القبائل سكّان البلاد الأصليين: الامبريانيون والسابيون واللاتين، الذين كانوا يفلحون الأرض ويتقاتلون فيما بينهم داخل روما وحولها.

وكانوا قد هاجروا من أواسط أوروبا، فتسلّقوا جبال الألب وانتشروا في منطقة البحيرات: ماجيوري وكومو وغاردا، ومنها انحدروا إلى السهل الخصيب لنهر البو. وربما قدم البعض منهم كمغامرين من آسيا الصغرى، فاختلطوا بالسكان الأصليين، ومنهم ظهر الإترسكيون الغامضون، سكان تُسكانيا القديمة.

وثمة جماعات متنوعة تُقدَّر بالعشرات جاءت من اليونان وأنشأت مستوطنات ناشطة لها عند أسفل «الجَزْمة السحرية» التي اسمها: إيطاليا.

يقول أرسطو: «إن خير من يُستفتى في تلك البلاد يجزمون بأنه عندما صار إيطالس ملكاً على أئنوتريا، بدّل أهل البلاد اسمهم ودعوا أنفسهم إيطاليين». وقد كانت أئنوتريا هذه مكان إصبع القدم في «الجزمة الإيطالية»، ومعنى هذا اللفظ هو «أرض النبيذ» لكثرة ما كان فيها من الكروم. ويقول ثوسيديديس إن إيطالس هذا كان ملك صيقل الذي غزا صقلية وسمّاها بهذا الاسم. وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهيلينيين جميعاً اسم «إغريق» Graeci، نسبةً إلى جماعة صغيرة من «الغرائي» كانت نزحت من شمال أتيكا إلى نابولي، كذلك توسّع الإغريق في معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم كل شبه الجزيرة جنوب نهر البو.

كان معظم السكان في إيطاليا يعيشون على الزراعة، وكانت نسبة صغيرة منهم تقطن المدن إنما من دون استقرار. وقد أدّى التنافس بين مشغّلي العبيد إلى انخفاض أجور العمال الأحرار، ودفع بالعديد منهم إلى العيش في أحياء مزدحمة وقذرة. لم تكن الإضرابات كثيرة الحدوث بين الأحرار الذين كُتب عليهم أن يتزاحموا فيما بينهم على الأشغال، لكن انتفاضات العبيد كانت، على العكس، كثيرة الوقوع ومألوفة. فلم تكن «الحرب الرقّية الأولى» (139 ق.م) أول حرب من نوعها، ولم يكن سبارتاكوس آخر عبد يموت في ثورة للعبيد (71 ق.م).

وإلى جانب العبيد الأرقّاء، سُخِّر الجُناة والمجرمون في بناء الطرقات الكبرى(*) التي نشّطت حركة التجارة، وسرَّعت تحركات الجيوش وانتقال الأفكار، وأدّت في نهاية المطاف إلى جعل إيطاليا بلاداً واحدة. في عام 312 ق.م، أشرف أبّيوس كلوديوس على شق «الطريق الأبياني» الموصل من روما إلى كابوا. وراح هذا الطريق يزداد طولاً وامتداداً إلى أن بلغ البحر الأدرياتيكي عند مدينة برنديزي

(*) شبكة من الطرقات العامة ذات الأسطح الصلبة بُنيت لوصل مدينة روما بالمواقع الامامية للسيطرة الرومانية، وأهمها أربع: الطريق الأبياني، والطريق الأورلياني، والطريق البراينستيني، والطريق اللاتيني (المترجم).

الحالية. وفي عام 241 ق.م، بدأ أوريليوس كوتّا بشق «الطريق الأورلياني»، الذي جعل من نيس مخفراً أمامياً لروما.

وقد تولت الحفاظ على النظام الاجتماعي، الذي يُعتبر بحق ينبوع الحضارة ودعامتها، كل من الأسرة، والكهنوت، والمدرسة، والقوانين وأذرعة الدولة المختلفة مجتمعةً. كان النظام داخل الأُسرة، في باكر عهد الجمهورية، يرتكز على سلطة الأب شبه المطلقة: فهو وحده من يتمتع بأي حق تجاه القانون. وحتى بائنة زوجته كانت تعود إليه دون سواه. وإذا ما اتُّهمت زوجته بارتكاب جريمة ما، فله وحده أن يُقاضيها ويُعاقبها. كما كان بإمكانه أن يحكم عليها بالموت بسبب الخيانة الزوجية، أو لسرقة مفاتيح خزانته الخاصّة بالخمور! أما أولاده، فبيده محياهم ومماتهم، ناهيك عن حقّه في بيعهم بيع العبيد. هذا فيما كانت سلطته على عبيده سلطة غير محدودة.

وشيئاً فشيئاً، بدأت حقوق رب الأسرة هذه تتقلّص، وقد عمل على كبحها كلّ من الرأي العام، والأعراف، ومجلس العشيرة، وتعاظم دور الأمن والقانون؛ وإلاّ فهي كانت مرشحة للاستمرار إلى حين وفاته. ومن المفترض أنها كانت تعكس تواتر الحرب، والحاجة الماسّة إلى التعوّد على الانضباط الصارم. لقد كانت هذه الحقوق أقسى على الورق منها في التطبيق. وإن كان ذلك لم يحل دون ظهور أمهات مُنتحبات بحرقة ولوعة جد طبيعية، أو نشوء مشاعر التوقير والاحترام بين الوالدين وأولادهم. إن التماثيل على أضرحة وقبور الرومان لا تقلّ بأي حال رقةً وحناناً عن مثيلاتها عند اليونانيين، أو عندنا نحن اليوم.

وفوق الأسرة كانت تحوم ثلّة من الآلهة بصفة حُماة ومشترعين وقوى أخلاقية. وهي لم تكن تتخذ هيئات بشرية، بل تُدرك كأرواح تتمتع بقوة خارقة للطبيعة تسيطر بها على كل الموجودات، وكل أطوار الحياة. وهكذا كانت الإلهة فينوس ترمز إلى حياة الأسرة ودوامها بنار الموقد التي ينبغي ألا تنطفىء، وأن تُغذّى بنصيب من كل وجبة طعام. وفوق الموقد ثمة نصمات (أيقونات) صغيرة معلّقة، تمثل آلهة الأسرة: «اللار»، أو الإلهة الحارسة للمباني والحقول؛ و «البينات»، أو الإلهة الداخلية التي تحمي ما تجمَّع للأسرة في مخازنها وأصونتها وشُوَنها.

وكان الإله «يانوس» يحوم حول عتبة الدار وإنْ كانت الأعين لا تراه، وكان ذا وجهين، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً، بل هما لمراقبة الداخلين والخارجين من كل باب. وكانوا يعلِّمون الطفل الصغير أن أمه تحمل في أحشائها «يونو»، وهو روح قدرتها على الحمل والولادة، وأن أباه فيه «عبقر»، ألا وهو روح قدرته على الإنجاب. وكان للطفل أيضاً عبقره أو يونوه، وهو ملاكه الحافظ، وروحه المصوَّرة كنواة إلهية في قشرته الفانية. وكانت تحيط به من كل جانب أطياف رؤوم (دي مانس)، وهي عبارة عن أقنعة موتى معلّقة على الجدران، تحذّر الطفل من الانحراف عن نهج أسلافه، وتذكّره ـ كما ذكّر بورك الثوري الفرنسي ـ أن الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الموجودين على قيد الحياة حالياً، بل تشمل كذلك أولئك الذين كانوا في الأيام الخوالي أو سيكونون في الأيام المقبلة، أعضاء فيها بلحمهم ودمهم، وبالتالي يمثّلون جزءاً لا يتجزأ من كينونتها الروحية ووحدتها الأبدية. باختصار، في روما، كانت الأسرة هي التي تحكم الدولة.

وإذا ما غادر الطفل المنزل، وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما حلّ. وكانت الأرض نفسها إلهاً يُعبد، تارة باسم «تلس». وتارة أخرى باسم «ترّا ماتر» (أي الأرض الأم)، وطوراً باسم «بونا ديا» (أي الربّة الطيبة) التي تهب النساء والحقول أرحاماً ولودة، وكان في المزرعة إله معيّن لكل عمل وكل بقعة فيها: «پومونا» للبساتين؛ «ساتورن» للزرع، «سيريز» للمحاصيل، و«فولكان» لإيقاد النار. قد تكون أديانٌ أخرى نظرت عالياً إلى السماء، كذلك الروماني لم يكن ينكر أن فيها هي الأخرى آلهة، لكن المحور الذي كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأصدق كفّاراته واستعطافه، كان هو الأرض، حاضنة حياته ومثوى موته، والقوة السحرية في البذرة النابتة.

حتى هواء إيطاليا وترابها كانا يعجّان بالآلهة والأرباب، ومنها أرواح الفصول مثل «مايا» (روح شهر مايو)؛ ومنها آلهة الماء مثل «نبتون»، وأرواح (أو أشباح) الغابات مثل «سيلفانس» (الآلهة التي تسكن الأشجار). كما كانت هناك أرواح للتناسل والإنجاب: «تتوموس» يشرف على الحمل والجنين؛ و «لوسينا» تحمي الحيض والولادة. وكان «پرياپوس» إلهاً للإخصاب عند اليونان، ولكنه سرعان ما سكن إيطاليا، وكانت العذارى والأمّهات يجلسن على قضيب تمثاله

ليضمنّ بذلك الحمل لديهن. وكانت تماثيل فاحشة لهذا الإله تزيّن الكثير من الحدائق، كما كانت صوره تُعلَّق على النحور لتهبهم الخصوبة أو حُسن الطالع.

وعلى الجميع، آلهة وبشراً، كان يهيمن «چوبيتر» أو «چوف»، رب السماء أو الشمس: «چوبيتر تونانس» على شكل صاعقة مرعدة، أو «چوبيتر بلوفيوس» على هيئة شؤبوب من المطر. وكان «مارس» (أو المريخ) إله الحرب، يحظى بتوقير الشعب وتعظيمه منذ أمد بعيد. وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور. وهذه الآلهة الكبرى «الإيطالية» كان لها ما يماثلها من آلهة متسرّبة من اليونان: فـ «أثينا» أصبحت «مينرفا»؛ و «حيرا» صارت «جونو»؛ و «أفروديت» باتت «ڤينوس»؛ و «فولكان» أضحى «مارس»؛ و «أرتميس» أمسى «ديانا». لم يحدث أن عرف دين من الأديان مثل هذا العدد الهائل من الآلهة والأرباب. حتى إن بترونيوس اُشتكى من أن المرء ليجد في بعض المدن الإيطالية آلهة أكثر من البشر!

فهل عزّز هذا الدين أخلاقيات الرومان أم أضعفها؟ أرى أنه كان ديناً غير أخلاقي من بعض الوجوه: فطقوسه وشعائره توحي بأن الآلهة لم تكن تثيب الإنسان على طيبته بقدر ما كانت تجازيه على القرابين والابتهالات التي يرفعها إليها. فالصلوات إنما كانت تُرفع على الدوام من أجل منفعة مادية أو طلباً لنصر عسكري. ومع ذلك، فإن الدين وُجد لترسيخ النظام والانضباط والمنعة لدى الفرد أو الأسرة، أو الدولة. وقبل أن يتعلّم الطفل الشك والارتياب، كان الإيمان الديني يطبع شخصيته على حب النظام والانضباط وحسّ الواجب وحسن السلوك. كان الدين يمدّ الأسرة بالوازع والسند الإلهيين، فيغرس في نفوس الأبوين والأبناء احتراماً متبادلاً وتعاطفاً فائقاً. كما كان يشيع الرهبة والوقار في كل جوانب الحياة العامّة، ويصهر الدولة والآلهة في عروة وثقى تصبح معها التقوى والوطنية شيئاً واحداً، ويسمو معها حب البلاد إلى حسّ وجداني قوي قلّما عرفه مجتمع آخر في التاريخ. إن الفضل يعود إلى الدين والأُسرة معاً في تكوين تلك الشخصية الحديدية التي مكّنت روما من حُكم العالم القديم مُدةً تربو على خمسمئة سنة.

الحكومة

في تجربتها الواسعة والمديدة، قُيّض لروما أن تجرّب وتضيء العديد من أشكال الحكومات؛ غير أن الخصومات العائلية والانحرافات الجنسية لملوكها «الأسطوريين»، جعلت الرومان يشعرون بالتخمة من الملكية. فآخر ملوكهم: تاركوينيوس سوپربوس الملقب بالأبيّ، كان له ابن عربيد، اغتصب لوكريشيا التقيّة؛ وقد حكى لنا حكايتها كل من ليفي وشكسبير. صارحت لوكريشيا أهلها بمصيبتها هذه وأقدمت على الانتحار. فهبّت الطبقة النبيلة التي تنتمي إليها تريد الثأر لابنتها. فعزلت تاركوينيوس، وأقامت جمهوريةً، واختارت «قنصلين» ليحكما تحت إشراف مجلس شيوخ أعلى مؤلَّف من آباء يدّعون التحدّر من الآباء المؤسِّسين للدولة.

وعلى شاكلة «الباتري»، الآباء المؤسِّسين عندنا(*)، لم يكن في نيّة الأشراف الرومان صبغ الجمهورية الوليدة بالديمقراطية. فحق التصويت حُصر بأصحاب الأملاك فقط، وعبارة «رسبوبليكا» إنما كانت تعني «الثروة المشتركة» لا غير. شكّل زعماء العشائر أو العائلات مجلساً للشيوخ من زهاء 300 عضو، تُملأ الشواغر الحاصلة فيه بالانضمام التلقائي للقناصل والتريبيونات(**) ممن أكملوا مدة ولايتهم على نحو مُشرّف، وهؤلاء الشيوخ الأوائل لم يكونوا سادةً للدعة والترف، شأن بعض أسلافهم، بل كُنت تجدهم يمسكون بأيديهم الفأس أو المحراث، ويعيشون حياةً ملؤها الحيوية والنشاط، ويتقاضون مخصّصات مالية متواضعة، ويلبسون مما يُغزل ويُنسج في منازلهم هم. فكانوا محطّ إعجاب عامّة الناس، حتى وهم يحاربونهم أحياناً، ويُطلقون على كل شيء يتصل بهم عبارة «كلاسيكوس»، ومعناها: من الطراز الأول، أو من أرفع درجة.

وكانت تُدانيهم من حيث الثروة، ولكن دونهم كثيراً من حيث السلطة السياسية، طبقةُ رجال الأعمال المُسماة: «إكويتس» (وتعني حرفياً: عُدّة الخيل). وعبارة «بوبلس» (الشعب) إنما كانت تنطبق على هاتين الطبقتين من الطبقات

(*) أي الآباء المؤسِّسون للولايات المتحدة الامريكية حسبما سبقت الإشارة (المترجم).

(**) ومفردها «تريبيون»، وهو محامٍ عن العامة يُختار من بين صفوفهم ليُدافع عن مصالحهم (المترجم).

العُليا فحسب، فيما يأتي تحتهما العبيد والعامّة. وعندما درجت روما على مدرجها في الغزو والفتح، أخذت أعدادٌ أكبر فأكبر من أسرى الحرب تُباع للأشراف ورجال الأعمال، وحتى للعامّة من ذوي اليسار.

بالإضافة إلى الأشراف ورجال الأعمال والعبيد، كان العامّة فُضلة الرومان، إذا جاز التعبير. وكان هؤلاء العامّة يتشكّلون من الفلاحين، والعمال، والتجّار، والمهنيين، والفنّانين، والمعلمين، والمصرفيين وسواهم. كان بعضهم غنياً موسراً، وبعضهم الآخر قوياً متنفّذاً، لكن أغلبهم كان فقيراً معدماً. والجميع يشعرون بأن القوانين الرومانية مجحفة بحقّهم. ويكاد يكون تاريخ الرومان ما قبل قيصر بمعظمه حكاية نضال العامّة في سبيل نيل حصّتهم من السلطة. لقد قاوموا القانون الجائر الذي كان يسمح للدائن بحبس المدين، المتخلّف تكراراً عن تسديد ما عليه من دين، في زنزانة على انفراد، أو بيعه عبداً في سوق النخاسة، أو حتى قتله. وطالبوا بأن توزّع الأراضي المستولى عليها في الحروب على الفقراء، بدلاً من إعطائها للأغنياء أو بيعها لهم بأثمان زهيدة. كما طالبوا بأن يتمتعوا بحق الانتخاب للحاكمية (منصب الوالي أو القاضي)، أو لسلك الكهنوت، وأن يكون لهم ممثلون لطبقتهم بين كبار موظفي الحكومة. وقد حاول مجلس الشيوخ أن يُجهض هذا الهيجان بتسعير نيران الحرب، لكنه صُدم إذ قوبلت دعوته إلى القتال بالتجاهل والرفض.

في عام 494 ق.م، انسحبت جماهير غفيرة من العامّة إلى «جبل مقدس» يطلُّ على نهر آنيو ويبعد ثلاثة أميال عن روما، حيث أعلنوا أنهم لن يقاتلوا روما، ولن يعملوا من أجلها إلاّ إذا لُبّيت مطالبهم. هنا خشي مجلس الشيوخ أن يتزامن وقوع هجوم خارجي مع هذا التمرد الداخلي، فوافق على شطب الديون أو تخفيضها، وعلى اُستحداث «تريبيونين» اثنين بوصفهما المدافعين المُنتخبين عن العامّة. وكانت تلك هي المعركة الافتتاحية في حربٍ طبقية لن تنتهي إلاّ بالقضاء على الجمهورية.

وكانت الخطوة التالية في صعود العامّة مطالبتهم بأن تكون القوانين واضحة ومحدّدة ومدوّنة، بمعزل عن التأويل والتحكّم الكهنوتيين. وبعد طول ممانعة، وافق مجلس الشيوخ آخر الأمر على إيفاد لجنة مؤلّفة من ثلاثة من

الأشراف إلى بلاد اليونان لدراسة شرائع صولون وغيره من المشترعين، وتقديم تقرير عنها. فلما عاد أفراد البعثة، اختارت «الجمعية الكتائبية»(*) (أي جمعية الجيش) عشرة رجال لوضع مدوَّنة قانونية جديدة. وبالفعل، قامت اللجنة بتحويل قوانين روما القديمة القائمة على العادة والعُرف إلى «الاثنتي عشرة لوحة» الذائعة الصيت، وعرضتها في السوق العامة (الفوروم) لمن يريد أن يقرأها. وكانت تلك أول مدوّنة من تلك المجموعة من القوانين التي ستبقى على الدوام أبرز إسهام أدلت به روما في حضارة الإنسانية.

وظلّت سلطة مجلس الشيوخ هي العُليا برغم كل هذه الاندفاعات نحو الديمقراطية. وكان المال اللازم للفوز بالمناصب الحكومية والاحتفاظ بها، في حد ذاته، حائلاً بين الفقراء وبين توليها، لاسيما وأنها كانت مناصب بلا أجر. أضف إلى ذلك أن الأثرياء من العامة كانوا قد بدأوا ينعاونون مع الأشراف في التصدّي للحركات المتطرفة. وأيّد رجال الأعمال من جانبهم سياسة الأشراف المتّبعة لأن ذلك يُتيح لهم عقوداً في المقاولات العامّة، وفرصاً لممارسة الاستغلال في المستعمرات والولايات الرومانية، وتكليفات بجباية الضرائب للدولة. وهكذا احتلّ مجلس الشيوخ مركز الصدارة في التشريع، وأقرّ العُرف سلطته فجعلها فوق منطوق القانون.

وعلى ضوء الأهمية المتزايدة للشؤون الخارجية، وكان مجلس الشيوخ هو الذي يتولّى تصريفها، فإن إدارته الحازمة والبارعة معاً لهذه الشؤون إنما أتت لتُعلي من سمعته وتعزّز سلطانه. ولما دخلت روما في حرب مع قرطاجة في عام 264 ق.م، دامت مئة عام للسيطرة على البحر المتوسط، كان مجلس الشيوخ هو الذي قاد الأمة عبر كل المآسي والمحن إلى النصر المؤزّر؛ والشعب الذي كانت تتهدّده الأخطار، احتجّ قليلاً ثم أذعن لسلطانه وزعامته.

الفتوحات

أضحت روما قوة عسكرية لأنها وجدت نفسها مطوّقة ومحشورة بين

(*) الكتيبة قوامها مئة جندي، لذلك ترجم بعضهم "Assembly of the Centuries" بجمعية المئات (المترجم).

البحر ودزينة من الدول الإيطالية المستقلّة على نحو شرس وشبه المهووسة بالحرب. وقد حاربت روما هذه الدول مرّة بالسلاح ومرّة بالدبلوماسية، واستمالتها إلى جانبها، واستوعبت معظمها تحت جناحها. إنما بقيت هناك مشكلتان تستوجبان الحلّ: إيطاليا شمالي نهر البو، وكانت لا تزال تحت سيطرة الغاليين(*) (حتى الرومان كانوا يدعونها «غاليا سيزالبينا»، أي «غاليي هذه الجهة من الألب»)؛ ومجموعة دول مدينية إلى الجنوب من روما، مثل نابولي، وبايستوم، وتارنتوم، وسيباريس، وهي جميعاً متعصبة لأصلها الإغريقي وثقافتها اليونانية وثروتها المتأتية من التجارة.

وخشيةً من أن تستقوي روما بانتصاراتها، استغاثت هذه الدول بالشاب اللامع بيروس، ملك أبيروس، أن يهب لنجدتها. وأملاً في تقسيم إيطاليا لمصلحة أمنه الخاص، عبر بيروس البحر الأدرياتيكي وهزم الرومان في هراكليا (280 ق.م)، ثم في أسكولم (279 ق.م)؛ غير أنه تكبّد فيها خسائر فادحة جعلته يقول، وقد ذهب قوله مثلاً سائراً بعد ذلك: «نصرٌ آخر كهذا، ويحلّ بنا الخراب». لكن لما تناهى إليه أن الغزاة القرطاجيين يحاصرون سيراكوزا (سرقوسة)، قاد جيشه المنهوك القوى إلى صقلّية، ودحر القرطاجيين من كل مواقعهم تقريباً على الجزيرة. بيد أن حكمه الاستبدادي أثار حفيظة اليونانيين الصقلّيين الذين ظنوا أنه باستطاعتهم التنعّم بالحرية من دون أوامر وإيعازات. فعاد بيروس أدراجه إلى إيطاليا وهو يقول: «أية غنيمة أتركها لتتقاتل عليها قرطاجة وروما!». والتقى بقوات رومانية معزّزة عند بنفنتوم (275 ق.م)، حيث مُني بهزيمة نكراء انسحب على أثرها إلى أبيروس. وبعد ذلك بثلاث سنوات، لقي بيروس مصرعه في معركة أرغوس، وكان يومها في السادسة والأربعين من عمره.

باتت روما الآن سيدة إيطاليا بأسرها. لكن ثمة قوة عبر البحر المستضيف أقدم عهداً وأوفر ثروةً من روما. فالتجّار الفينيقيون، المتنقلون بين الشرق الأدنى وإسبانيا، كانوا قد أقاموا محطات لهم للتجارة الوسيطة على الساحل الشمالي لإفريقيا. وتخبرنا الأسطورة، كما في «إنياذة» فرجيل، كيف أن ديدو، ابنة ملك صور، أنشأت مستوطنة ساميّة قرب أوتيكا تُدعى «قرت خداشت» (ومعناها:

(*) الغاليون أو السلتيون من بلاد الغال، هم أسلاف الفرنسيين الحاليين (المترجم).

القرية الجديدة)، وقد حوّرها الرومان إلى «قرطاجو». وفي قرطاجو هذه، طفق المستوطنون الفينيقيون يكترون أو يسترقّون أهالي إفريقيا الأصليين، وينمّون الزراعة على نطاق واسع. كما بنوا أسطولاً تجارياً لاستخدامه في نقل البضائع ما بين صيدا وصور شرقاً، وإسبانيا وبريطانيا غرباً. وبحلول القرن الثالث ق.م، كانت قرطاجة قد أضحت أغنى مدينة في العالم المتوسطي، يربو عدد سكانها على 250 ألف نسمة، وتبلغ إيراداتها عشرين ضعفاً ما كان يدخل خزائن أثينا وهي في أوج عنفوانها؛ كما تحفل بالقصور الفخمة والهياكل البهيّة، وبما يكفي لإلهام فلوبير(*) بعد مضي ألفي سنة رائعته النثرية المذهّبة: «سالامبو». وكان يمسك بزمام الحكم فيها جمعية شعبية ومجلس شيوخ يسيطر عليه التجّار. وكانت المفخرة السريّة لهذه الدولة المدينة أسطولها الحربي المؤلّف من خمسمئة سفينة من «سفن الخماسيات»(**) الذي أتاح لها بسط سيطرتها على الشطر الجنوبي الغربي من البحر المتوسط. وعندما نقل هذا الأسطول جيشاً إلى صقلّية، اتخذ مجلس الشيوخ الروماني قراره بوجوب تدمير قرطاجة.

لا داعي هنا إلى تكرار ما تعلّمناه على مقاعد الدراسة من أن روما وقرطاجة تواجهتا من 264 إلى 146 ق.م حول أيهما يجب أن تُمسك بمقدرات صقلية وكورسيكا وإسبانيا، وتدعو البحر المتوسط: «Mare nostrum»، أي «البحر بحرنا». ولقد ظهر العديد من الأبطال على مسرح التاريخ خلال تلك الحروب البونيّة (أي الفينيقية) الثلاث: رجيلوس، هملقار، هنيبعل، هسدروبعل وشيبيو الإفريقي. وقبل أن يغادر قرطاجة في آخر حملة عسكرية له، قاد هملقار ابنه هنيبعل، ذا التسع سنين، إلى مذبح الإله بعل حامين، وأمره بأن يقسم يميناً مغلظة أنه سينتقم لبلاده من روما ذات يوم. وأقسم هنيبعل.

وما أتاح لهنيبعل أن يُحرز نجاحاته المدوّية لاحقاً، صراع روما مع الغاليين للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية شمالي نهر البو. فلضمان أمنها من

(*) روائي فرنسي ذائع الصيت من القرن التاسع عشر. له عدة روايات من أشهرها: «مدام بوڤاري»، و «تجربة القديس أنطونيوس»، و «ثلاث حكايات»؛ وبالطبع رواية «سالامبو» التي يذكرها ديورانت بالتخصيص (المترجم).

(**) سُفن الخماسيات (quinqueremes): سفنٌ ذات صفوف خمسة من المجاذيف ومزوّدة بكبش ضخم ناتىء لإتلاف سفن الأعداء (المترجم).

جهة الغرب، عقدت روما معاهدة مع القرطاجيين في إسبانيا توافق بموجبها على ألا يتخطوا نهر إيرو. وفي عام 225 ق.م، زحف جيش غالي كبير، قوامه 50 ألف راجل، و 20 ألف فارس، نازلاً من «غاليا سيزالپينا»، في محاولة منه لتدمير روما. فاستبدّ الذعر بسكان العاصمة، حتى إن مجلس الشيوخ أعاد العمل بعُرف بدائي قديم يتعلق بتقديم الأضاحي البشرية؛ وفعلاً أُحرق أسيران غاليان حيّين. اْلتقت الفيالق الرومانية بالغُزاة الغاليين على مقربة من تلامون، فقتلوا أربعين ألفاً منهم بحسب روايتهم، وتابعوا تقدمهم لإخضاع «غاليا سيزالپينا»، فتم لهم ذلك. وإذ أضحت روما الآن سيدة إيطاليا بحق وحقيق، اْلتفتت إلى استئناف نزالها مع قرطاجة.

اختار الجيش القرطاجي المرابط في إسبانيا هنيبعل قائداً له في عام 221 ق.م. كان يومئذ في السادسة والعشرين من عمره، أي كان بعدُ في ريعان شبابه، جسداً وعقلاً. وكان قد تلقى قدراً من التعليم في التاريخ واللّغات والآداب الفينيقية واليونانية، وتلقى ما يتلقاه الجنود عادةً من تدريبات في المعسكرات وساحات القتال على حد سواء. كان قد روّض جسمه على تحمّل المشاق، وكبح شهيّته عند حدود الحاجة فقط، وألزم فكره بالحقائق وعوّد لسانه على الصمت. قال فيه ليفي المناوىء له: «إنه أول الداخلين في المعمعة، وآخر المغادرين أرض الميدان». ولقد أحبّه قُدامى المحاربين لأنهم كانوا يرون في حضوره القوي قائدهم العجوز هملقار وقد عاد إليهم في إهاب شاب مفعم بالنشاط. كذلك ملك قلوب المُجندين الجُدد، لأنه لم يكن يهنأ له بال إلاّ إذا لبّى كل احتياجات الجيش، ويشاطرهم أفراحهم وأتراحهم. وما كان ليغفر له الرومان كسبه المعارك ضدهم بعقله هو وليس بأرواح جنوده.

وجد هنيبعل أن الفرصة ملائمة ما دامت بلاد الغال تنافسه الآن في كراهية روما. ولما كان عاجزاً عن غزو إيطاليا من طريق البحر، نظراً لضخامة الأسطول البحري الروماني ومنعته، فقد رأى أن في مقدوره مهاجمتها بالزحف عبر بلاد الغال والنزول عليها من جبال الألب. وهكذا عبر هنيبعل سلسلة الجبال تلك عبر نفس الطريق تقريباً الذي سلكه نابليون بعده بألفي سنة. رحّبت به «غاليا سيزالپينا» بحرارة، ومنها من اُنضم إليه. لكن الجيش الذي انطلق به من إسبانيا وقوامه 50 ألف جندي، كان قد هبط الآن إلى 26 ألفاً فقط. اْلتقى هنيبعل بالجيوش

الرومانية، أولاً بالقرب من نهر تيسينو (218 ق.م)، ثم مجدداً عند بحيرة ترانسيمن (217 ق.م)؛ وفي كلتا الموقعتين، تغلّب القائد القرطاجي عليها بفيلته الإفريقية وفرسانه النيوميديين الهمج. ثم قاد قواته التي نال منها الإعياء كل منال عبر جبال الإپنين، ومنها نزولاً إلى ساحل البحر الأدرياتيكي. عيّن مجلس الشيوخ الروماني كوينتوس فابيوس مكسيموس «ديكتاتوراً»، وطلب منه أن يتعقّب جيش هنيبعل ويشتبك معه. فرأى فابيوس أن من الحكمة تعقّبه وتحاشي الاشتباك معه. وعلى غرار پيروس من قبله، حمل فابيوس الأمر على غير محمله، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن عزل فابيوس (أو فابيان)، وعيَّن مكانه قائدين عسكريين، أصر أحدهما، وهو كايوس ڤارّو، على خوض المعركة مع جيش قرطاجة.

اشتبكت القوتان عند كاناي في أپوليا عام 216 ق.م. كان لدى الرومان 80 ألف راجل و 6 آلاف فارس؛ أما هنيبعل، فكان لديه 19 ألفاً من المقاتلين المحترفين، و 16 ألفاً من الغاليين غير الموثوقين، و 10 آلاف فارس. خدع هنيبعل ڤارّو إذ استدرجه إلى القتال في سهل منبسط يُلائم الخيّالة. وكان قد وضع الغاليين في الوسط، متوقعاً منهم التخلّي عن مواقعهم، وقد صدق توقعه. وعندما تعقّبهم الرومان إلى داخل الثغرة التي أحدثوها بانسحابهم، أمر هنيبعل، وكان هو نفسه في معمعان القتال، جنوده المحترفين بالإطباق على ميمنة الرومان وميسرتهم. كما أمر خيالته باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية الرئيسية من الخلف. وبذلك، أحاط القرطاجيون بالجيش الروماني من كل جانب، وفقد كل إمكانية للقيام بمناورة وكاد أن يفنى عن بكرة أبيه. ففي تلك الموقعة، لقي 44 ألف روماني حتفهم، بمن فيهم 80 من أعضاء مجلس الشيوخ. أما هنيبعل، فاَقتصرت خسائره على 6 آلاف مقاتل، ثُلثاهم من الغاليين. وكان نصره هذا مثالاً فذاً في فن القيادة الحربية، نادراً ما رأينا مثيلاً له في التاريخ. كما أنهى هذا النصر سياسة اعتماد الرومان على المشاة فقط، وحدّد الخطوط العريضة للتكتيكات العسكرية لألفي سنة قادمة.

غير أنها كانت معركة حاسمة على المدى القريب، وعقيمة على المدى البعيد. فلبرهة من الزمن، تصوّر العالم المتوسطي أن قوة روما تحطمت إلى غير رجعة، فتحالفت الدول الإيطالية إيّاها مع هنيبعل، وأعلنت سيراكوزا عن دعمها

وتأييدها لقرطاجة. وخشي فيليب الخامس المقدوني من حصول توسّع روماني في اليونان، فأعلن الحرب على روما. لكن وسط كل هذه الانتصارات، وجد هنيبعل جيشه الخائر القوى زاهداً في القتال، ويلزمه بعض الوقت ليبرأ من جراحه. فناشد مجلس الشيوخ القرطاجي أن يمدّه بالنجدات، فأمدّه بأدنى قدر منها. في تلك الأثناء، كانت روما تحشد وتجهّز جيشاً جديداً قوامه 200 ألف جندي.

في عام 208 ق.م، قاد هسدروبعل، أخو هنيبعل الأصغر، جيشاً قرطاجياً من إسبارطة(*)، عَبَر به بلاد الغال ثم جبال الألب. لكنه لقي حتفه إثر الهزيمة التي مُني بها على نهر متورُس (207 ق.م). وأُلقي برأسه المقصول في معسكر هنيبعل بأمر من أحد القادة الرومان. وهكذا بسطت روما سيطرتها على إسبانيا بأسرها على يد پيبليوس كورنيليوس شيبيو، الذي سيُعرف لاحقاً بشيبيو الإفريقي؛ ومنها سيقود جيشاً إلى إفريقيا بالذات. هنا استنجدت قرطاجة، المضطربة والمطوّقة، بهنيبعل لكي يُسرع إلى نجدتها. فجاء على رأس جيش شكّله حديثاً، واشتبك مع قوات شيبيو عند زاما، على بعد خمسين ميلاً جنوبي العاصمة، حيث حاقت به الهزيمة. وبهزيمة هنيبعل وأستسلام قرطاجة البائس، وضعت الحرب البونية الثانية أوزارها في عام 202 ق.م.

لم يعد بمقدور أية دولة متوسطية أن توقف التوسّع الروماني بعد الآن. فانتقلت روما على الفور إلى تأديب فيليب الخامس ملك مقدونيا. وفي عام 200 ق.م، عبرت قوة رومانية بقيادة تيتوس كوينستيوس فلامينينوس البحر الأدرياتيكي. وبعد مناورات دامت عدة سنوات، تغلب الرومان على فيليب في معركة سينوسفلي سنة 197 ق.م. وبذلك بات من المنتظر أن تصبح بلاد اليونان جميعاً شعاعاً آخر في دولاب روما. لكن فلامينينوس كان قد نشأ ضمن الدائرة الليبرالية الداعية إلى الهيلينية المحيطة بشيبيو. فكانت الرهبة التي تتملكه إزاء تاريخ اليونان وآدابها وفلسفتها وفنونها لا تعادلها إلا رهبة المدن اليونانية، الصامتة في خصوماتها ونزاعاتها، والمتجرعة كأس السلام المُذلّ. وفي اجتماع تاريخي عُقد في مدينة كورنثيا، أعلن فلامينيوس على اليونانيين أن روما لن تكون سيدتهم بل حاميتهم؛ وأنهم سيُعفون من دفع الجزية، وحتى من مرابطة

(*) في اسبانيا (المترجم).

الحاميات الرومانية في أراضيهم، وسيُسمح لهم بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، بشرطٍ وحيد هو أن يضعوا حداً نهائياً لخصوماتهم الداخلية وللنزاعات القائمة بين دولهم. وإذا بصيحات الابتهاج تتعالى من الحشود، وقد كانت مدوّية لدرجة أن الغربان المحلّقة فوق الملعب الذي عُقد فيه الاجتماع، سقطت ميتة على ما يروي بلوتارخ. وسحب فلامينيوس قواته إلى إيطاليا.

راح اليونانيون يُنشدون القصائد للحرية، لكنهم كانوا منقسمين على أنفسهم انقساماً لا يحتملون معه السلام. فعادت الحرب والصراعات الطبقية تستعر بينهم من جديد. وفيما كانت روما تخوض الحرب البونية الثالثة، بدأت الرابطة الآخية للدول اليونانية حرباً للتحرّر من ربقة روما في عام 146 ق.م. فاستولى جيش روماني بقيادة مُميوس على كورنثيا حيث ذبح رجالها كلهم تقريباً، وباع نساءها وأطفالها عبيداً أرقّاء، ونقل ما يُمكن نقله من تحفها الفنية وثرواتها إلى روما. أما الدول اليونانية الأخرى، فقد حُلت ودُمجت معاً ضمن مقاطعة واحدة يحكمها والٍ روماني.

وشُقّت الطُرقات لانتقال الرجال والبضائع والأفكار بين الحضارة القديمة والحضارة الجديدة. فانتقل آلاف اليونانيين إلى إيطاليا، حاملين معهم شذرات من تراثهم. والغزو الثقافي اليوناني لروما، أعقب على مهل الغزو العسكري الروماني لبلاد اليونان.

وهكذا، نما تراث كلاسيكي موحّد، أُنتقل لاحقاً فوق الطرقات الرومانية وعبر جبال الألب إلى شمال أوروبا، ومنها وصل مع الوقت ودونما عجلة إليك أنت... وإليّ أنا.

لوقراسيوس

من التراث الثري الذي أُنتقل إلى روما على مهل في أعقاب عودة الفاتحين من غزواتهم، أجزاء كثيرة من الآداب والفنون والفلسفة والعلوم والعقائد والشكوك الدينية، التي كانت قد تراكمت على مدى خمسمئة عام في المدن المتناثرة داخل اليونان أو في المستعمرات اليونانية خارجها.

وكان من بين تلك الكنوز، مخطوطات ومأثورات شفهية تحكي عن مادية

ديموقريطس، وأخلاقية أبيقور. فأخذ شاعر روماني يُدعى تيتوس لوقراسيوس كاروس(*) يطّلع وكله استثارة وانفعال على ما نجا من هذه المأثورات من «مجازر» الزمن البطيء. وقد أناط بنفسه مهمة وجيهة ومبهجة معاً، ألا وهي تقديم المسائل الفلسفية والينابيع الدنيوية للمتعة الرشيدة، في قالب من الشعر اللاتيني إلى أمة كانت لا تزال تحبو على المدارج العقلية.

دعا لوقراسيوس قصيدته الفلسفية المطوّلة: «في طبيعة الأشياء» (De rerum natura)، وقد نَظَمها على نسق الشعر الهوميري، واختار لها الوزن السداسي التفاعيل، الثرّ والصالح للإيجاز البليغ، كأن أخيل نفسه يقرض الشعر. واستهلها بمناجاة حارّة موجَّهة إلى ڤينوس بوصفها ربّة الخصب وقاهرة مارس، إله الحرب:

«يا أم الجنس الإينياسي(**)، يا بهجة الخلق والآلهة، أي ڤينوس يا واهبة الغذاء!... إن جميع الكائنات الحيّة تتكوّن وتولد ثم تنظر إلى الشمس من خلالك أنتِ. وإذا أقبلتِ فرّت الرياح أمامك، وتبددت سُحب السماء. إليكِ ترفع الأرض المعجزة أزهارها الفوّاحة. وإليكِ تضحك أمواج البحر وتتلألأ السماء الهانئة بالنور العميم. ذلك أنه إذا ما بدت تباشير النهار في الربيع وهبّت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل شيء نضارة وخضرة، هلّلت لكِ الطيور قبل غيرها ورحّبت بقدومكِ، أنتِ أيتها المقدسة، يا من تنفذين إلى قلوبها بقوتك الخارقة... ثم تتقافز القطعان فوق المراعي الفَرِحَة بها، وتعبر الجداول السريعة الجريان. وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك الفتّان، ويسير في ركابكِ أينما سرتِ. فتجتازين البحار والجبال والأنهار الهدّارة، وتمرين بأوكار الطيور على الأشجار المورقة والحقول الخضراء، لتبعثي بالحب الرقيق في صدور كل المخلوقات، وتوحي إليها بأن تتناسل وتتكاثر، كلّ بحسب جنسه. ولأنكِ أنتِ دون سواكِ تتحكمين في طبيعة الأشياء، وبغيرك لا يرتفع شيء إلى شواطىء النور المشرق، ولا يوجد شيء بهيج أو جميل، فإن نفسي تتوق إليكِ لتكوني شريكتي في كتابة هذه الأبيات... ألا فامنحي، أيتها الإلهة العلوية، ألفاظي جمالاً لا يدركه

(*) بعضهم يكتب اسمه «لوكريشيوس» أو «لكريسيوس» بالعربية (المترجم).

(**) نسبة إلى إينياس، ابن ڤينوس، ربّة الحب والجمال عند الرومان (المترجم).

الفناء، واجعلي في الوقت نفسه أعمال الحرب الوحشية تنام وتستكين... وإذا ما أُضطجع فارس بجانب جسمك المقدس، فانحني فوقه من عليائكِ، واسكبي ملاطفاتكِ الحلوة من فمك، واطلبي نعمة السلام إلى الرومان».

إن ڤينوس هي الربّة الوحيدة التي خصّها لوقراسيوس بالعبادة. ذلك أن الآلهة الرومانية جميعها غير ذات نفع بالنسبة إليه. قد يكون لها وجود، إنما لا تملك أي تأثير في شؤون البشر. وقد شجب الطقوس الوثنية المتمثلة بتقديم الأضاحي الحيوانية أو البشرية، وحكى قصة إفيغينيا التي ضُحي بها على مذبح الآلهة من أجل هبّة ريح.

«أوه يا جنس البشر! يا لتعاستك وبؤسك إذ تعزو إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير! ... فالتقوى لا تكون في الإكثار من الانكباب على الحجارة برؤوس مبرقعة، ولا في السجود... أمام الهياكل... ولا في إسالة دماء الحيوانات المتوحشة على المذابح... بل التقوى هي في قُدرة الإنسان على النظر إلى الأشياء كافة بعقل هادىء مطمئن... فمخاوف العقل وظلمته لا تبدّدها أشعة الشمس... بل يبدّدها النظر في الطبيعة وقوانين الطبيعة».

وهكذا يُكسي لوقراسيوس بشهد «المُوْزيّات»، (عرائس الشعر)، مادية ديموقريطس الخشنة، ويُصرِّح بأن المبدأ الأساسي لديه أن «لا وجود إلا للذرّات والفراغ»، أي المادّة والفضاء. لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء، عديمة الشكل، ولكن التوزّع التدريجي للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج ـ عن غير قصد ـ الهواء والنار والماء والتراب. ومن هذه العناصر الأربعة نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم. وفي الفضاء اللامتناهي، تولد باستمرار عوالم جديدة وتفنى أخرى قديمة. ثم أنفصل جزء من السديم الأوّلي عن هذه الكتلة وبرد فتكوّنت منه الأرض. وليست الزلازل ناجمة عن زمجرة الآلهة بل من تمدد الغازات وتوسّع المجاري التي تحت الأرض. كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه، بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض. وليس المطر مرحمة من چوف (چوبيتر)، بل هو رجوع الرطوبة التي بخّرتها الشمس إلى الأرض.

كان لوقراسيوس مفكّراً نشوئياً بكل معنى الكلمة:

«ما من شيء ينشأ في الجسم بقصد أن نستخدمه، وإنما ما ينشأ فيه يستدعي بعد وجوده الغرض منه... فلم يكن غرض الذرات هو الذي جعلها ترتّب نفسها ترتيباً معيّناً قائماً على الذكاء والفطنة، بل لأن العديد من الذرات ومنذ الأزل تحركت والتقت بطرق مختلفة لا حصر لها، وجرّبت كل التراكيب على اختلافها... ومن هنا كانت بدايات الأشياء الكبيرة... ومنشأ كل الكائنات الحيّة... والعديد منها كانت مسوخاً حاولت الأرض صنعها، بعضها كان بدون أرجل، وبعضها الآخر بدون يدين أو فم أو وجه، أو كان لها أطراف ملتصقة بأجسامها... وكان وجودها عبثاً لا طائل تحتها... فقد ضنّت الطبيعة عليها بالنمو، ولم تستطع أن تجد هي لنفسها الطعام، أو أن تتصل بعضها ببعض اتصالاً مبعثه الحب... وما من شك في أن أجناساً عديدة من الحيوانات قد انقرضت لأنها عجزت عن صنع سلسلة تناسلية لها... الأجناس التي لم تزوّدها الطبيعة بأية خصائص وصفات «حمائية»، وقعت تحت رحمة غيرها، وسرعان ما هلكت وانقرضت».

والروح (التي يدعوها لوقراسيوس «أنيما»)، هي نَفَس حيويّ، مادة جدّ رقيقة تنتشر في الجسم كله وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه. وهي تنمو وتشيخ مع الجسم، وتتبدّد ذراتها ظاهرياً حين يموت. والحياة لا توهب لنا كي تكون ملكاً خالصاً لنا، بل نتلقاها على سبيل الإعارة، ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها. فإذا ما استنفدنا قوانا، وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتبطين ممتنّين، كما يغادر الضيف الوليمة.

وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً، بل الذي يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه في الحياة الآخرة. ولكن الآخرة لا وجود لها، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا، هو عذاباتنا الناشئة عن الجهل والانفعالات والتخاصم والشره؛ والجنة توجد على ظهر هذه الأرض، في «معابد الحكمة الرزينة» (sapientum tempela serena).

وليست الفضيلة في الخوف من الآلهة، ولا في تجنّب الملذات والخشية منها، بل هي في تناسق عمل الحواس والمواهب بإرشاد العقل: إن «ثروة الإنسان الحقيقية هي أن يعيش في بساطة وطمأنينة». والزواج، عنده، أمر محمود، ولكن الحب الشهواني جنون يجرِّد العقل من صفاته ورشده. وما من زواج أو مجتمع

أياً كان نوعه، يستطيع أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها في مثل هذه الخيالات الشهوانية.

أما كيف تطوّرت الحضارة؟ عن ذلك يُحدثنا لوقراسيوس في ملخّص طريف لعلم الإناسة (الانتروبولوجيا) القديم، يقول فيه إن التنظيم الاجتماعي منح الإنسان القُدرة على البقاء فيما بادت حيوانات كانت أشدّ منه قوة وجبروتاً. وقد اكتشف النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار بالأغصان؛ واستنبط اللغة من الإيماءات والإشارات وتعلّم الغناء من الطيور؛ ودجّن الحيوان لمنفعته الخاصة، كما رُوِّض هو بالزواج والقانون. رصد السماء، وقاس الزمن، وتعلّم الملاحة. وليس التاريخ إلا سيرورة من الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر ثم تضمحل وتحتضر، ولكن كلاً منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والشرائع والفنون: «فهي كالعدّائين في سباق يُسلّم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره» (et quasi cursores vitai lampada tradunt).

وإذا رجعنا إلى قصيدة لوقراسيوس التي تُعدّ «أروع نتاج الأدب القديم قاطبة»، فقد نلاحظ لأول وهلة ما يشوبها من نواقص وعيوب: كاضطراب موضوعاتها التي حال موت الشاعر المبكر دون مراجعتها وتنقيحها؛ واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم ليست في حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها؛ الصعوبة الملحوظة لديه في تفسير كيف تتحوّل الذرات الميتة إلى حياة ووعي وبصيرة؛ التغافل عمّا يبعثه الإيمان الديني في المؤمن من تبصّر وطمأنينة وسلوان، وعمّا للدين من وظيفة أخلاقية واجتماعية.

لكن ما أقلّ هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة الجريئة التي بذلها لوقراسيوس لتفسير الكون والدين والمرض تفسيراً منطقياً وعقلانياً (وهو القائل: «توجد كثير من بذور الأشياء التي تعيننا على الحياة، ولكن لا شك أيضاً في أن ثمة بذوراً أخرى كثيرة تتطاير حولنا وتسبّب المرض والموت»)؛ وأمام الصورة التي رسمها للطبيعة كعالمٍ مقنّن لا تعتري المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان؛ وأمام قوة المخيلة المستدامة التي تتحسس في كل مكان «جلال الأشياء»، وتسمو برؤى أنباذوقلس وعلم ديموقريطس وأخلاقية أبيقور إلى مرتبة شعرية رفيعة جداً قلّما عرفها عصر من العصور.

وقد خاض لوقراسيوس بمفرده واحدة من أقسى المعارك وأبعدها أثراً في زمانه، ونعني بها تلك الحرب التي لا تنتهي بين الشرق والغرب، وما بين الإيمان الرقيق والمؤاسي والعلم الصلب والمادي. وقد كان، والحق يُقال، أعظم الشعراء الفلاسفة. وهو الذي سما بالأدب اللاتيني، كما سما به كاتالوس وشيشرون وفيرجيل من بعده، حتى بلغ سن الرشد، وبذلك انتقلت زعامة الأدب وصناعة الكتابة من بلاد اليونان إلى روما.

الفصل العاشر

الثورات الرومانية

دعونا الآن ننظر في الأسباب والشخصيات والأزمات الرئيسية التي كانت وراء الثورات التي اجتاحت روما في الفترة الواقعة ما بين صدور تشريعات تيبريوس غراكُس الليبرالية، وهزيمة أنطونيوس (أنطوني) وكليوباترا في معركة أكتيوم البحرية عام 31 ق.م.

وإذا كنتم أصحاب عقول يقظة وأذهان حادّة، وهذا ما أتوسمه فيكم، فسوف تُلاحظون فيما يلي مما سنرويه لكم كثيراً من المتماثلات والمتناظرات مع تاريخ بلادنا(*) في القرنين الماضيين. وكما قال هوراس: «De te fabula narratur» (عنكم تحكي الحكاية).

نُذُر الثورة

هناك عوامل تُشكّل بحد ذاتها أرضية تحتيّة للثورة. ولعل في مقدمة أسباب هذه الثورة اَستقدام العبيد لزرع الحبوب من الولايات الرومانية، وهذا ما قضى على الفلاحين الأحرار في إيطاليا عن طريق إجبارهم على بيع محاصيلهم بأقلّ من تكاليف إنتاجها. ومن أسبابها أيضاً، اَنتشار الضياع الزراعية الواسعة

(*) الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

على حساب المزارع العائلية الصغيرة. فكانت هذه الضياع تُشغِّل العبيد، وتعود ملكيتها إلى أعضاء في مجلس الشيوخ أو إلى رجال أعمال، الأمر الذي دفع المزارعين الأحرار إلى الانضمام إلى عمال المدينة الساخطين، حيث كانوا يشاهدون الألعاب في المدرّجات مجاناً، ويتسلّمون الحبوب من الحكومة على سبيل الإعانة، ويبيعون أصواتهم عند الاقتراع لمن يدفع أكثر، ويختفون وسط الجماهير المُعدمة والمختلطة.

وكان العامل نفسه في المدينة منزعج من جراء مزاحمة العبد له على لقمة العيش، حتى بات عنده سيّان تقريباً إنْ عمل أو قعد من دون عمل.

كان العبيد منتشرين بكثرة في معظم أرجاء الامبراطورية، لكنهم تركّزوا أكثر ما تركّزوا في إيطاليا. وعلاوة على أسرى الحروب الذين يُساقون إلى روما بعد الحملات العسكرية المظفّرة، كان هناك ضحايا القراصنة ـ الذين جعلوا من استعباد البشر مهنة لهم ـ أو المسؤولين الرومانيين الاستعماريين الذين كانوا ينظّمون حملات صيد بشرية، فيحشرون في عداد العبيد كل من يُقبض عليه خارجاً عن النظام أو من دون صديق يتكفّل بحمايته. وأسبوعاً بعد أسبوع، كان تجّار النخاسة يسوقون غنائمهم البشرية إلى الأسواق العامة لبيعهم بالمزاد العلني: في دولوس مثلاً، بيع عشرة آلاف عبد خلال يوم واحد؛ كما أسرت الجيوش الرومانية زهاء 40 ألفاً من أهالي سردينيا في عام 177 ق.م، وما يربو على 150 ألفاً من أهالي إيبيروس في 167 ق.م، وبيعوا جميعاً بنحو دولار للرأس الواحد. ومما كان يُخفِّف من شقاء العبيد في المدينة ما كان ينشأ من صلات إنسانية بينهم وبين سادتهم، أما في الضياع الواسعة، فنادراً ما كان العبد يرى مالكه؛ وما يناله من المُناظر المُشرف عليه إنما كان يتوقف على مقدار ما يستطيع هذا الأخير اُعتصاره من كدّه وعرقه من أرباح لسيده. وليس في هذا أي حافز للعمل، اللّهم الخوف من الجلد بالسياط، أو من الحبس في الجبّ تحت الأرض (الإرغاستولوم)، الذي كان معلماً مألوفاً في الضياع الواسعة. أما والحالة هذه، فلا عجب أن تقع بين الفينة والفينة أعمال تمرّد وعصيان من جانب العبيد، لعلّ أشهرها ما شهدته الحرب الرقّية الأولى في عام 139 ق.م.، وفي الأعوام 73-71 ق.م، تحت لواء سبارتاكوس. وعندما مُني التمرُّد الشهير بالفشل، صُلب ستة آلاف من الثائرين على امتداد الطريق الأبياني، من روما إلى كاپوا. وتُركت

أجسادهم معلّقة أشهراً عدّة، لعل الأسياد جميعاً يطمئنون نفساً بمرآهم مصلوبين، ويأخذ العبيد كلهم من ذلك درساً وعبرة.

في غضون ذلك، كانت الفوارق الطبيعية من حيث الأهلية الاقتصادية والمؤسّسة الوراثية السائدة قد تمخضت في روما وأمبراطوريتها ـ كما في أية حضارة وأي جيل تقريباً ـ عن تركّز شديد للثروة، التي تضخمت تضخماً هائلاً قلّ نظيره في التاريخ بفعل الفتوحات الاستعمارية واستغلال المستعمرات. فكان هذا التركّز يُجابه دورياً بقلاقل اجتماعية، وبالثورة في بعض الأحيان. وقد سبق أن رأينا حالة واحدة مسرحها أثينا، حُلت المشكلة فيها سلمياً على عهد «الأرخون» صولون (594 ق.م)، وها هي أزمة مُشابهة تنشب الآن (133 ق.م) في روما، لكن الحنكة السياسية تفشل في حلّها، وتحلّ محلها مئة عام من النزاعات والصراعات الطبقية التي جرّت الجمهورية الرومانية إلى خاتمة مخزية.

مجوهرات كورنيليا

كأنما قدّر لتيبريوس سمبرونيوس غراكس (162؟-133 ق.م) أن يكون عظيماً: فهو ابن رجل أنتُخب قنصلاً مرتين؛ وأمه كورنيليا، هي ابنة شيبيو أفريقانوس مايور (شيبيو الإفريقي)، الذي هزم هنيبعل في معركة زاما الشهيرة. توفي زوجها بعدما أنجب منها اثني عشر ولداً، تسعة منهم ماتوا وهم في شرخ الصبا، ولم يبقَ لها سوى ابنة واحدة وصبيّان: تيبريوس وكايوس، فكانا مصدر عزاء وفخر لها في آن. وحين كان يسألها زائر ما عمّا إذا كانت تلبس أية مجوهرات، كانت تُريه ابنيها، وتقول له: «هذان هما مجوهراتي».

ونظراً لنشأتهما في أجواء الأدب والسياسة والفلسفة، كان تيبريوس وكايوس على دراية تامّة بتأمّلات الفكر اليوناني ومشاكل الحُكم الروماني. وقد استرعت انتباه تيبريوس، خلال طوافه في إيطاليا، ندرة الرجال الأحرار على الأراضي الزراعية، فسأل نفسه: أي جيش سيكون لروما فيما لو حلّ محل الفلاحين الأقوياء الذين كانوا يؤلفون غالبيته الساحقة ذات يوم، عبيدٌ غرباء يضمرون الكراهية لروما؟ وكيف لروما أن تعرف الاستقرار السياسي إذا غصّت

بعمال المدن المعدمين بدل الزرّاع الأباة الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم؟ وبدا له أن توزيع الأرض على الشريحة الأكثر فقراً من السكّان هو الحل البيِّن واللازم.

انتُخب تيبريوس «تريبيوناً» في عام 133 ق.م، فأعدّ للجمعية التريبيونية (القبلية) ثلاثة اقتراحات: (1) ألا يُسمح لأي مواطن أن يمتلك أكثر من 333 فداناً ـ أو 667 فداناً إذا كان له ابنان ـ من الأراضي المشتراة أو المستأجرة من الدولة؛ (2) أن تُرد إلى الدولة كل ما عدا ذلك من الأراضي العامة التي باعتها أو أجّرتها للأفراد، على أن ترد الدولة إليهم أثمانها أو بدلات الإيجار المدفوعة، زائد مبلغ إضافي من المال نظير ما أنفقوه في إصلاحها؛ (3) أن تُقسَّم الأراضي المُعادة إلى الدولة إلى إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فداناً وتوزَّع على المواطنين الفقراء، بشرط أن يتعهدوا بألا يبيع أحدٌ منهم نصيبه من هذه الأرض، وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة.

وأمام جمعٍ من العامّة الفقراء، دافع تيبريوس عن مقترحاته هذه، محتكماً في ذلك إلى المصالح الطبقية:

> «إنّ لحيوانات الأرض جحورها ولطيور الهواء أوكارها ومخابئها. أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا، فلا ينوبهم منها إلا الضوء والهواء. إن قادتنا العسكريين يهيبون بجنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم ومزارات أسلافهم. بيد أن مناشدتهم هذه سخيفة وباطلة، إذ ليس في وسعك أن تدلّهم على مذبح واحد مقام للوالدين، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم. إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والجاه. يُقال عنكم إنكم سادة العالم، ولكنكم لا تجدون في هذا العالم شبراً من الأرض يُمكنكم أن تقولوا إنه ملكٌ لكم».

أدان مجلس الشيوخ هذه المقترحات ووصفها بأنها ليست إلاّ مصادرة لأموال الناس، واتّهم تيبريوس بأنه يسعى إلى أن يكون ديكتاتوراً مستبداً، وأقنع أُكتافيوس، وهو «تريبيون» آخر، بأن يستخدم حقّه في النقض لمنع عرض المشروع على الجمعية. فما كان من تيبريوس إلا أن تقدّم باقتراح ينصّ على أن كل «تريبيون» يعمل ضد مصالح من يمثّلهم، يجب عزله على الفور من عضوية

الجمعية. وافقت الجمعية على هذا الاقتراح، فقام مرافقو تيبريوس الأشداء بإخراج أكتافيوس عنوةً من مقعده في الجمعية. ثم أجازت الجمعية بعد ذلك المقترحات الأصلية، فأصبحت قانوناً ساري المفعول، ثم واكبت تيبريوس حتى منزله، خوفاً منها على سلامته.

غير أن إلغاءه غير المشروع لحق التريبيون في النقض، وهو الحق الذي جعلته الجمعية نفسها منذ أمد بعيد حقاً مطلقاً، قد وضع في أيدي معارضيه سلاحاً يُحبطون به مساعيه. فجهروا بعزمهم على محاسبته في نهاية مدة ولايته التي تدوم سنة واحدة، وذلك بجرم انتهاك دستور البلاد عن طريق السعي إلى ترشيح نفسه للانتخابات التريبيونية لعام 132 ق.م.. فلما كان يوم الانتخاب، ظهر تيبريوس في السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حرّاس مسلحون للدلالة على أن هزيمته في الانتخاب ستؤدي لا محالة إلى تجريمه وإعدامه. وحدث في أثناء الاقتراع أن لجأ الطرفان إلى استخدام العنف. وصاح شيبيو ناسيكا بأن تيبريوس يريد أن ينصّب نفسه ملكاً، وقاد أعضاء مجلس الشيوخ إلى السوق العامة متسلحين بالهراوات. ارتاع أنصار تيبريوس حين شاهدوا الأشراف بثيابهم المهيبة، فتخلّوا عنه. وأُصيب تيبريوس بضربة على أمّ رأسه خرّ على أثرها صريعاً، وهلك معه بضع مئات من أتباعه. ولما طلب أخوه الصغير كايوس أن يُسمح له بدفنه، لم يُجب إلى طلبه، وأُلقيت جثث العُصاة الموتى في نهر التيبر.

ملأ الحزن قلب كورنيليا ولم تجد لها من عزاء وسلوان إلاّ ابنها الناجي الوحيد: كايوس سمبرونيوس غراكس. كان كايوس مثال الشجاعة والنباهة أثناء خدمته العسكرية في إسبانيا، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة عيشه. وقد انتخبته الجمعية «تريبيوناً» عام 124 ق.م. والمقترحات التي تقدم بها إلى الجمعية كانت تهدف إلى كسب مختلف طبقات الشعب إلى جانبه: طبقة الفلاحين بتجديد برنامج أخيه تيبريوس لتوزيع أراضي الدولة عليهم؛ الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة في ناربو، وكابوا، وتارنتوم، وقرطاجة، وتطوير هذه المستعمرات إلى مراكز تجارية مزدهرة؛ وجماهير المدن بإصدار قانون الحبوب (lex frumentaria)، أخذت الحكومة بمقتضاه على نفسها أن توزّع الحبوب على كل من يطلبها بنصف سعرها في السوق. وشكّل هذا الإجراء صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة، مبادئ

الاعتماد على النفس، كما كانت له آثار خطيرة في التاريخ الروماني كله. فقد أغنى المقاولين، وخفَّف من البطالة بفضل برنامج طموح يرمي إلى شق الطرقات العامة في طول إيطاليا وعرضها. كما كان واحداً من أكثر الإجراءات التي طُرحت على روما ما قبل عهد يوليوس قيصر تطرُّفاً.

تمكَّن كايوس، وقد تسلَّح بهذا الدعم المتعدِّد المصادر، من تذليل التقاليد القديمة، وفاز في الانتخاب (لعام 123ق.م) ليُختار «تريبيوناً» للمرة الثانية على التوالي. لكن عندما اقترح أن يُعطى حق الاقتراع كاملاً لجميع الأحرار من سكان لاتيوم (الدولة الصغيرة التي عاصمتها روما)، وأن يعطى هذا الحق منقوصاً إلى سائر الأحرار من سكّان إيطاليا، اعترضت الجمعية التي تشبّثت بامتيازاتها، وردَّت اقتراحه. وعندما أراد كايوس أن يرشّح نفسه بعد عام للانتخاب لمرة ثالثة مخترقاً التقاليد، هُزم. وزعم بعض أنصاره أن الكثير من أصوات المقترعين قد تعرّضت للتزوير. لكنه نصحهم بألا يلجؤوا إلى العنف، واعتزل السياسة، مفضِّلاً عليها حياته الخاصة.

إن مجلس الشيوخ، الذي حوّله كايوس إلى هيئة عاجزة لا حول لها في الظاهر، عاد الآن ليستعيد بعضاً من سلطاته. وفي عام 121 ق.م، اقترح المجلس أن يتمّ الجلاء عن المستعمرة المُقامة في قرطاجة. وفسَّرت جميع الأطراف هذا الاقتراح، سرّاً أو جهراً، بأنه الخطوة الأولى في الحملة لإلغاء القوانين الغراكسية. وحضر بعض أنصار كايوس إلى مبنى الجمعية حاملين سلاحهم، وأطاح أحدهم برجل من المحافظين همّ بالقبض على كايوس. فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلاّ أن خرجوا في اليوم التالي وهم على أتمّ استعداد للقتال، وبرفقة كل منهم عبدان مسلّحان، وهاجموا أفراد الحزب الشعبي المتحصّنين فوق تل الأفنتين. بذل كايوس ما في وسعه لإخماد نار الفتنة وتجنّب المزيد من العنف. فلما عجز عن ذلك، ولّى هارباً عبر نهر التيبر. وإذ رأى أعداءه على وشك أن يقبضوا عليه، أمر خادمه بأن يقتله. ونفَّذ الخادم الأمر ثم قتل نفسه. وقام صديقٌ بفصل رأس كايوس عن جسمه، وحشاه بالرصاص المصهور وحمله إلى مجلس الشيوخ. وكان المجلس قد عرض تقديم جائزة لمن يأتيه برأس كايوس تساوي وزنه ذهباً. وقُتل من أنصار كايوس مائتان وخمسون في المعركة، وأُعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ. ولما أُلقيت جثته وجثث أتباعه

في نهر التيبر، لم يحتجّ على هذا العمل غوغاء المدينة الذين صادقهم وعمل لصالحهم. فقد كان هؤلاء الغوغاء وقتئذ منشغلين عن الاحتجاج بنهب بيته. وحرّم مجلس الشيوخ على كورنيليا أن تلبس ثياب الحداد على ولدها.

سُولا السعيد

أعاد «اليوپولارس» (أنصار الحزب الشعبي) تنظيم صفوفهم على مهل، وشرعوا يحضّرون لـ «حرب أهلية» تحت الزعامة اللامعة لكايوس ماريوس، الذي كان يهجر ميدان القتال من فترة لأخرى لينصرف إلى التنعم بغنائم الحرب وأسلابها. لكن مجلس الشيوخ تصدّى له بأن عيَّن مدافعاً عسكرياً عن «الشعب الجديد»: لوسيوس كورنيليوس سُولاً، أحد الشخصيات العصيّة على الوصف في التاريخ.

كان سُولاً، الذي عاش ما بين 138 و 78 ق.م، شخصية غير جذّابة، لكنه انتقم لنفسه من الحياة لأنها حكمت عليه بأن يكون من الأشراف ومعدماً في آن. فما أن صار المال بين يديه، حتى راح يستخدمه في إشباع نزواته وقضاء شهواته بلا وازع ودونما ارتواء. كانت له عينان زرقاوان برّاقتان في وجه أبيض، تلطّخه بقع شديدة الحُمرة، «كأنها توت منثور عليه دقيق». لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً. فقد كان ضليعاً في الآداب اليونانية والرومانية، كما كان مولعاً بجمع التحف الفنية، مدقّقاً في اختيارها (عادةً ما كان يتوسل في الحصول عليها الوسائل العسكرية). وأمر بأن تُحمل إليه من أثينا مؤلفات أرسطو، وخصّ بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائمه. ووجد متسعاً من الوقت ما بين الحرب والثورة ليدوِّن «مذكراته»، كي يضلّ بها الناس من بعده! كان جليساً مرحاً وصديقاً كريماً، يدمن الخمرة، ويشتهي النساء، ويولع بالقتال ويطرب للغناء. وكما قال عنه سالُست: «كان يعيش عيشة البذخ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته، باستثناء سلوكه مع زوجته، إذ كان في وسعه أن يجعله أشرف مما كان».

وسلك الرجل طريقه إلى المجد بسرعة فائقة، وخاصةً في الجيش، الوسط الذي يرتاح إليه أكثر من غيره. فكان يُعامل جنوده معاملة الرفاق، ويشاركهم

أعمالهم ومسيراتهم، ويتعرّض مثلهم للأخطار. «كان همّه الوحيد ألا يسمح لأحد بأن يفوقه حكمة أو شجاعة». ولم يكن يؤمن بالآلهة، ولكنه يعتقد بالخرافات. وفيما عدا ذلك، كان سُولاّ من أكثر الرومان واقعية، كما كان أشدّهم قسوةً. خياله وعاطفته خاضعان لسلطان عقله. ومما قيل عنه إنه كان نصف أسد ونصف ثعلب، وإن الثعلب فيه أشد خطراً من الأسد. قضى نصف أيام عمره في ميادين القتال، والسنوات العشر الأخيرة منها في الحروب الأهلية. ومع ذلك، ظل محتفظاً بمرحه وروح الدعابة لديه حتى الرمق الأخير، يوشّي قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الهزلية، ويملأ روما ضحكاً. لقد خلق لنفسه مئة ألف عدو، بلغ مآربه جميعاً ومات في فراشه!

هذا الرجل الذي كان يتألف، على ما يظهر، من مزيج كيميائي من الفضائل والرذائل معاً، هو ما كانت تحتاجه البلاد لقمع الثورة في الداخل وإخماد التمرُّد في الخارج. فلم يجد رجاله المدرّبون، البالغ عددهم 35 ألفاً، صعوبةً في التغلّب سريعاً على مفارز الفلاحين أو الكادحين التي جمعها ماريوس كيفما اتفق. لكن لم يكد سُولاّ يغادر إيطاليا لإعادة ميثريداتس السادس إلى حظيرة الحلف الروماني ثانيةً، حتى شكّل ماريوس جيشاً آخر، وأعلن تحرير العبيد، واستولى على روما.

أقدم الثوار المنتصرون، الذين أسكرهم وطيس المعارك وألّبهم حقد دفين أضمروه سنوات طويلة، على ذبح آلاف مؤلَّفة من أعدائهم، ومشوا في الشوارع صفوفاً صفوفاً ورؤوس الأشراف المقصولة فوق رماحهم؛ وأضحت مثل هذه الاستعراضات عادةً درج عليها الثوار فيما بعد. لقد تمّ ذبح جميع أصدقاء سُولاّ المقبوض عليهم، وصُودرت أملاكه، وأُعلن عنه عدواً للشعب، وأُرسل فاليريوس فلاكُس على رأس 12 ألف جندي لعزله من قيادة الجيش. ثم اُنتُخب لوقيوس سينّا قنصلاً لأربع سنوات متتالية (87-84 ق.م)، مما فتح الباب أمام تحوّل الجمهورية إلى ديكتاتورية.

في تلك الأثناء، كانت أثينا قد اُنضمت إلى ميثريداتس في ثورته على روما. فأعاد سولاّ احتلال المدينة، التي كانت ذات يوم شهيرة ووهّاجة. وسمح لجنوده بأن يرتكبوا بعض المذابح، لكنه ما لبث أن أوقفها، قائلاً إنه «سيصفح عن الأحياء

إكراماً للأموات». ثم قاد قواته شمالاً عبر الهلسبونت(*)، مقتفياً أثر ميثريداتس، ولكن وجد أن فاليريوس فلاكُس كان قد وصل بدوره إلى آسيا على رأس فيالقه حاملاً أمر عزله وإعلانه خارجاً على القانون. فتمكّن من إقناعه بأن يعطيه بعض الوقت لتأديب ميثريداتس. غير أن الذي حدث أن رجلاً يُدعى ڤمبريا(**) قتل فلاكُس وزحف قاصداً سُولاّ. فما كان من هذا الأخير إلا أن عقد صلحاً مع ميثريداتس، واتجه حالاً نحو ڤمبريا. هنا انضمت قوات ڤمبريا إلى سولاّ، وانتحر قائدها. فعاد سُولاّ عندئذ أدراجه بجنوده الأربعين ألفاً، فعبر بحر إيجة، ثم بلاد اليونان، فالبحر الأدرياتيكي، ونزل على البرّ الإيطالي، قاصداً رأساً أسوار روما.

قتلت حكومة الثوار كل من وجدته في العاصمة من زعماء الأشراف، ثم جلت عنها. فدخل سُولاّ روما من دون أية مقاومة، لكن سرعان ما تعيَّن عليه أن يقود مقاتليه المتمرّسين الخمسين ألفاً لمجابهة جماعة متمردة(***) قوامها 100 ألف رجل عند «بوابة كولين»، في واحدة من أشدّ معارك التاريخ القديم هولاً على الإطلاق. وبعد أن تمّ لسُولاّ النصر في هذه المعركة، نصّبه مجلس الشيوخ الذي لحق به الذل ديكتاتوراً. ومن روما اُنتشرت أعمال الذبح والنفي ومصادرة الممتلكات لتطال العُصاة وأتباع ماريوس في كل مكان. ثم أصدر سُولاّ سلسلة من المراسيم الهادفة إلى إرساء دستور أرستقراطي لمدى الحياة، وذلك لقناعته بأن إدارة الامبراطورية لا تتأتى إلا بحكم ديكتاتوري أو أرستقراطي. وبعد عامين من ممارسته الحُكم المطلق، تخلّى سُولاّ عن سلطاته كلها واُعتزل الحياة العامة.

كان سُولاّ في حياته الجديدة آمناً مطمئناً على نفسه، لأنه سبق أن تخلّص من كل من شكّ في إمكانية التآمر لاغتياله. وسرّح حرّاسه ومرافقيه. فكان يسير في السوق العامة لا يخشى أذى على حياته. وعرض أن يقدّم «جردة حساب» عن أعماله الرسمية إلى أي مواطن يجرؤ على مطالبته بذلك. ثم ذهب ليقضي أيامه الأخيرة في دارته-في كوماي، بعد أن سئم الحرب والسلطان والمجد. ولعلّه ملّ أيضاً صحبة الناس، فأحاط نفسه بالمغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات، والممثلين والممثلات. كما كان يدوِّن «شروحه»، ويتسلّى بصيد الحيوانات

(*) مضيق الدردنيل (المترجم).

(**) تقول بعض الروايات إنه كان ياور فلاكُس الشخصي (المترجم).

(***) في مرجع آخر، يصف ديورانت هذه الجماعة بأنها كانت من السمنيين (المترجم).

والسمك، ويُقبل على الطعام والشراب ملء بطنه. أطلق عليه رجاله منذ ذلك الحين اسم: «سُولاّ السعيد» (Sulla Felix)، لأنه انتصر في كل معركة، واستمتع بكل لذّة، واستحوذ على كل سلطة، ويعيش الآن عيشة لا يساوره فيها خوفٌ ولا ندم.

تزوج سولاّ خمس نساء، طلّق منهن أربعاً وعوّض نقصهن بالمحظيات. ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره، أُصيب بقرحة في القولون بلغت من الشدة، على ما يروي بلوتارخ، «أن اللحم النتن استحال قملاً. واستُخدم العديد من الرجال لقتله ليلاً ونهاراً. ولكنه استمر يزداد ويتضاعف، حتى إنه لم يلوّث ثياب [سولا] وحماماته وآنيته فحسب، بل وطعامه أيضاً». ومات سُولاّ على أثر إصابته بنزيف حادّ في الأمعاء، ولما يكد يمضي على اعتزاله عامٌ واحد. ولم يفته قبل أن يلفظ أنفاسه أن يُملي ما يجب نقشه على شاهد قبره: «لم يخدمني صديق أو يُسيء إليّ عدو، إلاّ وجزيته الجزاء الأوفى من جنس صنيعه»!

الانهيار الخُلقي

لم تكد تمضي على وفاة سُولاّ عشر سنوات، حتى ذهبت أعماله في إنعاش الاقتصاد واستتباب النظام جميعاً أدراج الرياح. ذلك أنه عالج العوارض في تفسّخ روما وانحلالها وليس الأسباب. وكانت الأسباب عديدة، منها تلك البذور التي أفرخت ثورة اقتصادية تمثّلت في الانتقال من الفلاحة القروية إلى الصناعة المدينية؛ والانتقال من الأُسرة كوحدة أساسية في الإنتاج الاقتصادي والانضباط الخُلقي والنظام الاجتماعي، إلى الفردية في البلدة أو المدينة، حيث التزاحم على العمل والتجارة والمال، والتجرّد من الوازع الأخلاقي في ثنايا آلية العمل الصناعي. وخلف بُرقع الحماية التي يوفّرها الاستتار وسط الجموع.

لم تكن طبقة رجال الأعمال الصاعدة تستذوق الطقوس المنمّقة للدين الرسمي، الذي كان أعضاء مجلس الشيوخ الشكّاكون هم سدنته الرئيسيين. فقد كان قيصر يضحك في سرّه أثناء ترؤسه طقساً دينياً بصفته «الحبر الأكبر» (Pontifex Maximus). فيما أدّى تنامي الثروة وتركّزها إلى إشاعة النزعة الدنيوية الأبيقورية بين أفراد الطبقات العُليا. وانتقل الفن من المواضيع والصور الدينية إلى المواضيع والصور السياسية. وبلغت الجُرأة بالأدب أن بشّر بالإلحاد

المادي، كما في ملحمة لوقراسيوس الفلسفية: «في طبيعة الأشياء» (59 ق.م)؛ أو دمج البذاءة المهلوسة بالشعر الرفيع كما فعل كاتالوس (60 ق.م)، الذي زعم أن عليه أن يملّح أشعاره بالبذاءة كي يحتفظ بجمهوره. أما في الأرياف، فقد وجدت الفاقة، عائلية كانت أم فردية، عزاءها وسلوانها في الدين، في حين غدت الفاقة نفسها في المدينة طبقة وحالة مشتركة تؤدي إلى مزيد من القلاقل والانتفاضات الاجتماعية.

وهكذا، راحت الحرب الطبقية تزداد قسوةً ومرارة، إلى أن سقط معها في نهاية الأمر كل وازع أخلاقي. فالأشراف يتمسكون بالحُكم الذي يتولاّه أبناء الحسب والنسب وأعضاء مجلس الشيوخ، بينما تُطالب العامّة بأن يكون الحكم بيد الجمعيات الشعبية، وأن توزَّع الأراضي الحرّة على الفقراء. وكان الفريقان يمارسان التخويف والفساد على رؤوس الأشهاد بلا خوف ولا مداراة ولا وخز ضمير. وقد وصف شيشرون المرشحين وهم يسيرون بين الناخبين، وصُرر النقود في أكفّهم، مستعدين لشراء أي صوت بسعر مقبول. واستطاع پومپي أن يحمل الناس على أنتخاب صديقه التافه إفرانيوس قنصلاً، وذلك بدعوته زعماء القبائل إلى حدائقه، حيث نَقَد كل واحدٍ منهم ثمن أصوات قبيلته مُشتراة بالجملة. وبلغ ما كان يُستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حداً رفع سعر الفائدة أثناء الحملات الانتخابية إلى 8% في الشهر، أي بنسبة 96% في السنة.

وحتى المحاكم نفسها، فاقت عمليات الانتخاب رشوةً وفساداً، رغم أن أعضاء مجلس الشيوخ وضعوا أيديهم عليها. ففقدت الأيمان ما كان لها من قيمة في الإدلاء بالشهادة، ويمكن شراء أي حكم تقريباً. ولما بُرِّئت ساحة لنتولوس سورا بأغلبية صوتين، تفجّع أشدّ التفجّع على ما أنفق من مال في رشوة قاضٍ فائض عن العدد اللازم. وبحماية محاكم كهذه، كان ولاة الأقاليم من أعضاء مجلس الشيوخ السابقين، والقادة العسكريون، وجُباة الضرائب، والمرابون، ووكلاء التجّار يبتزّون الأموال من تلك الأقاليم بمعدلات سمّمت روما في آخر المطاف بالثروات غير المكتسبة بعرق الجبين. خذوا لوكلّوس مثلاً، فقد كان يموِّل حفلات الترف المشهورة عنه بما التقطت يداه في الشرق؛ وپومپي أحضر معه من تلك البلاد ما يُعادل 11 مليون دولار أمريكي للخزينة و 21 مليوناً لنفسه؛ وحتى شيشرون ظنّ أنه رجل شريف نظيف الكفّ أكثر مما ينبغي، لأنه لم يجمع سوى 110 آلاف دولار أمريكي في السنة التي وُلّي فيها حكم كيليكيا. وقصارى

القول، إن التاريخ القديم لم يشهد في جميع أطواره حكومةً تُضارع حكومة ذلك العهد في السطوة... والفساد.

رضي رجال الأعمال بالنظام الارستقراطي كما قبلوا بالنظام الديمقراطي بشيء من اللامبالاة، لثقتهم ـ على ما يظهر ـ بأنهم استطاعوا تحويلهما إلى حكم بلوتوقراطي (حكم الأثرياء). فالثري أتيكوس كان يُسهم في دعم الفريقين، لعلمه أن أحداً منهما لن يجرؤ على الابتعاد عن صرّة نقوده.

وفيما كانت نُذر الثورة تلوح في الأقاليم، والناس يتضوَّرون جوعاً في الأحياء الفقيرة، كان الشيوخ من الأشراف وعلية القوم وأقطاب المال والأعمال يتنافسون فيما بينهم على التباهي بالبذخ والنعيم. كان الشيوخ لا يستيقظون من نومهم إلا وقت الظهيرة. وكان بعض أبنائهم يتزيّا بأزياء العاهرات ويختال في الطُرقات مثلهن، متحلياً بالجواهر ومتعطِّراً بأزكى العطور، ويباري شبّان اليونان في التخنُّث. وكان لكل رجل من أصحاب المقامات الرفيعة قصرٌ واحد على الأقل، بالإضافة إلى دارة في أحد المنتجعات، مثل منتجع بائيا، حيث كانوا يستمتعون بالحمامات، ويُطلقون لشهواتهم العنان. وكان يقوم بالخدمة في هذه القصور جيوش من العبيد المتخصّصين: فمنهم من يخدم السيد في حجرته، ومنهم حاملو رسائله، وموقدو مصابيحه، وأمناء سرّه، وموسيقيوه، وأطباؤه، وفلاسفته، وطُهاته. أصبح الأكل آنذاك أهم عمل تقوم به الطبقة العُليا الرومانية. وعلى حد قول مترودورس: «الشيء الطيب هو كل ما يمتّ إلى البطن بصلة».

وبعد البطن مباشرةً يأتي الجنس. وعلى الرغم من اُشتداد حمأة التنافس والمزاحمة من الرجال والنساء، فلم تكن العاهرات قليلات العدد بأي حال. كما كان الزنا أمراً مألوفاً، والنساء يطلّقن رجالهن بنفس السهولة التي يُطلّق بها الرجال نساءهم. إنما بقيت هناك، مع ذلك، العديد من العلاقات الزوجية الوفية، وإنْ أخذ الزواج يكتسب طابعاً سياسياً على نحو متزايد. فقيصر، كما هو معلوم، وهب ابنته جوليا إلى پومپي تنفيذاً لبندٍ في تحالفهما الثلاثي.

وكان هناك قدر كبير من حب الأطفال ـ على قلّة عددهم ـ بين الرومان المتعلمين ممن برعوا منذ أمد بعيد في استعمال وسائل منع الحمل. وقد خشي قيصر أن تكتسح الرومان الأصليين موجات الهجرة من الأعراق المختلفة إلى

المدن الإيطالية حيث يتضاعفون عدداً ويكبرون حجماً. وقد وعَدَ ربات البيوت - على عهده التشريعي - بأن يمنحهن جوائز دولة على الأُسرة الكثيرة العدد. لكنه وجد أن الأولاد «ترفٌ» لا يقدر عليه سوى الفقراء. في ذلك الوقت، بدأت نسبة متزايدة من النساء تحاول التعبير عن نفسها بأشكال ثقافية، كأن تتعلم اللغة اليونانية، أو تدرس الفلسفة، أو تقرض الشعر، أو تلقي محاضرات أو تفتح منتديات أدبية.

لكن فاقة الجماهير استمرت بالاستفحال تحت قشرة الترف والبحبوحة هذه. وقد انفجرت أولاً على شكل ثورة رقّية بزعامة سبارتاكوس، الشخصية البطولية، في عام 71 ق.م، ثم اتخذت شكل انتفاضة عامّية بقيادة لوسيوس كاتلين في عام 65 ق.م. بعد ذلك بجيلٍ، كتب سالست متحدثاً عن كاتلين المذكور، وكيف خطب في أتباعه بلغةٍ أقرب ما تكون إلى لغة الحرب الطبقية:

«منذ وقعت الدولة في قبضة عدد قليل من الرجال الأقوياء ... أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة. ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحاكمات والفقر... وماذا بقي لنا في الحياة إلا الأنفاس التي تتردد في صدورنا؟... أليس خيراً لنا أن نموت ببسالة من أن نفقد حياتنا البائسة الذليلة بعد أن صرنا لُعبةً في أيدي السفهاء؟».

كانت الخطة التي يريد كاتلين أن يضعها لضم أشتات عناصر الثورة غير المتجانسة، خطة سهلة وبسيطة، تتلخّص في كلمتين: Novae tabulae (سجلاّت جديدة)، ويُقصد بهما إلغاء الديون إلغاء تامّاً وبلا قيد أو شرط. فما كان من شيشرون، الخطيب المفوّه وكاتب المقالة الألمعي في زمانه، إلاّ أن هاجمه بتلك «الخطب الفيليبيّة»(*) النارية التي درسها البعض منّا في الكليّة كنماذج مختارة للنثر اللاتيني. وفي عام 64 ق.م، رشّح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون، وشنّ عليه حملة انتخابية شعواء، روّعت المواطنين من الطبقات العليا، فأعدّوا العدّة لمغادرة إيطاليا. وفاز شيشرون في الانتخابات، فيما وجّه كاتلين وجهه شطر الحرب، مجهّزاً جيشاً من ثلاثة آلاف رجل، سقطوا جميعاً في ميدان القتال، وظل كاتلين يقاوم إلى أن خرّ صريعاً. ولسنوات طويلة بعد مقتله، ظل أتباعه

(*) نسبة إلى خطب ديموستين ضد فيليب المقدوني، وهي تكون عادةً مفعمة بالتقريع وقارص الكلام (المترجم).

ينثرون الزهور على قبره. وقد أُتُّهم قيصر بمساندته سرّاً، وبأنه نجا من الاغتيال بأعجوبة. وبعد ذلك بعام أبرم «التحالف الثلاثي» مع كلٍّ من كراسوس وپومپي، وبدأ من ثم ثورته الخاصة.

قيصر

ادّعى كايوس يوليوس قيصر أنه يعود بنسبه إلى إينياس، ابن ڤينوس ابنة جوبيتر. وقد كان جديراً بهذا النسب الإلهي سواء في الحرب أم في الحب. وكان آل جوليان، أو عشيرة يوليوس بالأحرى، من أعرق الأُسر الإيطالية وأوسعها نفوذاً، وإنْ كان الدهر قد أفقرها وذهب بمالها. فقد أعطت روما قناصل عدّة في الأعوام 489، 482، 473 و 157 ق.م. ولد قيصر في عام 100 ق.م، وقد تمّت ولادته ـ على ما تقول الرواية ـ بواسطة عملية جراحية ستُعرف باسمه (القيصرية) من الآن فصاعداً.

يقول سويتونيوس إن «قيصر هذا شخص مطيع سلس القياد إلى حد يدعو للعجب، كما أنه شديد الميل إلى التعلّم». وقد نمّى مهارة خطرة في الخطابة والتأليف للأحداث. وأُنقذ من ذلك بتعيينه ياوراً عسكرياً لماركوس ثرمُس في آسيا. وأحبّه نيقومدس، والي بيثينيا، حبّاً جمّاً حمل شيشرون على تعييره فيما بعد بأنه «أسلم عذريته لملك». ولما عاد إلى روما في عام 84 ق.م، تزوج من كوسوتيا نزولاً عند رغبة أبيه. فلما توفي أبوه بعد زواجه منها بوقت قصير، طلّقها قيصر وتزوّج كورنيليا، ابنة سينّا، الذي استلم زمام الثورة من ماريوس. ولما تولّى سولاّ مقاليد السلطة، أمر قيصر بأن يُطلِّق كورنيليا. فلما أبى أن يطيع هذا الأمر، صادر سُولاّ أملاكه التي ورثها عن أبيه، كما صادر بائنة كورنيليا، وأدرج اسمه في قائمة المحكوم عليهم بالإعدام. ففرّ قيصر من إيطاليا، وقبض عليه القراصنة في الطريق، لكنه استطاع الإفلات منهم، وقصد بعدئذ جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة.

ولما عاد إلى روما، وزّع طاقاته ما بين السياسة والمغازلة. كان قيصر رجلاً وسيماً، وإن كان تساقط شعر رأسه في هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله. ولما توفيت كورنيليا، تزوج من پومپيا، حفيدة سُولاّ. وحيث إن هذا الزواج كان

زواجاً سياسياً محضاً، فإنه لم يتورع عن إقامة علاقات جنسية غير شرعية حسبما كان دارجاً في ذلك الحين. غير أن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن التنوّع الشاذ حداً جعل كوريو(*) يصفه بأنه «زوج كل امرأة، وزوجة كل رجل»(**). وكان الأشراف والنبلاء يحقدون عليه لسببين: أولهما أنه قضى على امتيازاتهم، وثانيهما أنه يغوي نساءهم. وعلى كلٍّ، يجب أن نتمثَّل قيصر في أول الأمر على صورة السياسي الذي لا ضمير له، والرقيع المستهتر، الذي عملت التبعات والمسؤوليات الجسام على تبديله تدريجياً إلى أن جعلته واحداً من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحُرمات في التاريخ. وينبغي لنا ألا ننسى، ونحن نطرب لعيوبه ومثالبه، أنه كان رجلاً عظيماً على الرغم من هذه العيوب والمثالب، ولا يجوز لنا أبداً أن نساوي بين أنفسنا وبين قيصر بالقول إنه كان يغوي النساء ويرشو الساسة ويؤلِّف الكُتب.

اُختير قيصر «قسطوراً»(***) في عام 68 ق.م، ولما يتجاوز بعد الثانية والثلاثين من العمر، وأُرسل للخدمة في اسبانيا، حيث تولى الحملات العسكرية التي سُيِّرت لتأديب القبائل المحليّة المتمردة، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفي به بعض ما عليه من ديون. وفي عام 65 ق.م، اختير «مفوّضاً» للأشغال العامة، فأنفق أمواله، أو بالأحرى أموال صديقه الثري كراسُس ـ في تزيين «الفورم» بالمباني الجديدة. وراح يتودد إلى العامّة بما كان ينفقه بسخاء على الألعاب الرياضية. وكان سُولاً قد أزال من «الكابيتول» ما جمعه فيه ماريوس من شارات النصر والصور والغنائم التي تمثّل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته. فأعادها قيصر جميعاً إلى مواضعها، وبهذا الإجراء أعلن على الملأ عن سياسته الممالئة للعامّة.

احتجّ المحافظون على هذه السياسة، وعرفوا منذ ذلك الحين أنه رجلٌ يجب التخلّص منه. وفي عام 64 ق.م، وكان قيصر يومئذ رئيساً لإحدى اللجان التي

(*) والد قائده الأخير بحسب ديورانت (المترجم).
(**) باللاتينية في النصّ: "omnium mulierum vir et omnium virorum mulier".
(***) القسطور quaestor: موظف روماني رفيع معني بالإدارة المالية تحديداً (المترجم).

تنظر في بعض قضايا القتل، استدعَى للمثول أمام تلك اللجنة من بقي حياً من العملاء الذي أشرفوا على أحكام سولا التحريمية، وحكم على الكثيرين منهم بالنفي أو الإعدام. وبعد ذلك بعام واحد، اقترع قيصر في مجلس الشيوخ ضد إعدام بعض من قُبض عليهم من زعماء التمرد الذي قاده كاتلين. وعندما قرّر الترشّح للقنصلية، عارضه أعضاء مجلس الشيوخ عن بكرة أبيهم. لكنه أفشل مخططهم بنجاحه في ضم پومپي، معبود رجال الأعمال، إلى تحالفٍ يجمعه إليه وكراسُس في ما عُرف بالتحالف الثلاثي الأول (60 ق.م)، حيث تعهَّد الثلاثة بالتصدَّي لأيِّ تشريعٍ لا يروق لأيٍ منهم. وبدعمٍ من پومپي وبأموال كراسُس، انتُخب قيصر قنصلاً للعام 59 ق.م.

قضى قيصر معظم مدة ولايته تقريباً في النضال لإعادة الاعتبار لتشريعات غراكس. فاْقترح على مجلس الشيوخ أن يُصار إلى توزيع الأراضي الحكومية على 20,000 جندي عائد، والمواطنين الفقراء ممن لهم ثلاثة أولاد. وكي يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ، استأجر كتبة مهمتهم تسجيل أعمال الشيوخ والنشاطات السياسية الأخرى، ونقشها على الجدران البارزة لمباني الفوروم بمثابة «أعمال يومية» (Acta Diurna)، وكان رسل صحافيون ينقلون هذه النقوش الجدرانية إلى بقية أنحاء روما وغيرها من المدن. فأسَّس بذلك، بمعنى ما، أول صحيفة إخبارية في التاريخ المعروف، وأذن ببداية الدور الحيوي الذي تلعبه «الصحافة» في التأثير على التشريع البرلماني.

وبعدما أمضى قيصر معظم عامه في منصب القنصل في اتخاذ مثل هذه الإجراءات والتشريعات الشعبية، ولكي يضمن سلامته الشخصية، فقد عيَّن نفسه والياً على مقاطعة «غاليا سيزالپينا الناربونية» لمدة خمس سنوات، وقائداً أعلى للجيش الوحيد المخوّل شرعاً المرابطة على الأراضي الإيطالية. وقبل أن يغادر لتسلّم منصبه هذا، طلّق زوجته الثالثة پومپيا، بسبب اْرتيابه بخيانتها له مع پوبليوس كلوديوس پُلشر. إلاّ أن ذلك لم يحلْ دون محضه الدعم الحاسم لانتخاب كلوديوس «تريبيوناً» للعام 58 ق.م. فقد رفض توجيه أية تهمة أخلاقية إلى كلوديوس. وعندما سُئل لماذا طلّق زوجته پومپيا إذن، أجاب بكل بساطة: «لأن زوجتي يجب أن تكون فوق الشُّبهات». كما عمل على ضمان انتخاب

غافينيوس پيزو قنصلاً، وأتخذ من كالپورنيا، ابنة پيزو، زوجة رابعة له، ومن ثم انطلق إلى فتح بلاد الغال.

ربما لم يكن في نيته ذلك بادئ الأمر. غير أن الغاليين استغاثوا به أن ينجدهم في وجه الهجمات الجرمانية على غاليا من عدة مواضع على امتداد نهر الراين. استجاب قيصر لطلبهم، وصدَّ جحافل كبيرة من الجرمان قدمت عبر سويسرا على مقربة من أوتون الحالية. ثم زحف شمالاً وهزم جيشاً جرمانياً لجباً بقيادة آريوڤيستس، ودحره إلى ما وراء نهر الراين. أعرب الغاليون عن عظيم امتنانهم له، وسألوه ماذا يجب أن يقدّموا له جزاء صنيعه هذا. فاقترح عليهم أن تقبل غاليا الانخراط في الامبراطورية الرومانية، وبالتالي التمتع بحمايتها. رفض الغاليون عرضه، وقاتلوا فيالقه ببسالة منقطعة النظير، إنما على غير طائل. وقد مدّ به العمر ليُخبر القصة بنفسه في كتابه «بلاد الغال الجميلة» (De bello Gallico). ولئن أعطى أحد الفرانكيين الجرمان هذه البلاد اسماً ألمانياً (غاليا) بعد زهاء 500 عام، إلا أن بلاد الغال هذه أضحت على يد قيصر أرضاً لاتينية، تتكلم لغة لاتينية مضحكة لكن جميلة. فاللاتينية الجلفة للجنود الرومان استحالت مع الوقت موسيقى عذبة عزف عليها راسين وأناتول فرانس، وبما يصدق عليها القول المأثور: «من الدِّمَن يتفتح الورد»(*).

وفيما كان قيصر يُهيِّئ بلاد الغال عن غير قصد لوراثة الحضارة الكلاسيكية وحمل لوائها، كانت الجمهورية الرومانية تحتضر في مناقع الفساد والتوحّش. ومثالاً على ذلك، أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد دُفعت له عشرة ملايين «سسترس» ثمناً لأصوات أفراده. وإذا لم ينفع المال، كان الاغتيال في المتناول، أو كشف المستور من ماضي الشخص والتشهير به إلى أن يرضخ. وازدهر الإجرام في المدن، وتفشى السلب على الطرقات، وما من قوة لكبح جماحهما. فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المصارعين، يدفعون عنهم الأذى أو يساندونهم في «الكوميثيا»(**). وكان كل من يقبل الاقتراع لقاء ثمن، يُسمح له بدخول الجمعية، سواء أكان من مواطني روما أم من غير

(*) باللاتينية في النص: "corruptio pessimi optima".

(**) الكوميثيا: اجتماع كان يعقده المواطنون في روما لأداء مختلف المهام التشريعية والقضائية والانتخابية (المترجم).

مواطنيها. وكان يحدث في بعض الأحيان أن أقلّية صغيرة فقط من المقترعين هي التي تدلي بأصواتها. كما كان الذين يقترعون على هواهم يُضربون حتى يشارفوا على الهلاك، بعد ذلك تُضرم النيران في منازلهم. وفي أعقاب جلسة من هذه الجلسات الحافلة بالمشاجرات، كتب شيشرون يقول: «لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين؛ كما أُنسدّت بها البالوعات العامّة، واضطر العبيد إلى إزالة الدماء بالإسفنج من (الفوروم)».

كان كلوديوس «الوسيم» وتيتُس ميلو أبرز الاختصاصيين الرومان في هذا الضرب من الديمقراطية. فقد كانا يؤلِّفان عصابات من أحطّ الأوباش والزعران لاستخدامها في الوصول إلى أغراضهما السياسية. وقلّما كان يمر يوم واحد من دون أن تجرّب تلك العصابات عضلاتها. من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون في أحد شوارع المدينة ذات يوم، وأحرق رجاله منزل ميلو في يوم ثانٍ، إلى أن قبضت عصابة ميلو على كلوديوس نفسه في يوم ثالث وقتلته. ولئن كان صعاليك المدينة على علم تام بما كان يدبّره القتيل من مؤامرات، إلاّ أنهم رفعوه إلى مقام الشهداء، وجاؤوا بجثمانه إلى مجلس الشيوخ، وأحرقوا البناء فوق الجثمان كأنه كومة الحطب التي تُحرق عليها جثث الموتى. وجاء پومپي بجنوده، وفرّقوا الغوغاء. ثم طلب من المجلس كمكافأة على عمله هذا أن يعيِّنه «قنصلاً بغير زميل»، وهي عبارة نصحه بها كاتو الأصغر، بحجة أنها أخف وطأة على السمع من لفظة «ديكتاتور». وهكذا استسلمت عناصر المال والنظام جميعاً في العاصمة لديكتاتورية پومپي، فيما كانت الطبقات الفقيرة تنتظر على أحرّ من الجمر مقدم قيصر.

حطّمت الفتن والثورات التي دامت زهاء مئة عام، كيان الطبقة الارستقراطية، الشديدة الأنانية والضيقة القاعدة، التي كانت تتولى شؤون الحكم في البلاد، ولكن لم تحلَّ حكومة أخرى محلها. فالجمعية التي أفسدتها البطالة والرشوة ولقمة الخبز والبهلوانيات فتحوَّلت إلى زمرة من الرعاع الجهلة تستبد بهم أهواؤهم وشهواتهم، كانت أعجز من أن تحكم نفسها، فما بالك بامبراطورية مترامية الأطراف! وانحطّت الديمقراطية حتى أضحت وكأنها هي المقصودة بكلام أفلاطون: «صارت الحرية إباحية، وراحت الفوضى تتوسل أن يُوضع حد للحرية».

لم يختلف قيصر مع پومپي في أن الجمهورية قد ماتت، ولم يعد ثمة مفرّ من الديكتاتورية. لكنه كان يأمل في إنشاء قيادة تقدُّمية؛ قيادة لا تبقي البلاد على الحال التي تردّت إليها، بل تبذل قصارى جهودها للتخفيف من التجاوزات والفوارق والفاقة التي أفسدت الديمقراطية وهوت بها إلى الحضيض. كان قيصر وقتئذ في الرابعة والخمسين من عمره، وما من شك في أن الحملات العسكرية التي دامت عشر سنوات في بلاد الغال قد أنهكته وأوهنت قواه. فلم يدّخر جهداً في العمل على إحلال التصالح محل النزاع بينه وبين خصومه. ومن ذلك أنه اقترح على مجلس الشيوخ أن يتخلّى هو وپومپي معاً عن المناصب المسندة إليهما. لكن پومپي رفض هذا الاقتراح. وبعد طول مفاوضات، أعطى المجلس پومپي الأمر والصلاحية «للسهر على ألا تُصاب الدولة بسوء». وتلك عبارة رومانية معناها: الديكتاتورية والحُكم العسكري.

تمهَّل قيصر وتردد أكثر مما عُرف منه. لكنه استدعى في نهاية المطاف الفيلق الثالث عشر، أحبّ الفيالق إليه وأكثرها ولاءً له، وعرض الأمر برمته على جنوده. وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم: «Commilitoncs»، أي «زملائي الجنود». وذكّرهم بأن الارستقراطية المتبطّلة الفاسدة لا تستطيع أن توفّر لروما النظام والعدالة والرخاء. وسألهم إن كانوا يتبعونه؟ فلم يعارض أحدٌ منهم. ولما قال لهم إنه ليس لديه المال ليدفع منه أجورهم، أفرغوا في خزانته كل ما كان في حوزتهم من مدّخرات. وفي اليوم العاشر من يناير/كانون الثاني من عام 49 ق.م، عبر قيصر بأحد فيالقه الروبيكون، وهو نُهير صغير يحدّ التخوم الجنوبية لمنطقة «غاليا سيزالپينا». ويُروى أنه قال في تلك اللحظة قوله المأثور: «Lacta est alea!» (لقد قُضي الأمر!).

أخذت المدن الواقعة في طريقه تفتح أبوابها لاستقباله الواحدة تلو الأخرى. وكثيراً ما خرج سكان بعض تلك المدن عن بكرة أبيهم ليحيّوه ويرحبوا به. وقد كتب شيشرون في ذلك يقول: «إن المدن تحيّيه كأنه إله معبود». ومع اقترابه من العاصمة، اُنسحب پومپي من روما، ثم فرّ من إيطاليا كلها، رغم أن قواته كانت تفوق قوات قيصر عدداً. وتعقّبه قيصر إلى أن أدركه عند فارسالوس، من أعمال تساليا. وهناك ربح أكثر المعارك دمويةً في التاريخ الروماني، برغم أن قواته كانت لا تزيد عن نصف عديد قوات خصمه، وكان ذلك في التاسع من أغسطس/

آب من عام 48 ق.م. وطلب قيصر من جنوده ألا يمسّوا بأذى ماركوس يونيوس بروتس، عضو مجلس الشيوخ الشاب. أما پومپي فقد تمكّن من الفرار، ووجد سبيله إلى مصر، حيث طعنه عميلٌ لبطليموس الثاني عشر حتى الموت. وعندما وصل قيصر إلى هناك، أهدى إليه القتلة رأس القائد المغدور وقد فُصل عن جسده. فولّى قيصر وجهه عنهم في هلع، وأخذ يبكي من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس جميعاً يلقون مصيراً واحداً، وإنِ اختلفت السُّبُل المؤدية إلى هذا المصير.

وجد قيصر أشياء كثيرة ساحرة في مصر: فخزانتها ملأى بالمال، وهي له ظاهرياً غب الطلب؛ وشقيقة بطليموس، كليوباترا، امرأة فاتنة وهي متلهِّفة عليه. فبقي إلى جانبها ما يكفي من الوقت لكي تضع مولودها منه، وقد أسمياه «قيصريون». وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام 47 ق.م، حطّ قيصر رحاله في روما، وقد اصطحب معه كليوباترا، وزوجها (الذي هو أخوها في الوقت نفسه)، وقيصريون بالطبع. ويبدو أن زوجة قيصر، كالپورنيا، اعتبرت كل ذلك أمراً عادياً في السياسة الرومانية، فتصرفت على هذا الأساس. وأشاع بعض الناجين من الأشراف أن قيصر يعتزم تنصيب نفسه ملكاً، ونقل عاصمة الامبراطورية إلى الإسكندرية. ومع ذلك، راح مجلس الشيوخ، وبداعي الخوف من فيالقه ليس إلاّ، يغدق عليه الأراضي، ويمطره بألقاب التعظيم، إلى أن أعلنه في عام 44 ق.م، «ديكتاتوراً مدى الحياة». ومدى الحياة في حالة قيصر كان خمسة شهور لا غير.

وفي تلك الشهور المتبقية من عمره، أقبل قيصر على العمل بهمَّة ونشاط لإحياء روما كمدينة ودولة. فحدَّ من سلطات مجلس الشيوخ بأن رفع عدد أعضائه من 600 إلى 900 عضو. وبهذا العدد المتضخم تعذّرت المداولات الجدّية، وتعرقلت عملية اتخاذ القرارات، فأُطلقت يد قيصر في الحُكم كما يشاء. ولقد انتخبته الجمعيات «تريبيوناً»، مما جعل ذاته مصونةً لا تُمسّ بقوة القانون، وأتاح له ذلك التحكّم بمعظم التعيينات المهمّة، وطرح مشاريع القوانين الأخطر شأناً.

واستكمالاً للعمل الذي بدأه الأخوان غراكس(*)، وزّع قيصر الأراضي على

(*) ويقصد المؤلِّف بهما تيبريوس وكايوس غراكس المار ذكرهما آنفاً (المترجم).

جنوده القدامى وعلى الفقراء. وخفَّف الضغط الناجم عن التزايد السكّاني بأن أرسل 80 ألفاً من المواطنين ليستعمروا قرطاجة وكورنثيا وغيرهما من المراكز التي أصابها الهُزال بفعل الحروب. ولتأمين الأعمال للعاطلين عن العمل، رصد مبالغ طائلة من الأموال لتنفيذ مشاريع بناء ضخمة في العديد من مدن إيطاليا واسبانيا وبلاد الغال واليونان. وبغية حصر الهدر المالي في مجال الرعاية الاجتماعية للفقراء، أمر باعتماد وسيلة اختبار جديدة لمعرفة حجم المعوزين الذين يستحقون فعلاً الحصول على إعانات غذائية من الدولة. وما لبث أن انخفض عدد طالبي الإعانة من 320 ألفاً إلى 150 ألفاً. كما خفَّض الديون بدرجات متفاوتة، وسنّ قوانين صارمة لتحريم 'لربا الفاحش، وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن تسديد ديونهم بوضعه قانوناً للإفلاس لا يختلف، في جوهره، عن القانون المعمول به في أيامنا هذه.

ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة، كلَّف قيصر عالم الفلك الإسكندري سوسيجينس باستنباط الروزنامة «اليوليانية» على النسق المصري، بحيث تشتمل السنة على 365 يوماً، يُضاف إليها يوم واحد في آخر شهر فبراير/شباط كل أربع سنوات. ولم يعجب شيشرون ذلك، فشكا من أن قيصر لم يقنع بحكم الأرض، فتنطَّح لتنظيم النجوم والتحكّم بأفلاكها. لكن مجلس الشيوخ قَبِل هذا الإصلاح، وأطلق اسم «يوليوس»، وهو كنية الديكتاتور، على شهر كوينكتيلس، الشهر الخامس من العام حين كان شهر مارس/آذار بداية العام.

بيد أن السياسي ورجل الحكم العظيم هذا لم يكن، بأي حال، بمنأى عن الخُيلاء والغرور. فاستمر يلبس إكليل الغار يومياً كي يخفي به صلعته. وأمر بأن ينصب تمثال له في «الكابيتول» إلى جانب ملوك روما الأقدمين. وعزل من مناصبهم التريبيونيين الذين نزعوا عن تمثاله التاج الملكي الذي كلّله به أصدقاؤه. وكان قد سبق للقنصل أنطوني أن حاول ثلاث مرات، وهو ثمل، أن يضع تاجاً ملكياً على رأس قيصر في مأدبة لوپركاليا (18 فبراير/شباط 44 ق.م)، إلا أن قيصر رفض السماح له ثلاثاً. فهل تراه فعل ذلك فقط لأن الجمع الحاضر كان يدمدم مستنكراً؟

أما الأشراف الارستقراطيون الذين حُرموا مما اعتادوا عليه من سُلطان، فما كان يرضيهم كي يغفر لهم مقاومتهم السابقة له. فمن الصعب الصفح عن المغفرة! وبعد وقت وجيز من حادثة لوپركاليا، المار ذكرها أعلاه، جاء كايوس كاسيوس، وهو رجل مريض، «أصفر نحيل» على حد وصف بلوتارخ، يعرض على ماركوس پروتس اغتيال قيصر. وكان قد عرض الفكرة قبل ذلك على عدة رجال، ووافقوه عليها. واتفقوا جميعاً على أن من شأن انضمام پروتس إليهم أن يضفي شرفاً على قضيتهم، نظراً لتمسّكه بالفضيلة.

كان پروتس هذا يعتقد أنه يتحدّر من سلالة لوقيوس يونيوس پروتس الذي طرد الملوك من روما قبل 464 عاماً. ويشير المؤرّخ إيپيان إلى أن قيصر كان عشيقاً لوالدة پروتس، سرڤيليا. ويضيف بلوتارخ إلى ذلك أن قيصر كان واثقاً من أن پروتس من صلبه. ومن غير المستبعد أن يكون پروتس قد تفكّر كئيباً في كل هذه المسائل. وقيل إنه كتب إلى صديق له ما حرفيته: «إنّ آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي لنا أن نخضع للمستبدّ، حتى ولو كان هذا المستبدّ أبانا نفسه». وهكذا أذعن پروتس للمكيدة، وعكف المتآمرون من ثم على رسم الخطة التنفيذية. وأصرّ پروتس في لحظة وجدانية غير متوقعة على ألا يُمسّ أنطوني بأي أذى.

وحدث في مساء 14 مارس/آذار أنْ عرض قيصر على المجتمعين في منزله أن يكون موضوع حديثهم: «ما هي أفضل طريقة للموت؟». وأجاب هو عن ذلك السؤال بأنها «الميتة المفاجئة» (Subito). وفي صباح اليوم التالي، توسلت إليه زوجته ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ، قائلة إنها رأته في منامها ملطخاً بالدماء. وفي طريقه إلى «مسرح پومپي»، حيث كان من المقرر أن ينعقد المجلس فيه، قابل قيصر عرّافاً كان قد أسرّ إليه من قبل أن «يحذر اليوم الخامس عشر من مارس». ولما نبّهه قيصر إلى أن الخامس عشر من مارس قد حلّ ولم يُصب فيه بسوء، أجابه سپورينا: «نعم ولكنه لم يمضِ بعد». وما إن دخل قيصر المسرح واتخذ فيه مجلسه، حتى هاجمه «دُعاة الحرية» من دون إبطاء. ويقول سويتونيوس: «لقد كتب بعضهم أنه حين هجم عليه ماركوس پروتس، قال له قيصر باللغة اليونانية: «Kai su teknon?» («حتى أنت يا بُني؟»). ويقول إيپيان إن قيصر حين شعر بطعنة پروتس في أحشائه، امتنع عن إبداء أية مقاومة. وبذلك تحقّقت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخوالي.

من الناحية العملية، عادت الجمهورية الرومانية إلى العيش وسط التشنجات العنيفة. فمناشدة أنطوني للعامّة بدت لها فرصة سانحة لتسلّم زمام الحكم. لكن كل ما تبقى، في الواقع، كان صراع أنطوني مع پروتس على «امتياز» حُكم الخراب، ثم صراع أنطوني مع ابن قيصر بالتبنّي ووريثه، كايوس أُكتافيوس، على مقاليد السلطة. وفي أعقاب هزيمة أنطوني وكليوباترا في معركة أكتيوم في عام 31 ق.م، وانتحارهما المزدوج في مصر، أسَّس أُكتافيوس، الذي بدّل اسمه فيما بعد إلى «أُغسطس»، حُكماً ملكياً في عام 27 ق.م، ووطّد أركانه. وقد عُرف هذا النظام بـ «الزعامية». وبذلك يكون «دولاب» التاريخ السياسي، كما حدّده أفلاطون، قد أتمّ دورة كاملة من الديكتاتورية، إلى الملكية، فالارستقراطية، فالديمقراطية، فالديكتاتورية، فالملكية...

ولسوف تبقى روما لقرنين آخرين من الزمن، وإنْ في انحدار متواصل، مركز الغرب، وذروة المجد والقسوة في التاريخ.

الفصل الحادي عشر

الأمبراطورية الرومانية
(27 ق.م ــ 180م)

حنكة أُغسطس السياسية

عاد كايوس أُكتافيوس، حفيد أخي يوليوس قيصر وابنه بالتبنّي ووريثه، إلى روما في عام 29 ق.م، بعد أن هزم أنطوني وكليوباترا في أكتيوم (31 ق.م)، وبَسَط السيطرة الرومانية المطلقة على مصر، وغرف من خزائنها ما غرف، وأعاد النظام والضرائب إلى الأقاليم الشرقية للامبراطورية الرومانية التي كادت أن تقطّع أوصالها الحروب والثورات والفوضى.

استقبلته العاصمة كمنقذ للبلاد، ونظّمت له موكباً للنصر دام ثلاثة أيام متتالية. وردّ أُكتافيوس بأن منح كل جندي من جنوده مبلغاً معتبراً من المال، وأعطى كل واحد من قدامى المحاربين المسرّحين قطعة من الأرض الزراعية. كما ألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك، وأحرق علناً جميع السجلاّت بما عليهم للدولة من ديون. ومن أمواله الموروثة والمتراكمة، دفع ثمن ما يوزّع من حبوب على المحتاجين، وقام بتنفيذ سلسلة من الأشغال العامّة ليحدّ

بذلك من البطالة، وليُجمِّل روما، واستطاع أن يسدّ العجز الذي كانت تعاني منه الخزانة الوطنية، ورصد اعتمادات مالية ضخمة لإغاثة الأقاليم المنكوبة بـ «أعمال الرب».

وبمثل هذه النفس المطبوعة على عمل البرّ والإحسان، وبمثل هذه العبقرية على تذليل الصعوبات الملازمة للتحوّل والتغيير بالتدرّج والكياسة، نجح أكتافيوس في إقناع مجلس الشيوخ المستعاد أن يسمّيه «زعيم الشيوخ» (princeps senatus)، وهو لقب يعني «الأول في قائمة أعضاء مجلس الشيوخ». لكنه ما لبث أن خلع على نفسه اللقب السامي: «الأمير». وفي عام 27 ق.م، طلب أكتافيان (أُكتافيوس) إعفاءه من جميع مناصبه وسلطاته، والسماح له باعتزال الحياة العامة. لكن مجلس الشيوخ توسَّل إليه أن يستمر في سدة الحكم. فنزل عند رغبتهُ فثبّت المجلس لقبه الأميري مدى الحياة. وسرعان ما أنعم عليه باللقب الديني: «أُغسطس»، بمعنى «المزوّد» الإلهي أو «المدبِّر» الربّاني. وقد صار هذا اللقب اسماً له على مرّ التاريخ.

قبل مواطنو روما وأهالي إيطاليا كافة، هذه الملكية المستترة نظراً لما عانوه من ذلّ التجربة ومهانتها. فلم يعودوا بعد الآن مولعين بالحرية، بل حسبهم أمنية أن يستتب الأمن والنظام ويعمّ السلام. وغير مهم بعد ذلك من يحكمهم ويسوس أمرهم، ما دام يضمن لهم اللحم والخبز. لكن فاتهم أن يعوا أن «الكوميثيا» الخرقاء، المجبولة بالفساد والمنخورة بالعنف، لا تستطيع ولا تصلح لحكم امبراطورية. وها هو العالم المتوسطي برُمته ينبسط مترامياً تحت قدمي أُكتافيان مختلّ النظام، ينتظر منه أن يسعفه بحنكة سياسية طال انتظارها.

وبالفعل، خفَّف أُغسطس من آلام احتضار الجمهورية بإبقائه على الشروط والمظاهر الجمهورية على الأقل. فهو لئن قَبِلَ أن يكون مجرد رئيس لمجلس الشيوخ، إلا أن أي إجراء أو مشروع قانون لم يكن يُحال على المجلس ما لم يأمر بذلك شخصياً أو يقترن بموافقته الضمنية. كان يسمح للكوميثيا بأن تلتئم، وقد ترشَّح للقنصلية ثلاث عشرة مرة، والتمس أصوات الناخبين، لا بل عمد إلى شرائها، مثله مثل البقية. وكان ذلك تنازلاً منه للأعراف المتّبعة. ظل القناصل والتريبيونات يُنتخبون حتى القرن الخامس، لكن وظائفهم أصبحت إدارية أكثر

منها تنفيذية. كما كانوا يذعنون بسهولة لسلطان الأمير. وبقي الفساد السياسي متفشياً، إنما أمكن الحدّ منه بالطلب من كل مرشَّح أن يودع «كفالة» مالية تضمن امتناعه عن الارتشاء. بيد أن أُغسطس ارتكب سابقة حيوية: فقد أبقى تحت سيطرته ثلاث كتائب من الجنود داخل المدينة، وست كتائب أخرى بالقرب منها، ليضمن بذلك استتباب النظام العام ونظام حكمه طبعاً. وهذه الكتائب التسع هي التي أصبحت تُعرف فيما بعد بالحرس البريتوري، وهي التي نصّبت كلوديوس «امبراطوراً» في عام 41 م، بادئة بذلك عملية إخضاع الحكومة للجيش.

متسلِّحاً بكل هذه الصلاحيات، وبمعاونة موظفين إداريين انتقاهم من صفوف طبقة رجال الأعمال الصاعدة، نجح أُغسطس في إعادة النظام الإنتاجي إلى الاقتصاد والدولة. فنشر ملكية الأراضي الزراعية بين الفقراء؛ وأقرض المال بدون فائدة للمزارعين ممن يتحلّون بحس المسؤولية؛ وفتح مناجم جديدة؛ وبسط الأمن على الطرقات والمعابر التي كانت تحت رحمة الأشقياء والقراصنة؛ ووسَّع قنوات الجرّ الضخمة التي تحمل المياه إلى روما؛ وهدّأ ثائرة الفقراء بالحبوب رخيصة الثمن، وسحوبات اليانصيب المثيرة، والمباريات الرياضية المدهشة.

حمى أُغسطس كل الطبقات تقريباً بالقوانين المدروسة. وفيما عدا ذلك، فقد ترك للجوع، والجشع، والتنافس، والعمل الحرّ أن تحفِّز الإنتاج والتوزيع والتمويل. وبالأموال العامة وأمواله الخاصة، وبمساعدة مهندس نابغة هو ماركوس أغريبّا، قام أُغسطس بتنفيذ مشروع ضخم لتشييد المباني العامة في العاصمة، مما خفّف من أزمة البطالة، وبرّر تفاخره لاحقاً من أنه تسلَّم روما مدينةً من الآجر وتركها مدينةً من المرمر.

إنما كان من الأسهل عليه أن يعيد الرخاء من أن يصلح الأخلاق. فالضعف الذي أصاب العقائد الدينية القديمة بين الطبقات المتعلّمة، كان سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوّة من حُرمة وقداسة. زد على ذلك أن هجرة الناس من الأرياف إلى المدن جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم، أو لُعَباً مُكْلفة، بعد أن كانوا رصيداً ومصدر قوة لهم. واشتدّت رغبة النساء في التبرّج ليكنّ مرغوبات جنسياً بالأحرى، عوضاً عن أن يكنّ محترمات كأمهات. وامتنع كثير

من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتاً، أو عمدوا إلى تحديد عدد أفراد أُسرهم باللجوء إلى وسائل منع الحمل، أو إجهاض الزوجات، وحتى إلى قتل الأطفال. وقد رأى أُغسطس في هذه المظاهر تفسّخاً للسلطة الأبوية، وانحلالاً للنظام الاجتماعي، وانهياراً للشخصية الرومانية الأصلية. وبوصفه رقيباً وتريبيوناً، حمل أُغسطس الجمعية على إصدار طائفة من القوانين، الغاية منها: وضع الزواج تحت رقابة الدولة، ومعاقبة المرأة الزانية بنفيها من البلاد طوال حياتها، أو بتجريدها من ثُلث ثروتها ومن نصف بائنتها. غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنا، فكان له أن يقيم علاقات مع البغايا المسجَّلات رسمياً من دون أن يطاله القانون.

وثمة قانون آخر يتصل بالزواج، إذ جعل الزواج إلزامياً، وفرض عقوبات اقتصادية على غير المتزوّجين، وخصّص مكافآت اجتماعية وأخرى اقتصادية على إنجاب الأطفال وتنشئتهم. لكن المؤرّخين من تاسيتوس فصاعداً، أفادوا بأن هذه الشرائع أخفقت في تحقيق أغراضها، وأن الرجال والنساء كانوا يجدون دوماً الوسائل الكفيلة بالتملّص منها. فلم ينقطع الفساد الخُلقي المتمثل بالتهتك الجنسي على أنواعه، بل صار يُمارس جهاراً نهاراً، هذا إن لم نقل إنه صار «فناً» راقياً يُلقنه الخبراء للمبتدئين، كما في «غزليات» أوفيد مثلاً. وهكذا بدأ الرومان الأصليون يتناقصون، والخمول يسري في أوصالهم، فيما كان المهاجرون، الأكثر التصاقاً بمؤسّستي الأسرة والدين، يتكاثرون عدداً ويزدادون قوةً.

وقد حقَّق أُغسطس نجاحاً أكبر في إعطاء الامبراطورية حالة من سيادة القانون والاستقرار، قُيِّض لها أن تدوم قرنين من الزمن. وشأنه شأن أي قائد عسكري روماني، استهلّ أُغسطس حياته بالسعي إلى توسيع أرجاء الامبراطورية عن طريق الغزوات والفتوحات، وأرسل حملات عسكرية فاشلة لابتلاع بلاد الحبشة وبلاد العرب، وأوعز إلى ابني زوجته: دروسس وتيبريوس أن يُعاقبا الجرمان على توغلاتهم الجديدة في بلاد الغال بغزو جرمانيا نفسها، وصولاً إلى نهر إلبا. لكن الجرمان سيستدرجون، في العام التاسع للميلاد، ثلاثة فيالق رومانية إلى فخ منصوب ويطوقونها، ويُجهزون على كل جندي فيها. عندئذ أهاب أُغسطس بتيبريوس أن يضرب الجرمان بالشكل الذي يرتئيه انتقاماً منهم، لكنه أمره في الوقت نفسه أن يُرجع حدود الامبراطورية إلى نهر الراين.

وبعد أن وسَّع أرجاء الامبراطورية الرومانية إلى أقصى امتداد لها من بريطانيا وإسبانيا غرباً، إلى البحر الأسود والفرات شرقاً ـ دعا أُغسطس إلى التوقف عن المزيد من الفتوحات، وقرّ قراره على أن يستبدل الحرب بالتشريع. وأبدى استغرابه من «أن الإسكندر لم يرَ في تنظيم الامبراطورية التي أنشأها مهمة أصعب من الفوز بها». وبذا بدأ «السلام الروماني» (Pax Romana).

ساعة الشاعر

في ظل هذا «السلام الروماني»، كان بمقدور أي جزء من أجزاء الامبراطورية أن يصدّر البضائع والأفكار، وأن يستورد آخر البِدع والعقائد. وبات بمستطاع العالم الهلينستي الآن، أي بلاد اليونان والشرق الأدنى ومصر، وهي أصلاً بلادٌ مبدعة ووارثة ثقافات غنية ومتنوعة، أن تصب شعرها ونثرها، إيماناتها القديمة وشكوكها الجديدة، علومها وفلسفاتها وفنونها، في روما التي كانت بعدُ متحفّزة متوثبة من الناحية الفكرية، وكلها استعدادٌ لتلقي ديانات ونشوات شعرية وأشكال معمارية جديدة.

فتى خجول رعديد من ضيعة مانتوا ـ وكان من فرط وداعته أن حرَّف بعض الظرفاء اسمه من «فيرجيل» إلى «فرجين» (أي العذراء) ـ ألهمته القصائد الرعوية الإغريقية لثيوقريطس السرقوسطي على كتابة «المختارات» عن الحياة الريفية على هيئة قصائد نغمية سُداسية التفعيلات، طافحة بالبهجة والحبور. أَستطاع الثري والمُحسن ماسِّناس أن يُقنعه بالتحوّل إلى نظم أشعار تحتفي بأشغال الريف ومباهجه وتمجّدها. ولدى عودة أُكتافيان من انتصاراته المضنية على أنطوني وكليوباترا، أغراه ماسِّناس بالاستماع، ولمدة أربعة أيام كاملة، إلى ألفي بيت من قصيدة فيرجيل (أو فيرجيليوس) المعروفة باسم «Georgics»(*). فوجد الفاتح الشاب أن هذه القصائد المكرّسة للأرض تتفق تماماً مع رغبته في إعادة الرومان إلى حياة الريف وزرع الأرض ثانيةً. فكان أن أجزل العطاء للشاعر. وبنفسٍ عامرة بالامتنان له، انسحب فيرجيل إلى عدة أماكن نائية ومنعزلة، وقضى السنوات العشر التالية في تأليف «الإنياذة»، التي أراد منها أن تحكي عن

(*) وتعني حرفياً: العمل في الأرض (المترجم).

إينياس وروما مثلما حكت «إلياذة» هوميروس عن أخيل وطروادة. وقد توفي مؤلِّفها النيّق والموسوس في عام 19 ق.م، قبل أن يتسنى له إتمام رائعته هذه، وكان عمره وقتئذ إحدى وخمسين سنة.

تفتقر «الإنيادة» إلى بنية منطقية، لكن قلّما يتوافق المنطق مع الشعر. كما أنه يعوزها الانسياب الدافق الذي نجده في «الإلياذة»، والفكر الرجولي في «الأوذيسة»، غير أنها تشكّل، في الحقيقة، أرخبيلاً حقيقياً من الوقائع والأحداث الشجية «السابحة هنا وهناك في بحر شاسع»(*). وإليكم مقطعاً منها، على سبيل المثال، يستشرف ويضارع أروع قصائد كيتس(**) الغنائية:

«في ظلال شجرة الحور، يبكي العندليب صغاره. لقد أبصرها حارثٌ متحجر القلب، فانتزعها من عشها ولمّا ينبت ريشها بعد. قضى الليل بطوله ينتحب، جاثماً على فننٍ، وهو يعيد أغنيته الحزينة ويملأ الغابة بنواحه».

وهناك طبعاً قصة ديدو، ملكة قرطاجة، واستسلامها الشهواني لذراعي إينياس القويتين، ثم هجره إياها انسياقاً وراء قدره المكتوب لإنشاء مدينة روما، وإلقاؤها بنفسها حيّةً في المحرقة الجنائزية. لقد ساوى هوراسيوس (أو هوراس) ما بين «الإنيادة» و «الإلياذة». وفي العصور الوسطى، حظي فيرجيل بالاحترام والتوقير، لأنه (إذا ما استعرتُ هنا كلمات پاتر في وصف أفلاطون): «ذو روح بطبيعتها مسيحية»(***) قبل المسيح. واتّخذه دانتي دليلاً له في تجواله في الجحيم والمطهر والفردوس. وصاغ پورسل(****) «ديدو» فيرجيل صياغة موسيقية. وتجاوز فولتير الجميع إذ وصف «الإنيادة» بأنها أروع صرح أدبي خلّفه لنا الأقدمون.

من أجمل الصور التي تُطالع الإنسان في عالم الأدب، والتي تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لا تفوقها إلا غيرة الحب والعشّاق، صورة فيرجيل وهو

(*) باللاتينية في النص: "rari nantes in gurgite vasto".

(**) جون كيتس (1795-1821) شاعر غنائي إنكليزي (المترجم).

(***) باللاتينية في النص: "anima naturaliter Christiana".

(****) هنري پورسل (1659-1695)، موسيقار وعازف أورغ إنكليزي. له مقطوعات موسيقية عديدة، أهمها: «ديدو واينياس» (المترجم).

يقدّم هوراس إلى ماسّناس. ولعل ما استهواه في قصائد هوراس المحبوكة بمهارة لدرجة الانصقال، تلك الاحترافية المتكلّفة التي تكمِّل البساطة المتناهية في شخصية فيرجيل وشعره. وقد أهدى إليه ماسّناس في عام 34 ق.م، دارة وسيعة ومزرعة تدرّ عليه بعض المال في وادي سابين، على بعد خمسة وأربعين ميلاً شمالي روما. وبذلك أصبح في استطاعة هوراس أن يعبِّر عما يجول في فكره بحرية تامّة. وبأشعار ساخرة لاذعة سُداسية التفعيلات، وبلغة أشبه ما تكون باللغة العاميّة، تناول هوراس بالهجاء والانتقاد شخصيات نموذجية لمن تتألف منهم مدينة روما: العبد الوقح البذيء، الكاتب التافه المزهو بنفسه، الرجل الثقيل الظل المهذار، الفيلسوف الوصولي، الإنسان الشرقي الماكر، رجل الأعمال، عابر السبيل، والغاوي اللعوب الذي ملّ زوجته فراح يفتش عن امرأة أخرى يطارحها الغرام فيما هي تبتذل لرجل آخر، فنشعر كما لو أننا بإزاء روما الحيّة، روما الحقيقية.

فيما هو مستريح ومسترخٍ تماماً في دارته المؤلّفة من أربع وعشرين حجرة وثلاث برك للسباحة، أقبل هوراس يرسم صورة مثالية للفلاح الذي «يعيش بمنأى عن قلق الأعمال ومتاعبها... يفلح بثيرانه الأرض التي ورثها عن أبيه»! وانسياقاً مع أحلامه وأوهامه، راح ينظم قصائد غنائية لعشيقاته، الحقيقيات منهن والمُتَخَيَّلات، وعنهن. وذكر منهن أسماء ثلاث عشرة عشيقة. وإدراكاً منه لما يمتاز به من مهارة في الكتابة، فقد ألّف رسالة سمّاها لاحقاً: «فن الشعر»، يُخبر فيها الكتّاب الناشئين عن قواعد الكتابة الصحيحة: الوضوح، المباشرة، مزج المفيد باللطيف. وقال إنّ الفن يفترض وجود إحساس عند الفنان نفسه، ناهيك بالمتلقي: «إذا شئتني أن أبكي، فعليك أن تحزن أنتَ أولاً». لكن الفن ليس إحساساً فقط. إنه شعور منقول بطريقة منضبطة ومهذّبة: «فالعواطف يتذكّرها أصحابها في هدوء». هـهنا يكمن تحدّي الأسلوب الكلاسيكي للأسلوب الرومانسي.

ولكي تصل إلى الصيغة المنشودة في الكتابة، عليك أن تدرس آداب اليونان ليل نهار. وتجنَّب قدر الإمكان التعابير الجديدة أو العتيقة، وكذلك المقاطع اللفظية الطويلة، «عبارات بطول قدم ونصف» على حد وصفه. وإذا ما اجتازت كتابتك هذه المراحل كافة، أَخْفِها ثماني سنين. فإذا ظلت تروق لك، عندئذ انشرها، لكن تذكّر أنها قد تخزيك في نضجك. وإذا ما كتبتَ مسرحيات، فلتلتزم بالوحدات الثلاث: وحدة الفعل، ووحدة الزمان ووحدة المكان. وادرسْ الحياة والفلسفة، لأن

الأسلوب من دون الملاحظة والفهم وعاء فارغ، وهو من الهشاشة بمكان قد يتحطّم عند استعمالنا له.

لم يشك هوراس لحظةً بفنه، ولا بقدرته على تحدّي الزمن: «لقد رفعت نصباً أبقى على الدوام من البرونز وأعلى من قمة الهرم... لذا، فإنني لن أموت تماماً»(*). وفي عام 8 ق.م، وبعد أن أوصى بممتلكاته إلى أُغسطس، سلّم هوراس جسده للأرض، فووري الثرى غير بعيد عن قبر ماسّناس.

وثمة شاعر ثالث ازدان به العصر الأُغسطي، أو بكلام أدق: الفكر الأُغسطي، لكنه ألحق به الخزي والعار على نحو إجرامي. پُبليوس أُوفيديوس نازو هو هذا الشاعر الذي جعل من نفسه المثال المحتذى وحامل الراية لأولئك الرومان الأبيقوريين، الممتعضين من تشريعات «الأمير» ضد الحرية الجنسية، والهازئين من المقاتلين الذين يندفعون إلى حتفهم على أرض أجنبية في حين أن بوسعهم أن يستكشفوا مفاتن نساء روما المنفلتات من عقالهن. أرسله أبوه، وكان رجلاً ثرياً من الطبقة الوسطى، ليدرس القانون في العاصمة. لكنه صُدم إذ سمع أن الفتى يريد أن يكون شاعراً. وعلى كل حال، ارتقى أوفيد حتى صار قاضياً في المحاكم، المهنة التي تتنافر وطبيعته، وفي الطريق، ألّف ديوان شعر في مدح التهتك الجنسي.

وإثر تجربة بذل فيها جُهداً جهيداً في المغامرات العشقية والمطارحات الغَزَلية، أصدر أوفيد كرّاساً في الإغواء يحمل عنوان: «فن الغرام» (Ars amatoria) قبل الميلاد بعامين. لكنه، وفي موقف يتّسم بالحكمة، التمس من قرّائه ألا يطبّقوا مضامينه إلاّ على المحظيات والعبيد فقط. لاقى هذا وغيره من الدواوين الشعرية رواجاً واسعاً حتى ذاع صيتها، فأدارت رأسه الخُيلاء: «ما دام العالم قاطبة يحتفي بي على هذا النحو، فما همّني ما تقوله عني شرذمة من المعترضين التافهين». ولم يدرِ أن من بين هؤلاء «المعترضين التافهين» أُغسطس نفسه، الذي كان يفكّر ملياً في تفعيل «القوانين اليوليوسية» التي أجازها في عام 13 ق.م.

ازدهرت أحوال أوفيد، وتزوج ثلاث مرّات، ووجد هناءً جديداً مع ڤابيا،

(*) باللاتينية في النص: "Exegi monumentum aere perennius... non omnis moriar?".

وابتردت نيرانه. وفي عام 7 ب.م، نشر عمله الأبقى على مرّ الزمن، ألا وهو كتاب «التحوّلات» الذي حكى فيه بأبيات سداسية التفعيلات، نابضة بالحيوية والطلاقة، بعض الحالات الشهيرة عن تحولاّت (أو انمساخات) وقعت في الجماد والحيوان والبشر والآلهة. ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، اُقتبست آلاف القصائد والرسوم والمنحوتات مواضيعها من هذا المعين الثرّ. وفي ختام كتابه، أعلن مؤلِّفه الواثق جداً من نفسه أنه من الخالدين: «سأبقى حيّاً على مدى العصور»(*). وما كاد يعلن نبوءته هذه حتى تلقى في العام الثامن بعد الميلاد، ولما يناهز الحادية والخمسين بعد، إشعاراً أمبراطورياً بنفيه إلى طومي (كونستنزا حالياً)، المدينة الباردة والضبابية الواقعة على ساحل رومانيا على البحر الأسود. ومنها دأب الشاعر يبعث بقصائده على فترات جد متقاربة إلى زوجته وأصدقائه. وقد جُمعت هذه القصائد فيما بعد تحت عنوان «الأحزان» (Tristia).

في ذلك الميناء البارد الكئيب، وعندما كان أوفيد يذهب بفكره إلى نساء إيطاليا الدافئات وإلى سمائها المشرقة الباعثة على الانشراح، كان قلبه يتفطّر حسرةً، وكانت أشعاره، وهي بعد جميلة، شكلاً وصياغةً، تغوص أعمق فأعمق في المشاعر والأحاسيس التي قلّما كانت تُظهرها من قبل. طلب العفو والغفران من «الأمير» بادي التذلل والهوان، لكنه لم يردّ عليه. ومات الشاعر في منفاه في عام 17 ب.م. هذا ولا بد أنه انطوى في سريرة نفسه على شيء يستحق الحب والإعزاز، وإلاّ لما بقيت زوجته الثالثة، التي مكثت بعيداً عنه نزولاً عند رغبته، وفيّةً له إلى النهاية.

موت «الأمير»

الرجل الذي أضحت كلمته بمثابة قانون، من يورك إلى بعلبك إلى قادش، عاش كل تلك الفترة حياةً تتصف بالبساطة العفوية والتواضع الجمّ، زاهداً بترف الثروة أو أُبّهة المنصب، مرتدياً الملابس البسيطة التي تحيكها النساء في بيته، وراقداً في حجرة صغيرة مما كان ذات يوم بيتاً للخطيب هورتنسيوس.

وقد بلغ التواضع والبساطة بأُغسطس حداً، أن رجلاً من بلاد الغال جاء

(*) باللاتينية في النصّ: "per saecula omnia vivam".

لاغتياله، فأنكر أن يكون هذا هو الحاكم الامبراطوري الذي يسعى وراءه. وطوال حياته تقريباً، ظل يعاني من بعض الأمراض غير الخطيرة، مثل: القوباء، التهاب المفاصل، التيفوس، التهابات القصبة الهوائية، حصى المثانة والأرق. ومن شدّة وهنه واعتلال صحته، كان يتعذّر عليه ركوب الحصان أحياناً، لذلك كان يُحمل على محفّة إلى ميدان المعركة في بعض الحملات العسكرية. وبعدما جرّب العديد من الأطباء، أخذ يطبِّب نفسه بنفسه بواسطة الحمامات الكبريتية، ويتبع نظام حِمْيَة في طعامه فلا يأكل إلا الخُبز الخشن، والأجبان والأسماك والفاكهة. شاخ وهو لم يتعدَّ الخامسة والثلاثين من عمره بعد، لكنه عاش حتى السادسة والسبعين.

انطوت شخصية أُغسطس على عناصر متناقضة متنافرة مما كانت تُظهرها إلى العلن النزوات الظرفية الواحدة تلو الأخرى: ففي صباه ـ وكان سعيداً في أُسرته ومحبوباً من يوليوس قيصر ـ انغمس في التهتُّك الجنسي الذي طبع ذلك العصر. ثم رأيناه بعد ذلك يقف إلى جانب أنطوني ضد پروتس تحت وطأة الصدمة إثر اغتيال قيصر؛ لكن أطماع أنطوني الهوجاء، ومعاملته القاسية لزوجته أُكتافيا ـ شقيقة أُكتافيوس ـ حوّلته إلى عدوٍ لا يعرف الرحمة. وحين صار سيد روما وهو في الثالثة والثلاثين، أزهرت مناقبه ومزاياه أيّما إزهار. وزاده السلطان تواضعاً بدلاً من أن يفسده. لقد اضطلع بتبعات وتبوَّأ من المناصب ما لم يُتح لأحد قط، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن ادّعاء الكبرياء المصطنعة. كان يبتسم لدى سماعه الأهاجي اللاذعة التي ألَّفها بعض الظرفاء والشعراء عنه. وبوصفه المحكمة العُليا في البلاد، كان يقضي في كل الأمور بحكمة ورأفة. ورُزىء في سنواته الأخيرة بسلسلة من المصائب والبلايا التي زادته مرارةً وقسوةً. إنما يجب أن نضع في اعتبارنا ما كان يعانيه من اعتلال جسدي وما قاساه في شيخوخته من أتراح، قبل أن تميل قلوبنا له كما تميل لقيصر المغدور أو لأنطوني المهزوم.

إن إخفاقاته ومآسيه انحصرت جميعاً ضمن نطاق أُسرته تقريباً. فابنته جُوليا التي بدا أن القدر أرسلها إليه لتُبهج سنواته الأخيرة بحُسنها وحيويتها ومرحها، حالت عاطفتها المشبوبة ومزاجها الناري دونها واستقبال تشريعات أبيها حول الزواج والأبوة والأخلاق بالترحاب.

لقد تزوجت جوليا وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وترمّلت وهي بعد في السادسة عشرة. فكان أن استمتعت بحريتها تمام الاستمتاع، وبقدر من التسيّب جعل أباها يُعجِّل بتزويجها من معاونه المفضَّل: ماركوس أغريبا، وكان في الأربعين من عمره. أنجبت جوليا لأغريبا خمسة أولاد؛ لكن ما إن وافته المنية (12 ق.م)، حتى أخذت تبدّل عشاقها تباعاً. الأمر الذي جعلها مضغة في أفواه أهالي روما ومحل تندّرهم، روما الرازحة تحت وطأة «القوانين اليوليوسية» الصارمة. ولئن أُجبرت على الزواج من تيبريوس، ابن أبيها بالتبنّي، إلا أنها واصلت مع ذلك مغامراتها الغرامية. فهرب تيبريوس إلى جزيرة رودس لدراسة الفلسفة وعلم التنجيم.

أصدقاء له ذكّروا أُغسطس بما تنصّ عليه قوانينه من أن الزانية يجب أن يُبلِّغ زوجها عنها للمحكمة، وإنْ أبى الزوج فوالدها. وبالفعل، أصدر أُغسطس، في العام الثاني قبل الميلاد، مرسوماً يقضي بنفي ابنته إلى جزيرة پانداثيريا، وهي جزيرة صخرية جرداء على مبعدة قليلة من الساحل الكامپاني. كثيرون، بمن فيهم تيبريوس نفسه، توسلوا إليه أن يصفح عن جوليا، إلا أنه رفض. وماتت جوليا بعد ست سنوات من الحبس. أما ابنتها، وكانت تُدعى هي الأخرى: جوليا، فقد سارت على خطى أمها في أخلاقها وسلوكها، إلى أن نفاها جدها إلى إحدى جزر البحر الأدرياتيكي في العام الثامن بعد الميلاد. لكم تاق الحاكم العجوز المحطَّم إلى الموت!

وجاءه الموت بهدوء وسكينة في سنته السادسة والسبعين. وعلى مسامع الأصدقاء المتحلّقين حول سريره، تمتم أعظم رجل دولة عرفته الامبراطورية الرومانية بكلمات كثيراً ما كانت تُسدل بها الستارة في عروض الملهاة الرومانية: «الآن وقد أجدتُ تمثيل دوري، فصفّقوا بأيديكم، وبالتصفيق أنزلوني من على المسرح». ثم عانق زوجته قائلاً: «تذكّري عشرتنا الطويلة، يا ليڤيا. الوداع». وبمثل هذا الوداع البسيط، أسلم الروح.

وبعد بضعة أيام من وفاته، حُمل جثمانه في شوارع روما على أكتاف الشيوخ إلى «ميدان المريخ» حيث جرى حرقه، بينما كان أطفال عليّة القوم في البلاد يرتلون ندبة الأموات.

الفصل الثاني عشر

نيرون وأوريليوس

نيرون

من موت أُغسطس في العام 14م، إلى اعتلاء أُوديسر العرش في العام 476م، كأول حاكم بربري لروما، مرَّت الامبراطورية الرومانية بكل صنوف المحن والتجارب، أكانت تحديات خارجية أم تآكلات داخلية.

خلف تيبريوس أُغسطس في السلطة بوصفه ولده بالتبنّي، وأحسن حُكم البلاد إلى أن عصفت به القلاقل العائلية وشوَّشت ذهنه السلطات المطلقة. وبدأ كاليغولا عهده بالإحسان إلى الشعب، لكنه سرعان ما وقع في التوحّش والإجرام، مما أفضى إلى اغتياله. وأذهل كلوديوس روما بحُسن سياسته، مع أنه صنَّف كتباً في الفلسفة والتاريخ، ووضع سيرته الذاتية، لكنه «لم يكن بأي حال معتدلاً في اشتهاء النساء» على حد قول سويتونيوس.

ويُحكى، إنما من غير سند، عن أن زوجته الرابعة مِسّالينا، كانت تأتيه شخصياً بالسراري والمحظيات ترضيةً له على تحمّله خياناتها الزوجية. وبعدما أقدم عدد من الجند على قتلها، تزوّج كلوديوس من أغريبينا، والدة نيرون من زواج سابق. وقد نجحت في إقناع كلوديوس بتبنّي نيرون، وأطعمت آخر الأمر

الامبراطور فطراً ساماً، فمات كلوديوس وأرتقى نيرون العرش في عام 54 م، وكان عمره سبع عشرة سنة فقط.

ولقد نال نيرون من الشهرة ما لم ينله امبراطور روماني آخر، وذلك لرواج اعتقاد زائف عنه بأنه أمر بإحراق روما، وكذلك بسبب هوسه بعرض مهاراته الفنية في عروضٍ مسرحية. وعلى أية حال، عدَّ تراجان الكبير السنوات الخمس الأولى من حكم نيرون كأفضل حقبة في تاريخ الحكم الامبراطوري. فاعترافاً منه بحداثة سنّه، تنازل نيرون عن كل سلطاته الملكية تقريباً إلى مجلس الشيوخ، واكتفى منها بإمرة الجيش فحسب.

قَبِلَ نيرون بسنكا مرشداً ومؤدّباً له، ووعد بأن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرأفة التي كان الفيلسوف قد مجّدها في إحدى رسائله المسماة «De clementia» (وتعني الرحمة أو الرأفة). غير أنه حين علم بأن أمه تدبّر مكيدة لإجلاس ابنها الآخر بريتانيكوس على العرش محله، أمر، على ما تقول الرواية، بدسّ السم له. مهما يكن من أمر، فقد عمّ الرخاء أرجاء الامبراطورية في سنوات حُكمه الخمس الأولى، ووُضع حدٌّ للفساد، وأُصلحت أحوال الموظفين في الدوائر الحكومية، وطُهِّر البحر الأسود من القراصنة، ووقّعت پارثيا(*) معاهدة صُلح دامت خمسين عاماً.

لعل سِنكا كان الروح الهادية في هذه الأعوام الخمسة النيرونية. إنما لصرف أنظار نيرون عن شؤون الدولة، سمح له مرشده بإطلاق العنان لنزواته. فكان أن اشتدّ هوس الفتى بالمآدب الباذخة، وعشق الغلمان ومعاشرة الداعرات. وذهب إلى حد تطليق زوجته اللطيفة أُكتافيا، ليتزوج من پوپيا سابينا، التي كانت تمضي نصف يومها في التبرّج والزينة، والنصف الآخر في إثارة رغباتها وتسعير شهواتها. وعندما أبدت والدة نيرون معارضةً لهذا الزواج، حثّت پوپيا الامبراطور الشاب على الإيعاز بقتل أغريپينا. وكل ما قاله الامبراطور عندما رأى جثتها العارية: «لم أكن أعلم أن لي أماً بهذا الجمال!»

(*) بلاد آسيوية تقع إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين، وقلبها منطقة خُراسان الحالية. سكانها من أصل سكيزياني، وقد اشتهروا بالفروسية والرماية وكذلك بكثرة تمردهم على الامبراطورية الرومانية (المترجم).

إنه ليصعب على المرء أن يُصدّق مثل هذه القصص عن شابٍ في الثامنة والعشرين من عمره، يهوى الشعر والتمثيل والموسيقى والفنون الجميلة والألعاب الرياضية. وقد مارس هذه النشاطات جميعاً، باذلاً كل جهده فيها، لا بل قارب أن يجلّي في بعضها. ولقد اعتاد أن يجمع الفنانين والشعراء من حوله، ليقارن عمله بأعمالهم. وفي عام 64 م، قدّم نيرون عرضاً فنياً في نابولي حيث عزف على القيثارة أمام الجمهور؛ وفي العام التالي، ظهر كعازف ومغنٍ على خشبة «مسرح پومپي» في روما. كان اسمه مدرجاً في قوائم الممثلين، ويستثيره جداً تصفيق الجمهور له. ولما علم أن الإسكندرية وأنطاكيا قد أُعيد بناؤهما وفقاً لتصاميم علمية، ندب حظ روما لأنها نمت نمواً عشوائياً، فاْختلطت القصور فيها بالأكواخ. لقد حلم ببنائها من جديد، وتغيير اسمها إلى: «نيروبوليس» (مدينة نيرون).

وحدث في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو/تموز من عام 64 م، أن شبّت النار في «المضمار الأكبر» في روما، وانتشرت انتشاراً سريعاً، وظلت مشتعلة تسعة أيام متواصلة حتى التهمت ثُلثي المدينة. كان نيرون غائباً آنذاك في أنتيوم (آنزيو الحالية)، على بعد 33 ميلاً من العاصمة. وحين وصله نبأ الحريق، أسرع بالعودة إلى روما، حيث بذل كل مُستطاع للسيطرة على النيران وحصر امتدادها، وأشرف شخصياً على إغاثة المنكوبين. وأقام مدينة من الخيام في «ميدان المريخ»، وأوعز بإحضار الأغذية من الإقليم المجاور للمدينة لإطعام المشرّدين... لقد اتُّهم خطأً بأنه هو الذي أمر بإضرام النار في المدينة، وبأنه وقف يراقبها تشتعل من أحد الأبراج وهو ينشد أبياتاً من قصيدته الطويلة عن إحراق طروادة. وبحسب تاسيتوس، أتهم نيرون بالعملية طائفة صغيرة من المسيحيين كان الرسولان بطرس وبولس قد أسّساها في العاصمة لثلاث سنوات خلت. ويضيف المؤرِّخ المناوىء بقوة للامبراطورية، أن نيرون أمر بإعدام عددٍ منهم بمنتهى الوحشية. ولما أُزيلت الأنقاض، شرع يعيد بناء المدينة كما صوّرتها له أحلامه.

بعد ذلك بعام واحد، تناهى إلى سمعه نبأ تدبير مؤامرة لعزله. وأدلى بعض السجناء باعترافات تدين من بين من تدين الفيلسوف سنكا والشاعر لوكان. فأمرهما نيرون بأن يقتل كل واحد منهما نفسه. وهذا ما فعلاه. وبعد أن بدا له أنه الآن في قمة سلطانه، وأنه في مأمن من شر الأعداء، غادر إيطاليا في عام 66 م،

قاصداً بلاد اليونان للمشاركة في الألعاب الأولمبية. وقد اشترك في أولمبيا بسباق العربات، وساق فيها مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياد. سقط من العربة في حلبة السباق، وأُصيب بجراح بليغة، لكنه عاد وواصل السباق لبعض الوقت، إلا أنه انسحب قبل نهاية الشوط من شدّة الإعياء. ومع ذلك، فقد قدّموا له إكليل الفوز، فما كان منه إلا أن أعفى بلاد اليونان كلها من دفع الجزية لروما بعد الآن. ثم تابع رحلته للمشاركة في مباريات الألعاب البثيادية والنميائية والأستونية، مغنّياً وعازفاً وممثّلاً ورياضياً. وفي هذه المباريات والعروض جميعها كان يفوز بالجائزة كالمعتاد، فيرد هو بمنح منافسيه حق المواطنية الرومانية تعزيةً لهم على تفوّقه عليهم جميعاً.

في أثناء انهماكه بالمباريات، تلقى نبأ الثورة التي اُندلعت في اليهودا بفلسطين، وأن الغرب برمّته تقريباً أعلن العصيان ضده. وفي عام 68م، انضم إلى صفوف المتمردين كل من ڤيندكس، والي ليون، وغالبا، قائد الجيش الروماني في إسبانيا. فتطلع نيرون إلى الحرس البريتوري لكي يدافع عنه، لكنه أعلن تأييده لغالبا، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن أعلنه امبراطوراً. وناشد نيرون أصدقاءه المقرّبين أن يسعفوه، لكن أحداً منهم لم يُسرع إلى نجدته. ففرّ سالكاً الطريق المؤدي إلى أوستيا، على أمل أن يجد هناك مركباً وبحّارة صادقي الولاء له. لكن جنود مجلس الشيوخ كانوا قد أدركوه وطوّقوه من كل جانب. فحاول أن يغرز خنجراً في حلقه، لكن يده خذلته، فأعانه أحد معاتيقه على دفع النصل إلى آخره، وهو يصرخ مولولاً: «أي فنانٍ يموت بموتي!»(*).

الانحطاط

يُعد موت نيرون بمثابة الذروة لروما الأبيقورية، فيما كان موت كاتو الرقيب، في عام 149 ق.م، أوج روما الرواقية.

بعد موت كاتو بوقت قصير، غزا الرومان بلاد اليونان (146 ق.م.) والشرق الهلينستي؛ وساهم هذا الغزو في مدّ الطريق الاقتصادي والثقافي الذي كانت فتوحات الإسكندر قد شقّته قبل قرنين من الزمن أمام حركة الضرائب والأقوام

(*) باللاتينية في النص: "Qualis artifax pereco!".

والتقاليد والفلسفات والديانات الشرقية باتجاه الغرب لتصبّ كلها في روما، ولتبدأ من ثم بتحويل حيويتها الرواقية إلى استرخاء أبيقوري. فالغزو الأول لروما لم يكن من جانب القبائل البربرية النازلة من الشمال، وإنما من جانب الشعوب المتعلّمة والمثقفة القادمة من الشرق: الإغريق، والسوريون، واليهود، والمصريون، والبارثيون، والأحباش وغيرهم، حتى إن الشاعر جوڤنال(*) اشتكى من أن العاصي (نهر في سوريا) يصبّ في التيبر، فيما نعت تاسيتوس، عضو مجلس الشيوخ المتعجرف، روما بأنها «بالوعة العالم».

إنما هذا لا يعني أن الوافدين الجُدد كانوا خلواً من أية مزية. فالحياة العائلية عند اليهود كانت دعامة قوية لهم، والمعازل المسيحية أثارت دهشة الرومان بورعها واحتشامها. لكن العديد من هؤلاء الوافدين الجُدد فسُدت أخلاقهم بانسلاخهم عن محيطهم الأصلي وقواعد سلوكهم الأصلية. فاختلاطهم المتكرر بقواعد السلوك الغريبة عنهم نال من انضباطهم الخُلقي وبدأ ينخره. وعندي أن هذا التضارب في قواعد السلوك، وخضوع الوحدة والحيوية العرقية لدوّامة من الأجناس والمعتقدات والأغراض والطُرُق المتنوعة والمتباينة، هما اللذان ساهما، مع تدفق الثروات على روما، في تفكيك أواصر حياتها الأخلاقية باتجاه مذهب اللّذة المتهوّر، كما طالعناه عند أوفيد وهوراس وماريتال، وباتجاه انحرافات نيرون وجرائمه وخيانات الملكات الرومانيات. ولعلّ الأدعى من كل هذا إلى الاستغراب، الظهور المفاجىء، في القرن الثاني الميلادي، لحُكام هم الأكثر رواقية والأشد إخلاصاً وتفانياً في تاريخ روما ما بعد الحقبة الأُغسطية.

الملوك الفلاسفة

يقول چيبّون(**): «لو إن إنساناً طُلب إليه أن يحدّد في تاريخ العالم حقبةً كان فيها الجنس البشري أعظم ما يكون سعادةً ورخاءً، لما تردد في القول إنها الفترة الممتدة من جلوس نيرڤا في عام 96م، إلى موت أُورليوس في عام 180 م.

(*) جوڤنال (60-135؟م): شاعر روماني يُعتبر أكبر شعراء الهجاء عند الرومان (المترجم).

(**) ادوارد چيبون (1737-1794): مؤرّخ انكليزي؛ أهم أعماله: «انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية» (المترجم).

ولعلّ حُكمهم مُجْتَمِعاً هو الفترة الوحيدة في التاريخ التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد».

ويوافقه رينان(*) الرأي. فمبدأ التبنّي الملكي أعطى روما في نظره، «أروع سلسلة من الحكّام الأخيار والعظام عَرَفها العالم». وهذا المبدأ دشّنه أُغسطس كما نعلم، ونُحّي جانباً بعد موت نيرون، ثم بُعث من جديد على يد نيرڤا، حين تبنّى تراجان خليفة له. وقد قبل مجلس الشيوخ بهذا المبدأ، على افتراض أن التبنّي سيكون لرجلٍ معروف عنه مسبقاً أهليته لتحمّل التبعات الإدارية والعسكرية. وإذا كان هذا المبدأ قد نجح في التطبيق، فلأن نيرڤا وتراجان وهادريان وأنطونيوس پيوس لم يكن لهم أولاد، وكان لديهم متسع من الوقت لدرس اختياراتهم وتأهيل من وقع عليه اختيارهم.

كان ماركوس كوكسيوس نيرڤا في السادسة والستين عندما عيَّنه مجلس الشيوخ «زعيماً» له. فوزّع الأراضي الزراعية على الفقراء، وألغى عدداً كبيراً من الضرائب، وأعفى اليهود من الجزية المفروضة عليهم، ودعم مالية الدولة بمراعاة مبدأ الاقتصاد في بيته كما في حكومته. وقبل وفاته بثلاثة أشهر (98 م)، عيَّن ماركوس ألپيوس تراجانوس (تراجان) خلفاً له.

ولقد أحبَّ تراجان الامبراطورية حبّاً جمّاً حتى إنه رغب في المزيد والمزيد منها، وأمضى معظم سنوات نضجه في حمايتها وتوسيع أرجائها. فغزا داشيا (رومانيا الحالية) وابتلعها بوصفها منطقة حيوية للسيطرة على الدانوب الذي كان يُشكّل، في نظره، أفضل حاجز في وجه «البرابرة» المتكاثرين. وَهَبَ داشيا اللغة اللاتينية، وأخذ منها في المقابل مناجم الذهب. وبفضل هذا الثراء الطارىء، وزّع تراجان 650 ديناراً (نحو 260 دولاراً أمريكياً؟) على كل مواطن روماني تقدّم بطلب هذه المِنحة. وشيَّد المدرّج الروماني الذي ما برح يحتفظ ببهائه إلى اليوم في ڤيرونا، والسوق العامة «تريانوم فورم» في روما، بما في ذلك قوس النصر، وصفوف العُمد بمنحوتاتها اللولبية التي أُقيمت تكريساً لانتصاراته، والتي ألهمت فيما بعد نابليون إقامة قوس النصر الخاص به.

(*) أرنست رينان (1823-1892)، مؤرِّخ وناقد فرنسي، داعية المقاربة العلمية للتاريخ. أهم أعماله: «حياة يسوع» (المترجم).

في عام 113 م، انطلق تراجان مجدداً على رأس فيالقه للاستيلاء على بارثيا وفتح طريق التجارة إلى الهند. وبالفعل، استولى على أرمينيا، وآشور، وبلاد ما بين النهرين، وعلى بارثيا نفسها، وجعل منها ولايات تابعة للامبراطورية. ثم بلغ شواطىء البحر الأحمر مظفّراً. لكنه أُصيب بعدها بالفالج، ووافته المنيّة في سالينوس عام 117 م، بعدما عَهِد بصلاحياته الملكية إلى ابن أخيه: پوبليوس إيليوس هادريانوس (هادريان).

ولد هادريان، شأن تراجان، في إسبانيا، لكنه اختلف عنه في كل النواحي الأخرى تقريباً. فكان يكره الحرب، ويحب الكلاب والجياد والصيد والأدب والفلسفة، وعدة فنون أخرى. ولما آل إليه الأمر، أعاد الاستقلال إلى أرمينيا وآشور وبلاد ما بين النهرين وبارثيا. وإثر عودته إلى روما، أعاد تنظيم الحكومة، وفرض رقابة صارمة على كل فرع من فروعها، فكان ـ مثل نابليون الذي تعلّم الشيء الكثير من روما ـ يثير دهشة مُديري الدوائر الحكومية بمعرفته التفصيلية بكل مجال من المجالات العامة.

وعيَّن كذلك «وكيلاً للخزانة» (advocatus fisci) في جميع الدوائر الحكومية ليكشف ما قد يُرتكب من فساد أو غش. وبصفته المحكمة العليا للامبراطورية، اكتسب هادريان سمعة القاضي النزيه والفهيم الذي يؤثر عادةً الفقير على الغني، والضعيف على القوي. وتحت رعايته هذه، حُكمت الامبراطورية كما لم تُحكم من قبل أو من بعد.

كان هادريان لا يقرّ له قرار ويضجّ رأسه بالأفكار، فقرّر أن يُشرك الأقاليم بقسم من الثروات التي درّتها على العاصمة، روما. ففي بلاد الغال، حمل مواد الإغاثة إلى المناطق المنكوبة؛ وعند الحدود الجرمانية، عزّز خط الدفاع في وجه «البرابرة» الضاغطين باستمرار (وكان الرومان يقصدون بالبرابرة كل من ليس تابعاً للامبراطورية). وانحدر بعد ذلك في نهر الراين نحو مصبّه في بحر الشمال، فعبره إلى بريطانيا الرومانية (122 م)، فهدّأ ثائرتها بما أسبغه عليها من منافع؛ وبنى عند تخومها الشمالية ما عُرف بـ «سور هادريان» ليدرأ به هجمات الاسكتلنديين الذين يصعب التغلّب عليهم أو التحسّب لهم.

وبعد أن أمضى فصل شتاء في روما، أبحر إلى شمال إفريقيا لتنظيم

شؤون مدنها الجديدة المزدهرة. وفي عام 124 م، زار الشرق الأدنى الهلينستي، حيث كان يستمع عند كل محطة على الطريق إلى الشكاوى والالتماسات، ويوفّر الاعتمادات لبناء المعابد والمسارح والحمامات العمومية. وفي عامي 125 و 128 م، أمضى فصل الشتاء في أثينا، مختلطاً فيها بالدارسين والفلاسفة، وعاكفاً على تنفيذ مشاريع بناء تتصف بالحكمة وبُعد النظر.. حتى إنه غادر حاضرة «العقل» الشائخة وهي أنظف حالاً وأكثر رخاءً وجمالاً مما كانت عليه في أي عهدٍ من عهودها السابقة. ثم جال في أرجاء مصر عام 130م، حيث لفحته الرياح اللاهوتية، وبالتحديد العقائد السكولائية (المدرسية)، في الاسكندرية. ومن ثم صعد مجرى النيل على مهل بصحبة زوجته سابينا وحبيبه الوسيم والمخلص أنتينوس. وأثناء تلك الرحلة، مات الصبي غرقاً، فعاد هادريان أدراجه إلى روما محزوناً لا يُدخل السلوى إلى قلبه شيء.

وهناك انصرف بكلّيته إلى العمل لرخاء العاصمة وتقدمّها أكثر فأكثر. ومما جدَّد بناءه فيها: حرم البانثيون الذي كان شيده أغريبا عام 27 ق.م، ودمّرته النيران تقريباً في عامي 80 و 110 م. فطلب هادريان من معمارييه ومهندسيه أن يستبدلوه بهيكل دائري الشكل قطره 132 قدماً، ويكون خالياً من الدعائم الداخلية، ويستقي نوره الوحيد والكافي من كوّة (تُدعى «العين») في وسط القبة العلوية يبلغ اتساعها 26 قدماً. وإلى هذه القبة البديعة، تعود بنَسَبها المعماري كل من قبة كاتدرائية القديس بطرس في روما، وقبة مبنى الكاپيتول عندنا في واشنطن.

كانت الثورة التي نشبت في اليهودا في عام 135 م قد أقضّت مضجعه وزادته مرارةً، متحسراً بأنها عكّرت صفو السلم المديد الذي ران على حكمه. وأُصيب في ذلك العام نفسه بداءٍ عُضال هدّ كيانه وشوَّش عقله، إلى درجة اقتراف الفظائع بين الفينة والأخرى. وأراد أن يخمد حرب الوراثة التي كانت نارها مشتعلة آنذاك في بلاطه، فتبنّى صديقه لوسيوس ڤيروس واختاره خلفاً له. ولما مات ڤيروس بعد مدة وجيزة، آستدعى إليه رجلاً آشتهر بين الناس باستقامته وحكمته، هو تيتوس أُورليوس أنطونيوس، فتبنّاه وجعله وارثاً لمُلكه من بعده. كما أشار عليه أن يتبنّى هو الآخر ويدرِّب شابّين كانا يعيشان حينذاك في بلاطه، أحدهما توفي قبل أنطونيوس، فيما صار الآخر امبراطوراً باسم ماركوس أُورليوس. وتوفي هادريان عام 138م، عن عمر يناهز الثانية والستين،

بعدما أمضى واحداً وعشرين عاماً في حُكم الامبراطورية، وبعدما أعطى تلك الامبراطورية بجُهده وبُعد نظره، ثلاثةً من خيرة ما عرف التاريخ من حُكّام.

منح مجلس الشيوخ تيتوس أُورليوس أنطونيوس لقب «التقي» (پيوس)، لأنه رأى فيه مثالاً للفضائل التي كانت تمجّدها الجمهورية الرومانية القديمة: البرّ بالوالدين؛ الروح الوطنية، الوفاء للأصدقاء، الكرم السخيّ بالوقت والمال. وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الطائلة إلى خزانة الدولة. ثم ألغى المتأخرات من الضرائب، وأقام على نفقته الشخصية الألعاب والمهرجانات، وسدّ ما كان يعانيه الأهالي من نقصٍ في الزيت والقمح والخمر وذلك بشراء هذه السلع وتوزيعها عليهم بلا مقابل؛ وكان يُقدّم إلى الناس بيانات دورية بجميع إيراداته ونفقاته. وجعل عقوبة الزنا متساوية على الرجال والنساء، وجرّد الأسياد القُساة من عبيدهم، وشجع التعليم برصد المال له من قبل الدولة، ولاسيما لأبناء الفقراء، ومنح المعلمين والفلاسفة المشهود لهم كثيراً من امتيازات طبقة أعضاء مجلس الشيوخ.

وازدهرت جميع الولايات الرومانية، ما عدا مصر وداشيا، إبّان حكمه، وكانت سعيدة بكونها جزءاً من الامبراطورية التي ضمنت لها النظام الاجتماعي والسلام الداخلي. وتغنّى المؤرِّخون من أهل تلك الولايات، من أمثال استرابو، وڤيلو، وبلوتارخ، وأپيان، وإپيكتتس، بمزايا «السلام الروماني». ويؤكد لنا أپيان أنه شاهد في روما مندوبي الدول الأجنبية يسعون عبثاً إلى وضع بلادهم تحت النير الروماني. ولم يحدث قط أن تركت حكومة ملكية مطلقة الناسَ أحراراً كما تركتهم حكومة پيوس، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة. حتى إن رينان كتب يقول بصددها: «يبدو أن العالم قد أدرك المثل الأعلى في نُظُم الحُكم. فقد سادت الحكمة والتعقّل، وكأن الذي حكم العالم [الروماني] لمدة ثلاثة وعشرين عاماً أبٌ رؤوف».

في سنّ الرابعة والسبعين، وقع أنطونيوس فريسة المرض الشديد. فاستدعى ابنه بالتبّني، ماركوس أورليوس، إلى فراشه وعهد إليه العناية بالشؤون الامبراطورية. وأسرّ إلى ضابط الخدمة في ذلك اليوم بكلمة السرّ: «aeguanimitas» (الاتزان). ثم أدار وجهه لساعته، كأنما يريد النوم، وأسلم

الروح عام 161م. وأقبلت جميع الطبقات والمدن تتبارى فيما بينها على تكريم ذكراه.

يقول رينان: «لو أن أنطونيوس لم يعيِّن ماركوس أورليوس خليفة من بعده، لما نافسه أحد قط في أنه خيرُ الملوك على الإطلاق». فلقد ورث ماركوس، على ما يبدو، كل فضائل سلفه، ناهيك عن الخصال الحميدة التي عزاها هو إلى «جدود طيبين، وآباء طيبين، وشقيقات طيبات(*) وأقارب طيبين». وشاء الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن، فجعل له زوجة مشكوكاً في وفائها وخُلقها، ومع ذلك لم يفته أن يشرِّفها؛ ووهبه ابناً عاقّاً للغاية، ومع ذلك لم يبخل عليه قط بحبه وحنانه. وهو يشكر كتبه لأنها لم تلزمه بدراسة المنطق والتنجيم، ولتحريرها عقله من الخرافات، ولأنها علّمته كيف يعيش حياة بسيطة تنسجم والطبيعة.

ارتدى وهو في الثانية عشرة من عمره رداء الفيلسوف، وأخذ ينام على قليل من القش المنثور على الأرض، وظل زمناً طويلاً يقاوم توسُّلات أمه له بأن ينام على فراش. لقد كان رواقياً قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، ويحمد ربّه: «أنّي احتفظت بزهرة شبابي، وأنّي لم أطمع في أن أكون رجلاً قبل أواني، بل أجّلت هذا أكثر مما كنتُ أحتاج إلى تأجيله... وأنه لم تكن لي علاقات جنسية البتة». ويُعرب عن امتنانه لأخيه سفيروس، لأنه أخذ عنه «فكرة الدولة التي يسري فيها قانون واحد على جميع الناس، والتي يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة، وبحرية الكلام؛ ولأنني أخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التي تحترم أكثر ما تحترم حرية المحكومين». ولمدة عهدين كاملين، استحوذت الفكرة الرواقية بصدد الحكومة الملكية على العرش. وقد وطّد العزم على أن يحكم اعتماداً على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون. ومنع عن نفسه أي شكل من أشكال التنعّم والرفاه. وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة، وأنهك نفسه فوق طاقتها بأن يسَّر للناس سهولة الوصول إليه. وسرعان ما هلّلت له الامبراطورية جمعاء إذ رأت فيه تجسيداً لحُلم أفلاطون: الفيلسوف وقد صار ملكاً.

شجّعت شهرته كفيلسوف البرابرة على محاولة الهجوم مرة أخرى عن الخط الروماني. وعبرت القبائل القاطنة شمالي الدانوب النهر في عام 167م،

(*) كانت له شقيقة واحدة بحسب معظم المراجع (المترجم).

وشنّت هجوماً مباغتاً على الفيالق الرومانية التي كان قد أضناها القتال واستنزف قواها الطاعون. فما كان من ماركوس إلا أن نحّى كتبه جانباً، ونظّم جيشاً جديداً بتجنيده رجال الشرطة والمصارعين وقطّاع الطرق والعبيد، ودرّبه على الانضباط وشدة البأس، وقاده بحنكة وبراعة استراتيجية في حملة عسكرية ضروس انتهت بإحرازه نصراً مؤزّراً، ثم عاد إلى روما ليواجه المشاكل المتعلقة بخلافته. كان يأمل في أن يمرّس ابنه كومّودس في الفلسفة والسياسة، لكن الفتى هرب من الدرس إلى المصارعة، وسرعان ما بزّ صحبه الطائشين في العنف والبذاءة.

في تلك الأثناء، كان الرومان الأصليون يتناقصون عدداً ويزدادون وهناً من جراء العُقم ودعة العيش، في حين كان البرابرة يتكاثرون بفعل الخصوبة وشظف العيش. وخلال السنوات السبع ما بين عامي 168 و 176 م، تتالت الهجمات على الامبراطورية في أكثر من موقع، من جانب التشاتي، والمركوماني، والموري (المغاربة)، والسرماتيين، والقوادي واليازيجي. فمنهم من اجتاح بلاد اليونان حتى وصل إلى مسافة 14 ميلاً من أثينا؛ ومنهم من غزا إسبانيا الرومانية؛ ومنهم من شقّ طريقه عبر جبال الألب، وهدّد البندقية وڤيرونا، وأتلف الحقول الغنية في شمال إيطاليا.

وكثيراً ما كان ماركوس يتعرّض في تلك الأعوام لأمراض معوية مؤلمة استعصت على كل تشخيص، ولم تنفع معها حتى أدوية جالينوس نفسه. فأخذ جسمه يزداد هزالاً، وتشعثت لحيته من قلة الاعتناء بها، وضعف بصره من الهمّ والأرق، والامبراطور المتوحّد في كل ذلك يولي ظهره لهمومه البيتية كي يعنى بشؤون الحرب التي ينفر منها بطبعه.

وفي خضم تلك الحملة العسكرية على امتداد الدانوب، وفي أثناء الفترات الفاصلة بين المعارك، شرع ماركوس بتأليف ذلك الكتاب الصغير الموسوم بـ «التأملات» (أو: الأفكار) باللغة اليونانية، إنما اختار له شخصياً عنوان: «إلى نفسه» (Ta eis heuton). وفيه أراد ماركوس أن يلخّص ما توصل إليه من استنتاجات حول الأشياء الأولى والأخيرة في الحياة. لقد أضاع الإيمان بالدين الرسمي الروماني ولم يعتنق بدلاً منه أي معتقد جديد آتٍ من الشرق. إلا أنه

لكثرة ما لاحظ من أمارات وأشكال النظام في الطبيعة، لم يشك لحظة في أن ثمة عقلاً غامضاً يتخلَّل الكون أجمع. عنده، كل شيء يُقرّره العقل الكوني العام، أي المنطق الكامن والمتأصل في مجموع الأشياء. وعلى كل جزء أن يرحِّب راضياً مبتهجاً بنصيبه المتواضع ومصيره المقدَّر له. و «الاتزان»، (وهو الذي أوصاه به أنطونيوس ساعة وفاته)، «هو أن تقبل طائعاً مختاراً كل ما تحدّده طبيعة المجموع لك»؛ «فكل ما يوائمني يوائمك، أيها الكون، ولا شيء يحدث في الوقت الذي يُناسبك، يحدث لي مبكراً عن موعده أو متأخراً عنه».

ويُسلِّم ماركوس مُكرهاً بأن في هذا العالم أشراراً. والطريقة التي يجب أن يتبعها الإنسان مع الأشرار هي أن يتذكّر أنهم هم أيضاً بشر، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التي ارتكبوها مدفوعين بجبرية الظروف. «وإذا ما أساء إليك إنسان، فالضرر واقع عليه... ومن واجبك أن تعفو عنه». تُرى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية؟ بالعكس، فما من شيء أقوى وأشدّ منعةً من الفطرة الطيبة، إذا كانت صادقة. إن الرجل الصالح حقاً محصّنٌ ضد نوائب الدهر؛ ومهما أصابه من شرّ، لا يمكنه أن يسلبه نفسه. الفلسفة ليست منطقاً أو تعليماً، بل هي فهمٌ وقبول.

أما في ما خصّ الموت، فعليك أن تقبله، هو الآخر، كأمر طبيعي وضروري:

«فكما أن تبدّل الأجسام وانحلالها يفسحان المجال لأجسام أخرى مقضيّ عليها بالموت، كذلك تتبدّل الأرواح التي تنتقل إلى الهواء وتتبدّد... لتتوزّع في عقل الكون الأصلي، وتخلي مكانها لأرواح جديدة... لقد وُجدتَ أنتَ بوصفك جزءاً من كل، وسوف تفنى في ذلك الذي أنتجك... وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة... فاجتزْ إذن هذا الحيّز القصير من الزمن حتى تصل إلى الطبيعة مرتاح البال، واختمْ رحلتك وأنتَ راضٍ. وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج، مُبَارِكةً الطبيعة التي أنتجتها، وشاكرةً الشجرة التي حملتها».

واجه ماركوس الموت غير آمل بالسعادة فيما وراء القبر، وغير واثق بالابن المنتظر منه أن يخلفه. ومع ذلك، واصل لستة أعوام طوال حملته العسكرية في الشمال، وأحرز فيها نجاحات باهرة، حتى إنه عندما عاد إلى روما في عام 176 م، أُعدّ له موكب نصر باعتباره منقذ الامبراطورية. إلا أنه لم ينخدع بمثل هذا النصر المبين، فقد كان يعلم أنه نصر مؤقت. فبعد مضي عامين فقط، تعيَّن عليه

أن يتصدى للسيل الجرماني من جديد. ووسط تلك الحملة، قضى نحبه عام 180م، بعدما تخلّى عن مبدأ التبنّي حبّاً بولده.

وأكمل كومّودس المسيرة، ليُدشِّن بعهده طور التدهور المديد للامبراطورية الرومانية. هذا في حين قبع المسيحيّون، وهم متوارون بين الجماهير، ينتظرون بصبر وجَلَد انتصار المسيح.

الفصل الثالث عشر

المسيح الإنسان

الينابيع

هل وُجد المسيح حقاً؟ وهل الأناجيل الثلاثة الأولى من «العهد الجديد» مجرد نقل محبَّب لأسطورة من الأساطير؟

في زمن مبكر من القرن الثامن عشر، أثار الفيكونت بولينغبروك ذهول ڤولتير بتلميحه إلى إمكانية أن لا يكون للمسيح وجود بالمرة. وجهر ڤولني بهذا الشك الذي يساوره في كتابه «خرائب امبراطورية» الذي أصدره في عام 1791. ولما التقى نابليون بالعالِم الألماني ڤيلاند في عام 1808، لم يطرح عليه أي سؤال يتعلق بالسياسة أو الحرب، بل سأله ببساطة إنْ كان يؤمن حقاً بتاريخية المسيح؟ واعتباراً من عام 1840، بدأ المؤرِّخ الألماني فردیناند كريستيان باور بنشر سلسلة من المجلدات المثيرة للجدل، تهدف إلى رسم صورة للمسيح بوصفه أسطورة شبيهة بأساطير أوزيريس وديونيزوس وميتراس.

لا أعرف عالِماً واحداً يتمتع بمكانة علمية معترفٍ بها، ما زال يأخذ بمثل هذه الآراء. وإنْ كان من المتفق عليه بوجه عام، أن العديد من القصص التي تتناول آلهة وثنية ـ كقصة الحكماء الثلاثة مثلاً ـ قد أضافها المأثور الشعبي، من

دون موافقة الكنيسة طبعاً، إلى المرويات على لسان كل من متّى ومرقص ولوقا. فإنجيل القديس مرقص الذي تمّ تحديد تاريخ وضعه الآن ما بين عامي 65 و 70م، كان قيد التداول في وقت كان فيه بعض الرُّسُل أحياء يُرزقون، وكان بإمكانهم أن ينقضوه أو يدحضوه. ومن غير المرجّح أن يعمد القديس بولس إلى التبشير بديانة المسيح لو أنه شكّ في أي وقت بوجود المبشِّر المصلوب الذي كرّس الرُّسُل والحواريون حياتهم له. وأنْ يخترع بضعة أنفار في غضون سنوات معدودات شخصيةً على هذه الدرجة من القوة والجاذبية كشخصية يسوع المسيح، ليُعدّ في نظري عملاً إعجازياً أدعى إلى عدم التصديق من كل ما جاءت به الأناجيل. زدْ على ذلك، أن الخطوط العامّة لحياة المسيح ومعالم شخصيته وتعاليمه، ما زالت بعد قرنين من النقد الشديد، جليّة واضحة بدرجة معقولة جداً، وتشكّل أبرز ملامح صورة الإنسان الغربي وأشدها سحراً للألباب.

ابن الإنسان

لا بد للمرء من أن يحاول تلمّس مكان ميلاد المسيح وزمانه، وعلاقة أرضه وقومه بالامبراطورية الرومانية الباسطة جناحها عليهما، وتحسّس مرارة الأمة المقهورة وتراثها المفتخر من الدين والقانون والأدب والفلسفة، وتطلّعها التوّاق إلى التحرير، وحُلمها في ملكوتٍ آتٍ ملؤه الحرية والعدالة والمجد. وقد فعلت كل هذه العوامل فعلها في روح جد حسّاسة ومتفهّمة، وكانت النتيجة: تكوين ابن النجّار والمضي به إلى الصليب.

ومن دُعابات التاريخ أن المسيح وُلد في العام الثالث أو الرابع «قبل المسيح»، أي قبل وفاة الملك هيرودس العظيم، الذي توفاه الأجل في العام الرابع بعد الميلاد بحسب إنجيل متّى (15:2). وقد أبصر النور في بيت لحم من أعمال اليهودا؛ وبعضهم يقول: في الناصرة من أعمال الجليل. والإنجيل نفسه يذكر أن أسلافه يتحدرون من الملك داود، وصولاً إلى «يوسف زوج مارية» (مريم). وهذا ما يتطابق تمام التطابق مع الاعتقاد اليهودي بأن المسيح، الذي سيُخلّص إسرائيل ويعيد إليها مجدها سيكون من نسل داود. لكن متّى يستدرك على الفور: و «لما كانت مريم أُمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وُجدت حُبلى من الروح

القدس» (متى، 18:1). ويُدلي إنجيل لوقا بدلوه، ليرتقي بالمعجزة إلى مرتبة الأدب العظيم: «فدخل إليها الملاك جبرائيل وقال: سلام لك أيتها المُنْعَم عليها. الربّ معك. مُباركةٌ أنت في النساء». ولما سمعت قريبتها أليصابات منها ذلك، هتفت: «ومُباركةٌ هي ثمرة بطنك».. هذه الكلمات التي ستغدو أجمل ترنيمة تتردد في الصلوات الكاثوليكية. فأجابت مريم بتلك التسبيحة المهيبة التي كانت وستبقى مصدر إلهام لعدد كبير من المؤلّفات الموسيقية الرائعة: «تُعظِّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلِّصي. لأنه نظر إلى اتضاع أَمَتِه. فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تُطوِّبني».

إنني أفكر بالترانيم البديعة التي وضعتها العصور الوسطى عن مريم، والأناشيد المليئة بالفرح التي اُعتدتُ أن أرددها في صباي. لقد كانت مريم أول حبّ في حياتي. وأن تكون هذه الامرأة موضع تخيّل وعبادة على هذا النطاق؛ وأن تُشاد آلاف المعابد على شرفها وتكريماً لها، فهو لعمري معلمٌ من معالم تحرّر الجنس البشري وخلاصه. على أية حال، ليس هناك الكثير مما يُمكن قوله بشأن الرياضات السخيفة التي يلجأ الناس إليها لتوليد الروح هذه الأيام!

يبدو أن يسوع كان ينتمي إلى أُسرة كبيرة. وشاهِدُنا على ذلك أن جيرانه تحدثوا عن «إخوته يعقوب، ويوسي (يوسف)، وسمعان ويهوذا» (متّى، 55:13). ومن المفترض أنه قد مارس مهنة أبيه المحبّبة إليه، ألا وهي النجارة. غير أنه لا بد وأن يكون قد أُخذ بما في الريف من جمال طبيعي، كونه تحدّث لاحقاً بحساسية فائقة عن رقّة الأزهار وألوانها، وعن إثمار الأشجار في هدوء وسكون.

وليست قصة مُساءلته للعالِمِين في الهيكل مما لا يقبله العقل. فقد كان ذا عقل يقظ وفضولي؛ والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في الشرق الأدنى، قارب أن يبلغ سن النضوج. كان يتردد على الكنيس، ويستمع إلى تلاوة «الكتاب المقدس» بحبور ظاهر. وقد اُنطبع عميقاً في ذاكرته ما ورد في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص، وكان لها أثر كبير في تكوينه. ولعله قرأ أيضاً سِفري دانيال وأخنوخ، لأننا نجد تعاليمه المتأخّرة حافلة بالرؤى عن المسيح المنتظر، ويوم الدينونة، وملكوت الرب.

حتى الهواء الذي يتنفسه، كان مشحوناً بالحماسة الدينية. إذ كان آلاف

اليهود ينتظرون على أحرّ من الجمر مجيء «مخلّص إسرائيل». وكان السحر والشعوذة، الشياطين والملائكة، «حلول» والأرواح الشريرة في أجساد الآدميين و «طردها» منها، والمعجزات والنبوءات، والكهانة والتنجيم... كانت كل هذه أموراً مُسلَّماً بها في كل مكان. وكان السحرة ـ صانعو الأعاجيب ـ يطوفون بالمدن. وربما عرف يسوع شيئاً عن الأسينيين وعن حياتهم الشبيهة بحياة الزهد، وذلك في خلال السفرة السنوية التي كان يقوم بها الصالحون من يهود فلسطين إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح. وقد يكون الملك الهندي أشوكا أرسل بعثات تبشيرية بوذية، فوصل بعضها إلى فلسطين. ولكن الذي أثار حميَّته الدينية هو عظات يوحنا، ابن أليصابات، قريبة مريم.

يصف مرقص ومتّى يوحنا بأنه شخص يرتدي ثوباً من الشَعر، ويعيش على أكل الجراد الجاف وعسل النحل، ويقف بجوار نهر الأردن، داعياً الناس إلى التوبة، ويقوم بتعميد التائبين التوّاقين إلى الإحياء الروحي. كان يحذِّر الخُطاة أن يستعدوا ليوم الدينونة، ويُعلن عن قرب حلول ملكوت الرب. وإذا ما تابت اليهودا وتطهّرت من الخطيئة، فلسوف يجيء المسيح المنتظر ويحل الملكوت على الفور.

ولما سُجن يوحنا المعمدان، أخذ يسوع (عيسى) يقوم بعمله، وبدأ يخطب في الناس مبشِّراً بحلول ملكوت الرب. يقول لوقا إنه «عاد إلى الجليل، وعلَّم في الكُنُس» أنّ «روح الربّ عليّ لأن الربّ مسحني لأبشِّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق» (إشعيا، 2-1:56). ويضيف لوقا: «وجميع من كانوا في الكنيس تسمَّرت عيونهم عليه... فابتدأ الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من شفتيه» (إشعيا، 19:4)(*).

لكن الكلمات لم تكن دائماً طيبة وسائغة. فقد قبل يسوع ونادى ببعض المعتقدات الفظّة والعنيفة التي كانت آخذة بالشيوع بين أبناء قومه. فتحدَّث عن الخُطاة الماضين إلى «جهنم، إلى النار التي لا تُطفأ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطفأ» (مرقص، 9:43-44). وفي الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متّى، تحدث

(*) هذا المقطع هو من إنجيل لوقا (19:4)، وإنْ كان المؤلِّف قد أضافه إلى الآيات السابقة من سِفر إشعيا (المترجم).

يسوع عن يوم الدينونة، يوم يُرْسِل ابن الإنسان (يقصد به: المسيح) ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم. ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يُضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (متّى، 13:41-43).

كان يسوع يقول، من غير أن يحتجّ عليه أحد، إن رجلاً فقيراً في الجنة لا يُسمح له بأن يترك قطرة ماء واحدة تسقط على لسان رجل غني في جهنم (لوقا، 25:16). ولعلّه كان يشعر، شأنه شأن أتباعه، بأنه لا غنى عن قدر معيَّن من التشدّد والترهيب في التبشير لعالم مدمن على العنف والزنا والجشع. والجانب الأبرز في شخصيته ظهر للعيان عندما قدّم إليه بعض الفريسيين (شيوخ محافظون) امرأة ضُبطت في حالة الزنا. فقال لهم: «من منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر» (يوحنا، 7:8).

وتخبرنا الروايات عن أنه كان محبوباً جداً من الناس، ولاسيما النساء اللواتي كن يجدن عنده شيئاً من العطف والحنان الذي يبعث فيهن حُبّاً عامراً تفيض به قلوبهن. فلا عجب أن نقرأ عن العاهرة التي هزّتها سرعة قبوله توبة الخُطاة، فخرَّت راكعة بين يديه، ودهنت قدميه بالطيب الثمين، وغسلتهما بدموعها وجفَّفتهما بشعرها. وحين احتجّ بعض الحاضرين، أجابهم يسوع: «قد غُفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبَّت كثيراً» (لوقا، 7:37-38، 47).

وأكبر الظن أن معظم المعجزات المنسوبة إليه كانت تحدث في أكثر الحالات بقوة الإيحاء، أي بتأثير روح قوية، واثقة من نفسها، في روح أخرى لديها قابلية للتأثر. وثمة ظواهر مشابهة يُمكن للمرء أن يشاهدها في مزار سيدة لورد(*). كان وجوده وإيمانه في حد ذاتهما عقاراً مقوِّياً. فكانت لمسته المتفائلة تشفي المريض وتقوّي الضعيف. وإنه لمن الصعب أن نرسم حدوداً معيّنة للقوى الكامنة في فكر وإرادة إنسان قوي الشكيمة وعميق الإيمان، رجلاً كان أم امرأة.

(*) من أشهر المزارات المعروفة في العالم. موجود في مدينة «لورد» الفرنسية التي يُقال إن مريم العذراء ظهرت فيها للقديسة برناديت. ويؤمّ المزار سنوياً أعداد غفيرة من المرضى والمقعدين طلباً للشفاء (المترجم).

«الأخبار السارّة»

وماذا عن الإنجيل (Gospel) ـ ويعني بالانكليزية: «الأخبار السارّة» ـ الذي جاء به يسوع المسيح إلى شعبه؟ كانت بداية تعاليمه إنجيل يوحنا المعمدان. وهذا الإنجيل بالذات يرجع إلى دانيال وأخنوخ. إذ «ليس في التاريخ طفرات»(*). ومن أقواله أن ملكوت الربّ بات قريب المنال؛ وأن الله سيقضي عما قريب على عهد الشرّ والخبائث؛ وأن ابن الإنسان (وهذا ما كان يُسمّي نفسه) سيأتي «على سحب السماء» ليُحاسب جميع البشر، الأحياء منهم والأموات. وأن الوقت الذي يجب أن يتوب فيه الإنسان عن خطاياه يمر مسرعاً. فأما من تاب وسلك سبيل العدل، وأحب الله، وآمن برسوله، فإنه «سيرث ملكوت الربّ، ويصعد إلى القوة والمجد في عالم قد تحرّر أخيراً من جميع الشرور والآلام والموت.

لم يحدد المسيح تحديداً واضحاً هذه الأفكار، وثمة صعاب جمّة مازالت تلفّ هذه الأفكار بالكثير من الغموض. تُرى ماذا كان يعني بـ «ملكوت الربّ» أهو سماء خارجة عن مألوف الطبيعة؟ يُخيَّل إلينا أنها ليست كذلك، لأن الرُسُل والمسيحيين الأوائل كانوا ينتظرون بالإجماع مملكة دنيوية على الأرض. وكانت هذه هي الرواية اليهودية التي ورثها عنهم المسيح، ولذلك كان يعلِّم أتباعه أن يصلّوا إلى الأب قائلين: «ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض». وليس إلا بعد أن خبا هذا الأمل، أن أنطق إنجيل يوحنا المسيحَ بقوله: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا، 36:18). فهل كان يتحدث عن حالة روحية أو عن طوبى مادية؟ كان المسيح يتحدث في بعض الأحيان عن الملكوت بوصفه حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرَّؤون من الخطايا كقوله: «ملكوت الله داخلكم» (لوقا، 21:17). وفي أحيان أخرى، كان يصوِّره كمجتمع سعيد في مستقبل الأيام، حكامه هم الرُسُل، ويأخذ من أعطى أو أُوذي في سبيل المسيح مئة ضعف (متّى، 29:19).

وفسَّر كثيرون ملكوت الرب على أنه طوبى شيوعية، ورأوا في المسيح ثائراً اجتماعياً. وإننا لنرى في الأناجيل بعض الشواهد التي تؤيد وجهة النظر

(*) باللاتينية في النص: "historia non facit saltum".

هذه. فالمسيح يتوعّد الغني والمتخوم بالجوع والشقاء، ويواسي الفقير بالتطويبات التي ضمن له بها ملكوت الربّ. ولما سأله شاب غني عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا، قال له المسيح: «بعْ أملاكك، وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء و... اتبعني» (متّى، 15:19). ويبدو أن الرُّسُل كانوا يفسّرون الملكوت بأنه انقلاب ثوري في العلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء. فلا عجب أن نراهم والمسيحيين الأوائل يؤلّفون عصبة شيوعية: «وكان عندهم كل شيء مشتركاً» (أعمال الرُّسُل، 2:44-45).

ولكن بمقدور الإنسان المحافظ أن يجد في «العهد الجديد» مقتطفات تخدم أغراضه. منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقاً له. ومتّى هو الذي بقي، شأنه دائماً، عميلاً للسلطة الرومانية. ومنها أنه لم ينتقد قط الحكومة المدنية، ولم يكن له، فيما نعلم، أي دور في الحركة اليهودية العاملة من أجل التحرُّر القومي، وأنه كان ينصح باعتماد الكياسة الإذعانية البعيدة كل البُعد عن الثورة السياسية. وهو الذي نصح الفريسيين بأن يعطوا «ما لقيصر لقيصر وما لله لله». ويبدو أن المسيح يُقرّ ما فعله العبد الذي استثمر عشر ميناسات (نحو من 600 دولار) كان قد عهد بها إليه سيده، فصارت عشرين ميناساً أو أزيد؛ بينما لا يُقرّ عمل العبد الذي عُهد إليه بميناس واحد، فحبسه ولم يستثمره إلى أن يعود سيده من غيبته، ويُنطق هذا العبدَ بتلك العبارة القاسية: «إن كل من له يُعطى، ومن ليس له فالذي عنده يُؤخذ منه» (لوقا، 26:19).. وهي خير ما تُلخّص به عمليات السوق، إن لم نقل تاريخ العالم.

هذا ولم يهاجم المسيح قط المؤسّسات الاقتصادية القائمة في زمانه، بل فعل العكس إذ هاجم ذوي النفوس الثائرة، ممن يغتصبون ملكوت السموات: «والغاصبون يختطفونه» (متّى، 12:11). أما الثورة التي كان يفكّر فيها، فهي ثورة إذا لم تحدث، كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال. فإذا استطاع أن يطهّر قلوب الناس من الشهوات الأنانية، ومن القسوة والفجور، فإن الطوبى ستحلّ من تلقاء نفسها. ولما كانت هذه أعمق الثورات، التي إذا ما قيست بها الثورات جميعها، كانت مجرد انقلاب طبقة على طبقة أخرى، تحلّ محلها وتستغلّ الناس بدورها. وبهذا المعنى الروحي، كان المسيح أعظم الثائرين في التاريخ.

إن إنجازه الأبرز لا يكمن في تبشيره بدولة جديدة، بل في وضعه الخطوط العريضة لمبادىء أخلاقية جديدة. وكانت تلك المبادىء الأخلاقية هي التي تنبأ بقيامها عندما يحلّ ملكوت الربّ، وكان القصد منها أن يكون الناس جديرين بالدخول في هذا الملكوت. ومن هنا كانت تلك «التطوييات» وما تنطوي عليه من تمجيد لم يسبق له مثيل للوداعة والرقّة والسلام، ونصيحته بأن يدير الإنسان خدَّه الثاني (إذا ضُرب على خدِّه الأول). ومن هنا أيضاً لامبالاته بالأمور الاقتصادية، وبشؤون المِلْكية والحكومة، وتفضيله العزوبة على الزواج، وأمره الناس بأن يتخلّوا عن جميع الروابط العائلية. إن القواعد التي روَّج المسيح لها ليست بقواعد للحياة العادية، بل هي نذلام شبه زهدي تنسُّكي، يهيّىء الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة وشيكة النشوء، لن تكون فيها شريعة، ولا زواج، ولا علاقات جنسية، ولا أملاك ولا حرب. فهل كانت هذه المبادىء الأخلاقية جديدة حقاً؟ ليس ثمة شيء جديد فيها إلاّ الترتيب؛ كما أن الفكرة الرئيسية التي تتمحور حولها عظات المسيح - فكرة يوم الدينونة وملكوت الربّ - لهي من الأفكار التي كانت موجودة عند اليهود قبل ذلك بقرن من الزمن. فلقد نادت الشريعة الموسوية بأخوّة البشر قبل المسيح بوقت طويل. فقد جاء في سِفر اللاويين: «بل تحب قريبك كنفسك»؟ و «كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك» (سفر اللاويين، 17:19-18، 14). كذلك فإن الأنبياء كانوا قد نزّلوا هم أيضاً الحياة الصالحة منزلة أعلى من سائر الطقوس والشعائر كافة. وكان إشعيا وهوشع قد شرعا بتحويل «يهوه» من ربّ للجنود إلى إله للحب. وكان هيلّل(*)، على نسق كونفوشيوس، قد صاغ القاعدة الذهبية. وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادىء الأخلاقية التي كانت سائدة بين قومه، وأفاد منها.

ظل المسيح زمناً طويلاً لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود، يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل رسالتهم، ويعظ مثلهم، فلا يخطب إلاّ في اليهود. ولما أرسل أتباعه ومريديه لكي ينشروا إنجيله، لم يُرسلهم إلا إلى المدن اليهودية: «إلى

(*) هيلّل: مفكّر وفقيه يهودي (30 ق.م. 10 ب.م). يُعتبر المعلّم اليهودي الأبرز في عهد هيرودس. وضع القواعد لتفسير الشريعة اليهودية. ومن أقواله التي سبق بها تعاليم السيد المسيح: «لا تفعل لجارك ما تكرهه لنفسك» (المترجم).

طريق أمم لا تمضوا» (متّى، 5:10)، لأن من شأن ذلك أن يثير مشكلة الشريعة الموسوية: «ما جئت لانقض بل لأكمّل» (متّى، 17:5). وقال للأبرص الذي شفاه من علّته: «اذهب وأرِ نفسكَ للكاهن... وقدّم القربان الذي أمر به موسى» (متّى، 4:8). ومع ذلك، فقد اقترح يسوع إدخال بعض التعديلات على الشريعة (اليهودية). فرأيناه يزيدها صرامةً في مسائل الجنس والطلاق، لكنه يسّرها بمزيد من الاستعداد للعفو والغفران. وذكّر الفريسيين أن السبت قد استُنّ لخير الإنسان، وليس العكس. وخفَّف من الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة، وحذف بعض أنواع الصيام. ومدَّد بالجهر بالصلوات، والتظاهر بالصدقات، والمواكب الطنّانة للجنازات.

قاوم اليهودُ على اختلاف شيعهم إصلاحاته هذه، ما عدا الأسينيين. وكان الذي أثار حنقهم بنوع خاص ما ادّعاه يسوع لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدّث باسم الربّ. وقد هالهم أن يروه يتصادق مع نساء من ذوات السمعة السيِّئة. وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين(*) يرون في تنامي حجم أتباعه ما يخفي في طياته ثورة سياسية ضد روما. وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الروماني بإهمال مسؤولياتهم في المحافظة على النظام الاجتماعي. وهذا ما دفع المسيح إلى التنديد بهم تنديداً شديداً:

«ويل لكم أيها الكتبة والفرّيسيون المراؤون... أيها القادة العميان... أيها الجهّال العميان!... إنكم تشبهون قبوراً مبيّضة!... تظهرون للنفس أبراراً ولكنكم من داخلٍ مشحونون رياءً ونفاقاً... إنكم أبناء قتلة الأنبياء... أيها الحيّات! يا أولاد الأفاعي! كيف تهربون من دينونة جهنم؟ إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله» (متّى، 1:23-34؛ 31:21).

ووقعت الأزمة الأخيرة حين بدأ الحواريون (الرُّسُل) يُعلنون جهاراً أن يسوع هو المسيح المنتظر الذي سيرفع نير الرومان عن إسرائيل، ويبسط حُكم الله على الأرض. ولمّا اقترب من أورشليم في آخر يوم اثنين قبل موته ليحمل

(*) محكمة يهودية قانونية ودينية كانت قائمة في أورشليم القديمة. وثمة من يعتقد أنه كان هناك محكمتان للسنهدرين: واحدة سياسية ومدنية، والأخرى دينية خالصة (المترجم).

إنجيله من القرى إلى العاصمة، «حيّاه جمهور التلاميذ قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الرب». ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه، ردّ قائلاً: «إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ» (لوقا، 37:19). وقد جاء في إنجيل يوحنا أن الجماهير حيَّت يسوع على أنه «ملك إسرائيل». والظاهر أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه «مسيح سياسي» سيقضي على السلطة الرومانية ويحرّر اليهودا.

وربما كانت هذه التحدّيات والتهليلات هي التي قضت على المسيح، بطريق الخطأ، أن يموت ميتة الثوّار.

الموت والتجلّي

اقترب عيد الفصح، واجتمع في أورشليم أعداد كبيرة من اليهود ليقدّموا القرابين في الهيكل. كانت الساحة الخارجية للهيكل تضجّ بأصوات الباعة ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الأضاحي، والصيارفة يعرضون النقود المتداولة محلياً بدل نقود الوثنيين المتداولة في أقاليم الامبراطورية الرومانية.

ولما زار يسوع الهيكل في اليوم التالي لدخوله المدينة، هاله ما كان يجري تحت المظلاّت من ضجيج وتبادلات تجارية. فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وباعة الحمام، وبعثرة نقودهم على الأرض، وإخراج التجّار من الساحة «بضرب العصي».

وظل يسوع عدة أيام بعد مجيئه يعلّم في الهيكل من دون أن يتعرّض له أحد. ولكنه كان يخرج من أورشليم ليلاً ويبيت في جبل الزيتون، خشية من الاعتقال أو الاغتيال. وكان عملاء الحكومة ـ المدنيون منهم والدينيون، الرومان واليهود ـ قد بدأوا يراقبونه منذ أمد طويل. غير أن عجزه عن استقطاب جمهور غفير من الأتباع جعلهم يُهملون أمره لبعض الوقت. لكن يبدو أن الاستقبال الحماسي الذي لاقاه في أورشليم قد أثار حفيظة زعماء اليهود، فباتوا يخشون أن تلتهب هذه الجماعات التي اجتمعت لعيد الفصح حماسةً، فتدفعها عواطفها الجامحة إلى الثورة على السلطة الرومانية، ثورة طائشة عقيمة لم يحِن موعدها بعد، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تتمتع به اليهودا من حُكم ذاتي وحرية دينية. ومن أجل ذلك، دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى اجتماع قال فيه: «إنه

خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها» (يوحنا، 15:15). فوافقته أغلبية الحاضرين على رأيه، وأمر المجلس بإلقاء القبض على يسوع.

ويبدو أن نبأ هذا القرار قد وصل إلى مسامع يسوع. وفي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري (13 أبريل/نيسان عندنا) من العام الثلاثين على الأرجح، تناول المسيح وحواريوه «السدر»، أو عشاء عيد الفصح، في دار صديق له في أورشليم. وكانوا ينتظرون أنّ ينجي المعلم نفسه بما يملكه من قدرة على اجتراح المعجزات، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، ورضي بما قُدِّر له. وبحسب الطقوس اليهودية، بارك يسوع الخمر الذي قدّمه للرُّسُل ليشربوه، ثم أنشدوا معاً أنشودة «هاليل» اليهودية. ويقول يوحنا إنه قال لهم: «يا أولادي أنا معكم زمناً قليلاً بعدُ... وصية جديدة أنا أُعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً... لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً» (يوحنا، 33:13؛ 1:14-2).

ويُقال إن الجماعة الصغيرة هذه اختبأت في تلك الليلة في حديقة الجثمانية خارج أورشليم. وفيها عثرت سرية من شرطة الهيكل على أفرادها وقبضت على يسوع. سيق يسوع أولاً إلى بيت أناس، أحد كبار الكهنة السابقين، ثم نُقل إلى بيت كبير الأحبار قيافا، حيث كان مجلسٌ ـ وربما لجنة من السنهدرين ـ ملتئماً. وشهد ضده شهود كثيرون، وذكروا بنوع خاص تهديده بتدمير الهيكل. ولما سأله قيافا ما إذا كان هو «المسيح ابن الله»، أجابه يسوع، كما تقول الرواية: «أنا هو» (مرقص، 61:14؛ متّى، 63:26). وفي صباح اليوم التالي، اجتمع السنهدرين ووجدوه مذنباً بتهمة التجديف (وكان عقابها الإعدام في ذلك الوقت)، وقرّروا إحالته على الحاكم الروماني.

لم يبدُ لبيلاطس البنطي حينذاك أن هذا الواعظ الوديع يُشكّل خطراً حقيقياً على الدولة. فسأله: «أأنت ملك اليهود؟». فأجاب يسوع، حسب رواية متّى، بقوله: «نعم»(*). ويذكر الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) أن يسوع أضاف: «لهذا قد ولدتُ أنا... لأشهد للحق». وسأله بيلاطس: «ما هو الحق؟»، وهو سؤال يدلّ بأجلى بيان

(*) بالنص: "su eipas"، أي «أنت قُلتها» (المترجم).

على ما هنالك من فروق بين ثقافة الرومان الكلبية ومثالية اليهودي الصريحة. إذ ذاك حكم عليه پيلاطس على كره منه بالإعدام.

كان الصلب من طُرُق العقاب الرومانية لا اليهودية، وكان الجلد يسبقه عادةً. فإذا ما جُلد المذنب بقسوة، صار بدنه كتلة من اللحم المتورِّم المدمّى. وضع الجنود الرومان إكليلاً من الشوك على رأس المسيح، ساخرين من تلقيبه بـ «ملك اليهود». كما وضعوا رقعة على صليبه نُقش عليها باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية العبارة التالية: «يسوع الناصري ملك اليهود»(*).

وسواء أكان المسيح من دُعاة الثورة أم لا، فليس ثمة ريب في أن روما قد حكمت عليه بوصفه داعية للثورة. كذلك فهم تاسيتوس الأمر على هذا النحو (الحوليات، 44/15). وكان لفيف من الناس لا يزيد عددهم على ما يتسع له فناء قصر پيلاطس قد طالبوا بإعدام المسيح. لكن ما أن أخذ (يسوع) يصعد تل الجمجمة (الجلجلة)، حتى «تبعه جمهور كبير من الشعب» على حد قول لوقا، وكذلك النساء اللواتي كنّ يلطمن صدورهن أسىً وحرقة. وما من شك في أن هذا الحُكم لم يرق لليهود ككل.

وعند «الساعة الثالثة»، أي في الساعة التاسعة صباحاً، رُفع الصليب بحسب ما تقول الرواية. وأفاد مرقص أن لصّين صُلبا مع يسوع، وأنهما كانا يسبّانه. بينما يؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له. ولم يكن حاضراً من الرُّسُل جميعاً إلا يوحنا فقط. كما كانت معه ثلاث نساء يدعين مريم: مريم أم المسيح، ومريم أختها، ومريم المجدلية، «وكانت أيضاً نساءٌ ينظرن من بعيد» (يوحنا، 25:19؛ مرقص، 37:15). وكان الجنود يقتسمون فيما بينهم ثياب الموتى كعادة الرومان. ولمّا لم يكن للمسيح إلاّ ثوب واحد، فإنهم راحوا يلقون القرعة ليروا من منهم سيأخذ الثوب. ولعلّنا نتذكر هنا فحوى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثاني والعشرين التي تنسب إلى المسيح قوله: «يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون». والمزمور ذاته يبتدىء بهذه الكلمات: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». وتلك هي صيحة اليأس البشري التي يعزوها مرقص ومتّى إلى

(*) باللاتينية في النصّ: "Iesus Nazarathaeus Rex Ioudaerum".

المسيح وهو يحتضر على الصليب. فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذي أعانه في وقفته أمام پيلاطس قد خبا في تلك اللحظات المريرة إلى شك فاجع؟

وأشفق جندي على المسيح الظمآن، فجاء بإسفنجة مغموسة في الخلّ وقرّبها من فمه. شرب يسوع الخلّ، وقيل إنه تمتم: «لقد اكتمل». وفي «الساعة التاسعة»، أي الثالثة بعد الظهر، صاح يسوع صيحة عالية ثم أسلم الروح. ويضيف إنجيل لوقا هنا: «وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر... رجعوا وهم يقرعون صدورهم». واستطاع اثنان من اليهود الرحماء ذوي النفوذ أن يحصلا على إذن من پيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب، فأنزلاها وواراياها الثرى.

كان اللصّان اللذان صُلبا معه لا يزالان على قيد الحياة. وكان ضحايا الصلب يعانون الأمرّين قبل أن يلفظوا أنفاسهم. ولكي يضعوا حداً لكربهم هذا، كسر الجنود سيقان المصلوبَيْن مع المسيح حتى تتحمل أيديهم ثقل جسميهما، فيؤثر ذلك في نبض القلب فيتوقف بعد قليل. وأبدى پيلاطس دهشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه. ولم يوافق على رفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعد أن أكّد له «قائد المئة» المكلّف بالعملية أنه قد مات فعلاً.

وبعد يومين من مواراة الجثمان التراب، زارت مريم المجدلية القبر برفقة «مريم أم يعقوب» (أحد الحواريين)، فوجدتاه فارغاً. فامتلأ قلباهما خوفاً وسروراً معاً. وجرتا لتنقلا ذلك النبأ إلى تلاميذه. وفي الطريق التقتا برجل حسبتاه يسوع، فانحنتا له احتراماً، وأمسكتا بقدميه. ويروي الرواة أن المسيح ظهر في ذلك اليوم نفسه لتلميذين من تلاميذه، في الطريق المؤدي إلى عمواس، وتحدث إليهما، وأكل معهما، ولكن «أُمسكت أعينهما عن معرفته» وقتاً طويلاً؛ ثم حين «أخذ خبزاً وبارك وكسر... انفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما» (لوقا، 14:13-32).

ورجع التلاميذ إلى الجليل، فلما «رأوه» بعد قليل، «سجدوا له، ولكن بعضهم شكّوا». وجاء في سِفر أعمال الرُسُل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوماً من ظهوره لمريم المجدلية. وكانت فكرة «انتقال» القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة والمألوفة لدى اليهود، فقد رووها

عن موسى، وأخنوخ، وإليشع وإشعيا. وهكذا اختفى «المعلّم» على نحو غامض بنفس الطريقة التي ظهر بها. لكن معظم تلاميذه كانوا مقتنعين بصدقٍ أنه كان موجوداً بجسمه معهم بعد صلبه.

وفي ذلك يقول إنجيل لوقا: «ورجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيم، وكانوا كل حين في الهيكل يسبّحون ويباركون الله» (لوقا، 53:24).

الفصل الرابع عشر

نشوء الكنيسة وتطورها

أبدت السلطات اليهودية لفترة من الزمن تسامحاً مع تلك الشيعة الدينية الصغيرة وغير المؤذية. لكن ما إن تضاعف عدد «النصارى»(*) في غضون بضع سنوات من 120 نفراً إلى زهاء 8,000، حتى تنبّه الكهنة إلى الخطر الداهم ودبّ الذعر في نفوسهم.

أُلقي القبض على بطرس وآخرين وأُستجوبوا من قبل السنهدرين، وقد جُلد بعضهم، لكن أُطلق سراحهم جميعاً في وقت لاحق. وبعد مضي سنة على تلك الحادثة (نحو 30 م؟). استُدعي أسطفان، وهو أحد الحواريين، للمثول أمام السنهدرين، ووُجهت إليه تهمة «القذف بحق موسى والله». فدافع عن نفسه دفاعاً قوياً أثار حنق الكهنة، ودفعهم إلى الحُكم عليه بالرجم حتى الموت. واعتُقل بطرس للمرة الثانية في عام 41 م. لكنه تمكّن من الهرب.

ثار اليهود على الرومان في عام 65 م، غير أن اليهود «المسيحيين»، غير المعنيين بأمور السياسة، انكفأوا إلى بِلاّ، على الضفة الشرقية لنهر الأردن. فكان أن اتهم اليهودُ «المسيحيين» بالجبن والخيانة، وهلّل المسيحيون لتدمير الهيكل عام 70 م، باعتباره تحققاً لنبوءات يسوع المسيح. فاشتعل الحقد

(*) كانوا يُسمّون أيضاً: «الناصريين»، نسبةً إلى مدينة الناصرة بفلسطين (المترجم).

المتبادل بين الديانتين. وهذا الحقد نفسه كان وراء إنتاج بعضٍ من أجود أدبياتهما على الإطلاق.

مضى بطرس قُدماً يُبشِّر بالدين الجديد في أرجاء سورية، ثم اتجه غرباً حتى وصل إلى روما، حيث أقام فيها «كُرسي بطرس»، وأصبح أول البابوات، إنما ليلقى مصيره، هو الآخر، على الصليب عام 64 م، في خضم حملات نيرون الاضطهادية. وفي المأثور الكاثوليكي أن «بازيليك القديس بطرس» الشهيرة قد بُنيت عند الموضع الذي استُشهد فيه بطرس، وأن المذبح الضخم والمهيب داخل البازيليك يقوم فوق مثوى عظامه بالضبط.

وإذا كان بطرس هو الذي أسَّس الكنيسة، فإن بولس هو الذي أسَّس العقيدة. وُلِد بولس في طرسوس، المدينة المُهلينة من أعمال كليكيا، المستعمرة الرومانية في آسيا الصغرى. وقد أسماه أبوه: شاول، وأورثه ميزتين يُفتخر بهما: أن يكون المرء واحداً من كبار الفريسيين، ومواطناً رومانياً في وقت واحد. أُرسل إلى أورشليم ليتلقى تعليماً يهودياً عالياً، ويُقال إن بولس (هكذا كان يسمّيه الرومان) أيّد السنهدرين في تجريمهم اسطفان، كما قصد دمشق بغية اجتثاث جذور الجالية المسيحية فيها. ولعلكم تعرفون بقية القصة: ففيما هو في الطريق، أُصيب بالسكتة الدماغية، ربما من شدّة الحر ووهج شمس الصحراء. فسقط على الأرض فاقداً بصره، وخُيِّل إليه أنه سمع صوتاً يناديه: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» فاقتيد إلى المدينة وبقي ثلاثة أيام لا يُبصر، «فلم يأكل ولم يشرب». ثم جاءه رجلٌ اهتدى حديثاً(*):

> «ووضع يده وقال: أيها الأخ شاول، قد أرسلني الربّ يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئتَ منه لكي تبصر وتمتلىء من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال وقام واعتمد (تعمّد). وتناول طعاماً فتقوّى، وكان شاول مع التلاميذ الذين في دمشق أياماً. وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح» (أعمال الرُّسُل، 9:17-20).

وهكذا بدأت المهمة التاريخية لأشهر المريدين على الإطلاق. فغادر بولس

(*) في «أعمال الرسل» من العهد الجديد، هو تلميذ يُدعى حنانيا (المترجم).

دمشق، بصحبة مهتدٍ حديث آخر هو برنابا، ليُبشِّر بالدين الجديد في المدن الشمالية. وقد استقبل الإنجيل أحسن استقبال من جانب الجالية اليهودية في أنطاكيا، ومن البعض من غير اليهود أيضاً. لكن هؤلاء الأخيرين أثاروا مسألة بالغة الحيوية بالنسبة لانتشار المسيحية: هل يتعين على كل مهتدٍ أن يقبل الشريعة الموسوية ببنودها الستمئة والثلاثة عشر؟ وماذا عن الختان؟ لم يصرّ بولس ولا برنابا عليه؛ فلم يمضِ طويل وقت حتى اتُّهما بالخروج عن سُنّة المسيح. فعادا أدراجهما إلى أورشليم ليُدافعا عن نفسهما أمام الرُّسل. تعاطف بطرس معهما، كونه هو شخصياً قد قبل المهتدين غير المختتنين. لكن معظم الرُّسُل الآخرين اعترضوا، اعتقاداً منهم بأن الختان جزء من «عهد» أبراهام (إبراهيم) مع الرب. أجابهم بولس بأنه ما لم يُعفَ المهتدون من غير اليهود من هذا العهد، فلن تكون المسيحية سوى فرع صغير لليهودية (مجرد بدعة أو هرطقة يهودية، كما أسماها هاينه(*)) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمن. أذعن الرُّسُل لمحاجّته. فاستأنف بولس مهمته كرسول إلى «الأغيار» (من غير اليهود)، وحمل الإنجيل من أفسس إلى أثينا فروما. وللحظة، بدا مصير دين عظيم معلّقاً على مصير هُتامة من اللحم والعظم.

صُلب بولس في روما، في نفس العام على أرجح الظن الذي شهد موت بطرس (أي في عام 64 م). وبفضل جهود هذين الرجلين، وآلافٍ غيرهما من ناقلي «الأخبار السارّة»، اتضحت معالم الكنيسة المسيحية، وانطلقت تؤدي رسالتها التاريخية في منح الامبراطورية المحتضرة وغُزاتها «البرابرة»، إيماناً حيّاً وأملاً مُستداماً وشريعة أخلاقية تقوم على إله كلّي الوجود وكلّي القدرة.

الكنيسة الكاثوليكية

أدّى ضعف التوقير للدين القائم، تماماً مثلما هي الحال في أيامنا الحاضرة، إلى نشوء مئات الأصناف والأشكال من الاعتقادات بالقوى الخارقة للطبيعة وطُقوسها، وبالتالي إلى ظهور مختلف الشيع والنِحَل المسيحية. إنما من

(*) هاينريش هاينه (1797-1856): شاعر وكاتب ألماني من عائلة يهودية. أشهر أعماله: «كتاب الاغاني» الذي أحلّه في المرتبة الابرز بين شعراء ألمانيا (المترجم).

بين هذه الأخيرة كلها، أثبتت عقيدة الرسولين بطرس وبولس أنها الأقدر على البقاء والانتشار. فبحلول عام 300 م، كان المسيحيون في الشرق الأدنى قد صاروا يُشكلون رُبع سكان المنطقة، في حين وصل عددهم في روما إلى زهاء مئة ألف نسمة. وما لبث لاهوتهم المتزمّت أن دعم قيام منظومة أخلاقية جماعية «مسيحية» أسترعت انتباه وتقدير فلاسفة وثنيين: أخبر بلّيني الأصغر الامبراطور تراجان بأن المسيحيين يعيشون عيشة مُسالمة ونموذجية («الرسائل»، 997/10)؛ فيما وصفهم النطاسي البارع جالينوس بأنهم «بلغوا شأواً بعيداً في التحكّم بذواتهم، وأن رغبتهم في بلوغ التفوُّق الخُلقي غير محدودة». وبعد مضي ثلاثة قرون من الاضطهادات الوحشية بحق المسيحيين، وبعدما تأكد للأمبراطور غاليريوس عقمها وعدم جدواها، أصدر هذا الأخير، في عام 311 م، مرسوماً ملكياً بوجوب التسامح مع المسيحية، والاعتراف بها ديناً شرعياً، وسأل المسيحيين أن يدعوا له في صلواتهم، نظير «رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقّة»!

وفي العام التالي (312 م.)، وفيما كان قسطنطين متوجهاً على رأس جيش من بلاد الغال إلى تورين (تورينو الحالية) لمواجهة منافسين له يُطالبون بعرش روما، شاهد، على ما تقول الأسطورة، صليباً ملتهباً في السماء وعليه العبارة اليونانية: «En Toutoi Nika»، ومعناها: «بهذا أنْتَصِرْ». وفي صبيحة اليوم التالي، أعلن قسطنطين عن اعتناقه المسيحية، وربح معركة حاسمة. ثم زحف شرقاً، وهزم مزاحماً آخر له على العرش، واتخذ بيزنطة (التي ستُسمى فيما بعد على اسمه: القسطنطينية) عاصمةً للامبراطورية الرومانية الشرقية. وسرعان ما ستحلّ القسطنطينية محل روما كمركز للسلطة السياسية.

بعد ذلك، وفي الوقت الذي كانت فيه الاجتياحات البربرية تزعزع أركان السلطة المدنية، أخذت تبعات المحافظة على النظام الاجتماعي وإدارته تنتقل شيئاً فشيئاً من أيدي الموظفين الوثنيين في المدن بغرب أوروبا إلى أيدي الأساقفة والقساوسة ورؤساء أديرة الرهبان المسيحيين في ظل زعامة البابا في روما. وهكذا أضحت الكنيسة، لا الدولة، هي منهلُ الحضارة وخفيرها. وكان عددٌ كبير من «البرابرة» المزعومين قد سلّموا فعلاً بالمسيحية، كما كانوا أسهل انقياداً للباباوات منهم للأباطرة.

وآلت الحال بشعوب غرب أوروبا إلى الانضواء تحت حكم «ملوك محاربين»، من أمثال ألفرد الكبير في انكلترا، وشارلمان في فرنسا، وسلالتي أوتو وهنري الملكيتين في ألمانيا. لكن هؤلاء الحكّام يلتمسون الرسامة من البابا كدعامة لا غنى عنها لسلطتهم وتثبيتاً لها، إذ كان من الجائز أن يخسروا تلك السلطة في أية لحظة يُنزل البابا فيها الحرم الكنسي بهم. وسنةً بعد أخرى، راحت البابوية تزداد نفوذاً إلى أن صار الملوك يعتبرونها بمثابة السلطة العليا في سائر القضايا ذات الصلة بالأخلاق والمسلكيات، وهذا ما يعني عملياً، أية مسألة من المسائل الكبرى. وهكذا رأينا الامبراطور هنري الرابع يأتي إلى كانوسّا في عام 1077 م، لتقديم الكفّارة وطلب المغفرة من البابا غريغوريوس السابع (هيلدبراند)(*)، كي يتسنى له العودة إلى عرشه.

هذه «الجمهورية المسيحية»، أو بالأحرى الدولة العظمى البابوية، بلغت أوجهاً في ظل البابا إينوسنت (إينوقنيتس) الثالث. ففي أثناء حكمه الذي دام من عام 1198 إلى عام 1216 م، أجبر هذا البابا جميع ملوك أوروبا اللاتينية، ما عدا سْفِرّي ملك النرويج، على الاعتراف بسيادته في قضايا الإيمان، والأخلاق، والعدالة، بما في ذلك جعل شعوب بأكملها في حلٍ من قسمها بالولاء لملوكها. وثمة دول كالبرتغال، والمجر، وصربيا، وبلغاريا، وأرمينيا، وحتى إنكلترا في عهد الملك جون، أقرّت بكونها إقطاعات خاضعة لسلطان البابوية. وفي عام 1204م، حين فتح الصليبيون القسطنطينية، أعلنت الكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) عن خضوعها للسلطة البابوية في روما، وبات بمقدور إينوسنت أن يتحدث متفاخراً عن «رداء المسيح غير المشقوق» الآن. وقد وصف زائر بيزنطي لروما هذا البابا، فقال إنه ليس وريث بطرس فحسب، وإنما خليفة قسطنطين أيضاً.

الوجهُ المظلم

إنّ انتصار الكلمة على السيف، والمركز على الأطراف في العالم المسيحي، لم يبقَ طاهراً ناصعاً، بل لطّخه ولوّثه فشل الحملات الصليبية وإرهاب محاكم

(*) كُنية ألمانية توحي بأن صاحبها من أصل ألماني. وقيل بأنها تعني «الشعلة الخالصة» (المترجم).

التفتيش. فالحملات الصليبية التي جيّشها وأطلقها البابا أوربانوس الثاني في عام 1098 م، مثّلت محاولة رومانسية من جانب أوروبا، شرقيّها وغربيّها، لانتزاع الشرق الأدنى من الإسلام وإدخاله في الحظيرة النصرانية، لمآرب تجارية وعقائدية معاً. وقد فشلت الحملات الصليبية في تحقيق أيٍ من هذين الهدفين. ذلك أن الشرق الأدنى بقي في أيدي المسلمين، ولعبت ثروة المسلمين وعلومهم وفنونهم وثقافتهم دور المحفِّز في إثارة الشكوكية لدى الصليبيين المنهزمين، والتي سرعان ما أصابت بعدواها الأرثوذكسية المسيحية، فأفرخت مئات البدع الهرطوقية.

نظر إينوسنت، مثله مثل أي حاكم آخر، إلى التجديف أو الهرطقة على أنه شكل من أشكال الخيانة، وانسلاخ للجزء عن نظام الكل وسلامه. وأشد ما راعه وأثار ذعره، قدوم معتقد جديد من البلقان إلى فرنسا، وتشكيله أقليات قوية في مونبلييه، وناربونة، ومارسيليا، وتولوز، وأورلينز.. وحتى في زواسون وريمز النائيتين في الشمال. فهؤلاء الألبيجيّون (أصحاب بدعة الثنوية ويُعرفون كذلك بالكاثاريين)، كانوا يقسمون العالم بين الله والشيطان: الله ممثِّلاً للروح والخير؛ والشيطان ممثِّلاً للمادة والشرّ. فكانوا يؤمنون بأن الجسد شيطاني كله، والعلاقات الجنسية بشتى صورها دنسة نجسة. وقد اتخذوا من عظة المسيح فوق الجبل منظومة أخلاقية لهم، وشجبوا اللجوء إلى الحرب أو إلى أي شكل من أشكال القوة، حتى ولو كان ضد الكفّار. ولم يكونوا يؤمنون بوجود الجحيم أو المَطْهَر، بل جزموا بأن الخلاص هو من نصيب كل البشر.

وأبعد من ذلك، أنكروا أن الكنيسة هي كنيسة المسيح. فالقديس بطرس لم يطأ أرض روما قط، ولم يؤسِّس الكرسي البابوي فيها. وإنما الباباوات هم خلفاء للأباطرة وليس للرُّسُل. إن المسيح لم يجد موضعاً صغيراً يسند إليه رأسه، بينما البابا يعيش مترفاً في قصر منيف. وأولئك الأساقفة المتسيِّدون، والقساوسة الدنيويون والرهبان البطينون، هم فريسيّو الزمن القديم وقد دبَّت الحياة في أوصالهم من جديد... إن الكنيسة هي «زانية بابل»، والبابا هو «المسيح الدجّال»!

لقي الألبيجيون تسامحاً واسعاً لبعض الوقت، باعتبارهم متطرّفين يدحضون أنفسهم بغلوّهم ومبالغاتهم. وفي عام 1167 م، عقدوا مجمعاً لكهنتهم حضره ممثِّلون من عدة بلدان. ناقش المجمع إدخال بعض التعديلات على مذهبهم

ونظامهم وإدارتهم وأقرّها، وأُرفضّ من دون أن يعكّر جوّه معكّر. وقد وجد بعض النبلاء الفرصة سانحة لإضعاف الكنيسة في لانغويدوك. فالكنيسة غنيّة، والنبلاء فقراء نسبياً. فكان أن شرع نفر قليل منهم بالاستيلاء على أملاك الكنيسة.

رأى إينوسنت الثالث، الذي ارتقى السدّة البابوية في عام 1198 م، في هذه المستجدّات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة على حد سواء. وهو لئن وجد شيئاً من التبرير لانتقاد الكنيسة، إلا أنه ما كان ليقف مكتوف اليدين فيما المنظومة الكبرى التي يتزعّمها، والتي تُمثل في نظره الحصن الحصين ضد العنف والفوضى الاجتماعية والجَوْر الملكي، تُدكّ دكّاً في أُسسها وركائزها بالذات، وتُسلب منها دعاماتها المادية، وتتعرّض للهزء والازدراء في عروضٍ ساخرة من المحاكاة التجديفية. كيف يسع أي نظام اجتماعي مُستدام أن يُبنى على قواعد تُحرِّم الأبوّة وتحلل الانتحار؟ وهل يمكن إنقاذ العلاقات بين الجنسين وتربية الأولاد من فوضى مهلكة إلا عن طريق مؤسَّسة كمؤسَّسة الزواج؟ فأي معنى لحملة صليبية ضد الكفّار في فلسطين في الوقت الذي يتكاثر فيه الكفّار الألبيجيون هنا في قلب العالم المسيحي؟

وبعد مرور شهرين على اعتلائه السدّة البابوية، كتب إينوسنت إلى كبير أساقفة أوخ من أعمال غسقونية ما يلي:

«لقد ضربت مركب القديس بطرس الصغير العديد من العواصف والأنواء، وتقاذفته الأمواج العاتية في البحر. لكن ما يُحزنني أشدّ الحزن... أنهم... ينهضون الآن بوقاحة وأذيّة أكبر من أي وقت مضى، معشر وكلاء الغلط الشيطاني، الذين يوقعون في شِراكهم نفوس الناس البسطاء. إنهم يعملون تشويهاً وتحريفاً في الكتب الكاثوليكية المقدسة بخرافاتهم وتلفيقاتهم الزائفة، ويحاولون تدمير وحدة الكنيسة الكاثوليكية. وحيث ... إن هذا الغلط الوبائي يتفشى في غسقونية والمناطق المجاورة لها، فإننا نأمل منكم ومن الأساقفة زملائكم، التصدّي له ومكافحته بكل ما أُوتيتم من قوة... إننا نصدر إليكم أوامر صارمة بأن تقضوا على كل هذه البدع الضالة بأية وسيلة كانت، وأن تصدّوا عن أبرشيتكم كلّ من تلوث بهم أو بأفكارهم... ويمكن أن تدعوا الأمراء وأبناء

الشعب يقمعونهم بحد السيف عند الضرورة».

لقي هذا «الأمر العالي» ترحيباً من جانب الحكّام الأصوليين والكهنة الموسرين. أما ريمون السادس، صاحب تولوز، فوافق على استخدام الإقناع مع المجدّفين، لكنه أبى الانضمام إلى حربٍ تُشنّ عليهم. فألقى إينوسنت الحرم الكنسي عليه. هنا وعد ريمون بالإذعان، فنال الغفران، لكنه عاد إلى التهاون من جديد. وسأل فارسٌ، كان قد أمره مندوب البابا بطرد الألبيجيين من أرضه: «كيف نفعل ذلك وقد نشأنا مع هؤلاء القوم، وترعرعنا بينهم، وشهدناهم يحيون حياة صالحة؟».

بعد ست سنوات من الانتظار، منح إينوسنت آرنو السيتوي(*)، رئيس الرهبنة السسترسية، كامل الصلاحية لإقامة محاكم تفتيش في طول فرنسا وعرضها، وكذلك لمنح الغفران التامّ للملوك والنبلاء ممن يوافقون على الانضمام إلى الحملة الصليبية الجديدة. وعندما تبيّن له أن ذلك غير وافٍ بالمراد هو الآخر، وضع تحت المصادرة بمرسوم جميع الأراضي التابعة للكونت ريمون، وعرضها على كل مسيحي يستطيع القبض عليهم. واستدعى المؤمنين من كل أنحاء أوروبا للانضمام إلى الحملة الصليبية ضد الألبيجيين وحُماتهم. ووعد كل المشاركين فيها بمنحهم الغفران التام الذي يُحلِّهم من الجزاء على أية خطايا اقترفوها سابقاً. فتقاطر الآلاف للانخراط في الحرب المقدسة. وعندما وصل الصليبيون إلى مشارف مدينة بيزييه، عرضوا عليها تجنيبها ويلات الحرب إذا ما سلّمت إليهم جميع المجدّفين الواردة أسماؤهم في القائمة التي أعدّها أسقف المدينة. غير أن زعماء المدينة رفضوا العرض، قائلين إنهم يفضّلون تحمّل الحصار حتى وإنْ اضطروا إلى أكل أطفالهم. فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة واستولوا عليها، ومن ثم أبادوا عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال في مذبحة عشوائية مهولة.

وكان أشدّ هؤلاء الصليبيين بطشاً ووحشية: سيمون دو مونفور. عُرف دو مونفور، شأن العديد من الرجال في ذلك العصر المتفاخر المتهوّر، بعفته وتقواه، وقد نال أوسمة الشرف أثناء خدمته في فلسطين. وإذا به الآن يقود جيشاً صغيراً

(*) نسبة إلى مدينة «سيتو» الفرنسية، المشهورة بأديرتها ورهبانها، ولاسيما الرهبنة السسترسية (المترجم).

قوامه 4,500 رجل، ويهاجم به البلدة تلو الأخرى، بتحريضٍ لا ينقطع من مندوب البابا، ويتغلّب على كل مقاومة، ويُخيِّر السكان ما بين أداء قسم الولاء للكنيسة الرومانية أو مواجهة الموت كمارقين. الملايين أدوا اليمين، والمئات آثروا الموت على ذلك. وطوال أربع سنوات، واصل سيمون حملاته، يعيث دماراً وخراباً في معظم المناطق التابعة لريمون السادس، باستثناء مدينة تولوز. وفي عام 1215 م، استسلمت تولوز نفسها. فعزل مجلس الأساقفة في مونبلييه ريمون من منصبه وعيَّن سيمون مكانه، وأقطعه معظم أراضيه. وفي عام 1227 م، وقّع ريمون السابع معاهدة مع البابا غريغوريوس التاسع يتعهّد فيها بقمع البدع والهرطقات، وبذلك انتهت الحروب الألبيجينية، وانتصرت المسيحية الارثوذكسية، وزال التسامح، وبسطت محاكم التفتيش سيطرتها على كل أوروبا.

لم تكن محاكم التفتيش لتجد أدنى صعوبة في العثور على نصوص توراتية تجيز الحكم بالموت على الهرطقة والمهرطقين، كما في سفر التثنية (13:1-9)؛ وسفر الخروج (18:22)؛ وكما في إنجيل يوحنا (6:15) مثلاً. إن كل مسيحي ليؤمن إيماناً قاطعاً بأن الكنيسة أسَّسها ابن الله؛ وبناءً عليه، فإن أي تهجّم على المذهب الكاثوليكي يُعتبر إساءة موجَّهة إلى الله نفسه. ولا يُمكن النظر إلى المجدِّف العاصي إلا على أنه أداة بيد الشيطان، أُرسل لكي يعطِّل عمل المسيح. وأي شخص، أو أية حكومة، تُبدي تسامحاً مع المجدّفين المارقين، فإنما هي تخدم إبليس. وانطلاقاً من شعور الكنيسة بأنها جزءٌ لا يتجزأ من حكومة أوروبا الأخلاقية والسياسية، فما كان يُمكن لها أن تنظر إلى الهرطقة إلاّ كما تنظر الدولة إلى الخيانة بالضبط. ولعل أشدّ القوانين القمعية صرامةً هي تلك التي سنّها فريدريك الثاني في الأعوام 1220-1239 م، حيث كان المجدّفون الذين تجدهم الكنيسة مذنبين، يُحالون على ما يُعرف بالشُعبة المدنية، أي السلطات المحليّة، فيُحرقون أحياء، وتُصادر ممتلكاتهم، ويُحرم ورثتهم من ميراثهم، ويُعتبر أبناؤهم غير مؤهلين لإشغال أية وظيفة ذات راتب أو منصب رفيع ما لم يكفّروا عن خطيئة آبائهم بشجبهم البدع الهرطوقية الأخرى. كما كان يُصار إلى هدم منازل المجدّفين، على ألا يُعاد بناؤها أبداً. وقد أدخل «الملك ـ القديس» لويس التاسع قوانين مماثلة على الشرائع الفرنسية. وفي عام 1231 م، تبنّى البابا غريغوريوس التاسع قوانين فريدريك الثاني الصادرة عام 1224 م،

باعتبارها قوانين كنسية. ومنذ تلك اللحظة، اتفقت كل من الكنيسة والدولة على اعتبار الإصرار على الهرطقة خيانة صريحة وتجب معاقبتها بالموت.

وهكذا أتحدت الدولة والكنيسة معاً في هجوم مذعور شُنَّ على البدع الضالة والهرطقات التي من شأنها أن تقوِّض، في نظرهما، بنية القوانين والأخلاق المعقّدة، الكفيلة وحدها بردّ الناس عن الوقوع في الفوضى الأخلاقية والسياسية. وما من حكومة واجهت تحدّياً مماثلاً إلاّ ولجأت إلى التحقيق والتفتيش التعسفي، وعاقبت الآراء والمسلكيات التي عدّتها خطرة على كيان الدولة.

حقاً، إن الحرية لَتَرفُ الأمن!

أغاني العصور الوسطى

رضَعت العصور الوسطى ألفيتها بأدب ظريف، غالباً ما كان يبعثُ البهجة والسرور في النفوس، وكان في بعض الأحيان أدباً سامياً ومتفوقاً في نوعه. ومن الظواهر الفريدة في زمانها، طبقة «التروبادور» التي ازدهرت في فرنسا القرن الحادي عشر، ثم في ألمانيا واسبانيا، حيث كان أفرادها يرتدون ملابس النبلاء (اللوردات)، ويمتشقون السيوف والأقلام، ويحلمون بتذوق طعم «الزنا» الرقيق مع نساء من علّية القوم، يسمحن لهم بتقبيل أيديهن على أبعد تقدير!

وأرجح الظن أن أستحالة بلوغ هذا المأرب هي التي فجّرت كل هذه الأشعار. فمن الصعب إضفاء مسحة رومانسية على رغبة تحققت فعلاً أو هي قابلة للتحقيق. وحيث لا توجد موانع، لا يوجد شعر أصلاً. وهكذا برع شعراء التروبادور بقصائد الصباح وقصائد المساء، فكانوا يتوددون لهدأة الليل ويأسون لحال النهار. وكان شعراء التروبادور في ألمانيا هم «مغنّو الحب». لذلك ألّف فالتر ڤون درفوغلويد (صاحب «مرعى الطيور») القصيدة الغنائية الشهيرة: «تحت ظلال الزيزفون»، يحكي فيها عن وظيفة الأشجار كمظلاّت واقية لقصص الحب الرومانسي. وشهد أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر تأليف القصص الرومانسية الفروسية التي تدور حول البحث عن «الكأس المقدسة»، التي شرب منها يسوع في العشاء المقدّس (العشاء الأخير)، والتقط بها يوسف

الأريماثي بعض قطرات دم المسيح وهو على الصليب. وحول هذه الأسطورة نشأت قصص «بارسيفال»، وأشهر من حكاها هو وولفرام ڤون إشنباخ، وصاغ غوتفريد ستراسبوري نصّاً أوبرالياً آخر لها برسم ريتشارد فاغنر، وذلك بتأليفه قصة «تريستان وإيزولده» في قالب شعري ألماني سلس. هذا في حين نسجت أيسلنده والبلدان الاسكندنافية على منوالها، «ساغات»(*) لا نهاية لها من الأساطير النوردية(**).

ومن هُم أحقّ باهتمام الباحث المتجوِّل المعاصر من أولئك «الدارسين الجوّالين» الذين كانوا ينتقلون من جامعة إلى أخرى، وهم ينشدون أناشيد التمرد والعربدة. وإليكم مقطوعة أجدها غايةً في الفضائحية الرقيقة، يُفسِّر فيها عاشقٌ لماذا يجد نفسه في الجنة:

حين اَستسلمتُ في طيشٍ للحب ولي،
ضحك الجمال من كوكبه المرح في أعالي السماء،
وغمرتني نشوةٌ عارمة لا حدّ لها.
لكن قلبي لم يتسع لكل هذه الغبطة التي فاضت عليّ،
حين جعلتني، مطوقاً بين ذراعيها، غير الذي كُنته،
وصبَّت كل ما في شفتيها من رحيق في قبلة حبتني بها.
ما أكثر ما أحلم بالحرية التي ذقتها على صدرها الناعم،
فقد أصبحت بعدها رباً آخر بين أرباب السماء.
وإذا ما وضعتُ يدي مرة أخرى على صدرها،
سأبسط السكينة على الآلهة والخلق أجمعين.

وحيثما حلّ «الدارسون الجوَّالون» كانوا على ثقة من أنهم سيجدون لغة التعليم نفسها: اللاتينية. إلاّ أن حدثاً ذا أهمية مفصلية وقع في العصور الوسطى، وكان مؤذناً - وقد أذن فعلاً - بنهايتها. لقد تمثّل هذا الحدث باَختيار دانتي اللغة الإيطالية، عوضاً عن اللاتينية، كعربة تقلّه في رحلته من الجحيم إلى المَطْهر فالجنة(*). قد يتبادر إلى الذهن هنا أن اللغة الإيطالية هي أجمل اللغات على

(*) الساغة: قصة أيسلندية زاخرة بالأعمال البطولية (المترجم).
(**) النوردية: صفة تُطلق على كل ما هو نرويجي أو اسكندنافي قديم (المترجم).

الإطلاق، وهي فعلاً كذلك عندما تحكي لنا قصة فرانشيسكا داريميني، أو حين تُخاطب مريم، اعتباراً من النشيد الأخير:

Vergine Madre, figlia tuo figlio,
umile ed alta più che creatura.

أيتها الأم العذراء، يا ابنة ابنك،
يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعةً من كل الخلائق.

(دانتي، «الجحيم»، 121/5 وما بعدها).

ولكن، أين لنا أن نعثر على بيت شعر أعظم قوةً وأعمق تأثيراً من ذلك البيت الذي ظنّ الشاعر أنه رآه محفوراً على باب الجحيم: «Lasciate ogni speranza, voi ch'entrate!» (دعْ عنك كل أملٍ، أيها الداخل هنا!). وعندي، أن «الكوميديا الإلهية» لدانتي هي أغرب ما قرأت من قصائد وأشدها هولاً، وإنْ كنتُ أراها أحياناً أروع وأبدع ما كُتب في كل أدب النصرانية على الإطلاق.

أبيلار وهيلوييز

هيلوييز فتاة يتيمة ذات نسب مشكوك بأمره؛ وهي ابنة أخي فولبير، القسيس في كاتدرائية باريس (لم تكن بعدُ كاتدرائية نوتردام التي بُنيت بعد ذلك بقرن من الزمن). أرسلها عمّها إلى دير للراهبات أُشتُهر آنذاك بمدرسته ومكتبته. وعندما علم أن في اُستطاعتها التحادث باللاتينية بنفس السهولة والطلاقة اللتين تتحدّث بهما الفرنسية، ناهيك عن أنها كانت تتعلّم العبرية كذلك، افتخر بها أيما افتخار، وجاء بها لتعيش معه في مسكنه القريب من الكاتدرائية. ومن أجل إعطائها دروساً خصوصية في الفلسفة وغيرها من العلوم المتقدمة، سعى فولبير وراء المثل والقدوة بين سائر الدارسين العارفين في باريس آنذاك: أبيلار.

أبصر بيار أبيلار النور في مقاطعة بريتاني في عام 1079م أو نحو ذلك، وكان الابن البكر لمزارع ميسور الحال. كان أبيلار مجلّياً في دروسه، وقد دبت

(*) إشارة إلى رائعة دانتي: «الكوميديا الإلهية» (المترجم).

فيه الحماسة عندما سمع بأُناس يُسمون «فلاسفة»، يزعمون أن في مقدورهم البرهان على مقومات إيمانهم الديني بواسطة العقل وحده. فتخلّى عن حقّه في الميراث، وانطلق ينشد تعلّم الفلسفة حيثما يستطيع العثور عليها.

وما لبث بحثه أن قاده إلى باريس، وإلى المدرسة التابعة لكاتدرائيتها، حيث كان وليم الشامپوسي يُدرِّس ـ على ما روى أبيلار نفسه ـ مادة «الواقعية»، التي كانت تعني حينذاك أن الأسماء العامة أو الأسماء النوعية، مثل: «إنسان»، «جمهور»، «حجر»، «امرأة»، «كتاب»... الخ، تمتلك وجوداً وواقعاً موضوعياً بالإضافة إلى واقعها كعضوٍ مفردٍ في فئتها. وهكذا، فإن «الإنسان» واقع حقيقي مثل «سقراط» تماماً. و «الجمهور» واقع حقيقي كأي فرد فيه، وله منطقه الخاص وميزاته الخاصة. فما من شيء، كما يقول أبيلار، يقوم خارج أذهاننا، اللّهم إلا أُناس أفراد بعينهم وأشياء محدّدة بذاتها. أما الأفكار العامة، فهي كلها مفاهيم تشكّلت بوصفها أدوات للتصنيف والتفكّر ليس إلا.

أنشأ أبيلار مدرسته الخاصة في مِلون أولاً، ثم في مون چنڤياڤ بضواحي باريس. ونظراً لفصاحته ونبوغه، والبهجة المستمدّة من إعمال العقل عنده، اجتذبت المدرسة من الطلاب فوق ما تستطيع المباني أن تستوعبه. وقد أطلقوا على أنفسهم اسم: «moderni» (أي المحدثين)، وأسّسوا «schola moderna»، أو «المدرسة الحديثة». وكانت شهرة أبيلار قد عمّت أرجاء فرنسا حين دعاه فولبير لإعطاء ابنة أخيه هيلوييز دروساً خصوصية.

العام هو 1117م. يومها كان هو في الثامنة والثلاثين، وهي في السابعة عشرة. وقد أقرّ أبيلار بأن شعوره الأول تجاهها اقتصر على الجاذبية الجسدية، لكنه سرعان ما تحوَّل بفعل رقة ونعومة هيلوييز إلى ما وصفه هو نفسه بأنه «حب يتجاوز بعذوبته أعطر البلاسم طُراً». ويبدو أنها استسلمت له بثقة تكاد تكون طفلية، وسرعان ما حملت منه.

أرسلها أبيلار إلى بيت أخته في بريتاني، وهدّأ من ثائرة فولبير بأن أبدى استعداده للزواج منها، شريطة أن يُبقي القس أمر الزواج طي الكتمان. مانعت هيلوييز طويلاً في الزواج من أبيلار، لأن من شأن ذلك أن يمنعه من الحصول على الدرجة الكهنوتية ما لم تُطلّق زوجها وتتخلى عن ابنها وتدخل ديراً للراهبات. وإذا

ما صَدَّقنا ما جاء في سيرة أبيلار الذاتية: «Historia Calamitatum» («تاريخ مصائبي»)، فقد أخبرته «أنه أحلى لها كثيراً أن تُسمى «عشيقتي» من أن تُعرف بـ «زوجتي». وإنّ ذلك، بلى، لأشرف بالنسبة لي أنا أيضاً».

ورضخت هيلوييز أخيراً. لقد وافقت وأبيلار، وكذلك فولبير، على إبقاء أمر الزواج سرّاً. غير أن القسّ اضطر إلى كشف النقاب عن الزواج الشرعي تجنباً للفضيحة. أنكرت هيلوييز الأمر، فضربها فولبير ضرباً مبرحاً، فيما أرسلها أبيلار إلى دير للراهبات، مشترطاً عليها أن تقبل حجاب الراهبة فقط وألا تقسم يمينها.

استأجر فولبير بعض الأوباش كي يخصوا أبيلار. غير أن خصاءه لم يلحق به العار على الفور، وإنْ ساهم في حرمانه من الدرجة الكهنوتية. فإذا بباريس كلها، بما في ذلك سلك الكهنوت، تتعاطف معه. وتقاطر إليه الطلاب لمؤاساته وتشجيعه. لكن أبيلار أدرك أنه قد قُضي عليه. فطلب من هيلوييز أن تقبل الحجاب والقسم معاً، وهو شخصياً أخذ على نفسه قسم الرهبنة. وإذ سُمح له بمعاودة التعليم مرة أخرى، فقد بنى هو وتلاميذه صومعة بالقرب من تروييه تكون ملاذاً لهم. كما قاموا بإنشاء مُصَلّى لقداديسهم دعوه: «باراكليت» (الروح القدس)، كأنما يريد أن يقول إن عاطفة مريديه المشبّعة بالوفاء قد نزلت عليه نزول روح القدس وهو في وحشته وقنوطه.

استعاد أبيلار شيئاً فشيئاً عافيته وشجاعته، فأنكبّ على كتابة بعضٍ من أهم مؤلّفاته في الفلسفة الوسيطية. ففي مجلده الضخم بعنوان: ««Dialectica» (الجدل)، صاغ أبيلار قواعد التفكير والمحاججة للعقل المنبعث من جديد في غرب أوروبا. وفي كتابه الآخر: «حوار بين فيلسوف ويهودي ومسيحي»، سمح لكل واحد من هؤلاء الثلاثة أن يعرض لنقاط الضعف التي تكتنف في رأيه عقيدتَيْ الاثنين الآخرين. وفي كتابه: «Sic et Non» (نعم ولا)، طرح 157 سؤالاً، وساق تحت كل سؤال منها محاجّة بالإيجاب وأخرى بالسلب. وفي التمهيد للكتاب، ذكر بالحرف «أن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على السؤال وتكراره... لأن الشك يؤدي بنا إلى البحث، والبحث يوصلنا إلى النتيجة (الحقيقة)». وفي كتابه: «Theologia Christiana»، (اللاهوت المسيحي)، رفض أبيلار الزعم القائل إن المسيحي وحده مهيّأ للنجاة، واصفاً إياه بأنه زعم منافٍ للعقل. فالله، عنده،

يهب حبّه لجميع البشر، والتصدّي للضالّين يكون بالحجّة لا بالقوة.

وفي عام 1140 م، نجح برنار(*)، وهو نصير متعصّب للكاثوليكية، في إقناع مجمع كنسي عُقد في سانس بإدانة عددٍ من آراء أبيلار وتصوراته الجريئة. ورغم وهنه بفعل السنّ وابتلائه بالمحن، توجه الفيلسوف إلى روما كي يضع قضيته بين يدي البابا. وفي الطريق إلى روما، وصل إلى دير كلوني في بورغوندي، حيث استقبله رئيسه، صاحب النيافة بطرس الموقّر، استقبالاً حسناً. وهناك علم أبيلار أن البابا إينوسنت الثاني قد ثبّت فعلاً إدانة مجمع سانس له، وفرض عليه أن يلزم الصمت إلى الأبد ويحجر نفسه في أحد الأديرة.

وبنفسٍ طافحة بالسأم المتأتي عن الإرهاق الجسدي والمعنوي، توارى أبيلار في غياهب صوامع دير كلوني وطقوسه. فكان يقوّي روح زملائه الرهبان بتقواه وصمته وصلواته. وكتب إلى هيلوييز - التي لم يرها ثانيةً قط - معيداً تأكيد إيمانه بتعاليم الكنيسة. وألّف، رُبما من أجل عينيها هي، بعضاً من أجمل الترانيم في الأدب الوسيط.

وما لبث أن سقط فريسة المرض. فبعث به رئيس ديره العطوف - بطرس الموقّر - إلى دير القديس مارسيل بالقرب من شالون. وهناك أسلم الروح في 21 أبريل/نيسان 1142 م، عن عمر يناهز الثالثة والستين. دُفن أبيلار في كنيسة الدير الصغيرة، لكن هيلوييز، التي أضحت الآن رئيسة دير الراهبات في «الباراكليت»، أعادت تذكير بطرس الموقّر بأن أبيلار طلب أن يُدفن هناك. فحمل الراهب الطيب جثمانه بنفسه إليها، محاولاً مؤاساتها بالحديث عن أبيلار بوصفه سقراط وأفلاطون وأرسطو زمانه؛ وترك معها رسالة تفيض حناناً ورقة مسيحية:

> وهكذا يا أختي العزيزة والمعظّمة في الله؛ إن الرجل الذي اجتمعت وإياه - بعد رابطتكما الجسدية - برابطةٍ خير منها وأقوى هي رابطة الحب المقدس، والذي خدمتِ... الله معه، هذا الرجل يأخذه الله بدلاً منكِ. فهو صورة أخرى منكِ، ويُنفخ فيه دفء صدره، ويحتفظ به إلى حين يدوي صوت الملاك الأكبر، ويُنفخ في الصُور من السموات العُلى، ليردّه إليك نعمةً منه ورحمة.

(*) أسقف شارتر، وكان يُعرف بالقديس برنار (المترجم).

وانضمت هيلوييز إلى حبيبها الراحل في عام 1164 م، بعدما بلغت من العمر ما بلغه هو، وكادت تنال من الشهرة ما ناله. فووريت الثرى إلى جانبه في حديقة «الباراكليت». وأثناء الثورة (الفرنسية)، دُمِّر المُصلّى، ولحق أذى بالقبور، وربما وقع الخلط بينها. وما اعتُقد لاحقاً بشكل حصيف أنه رُفات أبيلار وهيلوييز، تمّ نقله إلى مقبرة الأب لاشيز في باريس عام 1817 م. وهناك يُمكن رؤية رجال ونساء حتى في أيامنا هذه، ولاسيما في أيام الآحاد الصيفية، يحملون باقات الزهور ليزيّنوا بها قبرهما.

الإنجاز الوسيطي

نذكر، باديء ذي بدء، التحوّل الهائل الذي طرأ على أوروبا الوسيطية إلى الشمال من أنهار الرون والراين والدانوب. فقد تحوّلت من برارٍ تغلب عليها الأدغال والمستنقعات إلى قاعدة أرضية لحضارات جديدة وقابلة للبقاء. أقبل الناس فيها، رجالاً ونساءً، يشقّون الطُرقات، ويمدّون القنوات، ويحفرون المناجم، ويبنون المساكن، ويدجنون أنفسهم والحيوانات النافعة، وينظّمون القرى والبلدات والمدن، ويسنّون القوانين، ويطورون هيئات المحلّفين والمجالس التمثيلية، ويضبطون الشباب بواسطة السلطة الأبوية والمدرسة والدين.

لقد راهن الإنسان الوسيطي بكل ما يملك على الدين، وهو في رهانه ذاك جازف مجازفة خطرة. فقد رأى بنفسه، أو رُوي له عن الحضارة الرومانية التي ماتت بموت آلهتها، أو من جراء زوال خوف الإنسان منها. لقد عرف في طور شبابه هو بالذات أية قوة وأي إلحاح تتمتع بهما العادات والرغبات غير الاجتماعية؛ ورحّب في طور نضجه بالمعتقدات اللاهوتية والوصايا الأخلاقية، والنصائح الكهنوتية، وحتى بالأخطاء اللاهوتية التي تنفع، في بعض الأحيان، في التخفيف من غلواء الكبرياء عند الشباب، ومن جرائم الراشدين، ومن حروب الدول وآثامها.

كما رحّب بكنيسة تعلّم البرابرة كيف يكونون مواطنين متمدّنين، وتشجّع خصال العفّة والفروسية، وتحضّ بعض المقاتلين على أن يكونوا سادة أماجد. وفي المقابل، أضمر المقت لكسل الرهبان، وشعر بالامتنان لما تتصف به الراهبات من خدمة وتفانٍ، وقدّر التنظيم الإكليركي لأعمال البرّ والإحسان.

كما مجّد الكاتدرائيات، وابتسم لرؤية نوافذها الوضّاءة، وضحك لأشكال ميازيبها الكرغولية(*)، ولربما ظن زافراتها الداعمة(**) نوافير ماء تحجّرت مياهها أثناء جريانها. لقد كان فخوراً بانتمائه إلى كنيسة بمقدور باباواتها أن يدبّروا أمور الدول ويؤدبوا الملوك.

وعزّز الزمن الكنيسة بأن ضاعف من ثروتها وزاد في انتشارها. لكنه عمل في المقابل على إضعافها بدفقه البحبوحة الدنيوية، وتغذيته النزعة الفردية المعيقة، والتحايل السياسي والفكر الشكّاك.

صحيح أنه كان للكنيسة دور حيوي في تطوير الجامعات التي باتت تنافس الكاتدرائيات في فخامتها وأُبهتها؛ فهي التي احتضنت وأهّلت معظم المعلّمين وشرّفتهم بالرداء الديني الذي يلبسون. غير أن هؤلاء المعلمين ما عتموا أن راحوا ينشدون وبشكل متزايد المعرفة والتقدم الدنيويين، عوضاً عن الإيمان الديني والمناصب الإكليركية. فالإكليروس والعلمانيون ممن عملوا يداً بيد في التنقيب عن المخطوطات الكلاسيكية، وفي حفظها وتحقيقها، ما لبثوا أن اكتشفوا سحر الأدب القديم والفلسفة الكلاسيكية وعمقهما، فبدأوا يتحدثون عن أفلاطون بحماسة أكبر منها لدى حديثهم عن المسيح.

ومثل خليّة متضخمة، انفجرت الروح الوسيطية إلى منظومتين عضويتين تاريخيتين: النهضة الوثنية الأبيقورية الكلاسيكية في الجنوب، والإصلاح الطهراني الرواقي الحبري(***) في الشمال. وهاتان المنظومتان العضويتان غدتا ثقافتين قويتين، ومن خلالهما أدّت الروح الوسيطية رسالتها التاريخية، ألا وهي حفظ الحضارة وتوريثها للعصور التالية.

وبموتها اكتمل تحقّقها!

(*) هي ميازيب ناتئة من جوانب سطح الكاتدرائية تكون عادةً على شكل حيوانات بشعة أو كائنات إبليسية (المترجم).

(**) الزافرة الداعمة عبارة عن نصف قنطرة يُدعم بها جدار في كاتدرائية (المترجم).

(***) الحبري: ما له علاقة بآباء الكنيسة أو أحبارها أو أعمالهم (المترجم).

الفصل الخامس عشر

النهضة (1): حول ليوناردو

بترارك وبوكاشيو

تحولت العصور الوسطى إلى عصر النهضة حينما - في يوم الجمعة الحزينة من عام 1327، في إحدى كنائس مدينة آڤينيون مقر البابوية، رأى فرانسيسكو بترارك لورا دي ساد، فجعله جمالها الرقيق الذي ضاعفه تواضعها، ينسى كل التجليات الإلهية إلاّها..

تلقت لورا دي ساد افتتان الشاعر بها بهدوء. وأعطت لهواه كل حافز يُحدثه الصدّ. وطوال السنوات الست والعشرين التالية ألّف بترارك مائتين وسبع قصائد - كلها عنها - في أرفع موسيقى لأرفع اللغات المعروفة حتى ذلك الحين. انصتوا:

In qual parte del ciel, in quale idea
Era l'essempio, onde Natura tolse
Quel bel viso leggiadro, in ch'ella volse
Mostrar qua giú quanto lassú potea?

Qual ninfa in fonti, in solve mai qual dea,
D'pro sifino a l'aura sciolse?
Quando un cor tante in sé vertuti accolse?
Benché la somma è di mia morte rea.
Per divina bellezza indarno mira
Chi gli occhi de costei già mai non vide
Come soavemente ells gli gira,
Non sa come Amor sana, a come ancide,
Chi non sa come dolce ella sopira,
E come dolce parla, e dolce ride.

من سيجرؤ على ترجمة ذلك اللحن؟ ففي الإيطالية والإسبانية، يقهر الحرف المتحرك الحرف الساكن. أما في الانكليزية والألمانية فإن الحروف الساكنة تغلب على الحروف المتحركة. مع ذلك فإن ترجمة جوزيف أوزلاندو تتميز بجودة وشجاعة:

«في أي عالم باهر، أي فكر مشع
وجدت الطبيعة هذا المثال الذي رسمته
تلك الصورة الرقيقة المبهرة حيث نشهد
هنا على هذه الأرض ما في السماء قد شكّلته؟
أي حورية تطارد النافورات، أي حورية غابات
تبحث في البساتين عن مثل تلك الضفائر الذهبية
المتطايرة مع الريح؟ أي قلب عرفت تلك الفضائل؟ ـ
وإن كانت فضيلتها الأولى مشحونة بموتي،
ينظر بلا جدوى باحثاً عن جمال سماوي،
من لم يلق أبداً نظرة على عينيها الكاملتين،
العينين الزرقاوين المشرقتين حياة تلمعان متألقتين ـ

أنه لا يعرف كيف يستسلم *الحب* وينكر؛
لا يعرف سوى - من يدري - *الطلاوة*
التي بها تستطيع أن تتحدث وأن تضحك، طلاوة تنهداتها.

لقد عبّرت قصائد بترارك، وحساسيته للجمال، في المرأة والطبيعة والأدب والفن، عن مزاج إيطالي أساسي، وحببته متابعته وترجمته المفعمة بالعاطفة للمخطوطات الكلاسيكية إلى الشعراء والمطارنة في كافة أنحاء أوروبا الغربية.

في روما، في يوم 8 نيسان/أبريل 1341، رافق ركب زاهي الألوان من الشبان والشيوخ بترارك إلى عتبات الكابيتول(*)، وهناك وضعوا إكليلاً على رأسه. منذ ذلك اليوم كان الملوك والبابوات يستقبلونه في بلاطهم باعتباره أمير الآداب الأوروبية وسيدها. وقد عده بوكاشيو في مرتبة «القدامى المشاهير»، وأعلنت إيطاليا أن فيرجيل قد ولد من جديد.

آنذاك كان بوكاشيو نفسه في الثامنة والعشرين من عمره. كان قد بدأ حياة في باريس باعتباره النتاج غير المتعمد لوفاق ودّي بين أبيه، الذي كان أحد تجار فلورنسا، ومعشوقة فرنسية ذات مبادىء فاسقة. وربما كان مولده في غير موعده وأصله شبه الغالي(**) قد أثّرا على شخصيته وعلى أسلوبه.

في عام 1331 - بعد أربع سنوات من انجذاب بترارك - وقع بوكاشيو في الحب بينما كان يصلي في إحدى كنائس نابولي. والسيدة كانت ماريا داكونيو، التي كانت معروفة بتقواها الآسرة وشعرها الذهبي. فكان يسميها فياميتّا - أي «الشعلة الصغيرة» - وكان يتوق لأن يلفح نفسه بنارها. فظل لخمس سنوات يلاحقها بالشعر وبالنثر. وقد تركته ينتظر حتى تفرغ أكياس الآخرين، ثم قبلته إلى أن فرغت كيسه أيضاً. فغادر بوكاشيو نابولي واستوطن في فلورنسا.

هناك، في عام 1348، داهم الطاعون الأكبر، الموت الأسود، وقتل نصف السكان البالغ عددهم 100 ألف. وتبدأ قصة بوكاشيو «ديكاميرون» بوصف مخيف لانتشار الموت: لقد قُدّر لكل أسرة تقريباً في فلورنسا أن ترى عضواً بعد

(*) هيكل الإله جوبيتر القديم في روما، ومقر برلمانها آنذاك (المترجم).
(**) نسبة إلى غاليا، أو بلاد الغال، الاسم القديم لفرنسا كما سبقت الإشارة.(المترجم).

عضو فيها يموت، وأن ترقب المصابين بالعدوى وهم يغادرون بيوتهم ويذهبون ليموتوا مجهولي الاسماء في الشارع. لقد جعل بوكاشيو «ديكاميرون» تستمد مخططها من الوباء: سبع شابات، ذوات قربى أو جارات، يجتمعن في كنيسة ويتفقن على أن يتركن فلورنسا معاً، ومعهن خادماتهن، وأن يقمن في «ڤيللا» ريفية حتى يكون الوباء قد انحسر. وكوسيلة سارة لدرء الضجر، يوجهن الدعوة إلى ثلاثة من أصدقائهن الرجال لاصطحابهن. يستقر بهن المقام في قلعة ريفية فسيحة، ويخططن لقتل الوقت بأن يقص كل منهم حكاية في كل يوم. وبعد أن يكونوا قد قضوا معاً عشرة أيام يكونون قد قصّوا مئة حكاية. من هنا أطلق بوكاشيو على مجموعته اسم «ديكاميرون»، ومعناها باليونانية «عشرة أيام». بعض هذه الروايات الصغيرة شهوانية إلى حد الفجاجة، مثل رواية الشرير مازيتو الذي كان يهتم بتلبية رغبات الراهبات في دير بأكمله؛ وبعضها حكايات حب عفيف، مثل حكاية المريضة غريزيلدا؛ ولبعضها مضمون فلسفي، مثل أسطورة الخواتم الثلاثة المتساوية في قيمة أحجارها الكريمة، والتي ترمز إلى العقائد اليهودية والمسيحية والإسلامية. ونستنتج نحن أن بوكاشيو مثّل طبقة متوسطة فقدت إيمانها بمسيحية ملتزمة، وحتى بالشِرْعَة الأخلاقية المسيحية.

هكذا، فإن النهضة ـ في طفولتها الأولى ـ كانت تصوِّت لمباهج الحياة الدنيا وتحدياتها وليس للملذات المفترضة لفردوس يأتي بعد الموت. لم تستعد النهضة أدب العصر القديم الكلاسيكي وحده، إنما استعادت بالقدر نفسه سعيها إلى حرية تعتنق المتعة. كانت في جانب منها تحرراً وثنياً للحواس بعد ألف سنة من تهذيب أخلاقي يقوم على معتقدات تتجاوز الطبيعي.

فلورنسا تحت حكم أسرة الميديتشي 1378 - 1492

القاعدة الاقتصادية

غير أن النهضة اقتضت أكثر من مجرد إحياء التراث القديم. في المقام الأول اقتضت المال ـ مال بورجوازي كريه: أرباح مديرين مهرة وعمال مهيضي الجناح؛ أرباح رحلات مليئة بالمخاطر إلى الشرق، وعبور مضنٍ لجبال الألب،

لشراء سلع رخيصة الثمن وبيعها بغالي الثمن؛ أرباح حسابات متأنية واستثمارات وقروض؛ أرباح فوائد وأسهم تراكمت حتى أمكن استنقاذ فائض كاف من ملذات الجسد، من شراء مجالس الشيوخ والأعيان والعشيقات، ولدفع مكافآت أمثال مايكلانجلو أو تيتيان لتحويل الثروة إلى جمال، ولتعطير الثروة بأنفاس الفن.

المال هو أصل كل حضارة. أموال التجار والصيارفة والكنيسة كانت تدفع ثمن المخطوطات التي بقيت حيّة من الزمن القديم. ولم تكن تلك المخطوطات أساساً هي التي حررت عقل النهضة وحواسها؛ إنما كانت النزعة العلمانية التي أتت من نهوض الطبقات المتوسطة؛ كانت نمو الجامعات، والمعرفة والفلسفة، والشحذ الواقعي للعقول بدراسة التاريخ والقانون، وتوسيع الأذهان بالتعرف على العالم على نطاق أوسع. إن الإيطالي المثقف - بشكّه في قطعيات العقائد المنقولة ورؤيته رجال الدين بوصفهم أبيقوريين(*) مثلهم مثل جمهور المؤمنين - قد أطلق نفسه من القيود الفكرية والأخلاقية؛ ابتهجت حواسه المحررة بلا رادع بكل تجليات الجمال في الطبيعة والمرأة والرجل والفن. وجعلته حريته الجديدة مبدعاً لقرن رائع (1434-1534) قبل أن تحطمه بفوضى أخلاقية وفردانية منحلة ورضوخ قومي. والحقبة الواقعة بين النظامين كانت هي النهضة.

بقي الفن الكلاسيكي حياً في روما وڤيرونا ومانتوا وبادوا؛ وكان هيكل (بانثيون) أغريبا لا يزال يقوم بوظيفته كمكان للعبادة، على الرغم من أنه كان قد بلغ من العمر 14 قرناً، وكان من الممكن للمرء أن يسمع - أو يكاد - صوت شيشرون وقيصر يتناظران في الفوروم على مصير كاتيلين. وكانت اللغة اللاتينية لا تزال حية على الألسن، ولم تكن الإيطالية بالنسبة لها إلا مجرد صيغة شجية. الآلهة الوثنية والأساطير والطقوس كانت تلوح في الذاكرة الشعبية، أو تتلطى تحت أشكال مسيحية. كانت إيطاليا تقف عبر البحر الأبيض المتوسط مُسيطرة على ذلك الحوض الذي ازدهرت فيه الحضارة والتجارة الكلاسيكيتين.

كانت إيطاليا الشمالية أكثر تمدُّناً وتصنيعاً من أي منطقة أخرى في أوروبا عدا الفلاندر. فهي لم تعاني قط من إقطاعية تامة، غير أنها أخضعت نبلاءها

(*) أي من أتباع مذهب اللذة (المترجم).

لمدنها ولطبقة التجار فيها. كانت ميداناً للتجارة بين بقية أنحاء إيطاليا وأوروبا عبر جبال الألب، وبين أوروبا الغربية والمشرق، وجعلت منها تجارتها وصناعتها المنطقة الأغنى في العالم المسيحي. كان تجارها المغامرون متواجدين في كل مكان، من معارض فرنسا إلى أقصى موانىء البحر الأسود. ولأنهم اعتادوا على التعامل مع اليونانيين والعرب واليهود والمصريين والفرس والهندوس والصينيين، فإنهم فقدوا حدّة عقائدهم وجلبوا إلى الطبقات المتعلمة في إيطاليا ذلك النوع نفسه من اللامبالاة بالديانات الذي ظهر في أوروبا القرن التاسع عشر ـ مرة ثانية ـ من اتساع الاتصالات بالأديان الأجنبية.

هكذا تقدمت إيطاليا في الثروة وفي الفن والفكر، متقدمة قرناً على بقية أوروبا؛ ولم تزدهر النهضة في فرنسا وألمانيا وهولندا وانكلترا واسبانيا إلا في القرن السادس عشر، حينما خبت في إيطاليا. لم تكن النهضة حقبة في الزمن، إنما كانت أسلوب حياة وفكر، انتقل من إيطاليا عبر أوروبا مع مجرى التجارة والحرب والأفكار.

اتخذت النهضة أول موطن لها في فلورنسا للأسباب ذاتها التي كانت، وإلى حد كبير، وراء ولادتها في إيطاليا. فمن خلال تنظيم الصناعة وامتداد تجارتها وعمليات متموّليها، كانت فلورنسا ـ مدينة الزهور ـ في القرن الرابع عشر، أغنى مدينة في شبه الجزيرة (الإيطالية)، باستثناء البندقية. وبينما كان أهل البندقية في ذلك العصر يوجهون طاقاتهم بصورة تامة تقريباً إلى البحث عن المتعة والثروة، طوّر أهل فلورنسا، ربما من خلال حافز شبه ديمقراطية مضطربة، حدة في الذهن والذكاء، ومهارة في كل فن، الأمر الذي جعل مدينتهم، باتفاق عام، العاصمة الثقافية لإيطاليا. ورفعت مشاجرات الفرق من حرارة الحياة والفكر، وتنافست الأُسر على رعاية الفن، فضلاً عن السعي إلى السلطة.

وأضيف إلى هذا كله حافز ملائم حينما عرض كوزيمو دي ميديتشي مصادر ثرواته الخاصة وثروات الآخرين وقصورهم لاستضافة المندوبين إلى مجلس فلورنسا والترفيه عنهم (1439). أما الأساقفة والعلماء اليونانيون، الذين أتوا إلى ذلك الاجتماع لمناقشة اتحاد العالم المسيحي الشرقي والغربي، فكانت لديهم معرفة بالآداب اليونانية أفضل من معرفة أي فلورنسي بها آنذاك. وقد

حاضر بعضهم في فلورنسا وتزاحمت نخبة المدينة للاستماع إليهم. وعندما سقطت القسطنطينية بيد الأتراك (1453)، غادرها كثير من اليونانيين للإقامة في المدينة التي أكرمت وفادتهم قبل ذلك بأربعة عشر عاماً. وقد جلب العديد منهم مخطوطات إضافية من نصوص قديمة. وهكذا، فإنه بتلاقي التيارات المؤثرة المتباينة اتخذت النهضة شكلها في فلورنسا وجعلت من تلك المدينة أثينا الإيطالية.

وراء الصدارة الثقافية لفلورنسا تكمن صناعتها وتجارتها وماليتها. كان نحو ربع سكانها منخرطين في الصناعة. وفي وقت مبكر يرجع إلى عام 1300، كان في فلورنسا مصنعان للنسيج يوظِّفان نحو 30 ألف رجل وامرأة؛ إذ كانت قد بلغت مرحلة الاستثمار الضخم، والإمداد المركزي للمواد والآلات والتخصّص المنهجي للعمل وسيطرة مورّدي رأس المال على الإنتاج.

كان في فلورنسا لتمويل هذه الثورة الصناعية ثمانين بيتاً من بيوت المال تؤدي تقريباً كل الوظائف التي يؤديها مصرف حديث؛ تصدر خطابات الائتمان، وتقرض مبالغ ضخمة للأفراد ورجال الأعمال والحكومات ـ على سبيل المثال أقرضت 1,365,000 فلورين للملك إدوراد الثالث ملك انكلترا؛ ودفع قيمة الشيكات، وتحويل توفيرات مودعيها، وإقرار السلام وتمويل الحرب. وابتداء من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، كانت فلورنسا العاصمة المالية لأوروبا، حيث كانت تثبت أسعار صرف العملات. وأصدرت دولة فلورنسا في عام 1345 سندات قابلة للتداول بفائدة سنوية قدرها 5 بالمئة، ويمكن استردادها ذهباً عند حلول موعد استحقاقها. وفي عام 1400 تجاوزت إيرادات حكومة فلورنسا الإيرادات الإجمالية الحكومية لانكلترا تحت حكم إليزابيث (الأولى).

كان الصيارفة والتجّار والصناعيون والمهنيون والعمال المهرة في فلورنسا ومحيطها ـ وفي أوروبا الغربية بوجه عام ـ منظمين إحدى وعشرين نقابة تسمى في إيطاليا Arti، أي «مهن». وكانت كلمة «فن» تُطلق على كل عمل ماهر، ولم تكن قد اكتسبت بعد معنى جمالياً.

كان يتعين على كل ناخب أن يكون عضوا في نقابة معترف بها. وتحت النقابات الإحدى والعشرين، كان يوجد اثنان وسبعون اتحاداً للعمال الذين لا

يملكون حق التصويت، وتحت هذه كان هناك آلاف العمال المياومين(*) المحظور عليهم الدخول في تنظيم، وتحت هؤلاء عدد قليل من العبيد. وكانت حكومة فلورنسا الرسمية بقيادة «السينوريا» (السادة) أو مجلس السادة أو الأفاضل، الذين يقع الاختيار عليهم بطريق القرعة من قادة النقابات، ويخضعون للرقابة بين وقت وآخر بواسطة مجلس الشعب المختار بدوره من قبل أعضاء النقابات بوجه عام. لكن الحكومة الفعلية كانت في العادة أحد رجال المصارف الذي يستطيع أن يحول النقود إلى نفوذ أدهى وأقوى من السلطة الانتخابية. وفي عصر فلورنسا الذهبي كان هذا المصرفي هو كوزيمو دي ميديتشي.

كوزيمو دي ميديتشي

هذا الاسم أحجية: إننا لا نجد في أسلافه أي ميديتشو. في عام 1428، وفي سن التاسعة والثلاثين، أصبح وريث أضخم ثروة في توسكاني، يسيطر على مصرف ومزارع شاسعة وبعضٍ من مصانع الحرير والصوف وعلى تجارة متنوعة مع روسيا وسوريا واسكتلندا واسبانيا. كان على وئام مع الكاردينالات والسلاطين. أسهم بنصيب كبير في الأشغال العامة والمؤسسات الخيرية، الأمر الذي جعل الناس يتقبلون بهدوء دكتاتوريته غير المباشرة على شؤون فلورنسا.

كذلك يمنحه التاريخ صوته لأنه خصص ما يكفي من المال لتمويل عدد من العلماء والرسامين والشعراء والفلاسفة. أنفق جانباً من ثروته يجمع نصوصاً كلاسيكية. وحينما بدَّد نيكولو دي نيكولي أمواله في شراء المخطوطات القديمة، فتح كوزيمو له ائتماناً في مصرف ميديتشي ودعمه حتى وفاته.

أشرك خمسة وأربعين من النسّاخ في نسخ مخطوطات ما كان بالإمكان شراؤها. كذلك فقد وضع «منمنماته الثمينة» (كما كان يصفها والت ويتمان) في دير سان ماركو أو في كنيسة بالقرب من فيسول، أو في مكتبته الخاصة، وفتح هذه المجموعات أمام المعلمين والطلاب بدون مقابل.

أقام في فلورنسا (1445) أكاديمية أفلاطونية لدراسة أفلاطون، ومكّن

(*) الذين يتقاضون أجورهم يوماً بيوم «المترجم».

مارسيليو فيتشينو من أن يهب نصف حياته لترجمة أعمال أفلاطون وعرضها. والآن، بعد سيطرة دامت أربعمائة سنة، فقدت النزعة المدرسية (السكولائية) سيادتها على الفلسفة في الغرب ودخلت روح أفلاطون المبهجة مثل خميرة منشّطة في جسم الفكر الأوروبي الناهض.

إننا لا نحاول هنا كتابة تاريخ للنهضة، ولكل استكشافاتها الفكرية وروائعها الفنية. إنما تجدر بنا الإشارة بشكل عابر أنه في هذه الذروة التي بلغتها فلورنسا رفع فيليبو برونيلليشي(*) فوق كاتدرائية سانتا ماريا دي فيوري قبة غير مستقرّة ترتفع 133 قدماً فوق الجدران الداعمة، وتشرف لفراسخ عديدة حولها على المنظر العام لفلورنسا بأسقفها القرميدية الحمراء التي تبدو كفراش من الزهور في حضن تلال توسكا. وفي العصر نفسه صمم لورنزو غيبرتي وحفر في البرونز تلك المداخل المزيّنة التي جعلت معمدانية فلورنسا واحدة من أبقى روائع النهضة.

لقد اعتقد دوناتيللو ـ أحد تلاميذ غيبرتي ـ أن تلك الأبواب مفرطة الأنوثة في رشاقة خطوطها، وكانت روحه هو ذكورية وشجاعة في التجديد. وفي عام 1430 سبك من البرونز تمثال «داوود»(**) لحساب كوزيمو، الأمر الذي لا بد قد أثار خصومة مايكلانجلو. هنا ظهر الشكل العاري للتمثال منفصلاً عن خلفيّته في عرضه الأول بغير حياء في فن النحت النهضوي. وفي ساحة سان انتونيو في بادوا، أقام، المثّال الطموح ـ بعد ست سنوات من العمل ـ أول تمثال مهم لفارس على فرس في الأزمنة الحديثة ممثّلاً القائد البندقي الماكر الملقب غاتاميلاتا، ـ ومعناها «القطة المعسولة». وقد استدعى كوزيمو دوناتيللو للعودة إلى فلورنسا ومنحه تكليفاً بعد آخر.

لم ينتج دوناتيللو سلسلة متعاقبة من الأعمال الفنية الكبرى فحسب، بل إنه أقنع كوزيمو بشراء مجموعة مختارة من أثريات النحت القديم. وبأن يضعها في حدائق ميديتشي لكي يدرسها الفنانون الشبان. وهكذا تقدم العمر بالفنان وراعيه

(*) Brunolleschi (1377-1446) معماري وصائغ فلورنسي اشتهر بإدخال العناصر الكلاسيكية كالأعمدة والأقواس والتفصيلات النقوشية التي أصبحت جزءاً من عمارة عصر النهضة. (المترجم).

(**) تمثال «داوود» هو للفنّان مايكلانجلو (المترجم).

معاً، واعتنى كوزيمو بالمثّال إلى حد أن دوناتيللو نادراً ما كان يفكر بالمال. لقد كان يحتفظ بنقوده (هكذا يقول ڤاساري)(*) في سلة معلقة إلى سقف مرسمه، وكان يسمح لمعاونيه وأصدقائه بأن يأخذوا منها ما يحتاجون دون أن يشاوروه في الأمر. لقد عاش حياة بسيطة، راضياً حتى سن الثمانين. وشارك كافة الفنانين - وفي الواقع كل الناس تقريباً - في فلورنسا في الجنازة التي أرقدته في مرقده الأخير، وفقاً لما طلبه، في مقبرة سان لورنزو إلى جانب قبر كوزيمو (1466).

لورنزو

توفي كوزيمو في عام 1464، وورث ابنه بييرو ثروة أبيه وسلطته ومرض النقرس، واكتسب اسم غوتّوسو الثاني. وقد حكم غير سعيد بحكمه خمس سنوات وتوفي في عام 1469 وترك السلطة لابنه لورنزو، الذي لقب مستقبلاً بالعظيم «Il Magnifico».

كان كوزيمو قد بذل أقصى ما بوسعه لإعداد شبان أذكياء لإدارة شؤون المال والبشر. وقد تعلم لورنزو اللغة اليونانية والفلسفة واستوعب عشرة من المذاهب بالاستماع إلى حوارات الشعراء ورجال الدولة والفنانين وأصحاب النزعة الإنسانية والقادة العسكريين. وقد كتب سونيتات عاطفية لسيدات متعجرفات. أما بييرو الذي كان يظن الزواج علاجاً جيداً للغرام. فقد أقنعه بالزواج من كلاريس أورسيني، وهكذا يكون قد أقام حلفاً بين آل الميديتشي وواحدة من أقوى أسرتين في روما. ومن ذلك الاتحاد سيأتي البابا ليو العاشر والبابا كليمنت السابع.

بعد يومين اثنين من وفاة بييرو، جاء وفد من الأعيان البارزين إلى لورنزو وطلب منه تولي إدارة الدولة. وقد أقنعته الظروف بذلك. فقد كانت ماليات مؤسسة ميديتشي متشابكة مع ماليات المدينة إلى حد خشي معه من الانهيار إذا ما استولى الأعداء أو المنافسون لأسرته على السلطة السياسية. ولإسكات

(*) Georgio Vasari (1511-1574) كان رساماً ومعمارياً ولكنه اشتهر أكثر كمؤرخ للفنون، أهم مؤلفاته المرجع المهم «حياة أبرز الرسامين والمثالين» (1550). (المترجم).

انتقادات خصومه، عيّن مجلساً من المواطنين من ذوي الخبرة لتقديم النصح إليه في كل الشؤون ذات الأهمية الرئيسية.

ظل يشاور هذا المجلس طول فترة حكمه، لكنه سرعان ما أظهر قدراً كبيراً من الحكمة بحيث نادراً ما شكك المجلس في زعامته. لقد حكم على نحو ما حكم كوزيمو وبييرو: ظل مواطناً عادياً (حتى عام 1490) لكنه كان يوصي المجلس بسياسات معينة، وفي المجلس كانت له أغلبية مريحة من المؤيدين.

رضخ المواطنون من جانبهم لأن الرخاء استمر. وعندما زار غاليازو ماريا سفورزا - دوق ميلانو - فلورنسا في عام 1471، أدهشته دلائل الثروة في المدينة، وأذهله أكثر من ذلك الأعمال الفنية التي جمعها كوزيمو وبييرو ولورنزو في قصر الميديتشي وحدائقهم. فقد كان هنا بالفعل متحف للتماثيل وأواني الزهور والأحجار الكريمة واللوحات والمخطوطات المزخرفة والآثار المعمارية والنماذج. وأعلن غاليازو أنه رأى عدداً من اللوحات الرائعة في هذه المجموعة يفوق ما هو موجود في كل إيطاليا.

وسط الرخاء العام حافظت الجماعات القديمة على السلام فيما بينها، وخبت الجريمة، وازدهر النظام، وإن كانت الحرية قد تراجعت. كتب أحد المعاصرين: «لا توجد لدينا هنا سرقات ولا اضطرابات ليلية ولا اغتيالات. في الليل أو في النهار على السواء، يمكن لكل فرد أن يدير شؤونه في أمان تام». وقال المؤرخ اللبيب جويتشيارديني: «لو قدر لفلورنسا أن يكون لها طاغية، ما كان يمكن لها أبداً أن تجد من هو أكثر بهجة منه». كان التجار يفضلون الرخاء على الحرية، والبروليتاريا هدأتها الأشغال العامة التي توفر العمل، ومباريات الفروسية اجتذبت النخبة، وسباقات الخيل أثارت البورجوازية، والمهرجانات وفرت التسلية للعامة.

كان من عادة الفلورنسيين في أيام «الكارنفال» أن يتنزهوا في الشوارع وهم يرتدون أقنعة مرحة أو مخيفة، ويرددون أغنيات ساخرة أو ماجنة. وقد كان لورنزو يستمتع بالابتهاج الصاخب، غير أنه لم يكن يثق بما ينطوي عليه من ميل إلى إثارة الاضطراب، ولهذا فإنه قرر في النهاية أن يضعه تحت السيطرة بأن اشترط له موافقة الحكومة وأمرها. وفي ظل حكمه أصبحت المهرجانات أكثر

سمات الحياة الفلورنسية شعبية. وقد أشرك الفنانين البارزين في تصميم ورسم العربات واللافتات والثياب؛ وألف هو وأصدقاؤه قصائد الحب التي كانت تغنّيها الجوقات؛ وكانت هذه الأغنيات تعكس التراخي الأخلاقي للكرنڤال.

كان أشهر مهرجانات لورنزو «انتصار باخوس»(*) حيث موكب من المنصات المتحركة التي تحمل الفتيات الجميلات، وطوابير الفرسان المؤلفة من شبان يرتدون أفخر الثياب على جياد متواثبة، تأتي قادمة عبر نقطة «بونتي تيتشيو» إلى الميدان الفسيح المواجه للكاتدرائية، بينما أصوات الموسيقى المتناغمة المتعددة الطبقات ترافق الصنوج والأعواد، تغني معاً قصيدة ألفها لورنزو نفسه، فلا تعود الكاتدرائية هي نفسها:

1 ـ جميل هو الشباب وخالٍ من الحزن
لكنه خلال ساعات يطير بعيداً
الشبان والفتيات يتمتعون اليوم
ولا يعرفون شيئاً عن الغد.
2 ـ هذا هو باخوس، وهذه أدريان الباهرة، المتحابان حقاً!
إنهما في فرار الزمن، مع ذلك
يجد كل منهما مع الآخر متعاً جديدة.
3 ـ وهؤلاء، غانياتهما، وكل فريقهما
يظلان في عيد لا ينتهي.
الشبان والفتيات يتمتعون اليوم
ولا يعرفون شيئاً عن الغد.
4 ـ السيدات والمحبون الشبان المرحون!
ليعش باخوس، لتعش الرغبة!
ارقصوا والعبوا، ولتغنِّ الأغنيات
ودعوا الحب اللذيذ يشعل النار في صدوركم.
5 ـ مستقبلاً ليكن ما يكون؛

(*) إله الخمر (بالتحديد النبيذ) في الأساطير الرومانية. (المترجم).

الشبان والفتيات يتمتعون اليوم،

ولا يعرفون شيئاً عن الغد.

تضفي مثل هذه القصائد والمهرجانات بعضاً من لون باهت على الاتهام الموجه إلى لورنزو بأنه أفسد الشباب الفلورنسي. فربما كانوا «فاسدين» من دونه: فلم تكن الأخلاق في البندقية وفيرارا وميلانو أفضل مما هي في فلورنسا؛ لقد كانت أفضل فلورنسا تحت حكم مصرفيّي آل ميديتشي ولاحقاً في روما في ظل باباوات آل ميديتشي.

كانت أحاسيس لورنزو الجمالية، أكثر حدة من أن تستوعبها أخلاقه. كان الشعر واحداً من اهتماماته العميقة الأولية، وكانت أشعاره تنافس أفضل أشعار عصره. وبينما كان الوحيد الذي يفوقه ـ بوليتيان ـ ما زال متردداً بين اللغتين اللاتينية والإيطالية، أعادت أشعار لورنزو للعامية مكان الأولوية الأدبية التي كان دانتي قد رسخها بينما انقلب عليها أصحاب النزعة الإنسانية. كان لورنزو يفضل قصائد بترارك الأربع عشرية (السونيتات) على شعر الحب في الكلاسيكيات اللاتينية، على الرغم من أنه كان يقرأها بسهولة في أصولها اللاتينية؛ وفي أكثر من مناسبة ألّف هو نفسه سونيتة كان يُمكن أن تفْضُل قصيدة بترارك «كانزونيير»(*)، إلا أنه لم يأخذ الحب الشعري على محمل الجد الشديد، إنما كتب بدرجة أبلغ من الإخلاص عن المناظر الريفية التي زودت أطرافه بالحيوية وعقله بالسلام. هذا وتحتفي أفضل قصائده بغابات الريف وجداوله، وأشجاره وأزهاره، وقطعانه ورعيانه. في بعض الأحيان كتب قطعاً مرحة ذات إيقاع قوي، ترفع لغة الفلاحين البسيطة إلى شعر مفعم بالحيوية؛ وفي أحيان أخرى نظم هزليات ساخرة طليقة على طريقة رابليه(**)؛ وألف ـ بالإضافة إلى هذا كله ـ مسرحية دينية من أجل أطفاله، وبعض تراتيل تنطوي هنا وهناك على ذكر للتقوى الصادقة. غير أن أكثر قصائده تعبيراً عن خصائصه المميزة كانت "أغنيات

(*) Canzoniere شكل من الشعر الغنائي الإيطالي كانت له شعبيته في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، وكان يتألف عادة من خمسة إلى سبعة مقاطع، وكان يمكن لموضوعاتها أن تتناول، غير الحب، السياسة والسخرية والفكاهة. (المترجم).

(**) François Rabelais (1494-1553) شاعر وباحث وفيلسوف إنساني وطبيب فرنسي، عكست مؤلفاته الكثير من حياته الشخصية وحياة عصره والأفكار السائدة فيه. (المترجم).

الجمال" Canti carnascialischi التي كتبها لتُغنى في أوقات الاحتفالات وفي جوها المزاجي، معبرة عن شرعية اللذة وفظاظة تعقل الفتيات. وما من شيء يصوِّر أخلاقيات النهضة الإيطالية وآدابها وتعقدها وتنوعها أفضل من صورة قطب أقطابها، الذي يحكم دولة، ويدير ثروة، ويخوض المباريات ويكتب شعراً رائعاً، ويدعم الرسامين والمؤلفين برعاية الذوّاقة، ويختلط بيسر مع العلماء والفلاسفة، والفلاحين والصعاليك، ويسير في المهرجانات، وينشد أغنيات داعرة، ويؤلف تراتيل رقيقة، ويلاعب الغانيات، وينجب واحداً من البابوات، ويُكرَّم في أرجاء أوروبا كأعظم الإيطاليين في زمانه وأنبلهم.

عصر بوليتيان

الآن، وبتشجيع من دعمه واقتداء به، أخذ رجال الأدب الفلورنسيون يكتبون المزيد والمزيد من أعمالهم باللغة الإيطالية. وشيئاً فشيئاً شكلوا ذلك النموذج الأدبي التوسكاني، الذي صار النموذج والمعيار لشبه الجزيرة (الإيطالية) برمتها ـ «الأحلى والأثرى والأكثر ثقافة، ليست فقط بين كافة لغات إيطاليا إنما بين كل اللغات المعروفة في يومنا هذا» كما قال محب الوطن فارتشي(*).

وفيما كان لورنزو يحي الأدب الإيطالي، تابع بكل حماس في تنفيذ مشروع جده لجمع كافة كلاسيكيات اليونان وروما ليستخدمها العلماء في فلورنسا. فأرسل بوليتيان وجون لاسكاريس إلى مدن شتى في إيطاليا والخارج لشراء مخطوطات؛ ومن أحد الأديرة في جبل آثوس، اشترى لاسكاريس مائتي مخطوطة كانت ثمانون منها غير معروفة بعد في أوروربا الغربية. وحسب قول بوليتيان، كان لورنزو يتمنى أن يتاح له أن ينفق ثروته برمتها، بل أن يرهن أثاثه، في شراء الكتب. وقد استخدم النسّاخين لنسخ المخطوطات التي لم يتمكن من شرائها، وبالمقابل سمح لجامعين آخرين ـ مثل ماثياس كورڤينوس ملك هنغاريا وفيديريغو دوق أوربانو، بأن يرسلوا نسّاخيهم لينسخوا مخطوطات في مكتبة

(*) Benedetto Varchi (1503-1565): مؤرخ فلورنسي أشهر كتاباته يتناول تاريخ مدينته ولغتها. (المترجم).

الميديتشي. وبعد وفاة لورنزو ضُمت هذه المجموعة إلى تلك التي كان كوزيمو قد وضعها في دير سان ماركو، وكانتا تحتويان في عام 1495، على ما مجمله 1039 مجلداً، 460 منها باللغة اليونانية. وقد صمم مايكلانجلو فيما بعد دارة فخمة لهذه الكتب وأطلقت عليها الأجيال اللاحقة اسم لورنزو ـ المكتبة اللورنزية. وحينما أسس برناردو تشنيني مطبعة في فلورنسا (1471) لم يزدرِ لورنزو هذا الفن الجديد ـ كما فعل صديقه بوليتيان أو فيديريغو دوق أوربانو ـ إذ يبدو أنه أدرك على الفور الإمكانيات الثورية التي تنطوي عليها الحروف المتحركة واستخدم العلماء في المقارنة بين جمع النصوص المتنوعة كي يصبح بالإمكان طبع الأعمال الكلاسيكية بأعظم قدر ممكن من الدقة في ذلك الوقت. هكذا تشجع بارتولوميو دي ليبري فطبع «الأعمال المطبوعة» لهوميروس (1488) تحت الإشراف الدراسي الدقيق من ديميتريوس شاتكونديليس؛ وأصدر جون لاسكاريس «الطبعات الأساسية» ليوربيدس (1494)، و«المختارات اليونانية» (1494) ولوسيان (1496)، وحرّر كريستوفورو لانديانو أشعار هوراس (1482)، وڤيرجيل وبليني الأكبر ودانتي، الذي كانت لغته وتلميحاته تتطلب بالفعل شرحاً دقيقاً. وإننا لندرك روح العصر حينما نعلم أن فلورنسا كافأت كريستوفورو على هذه الأعمال البحثية بإهدائه بيتاً رائعاً.

أغوت سمعة الميديتشي وغيره من الفلورنسيين في الرعاية السخية العلماء وجعلتهم يتدفقون زرافات على فلورنسا ويجعلوا منها عاصمة للثقافة الأدبية. ولكي يطور التراث الفكري للبشرية وينقله، جدّد لورنزو جامعة بيزا القديمة ووسّعها، كما جدّد أيضاً الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا. ولم تكن هذه الأخيرة كلية رسمية، وإنما رابطة لأولئك المعنيين بأفلاطون، يلتقون على فترات غير منتظمة في قصر لورنزو بالمدينة أو في ڤيلا فيتشينو في كاريغي، يتناولون العشاء معاً ويقرأون بصوت عال جزءاً من أحد حوارات أفلاطون أو حواراً بأكمله، ويناقشون فلسفته. وكان يُحتفل بيوم السابع من تشرين الثاني/نوفمبر، الذي يفترض أنه الذكرى السنوية لميلاد أفلاطون ووفاته، في الأكاديمية برصانة تكاد تكون دينية، وكان تمثال نصفي يعتقد أنه لأفلاطون يُتوَّج بالأزهار، ويضاء مصباح أمامه كما يضاء أمام صورة لإله.

كان بين أولئك الذين يحضرون مناقشات الأكاديمية الأفلاطونية بوليتيان

وبيكو ديللا ميراندولا ومايكلانجلو ومارسيليو فوتشينو. ولقد كان مارسيليو شديد الولاء لتكليفات كوزيمو إلى حد أنه كرَّس حياته كلها تقريباً لترجمة أفلاطون إلى اللاتينية ولدراسة المذهب الأفلاطوني وتدريسه والكتابة عنه. وفي شبابه كان بالغ الوسامة حتى أن فتيات فلورنسا كن يتطلعن إليه مأخوذات؛ ولكنه لم يكن يعيرهن اهتماماً كالذي يعيره لكتبه. ولفترة من الزمن فقد إيمانه الديني. بدا له المذهب الأفلاطوني متفوِّقاً، وكان يخاطب تلاميذه بعبارة «أحبائي في أفلاطون» وليس «أحبائي في المسيح»؛ «كان يضيء الشموع أمام تمثال نصفي لأفلاطون ويتعبده كقديس». بدت المسيحية له ـ في مزاجه هذا ـ لا أكثر من واحدة من الديانات الكثيرة التي تخفي عناصر من الحقيقة وراء عقائدها الجامدة المجازية وطقوسها الرمزية. لكن كتابات القديس أوغسطين، وعرفانه له بشفائه من مرض عضال، أعاداه إلى العقيدة المسيحية. وفي سن الأربعين أصبح قسَّاً ولكنه ظل أفلاطونياً متحمِّساً. وكان يذهب إلى أن سقراط وأفلاطون قد أقاما مذهباً وحدانياً له نبالة وحدانية الأنبياء؛ فهما ـ أيضاً ـ بطريقتهما الثانوية تلقيا وحياً إلهياً؛ وهذا ما فعله ـ في الحقيقة ـ كل البشر الذين كان العقل هو حاكمهم. وأسوة به، لم يحاول لورنزو ومعظم أصحاب النزعة الإنسانية أن يستعيضوا عن المسيحية بعقيدة أخرى، وإنما حاولوا أن يعيدوا تأويلها على أسس مقبولة لفيلسوف. ولجيل أو جيلين (1447-1534) ظلت الكنيسة تبتسم في تسامح لهذا المشروع.

بعد لورنزو نفسه كان الكونت جيوفاني بيكو ديللا ميراندولا أشد الشخصيات جاذبية في الأكاديمية الأفلاطونية. ولد في المدينة (القريبة من مودينا) التي أدخلها اسمه باب الشهرة، ودرس في بولونيا وباريس، وكان يُستقبل بالتكريم في كل بلاط في أوروبا، وفي النهاية أقنعه لورنزو بأن يجعل فلورنسا موطنه. وتلقف عقله الشغوف دراسة بعد أخرى ـ الشعر والفلسفة والعمارة والموسيقى ـ وحقق في كل منها امتيازاً ظاهراً إلى حد ما. وقد وصفه بوليتيان بأنه مثال جمعت الطبيعة فيه كل مواهبها: «فارع ورائع التكوين، في وجهه شيء من الإشعاع الإلهي»؛ رجل ذو نظرة ثاقبة، وقدرة على الدراسة لا تكلّ، وذاكرة إعجازية، ومعرفة واسعة مسكونية، وبلاغة في لغات متعددة، وذو

حظوة عند النساء والفلاسفة، وشخصية محبَّبة بقدر ما له من وسامة في شخصه وتميّز في كل خصال العقل.

كان عقله منفتحاً على كل فلسفة وكل عقيدة، لم يكن يجد في نفسه قدرة على رفض أي مذهب، أو أي إنسان. وعلى الرغم من أنه في سنواته الأخيرة هجر علم التنجيم، فإنه رحّب بالتصوُّف والسحر باليسر ذاته الذي كان يقبل به أفلاطون والمسيح. كانت لديه كلمة طيبة يقولها للفلاسفة المدرسيين (السكولائيين)، الذين كان معظم أصحاب النزعة الإنسانية الآخرين ينكرونهم باعتبارهم يعبِّرون عن عبثيات متوحشة. ووجد كثيراً مما يثير إعجابه في الفكرين العربي واليهودي، وعدّ كثيرين من اليهود بين معلميه وأصدقائه الشرفاء. درس القبالة (الكابالا) العبرية(*)، وببراءة قَبِل تراثها القديم المزعوم، وأعلن أنه وجد فيها البراهين الكاملة على ألوهية المسيح. ولأن أحد ألقابه الإقطاعية كان الكونت كونكورديا، فإنه أخذ على عاتقه الواجب الأسمى للتوفيق بين الديانات العظمى للغرب - اليهودية والمسيحية والإسلام - والتوفيق بين هذه الديانات وبين أفلاطون، والتوفيق بين أفلاطون وأرسطو. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يكرمونه، فإنه حافظ طوال حياته القصيرة على تواضع جذّاب لم يقلل منه إلا ثقته الحاذقة بدقة تعليمه وبقوة العقل الإنساني.

عندما ذهب إلى روما في سن الرابعة والعشرين (1486) أذهل القساوسة والنقاد بنشر قائمة من تسعمائة قضية تتناول موضوعات المنطق وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت والأخلاق والرياضيات والطبيعة (الفيزيقا) والسحر والقبالة، وشملت الهرطقة السخية القائلة بأنه حتى أكبر الخطايا المميتة - لكونها متناهية (محدودة) - لا تستحق عقاباً لانهائياً. وأعلن بيكو استعداده للدفاع عن أي من هذه القضايا وعنها جميعاً في مناظرة عامة ضد أي شخص، وعرض دفع نفقات السفر لأي متحدّ من أي بلد أتى. وتمهيداً لهذه الجولة من المباريات المقترحة في الفلسفة أعد خطبة شهيرة، أُطلق عليها فيما بعد «في كرامة الإنسان»، عبَّرت بحماسة الشباب عن الفكرة السامية التي اعتنقها أصحاب

(*) القبالة: التراث الشفهي اليهودي الذي انتقل من النبي موسى إلى الحاخامين عبر الأجيال. في العصور الوسطى راجت الكلمة كتعبير عن التأمل الصوفي اليهودي لعالم الأرواح، وكان الناس آنذاك يخشون الحاخامين القباليين ظناً منهم بأنهم يملكون «قوى سحرية». (المترجم).

النزعة الإنسانية ـ على النقيض من معظم وجهات النظر الوسيطية ـ بشأن النوع البشري. كتب بيكو: «إنّ الشائع في المدارس أن الإنسان عالَم صغير، قد نميز فيه جسداً تختلط فيه عناصر أرضية بروح سماوية، والروح الخضروية للنباتات، وحواس الحيوانات الدنيا، والعقل، وعقل الملائكة، وصورة الرب». ثم وضع بيكو على فم «الرب نفسه» كلمات قالها لآدم، شهادة إلهية على لا محدودية قدرات الإنسان: «لقد خلقتك كقائد لا سماوي ولا أرضي ـ حتى تكون حراً في تشكيل نفسك والتغلب عليها. إنك يمكن أن تنحط إلى وحش أو تولد من جديد على الصورة الإلهية». وهو ما أضاف إليه بيكو ـ بالروح العالية للنهضة الشابة:

> *«هذه هبة الرب في ذروتها، هذه هي الهناءة الأسمى والرائعة للإنسان... أن باستطاعته أن يكون ما يشاء أن يكون. الحيوانات، من لحظة ميلادها تحمل معها من أجساد أمهاتها كل ما هو مقدَّر لها أن تملكه أو تكونه؛ الأرواح الأسمى (الملائكة) هي من البداية... ما ستكونه إلى الأبد. لكن الأب الرب وهب الإنسان من الميلاد بذور كل إمكان وكل حياة».*

لم يجرؤ أحد على قبول تحدي بيكو المتنوع. ولكن البابا إينوسنت الثامن أدان ثلاثاً من هذه القضايا بأنها مهرطقة. وحيث إن هذه لم تكن تشكل إلا جزءاً صغيراً من الكل، فيمكن أن يكون بيكو قد توقَّع الرأفة. والحقيقة أن إينوسنت لم يلحّ في الأمر. غير أن بيكو أعلن تراجعاً حذراً، ورحل إلى باريس، حيث عرضت الجامعة عليه الحماية. وفي عام 1493 أبلغ الكسندر السادس بيكو ـ بنزوعه إلى التسامح ـ بغفران كل شيء. وعندما عاد بيكو إلى فلورنسا أصبح واحداً من أتباع سافونارولا المخلصين، وتخلى عن سعيه للعلم الكليّ، وأحرق المجلدات الخمس التي كانت تحتوي على قصائده في الحب، ووهب ثروته لتوفير بائنات زواج (دوطات) للفتيات الفقيرات، وانتهج هو نفسه حياة أشبه بحياة الرهبان. فكر في الانخراط في السلك الدومنيكاني، ولكنه مات قبل أن يتخذ قراره ـ وكان لا يزال شاباً في الحادية والثلاثين من العمر. وقد بقي نفوذه حياً بعد حياته العملية القصيرة، وألهم روشلين أن يواصل ـ في ألمانيا ـ تلك الدراسات العبرية التي كانت من بين أهواء حياة بيكو.

موت لورنزو

لبعض الوقت قبل وفاة لورنزو أدرك أنه ـ وهو الذي كان يبشر بإنجيل البهجة ـ لم يبق له وقت طويل ليعيشه.

ماتت زوجته في عام 1488، وعلى الرغم من أنه لم يكن مخلصاً لها، فإنه حزن بإخلاص على فقدها وافتقد مؤازرتها له. لقد منحته أبناء كثيرين بقي على قيد الحياة منهم سبعة. وقد أشرف بكل اهتمام على تربيتهم، وفي سنواته الأخيرة عمل على توجيههم إلى زيجات ربما ساهمت في سعادة فلورنسا كما في سعادتهم هم أنفسهم.

تقاعد لورنزو عن المشاركة النشطة في حكم فلورنسا وفوَّض المزيد والمزيد من أعماله العامة والخاصة لابنه بييرو، وطلب الراحة في سكينة الريف وفي الحوار مع أصدقائه. وقد أعفى نفسه من مهامه في رسالة حملت خصائصه المميزة:

«ماذا يمكن أن يكون مرغوباً أكثر لعقل منظم تنظيماً حسناً من التمتع بوقت الفراغ في كرامة؟ هذا ما يتمنى كل الرجال الطيبين الحصول عليه، ولكن الرجال العظماء وحدهم يحققونه. في خضم الشؤون العامة يمكن أن يتاح لنا حقاً أن ننظر قدماً إلى يوم راحة؛ لكن لا راحة ينبغي أن تعزلنا كلية عن الانتباه إلى هموم بلدنا. إنني لا أستطيع أن أنكر أن الدرب الذي قُدِّر لي أن أسلكه كان شاقاً ووعراً، ومليئاً بالأخطار، ويكتنفه الغدر والخيانة، ولكنني أعزي نفسي بأنني قد ساهمت في رفاهية بلدي، وفي الرخاء الذي ربما ينافس الآن رخاء أي بلد آخر، مهما كان ما بلغه من ازدهار. ولم أكن عديم الانتباه إلى مصالح أسرتي وتقدمها، فقد اقترحت دائماً تقليدي في اتخاذ المثال من جدي كوزيمو، الذي راقب أمور عامته وخاصته بيقظة متساوية. والآن وقد حصلت على هدف ما اعتنيت به، أثق بأنني ربما يتاح لي أن أستمتع بعذوبة وقت الفراغ بالمشاركة في سمعة مواطنيّ، وأن أغتبط لمجد بلدي».

لكن وقتاً قليلاً كان قد بقي له ليستمتع بسلامه الذي لم يألفه. فما كاد ينتقل إلى ڤيللته في «كاريغي» (21 آذار/مارس 1492) حتى اشتدت عليه آلام

معدته بصورة مخيفة. ولقد استدعي أطباء متخصصون له، جعلوه يشرب مزيجاً من الجواهر. وقد عبَّر بيكو وبوليتيان عن حزنهما لأنه لم يستطع أن يعيش وقتاً يكفي ليكمل مجموعته من المخطوطات من أجل إسعافهما وليستخدمها الطلاب. ومع اقتراب النهاية أرسل في طلب قسيس، وبآخر ما بقي له من قوة أصر على أن يغادر فراشه ليتلقى القربان جاثياً على ركبتيه. كان يفكر لحظتها في المبشر الذي لا يلين في آرائه، الذي أدانه باعتباره مدمراً للحرية ومُفسداً للشباب، وتاق للحصول على غفران هذا الرجل قبل موته. وبعث بصديق إلى سافونارولا ليرجوه أن يأتي إليه ليستمع إلى اعترافه ويهبه غفراناً أثمن. أتى سافونارولا. وحسب ما يقول بوليتيان فإنه عرض غفراناً بثلاثة شروط: أن يكون لدى لورنزو إيمان حي برحمة الرب. وأن يَعِد بأن يعدِّل حياته إذا ما شُفي، وأن يواجه الموت بجلد. وافق لورنزو ومُنح الغفران. وحسب ما يقول مؤرخ سيرة سافونارولا المبكر ج.ف.بيكو (غير المفكر الإنساني) كان الشرط الثالث أن يعد لورنزو «بأن يعيد الحرية إلى فلورنسا». وفي حكاية بيكو، لم يُبد لورنزو استجابة لهذا المطلب، وتركه الراهب بلا غفران. في يوم 9 نيسان/أبريل 1492 مات لورنزو وهو في عمر الثالثة والأربعين.

وحينما بلغت أخبار موته السابق لأوانه فلورنسا، حزنت المدينة بأجمعها تقريباً. وحتى خصوم لورنزو أنفسهم تساءلوا كيف يمكن للنظام الاجتماعي أن يُصان الآن في فلورنسا، أو أن يستتب السلام في إيطاليا، دون رعايته وتوجيهاته. ولقد اعترفت أوروبا بمكانته كرجل دولة ولمست فيه الخصال المميِّزة لزمانه؛ كان «رجل النهضة» في كل شيء إلا في لجوئه إلى العنف. فتمكنه المكتسب ببطء في السياسة، وبلاغته البسيطة إنما المُقنِعة في المناظرة، وحزمه وشجاعته في العمل، كلها جعلت جميع الفلورنسيين، إلا قلة قليلة منهم، ينسون الحرية التي حطمتها أسرته؛ وكثيرون ممن لم ينسوا ذلك تذكروها كحرية للعشائر الثرية للمنافسة في مجال القوة والخداع من أجل سيطرة مستغِلة في «ديمقراطية» حيث واحد من ثلاثين من السكان يملك حق التصويت. لقد استخدم لورنزو سلطته باعتدال ولصالح الدولة، حتى على حساب ثروته الشخصية. لقد كان مذنباً بالتساهل الجنسي، وأعطى مثلاً سيئاً للشباب الفلورنسي. لكنه أعطى مثلاً طيباً في المواقف الأدبية وأعاد إلى اللغة الإيطالية

مكانتها الأدبية، ونافس رعاياه في الشعر. دعم الفنون بحسّ الذوّاقة الذي حدّد المعايير لأوروبا بأسرها. ومن بين كافة «الطغاة»، كان لورنزو الأرق والأفضل. قال عنه فرديناند ملك نابولي: «عاش هذا الرجل عمراً طويلاً بما كان كافياً لتحقيق مجده، لكن حياته قصيرة جدًّا بالنسبة لإيطاليا». بعده انحدرت فلورنسا ولم تعرف إيطاليا سلاماً قط.

ليوناردو دافنشي

ولد أكثر شخصيات النهضة جاذبية في 15 نيسان/أبريل 1452 بالقرب من قرية ڤينشي على بعد نحو ستين ميلاً من فلورنسا. وكانت أمه فتاة ريفية اسمها كاترينا، وهي لم تعبأ بالزواج من أبيه. وكان الرجل الذي غرر بها ـ بييرو أنتونيو ـ محامياً فلورنسياً على قدر من اليسر. وفي السنة التي ولد فيها ليوناردو تزوج بييرو من امرأة من مرتبته. وتعين على كاترينا أن ترضى بفلاح زوجاً لها. وتنازلت عن طفلها الجميل، طفل الحب، إلى بييرو وزوجته؛ وهكذا تربى ليوناردو في راحة شبه ارستقراطية من دون حب الأمومة. وربما في تلك البيئة اكتسب تذوُّقه للثياب الفاخرة وعزوفه عن النساء.

ذهب ليوناردو إلى مدرسة في الجوار وأغرم بالرياضيات والموسيقى والرسم وأبهج والده بغنائه وعزفه على آلة العود. مع ذلك فإن ليوناردو في شرخ شبابه عُرف بقوته فكان يلوي حدوة الحصان بيديه، وكان خبيراً بالمبارزة وماهراً في امتطاء الخيل وترويضها، وكان يحبها معتبراً أنها أنبل الحيوانات وأجملها. وكان في الظاهر يرسم ويصور ويكتب بيده اليسرى؛ وجعله هذا يكتب من اليمين إلى اليسار، وليس كما يُظن رغبةً منه في أن يصبح غير مقروء.

ولكي يرسم جيداً درس كل الأشياء في الطبيعة بفضول وصبر وعناية. وبالنسبة للعلم والفن ـ اللذين كانا متحدين في عقله بكل وضوح ـ كان ثمة أصل واحد هو الملاحظة التفصيلية. وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره اصطحبه أبوه إلى مرسم ڤيروتشيو في فلورنسا، وأقنع ذلك الفنان المتنوع المواهب بأن يقبله تلميذاً متمهِّنا) له. ويعرف العالم كله القصة التي تلاها فاساري عن الكيفية التي رسم بها ليوناردو الملاك إلى اليسار في لوحة ڤيروتشيو «تعميد المسيح»،

وكيف أن الأستاذ اجتاحه التأثر بجمال الشكل حتى أنه اعتزل الرسم وكرَّس نفسه للنحت. ولعل هذا الاعتزال لا يعدو أن يكون أسطورة صنعت بعد موته؛ فإن ڤيروتشيو صنع لوحات عديدة بعد «تعميد المسيح». وربما في فترة التمهُّن هذه رسم ليوناردو لوحة «البشارة» المعلقة في متحف اللوڤر بملاكها غير المألوف وفتاتها المرتبكة. فهو لم يكن بعد قد تعلّم التناسق من ڤيروتشيو.

في عام 1472 قُبل في عضوية «رفقة القديس لوقا». وكانت هذه النقابة، التي تألفت أساساً من صيادلة وأطباء وفنانين، قد اتخذت مقراً لها في مستشفى سانتا ماريا الجديدة. ويُزعم أنّ ليوناردو وجد هناك بعض الفرص لدراسة التشريح الداخلي والخارجي على السواء. وقبل أسبوع واحد من عيد ميلاده الرابع والعشرين، استدعي ليوناردو وثلاثة شبان آخرين أمام لجنة من السادة الفلورنسيين للرد على اتهام بأن بينهم علاقات جنسية مِثلية. وأما نتيجة هذا الاستدعاء فليست معروفة، لكنه في يوم 7 حزيران/يونيو 1476 تكرر الاتهام نفسه؛ وحبست اللجنة ليوناردو لفترة قصيرة ثم أطلقت سراحه وأسقطت التهمة باعتبار أنها لم تَثْبُت عليه. والأمر الذي لا شك فيه أنه كان جنسياً مثلياً. فبمجرد أن أمكنه تملّك مرسمه الخاص، جمع حوله شبّاناً يتسمون بالوسامة، وكان يأخذ بعضهم معه في تطوافه من مدينة إلى مدينة: وقد أشار إلى واحد أو آخر منهم في مخطوطاته باعتباره «محبوبي الأثير» أو «الأعزّ». ماذا كان من أمر العلاقات الحميمة بينه وبين أولئك الشبان، ذلك شأن لا نعرفه. إن بعض الفقرات في ملاحظاته يوحي بنفور من الجماع الجنسي في أي شكل. ولعل ليوناردو كان يشك ـ بصورة معقولة ـ في السبب الذي من أجله خُصَّ ونفر قليل باتهام علني في حين كانت الجنسية المثلية منتشرة على نطاق واسع في إيطاليا في ذلك الزمان. وهو لم يغفر أبداً لفلورنسا إساءتها إلى كرامته بالقبض عليه.

ويبدو أنه أخذ المسألة بجدية أكبر مما أخذتها المدينة. فبعد عام من ذلك الاتهام وجهت الدعوة إليه، ووافق على قبول مرسم له في حدائق الميديتشي؛ وفي عام 1478 طالبه «السيد» نفسه أن يرسم لوحة مذبح لكنيسة سان برنارد الصغيرة في بالازو ڤيتشيو. ولسبب ما لم ينفذ هذه المهمة، وتولاها غيرلاندايو، ثم أكملها فيليبينو ليپي. مع ذلك فإن «السيد» سرعان ما كلفه ـ ومعه بوتيتشيللي ـ بمهمة أخرى: أن يرسم صوراً بالطول الكامل لاثنين من الرجال كانا قد شنقا

جزاء مؤامرة الباتزي ضد لورنزو وچوليانو دي ميديتشي. وربما كان ليوناردو - باهتمامه شبه المَرَضي بالتشوُّه والمعاناة البشريين - قد شعر بشيء من الافتتان بهذه المهمَّة الشنيعة.

لكنه في الحقيقة كان مهتمّاً بكل شيء: كل أوضاع وحركات الجسم البشري؛ كل تعبيرات الوجه لدى الشبان والشيوخ، كل أعضاء الحيوانات والنباتات وحركاتهما من ذرّ القمح في الحقل إلى تحليق الطيور في الجو؛ كل دورات التعرية والتراكم في الجبال؛ كل تيارات المياه والرياح ودواماتها، أمزجة الطقس، ظلال الغلاف الجوي، والتنويعات التي لا تنتهي في السماء - كل هذه كانت تبدو له مثيرة للعجب بصورة لا نهائية، وما كان التكرار ليقلّل بالنسبة إليه من عظمتها وغموضها؛ ولقد ملأ آلاف الصفحات بملاحظات تتعلق بها، ورسوم لأشكالها التي لا تُحصى. وعندما سأله رهبان سان سكوبيتو أن يرسم لوحة لكنيستهم الصغيرة (1481)، فإنه رسم كثيراً من الخطاطات لكثير من ملامحها وأشكالها إلى حد أنه أضاع نفسه في التفاصيل ولم يُكمل أبداً لوحته «توقير المجوس».

مع ذلك فإنها واحدة من أعظم لوحاته. وكانت الخطة التي طوّر اللوحة منها مرسومة على نمط هندسي دقيق في المنظور، حيث المساحة برمَّتها مقسمة إلى مربعات متلاشية؛ لقد تنافس الرياضي في ليوناردو دائماً - وغالباً ما تعاون مع - الفنان. لكن الفنان كان قد تطوَّر بالفعل. لقد قُدِّر للعذراء أن تبقى محتفظة بالوضع والملامح ذاتها التي كانت لها في عمل ليوناردو حتى النهاية؛ أما المجوس فقد رُسموا بفهم ملحوظ من شابٍ لشخصية الرجال المتقدمين في العمر وتعبيراتهم؛ و«الفيلسوف» البادي إلى اليسار كان دراسة في اللون البني لتأمل نصف شكّي، كما لو أن الرسام رأى للتو الحكاية المسيحية بروح ميَّالة إلى الشك رغماً عنها لكنها مع ذلك ورعة. وحول هؤلاء الأشخاص تجمَّع خمسون آخرون، كما لو أن كل نوع من الرجال والنساء قد هرع إلى هذا المهد باحثاً بنهم عن معنى الحياة وبعضاً من «نور العالم»، ويجد الإجابة في فيض متدفق من المواليد.

هذه التحفة الفنية غير المكتملة - التي كاد الزمن أن يزيلها - معلَّقة في «الأوفيزي» (المكتب) في فلورنسا. ولكن فيليبينو ليبِّي كان هو الذي نفَّذ الرسم

الذي وافقت عليه رابطة أخوّة سكوبيتيني. في البداية، أن يتصور بثراء مفرط، وأن يفقد نفسه في تجربة التفاصيل، وأن يرى ما وراء موضوعه منظوراً غير محدود للأشكال البشرية والحيوانية والنباتية والمعمارية، وللصخور والجبال، والجداول والسحب والأشجار، في ضوء غامض يتوزع بين النور والظلمة؛ وأن ينغمس في فلسفة الصورة وليس في إنجازها التقني، وأن يدع للآخرين المهمة الأدنى، مهمة تلوين الأشكال التي رُسمت وحُدِّدت مواضعها على هذا النحو، لتكشف عن مغزاها؛ وأن يتحول في يأس، بعد عمل ذهني وجسماني طويل، عن النقص الذي جَسَّدت به اليد والمواد الحلمَ: هذا ما كانت عليه شخصية ليوناردو ومصيره، مع قليل من الاستثناءات، حتى النهاية.

ربما كان يدخل على كل عمل فني بهدف أن يحل مشكلة تقنية تتعلق بالتكوين أو اللون أو التصميم، ويفقد اهتمامه بالعمل حينما يكون الحل قد وُجد. إنه القائل إن الفن يكمن في التصور والتصميم، وليس في التنفيذ الفعلي؛ فذلك عمل لعقول أدنى مرتبة. أو كان يصوِّر لنفسه شيئاً من الرقة أو المغزى أو الكمال الذي لم تكن تستطيع أن تحققه يده المريضة، أو التي تفقد صبرها في النهاية، فكان يتخلى عن الجهد يائساً. كان ينتقل بسرعة مفرطة من مهمة أو موضوع إلى آخر، كان معنياً بأشياء كثيرة إلى درجة مفرطة؛ وكان يفتقر إلى وحدة الغرض، إلى فكرة مهيمنة؛ كان هذا «الإنسان الكوني» مزيجاً من قطع رائعة؛ كان مالكاً ومسكوناً بكثير من القدرات إلى حد الإفراط، فلم يكن باستطاعته أن يسخِّرها لهدف واحد.

كتب خمسة آلاف صفحة، لكنه لم يكمل كتاباً واحداً قط. من الناحية الكمية كان مؤلفاً أكثر منه فناناً، طمح لأن يكون كاتباً جيداً، قام بمحاولات عديدة في مجال البلاغة، كما في أوصافه المتكررة لفيضان، «وكتب شروحاً مفعمة بالحيوية لعاصفة ولمعركة». وكان من الواضح أنه ينوي نشر بعض كتاباته، وغالباً ما بدأ في وضع ملاحظاته مرتبة لهذا الغرض. وبقدر ما نعرف، فإنه لم ينشر شيئاً طوال عمره؛ ولكن لا بد أنه سمح لبعض الأصدقاء بأن يروا مخطوطات مختارة له، لأن هناك إشارات إلى كتاباته في مؤلفات فلاڤيو بيوندو وجيروم كاردان وتشيلليني. وكتب كثيراً بالمثل في العلم والفن، وقسم وقته بالتساوي تقريباً بينهما. والأضخم بين مخطوطاته هو «رسالة في الرسم

والتصوير»، نشرت للمرة الأولى في عام 1651. وعلى الرغم من التحرير الحديث المتفاني في الإخلاص، فإنها لا تزال تجميعاً سائباً لأجزاء في ترتيب تعيس ومتكرر في أغلب الأحيان. ولقد استبق ليوناردو أولئك الذين يذهبون إلى أن بالإمكان تعلم فن التصوير عن طريق التصوير فحسب؛ وهو يعتقد أن معرفة سليمة بالنظرية تفيد؛ وهو يسخر من منتقديه باعتبارهم مثل «أولئك الذين أعلن ديميتريوس أنه لا يأبه للريح التي تصدر من أفواههم أكثر من تلك التي يطردونها من الأجزاء السفلى من أجسامهم». كان مبدؤه الأساسي هو أنه يتعين على طالب الفن أن يدرس الطبيعة لا أن ينسخ أعمال الفنانين الآخرين. «فلتراع أيها الرسّام حينما تذهب إلى الحقول أن توجِّه اهتمامك إلى الأشياء المتنوعة، ناظراً بعناية وبالترتيب أولاً إلى شيء ثم إلى آخر، لتصنع حزمة من أشياء مختلفة اختيرت من بين تلك ذات القيمة الأقل». وبطبيعة الحال يتعين على الرسّام أن يدرس التشريح والمنظور والنمذجة في الضوء وفي الظل؛ فتعيين الحدود بشكل قاطع يجعل الصورة تبدو جامدة. «ارسم الصورة دائماً بحيث لا يميل الصدر في اتجاه الرأس نفسه» هنا واحد من أسرار التناسق في تكوينات ليوناردو الخاصة. وهو في الختام يذهب إلى أن من الضروري «رسم الصور بما يكفي من الحركة لإظهار ما يجول في عقل الشخص المرسوم». فهل نسي هو أن يفعل هذا مع لوحة «موناليزا»، أم أنه بالغ في قدرتنا على قراءة الروح في العينين والشفتين؟

لقد رسم لوحات شخصية للودوفيكو، الوصي على عرش ميلانو، وعروسه الجميلة بياتريس ديستي وأطفالهما، ولعشيقتَيْ لودوفيكو: سيسيليا غافليناري ولوكريزيا كريفيللي - وقد فقدت هذه اللوحات ما لم تكن La Belle Ferroniere (جميلة فيرونيير) المعلقة في متحف اللوفر هي لوكريزيا. ويتحدث فاساري عن اللوحات الشخصية للأسرة باعتبارها «رائعة»، وعن أن صورة لوكريزيا ألهمت شاعراً لكتابة نعي متوهِّج لجمال السيدة ومهارة الفنان.

ربما كانت سيسيليا هي الموديل للوحة ليوناردو «عذراء الصخور». وكان قد تعاقد على هذه اللوحة (1483) لصالح رابطة أخوَّة الحمل لتكون القسم الأوسط في لوحة مذبح كنيسة سان فرانسيسكو. وقد اشترى اللوحة الأصلية فيما بعد فرانسيس الأول وهي الآن في متحف اللوفر. وحين نقف أمامها نلاحظ

الوجه الأمومي الرقيق الذي عمد ليوناردو إلى استخدامه عشرات المرات في أعمال لاحقة؛ ملاك يذكر بالملاك الآخر في لوحة ڤيروتشيو «تعميد المسيح»؛ طفلان مرسومان بطريقة رائعة؛ وخلفية لصخور بارزة معلقة ما كان يمكن إلا لليوناردو أن يتصوَّرها كمسكن لمريم. لقد اكتسبت الألوان قتامة بفعل الزمن، ولكن من الممكن أن يكون الفنان قد تعمَّد هذا التأثير الإظلامي، وغمر صوره بجوٍ ضبابي تسميه إيطاليا بـ «المدخَّن». هذه واحدة من أعظم صور ليوناردو، لا تتفوَّق عليها إلا لوحات «العشاء الأخير» و «موناليزا» و «العذراء والطفل والقديسة آن».

«العشاء الأخير» و «موناليزا» هما أشهر لوحات العالم. ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، يدخل الجميع قاعة الطعام التي تضمّ أكثر أعمال ليورناردو طموحاً. وفي ذلك المبنى المستطيل كان الرهبان الدومنيكان الذين ارتبطوا بكنيسة لودوڤيكو الأثيرة ـ كنيسة سانتا ماريا ديل غريزي ـ يتناولون وجباتهم. وبُعَيْد وصول الفنان إلى ميلانو طلب منه لودوڤيكو أن يعرض «العشاء الأخير» على أبعد جدار في قاعة الطعام. ولثلاث سنوات (1495-1498) وبين وقت وآخر، ظل ليوناردو يعمل وينغمس في المهمَّة، بينما الدوق والرهبان يغتاظون لتأخره غير المحسوب. وإذا صدّقنا رواية ڤاساري، فإن رئيس الدير شكا للودوڤيكو كسل ليوناردو الظاهر وتعجَّب متسائلاً لماذا يجلس في بعض الأحيان أمام الجدار لساعات دون أن تلمس فرشاته اللوحة. ولم يكن من الصعب على ليوناردو أن يفسِّر للدوق ـ الذي وجد بعض الصعوبة في تفسير الأمر لرئيس الدير ـ أن أهم ما في عمل الفنان يكمن في التصوّر أكثر مما يكمن في التنفيذ؛ وحسب إيضاح ڤاساري، فإن «الرجال ذوي العبقرية يبدعون أكثر حينما يعملون أقل». قال ليورنادو للوديڤيكو إنه كانت في هذه الحالة بالذات صعوبتان خاصتان ـ تصور الملامح التي تليق بابن الرب، وتصوير رجل لا قلب له مثل يهوذا؛ ولعله أشار بمكر إلى أنه كان يمكن أن يستخدم الوجه الذي شوهد مرات ومرات، وجه رئيس الدير، كنموذج للأسخريوطي. لقد ظل ليوناردو يفتش في أنحاء ميلانو عن رؤوس ووجوه يمكن أن تفيده في تمثيل الحواريين؛ ومن بين مئة ممن كان ينشدهم، اختار الملامح التي انصهرت في بوتقة فنِّه لتصبح تلك الرؤوس التي اكتسب كل منها فرديته بصورة مدهشة، والتي صنعت أعجوبة التحفة

المحتضرة. كان في بعض الأحيان يندفع من الشوارع أو من مرسمه إلى قاعة الطعام في الدير ويضيف لمسة أو لمستين بفرشاته على الصورة، ويرحل.

كان الموضوع رائعاً، ولكن، من وجهة نظر الفنان، كان مليئاً بالمخاطر. كان يتعيَّن عليه أن يقتصر على أشكال ذكورية ومائدة متواضعة في غرفة بسيطة؛ ما كان يمكن أن يكون هناك إلا أكثر المناظر أو الآفاق الطبيعية قتامة؛ فلا رقَّة امرأة تصلح كخلفية تبرز قوة الرجال؛ ولا حركة ممتلئة بالحيوية يمكن إدخالها لدفع الحركة في صور الأشخاص وتوصيل معنى الحياة. إنما سمح ليوناردو بلمحة من منظر طبيعي من خلال النوافذ الثلاث خلف المسيح. وكبديل عن الحركة صوّر التجمُّع في لحظة التوتر التي تنبَّأ فيها المسيح بأن أحد الحواريين سيخونه، وكل منهم يتساءل، في خوف أو فزع أو دهشة: «هل هو أنا؟». ولقد كان يمكن أن تُختار مجموعة «القربان المقدَّس»، لكن كان من شأن هذا أن يجمِّد الوجوه الثلاثة عشر في رصانة بلا حركة وفي قالب نمطي. أما هنا - على النقيض - فهناك أكثر من مجرد فعل بدني عنيف؛ توجد روح باحثة وكاشفة. ولم يحدث أبداً مرة أخرى أن كشف فنان بمثل هذا العمق في صورة مثل هذه الكثرة من الأرواح. لقد صنع ليوناردو للحواريين عدداً لا يُحصى من الخطاطات الأولية؛ بعض هذه الخطاطات - ليعقوب الأكبر وفيليبُّس ويهوذا - مرسومة بدقة وقوة إلى حد أن رامبرانت ومايكلانجلو وحدهما استطاعا مجاراتها. وحينما حاول ليوناردو أن يتصوَّر ملامح المسيح وجد أن الحواريين قد استنفدوا إلهامه. وحسب ما يقول لوماتزو (حين كتب في عام 1557)، فإن صديق ليوناردو القديم زينال، نصحه بأن يترك وجه المسيح غير مكتمل، قائلاً: «كحقيقة، سيكون من المستحيل تخيُّل وجوه أجمل أو أرق من وجه جيمس الأكبر أو جيمس الأصغر. فلتَقبل إذن سوء طالعك وتترك مسيحك ناقصاً؛ لأنه - خلافاً لذلك - حين يقارن بالحواريين لن يكون منقذهم أو سيدهم». أخذ ليوناردو بالنصيحة. وقد رسم هو أو أحد تلاميذه خطاطة شهيرة (هي الآن في صالة عرض بيريرا) لرأس المسيح، ولكنها صوَّرت حزناً أنثوياً واستسلاماً أكثر مما صوَّرت العزم البطولي الذي دخل «الجِثمانية»(*). وربما كان ليوناردو يفتقر إلى

(*) الجثمانية هي الحديقة التي اعتقل فيها السيد المسيح خارج مدينة القدس بعد أن أفشى عنه يهوذا الأسخريوطي. (المترجم).

الورع العميق الذي ـ لو كان قد أضيف إلى حساسيته وعمقه ومهارته ـ لأمكن له أن يقترب بالصورة أكثر إلى مصاف الكمال.

لأن ليوناردو كان مفكراً مثلما كان فناناً، فقد أشاح بوجهه عن التصوير الجصّي(*) معتبراً أنه عدو للفكر؛ مثل هذا التصوير على الجصّ المبلَّل والملصق لتوِّه ينبغي أن يتم بسرعة قبل أن يجف الجص. فضّل ليوناردو أن يرسم على جدار جاف بألوان ممزوجة بالزيت وممزوجة في مادة هلامية، لأن هذه الطريقة كانت تتيح له أن يتأمل وأن يجرِّب. ولكن هذه الألوان لم تكن تثبت جيداً بالسطح؛ وحتى في حياة ليوناردو، وبفعل الرطوبة المعتادة في قاعة الطعام وغرقها أحياناً في فيضان من الأمطار الغزيرة، بدأ الرسم يتقشر ويتساقط؛ وعندما رأى ڤاساري الصورة (1536)، كانت قد غامت بالفعل: وحينما رآها لوماتزو ـ بعد ستين عاماً من إتمامها ـ كانت بالفعل قد تلفت بحيث لا يمكن ترميمها. وقد ساعد الرهبان في وقت لاحق في انحطاطها عندما شقوا باباً بين سيقان الحواريين إلى داخل المطبخ (1656). وقد أخذ النقش الذي أعيد بواسطته استنساخ اللوحة في أنحاء العالم، لا من الأصل الذي فسد، إنما من نسخة ناقصة صنعها واحد من تلاميذ ليوناردو، هو ماركو دودجيونو. واليوم باستطاعتنا أن ندرس فقط التكوين والخطوط العامة، وبالكاد الظلال والجوانب الدفينة. ولكن أياً كانت عيوب العمل عندما تركه ليوناردو، فإن بعضهم قد أدرك لتوه أنه كان أعظم لوحة أنتجها فن ليوناردو.

بين حين وآخر، خلال السنوات 1503-1506 رسم ليوناردو الصورة الشخصية لموناليزا ـ أي مادونا اليزابيتا، ثالث زوجة لفرانسيسكو ديل جيوكوندو. الذي كان في عام 1512 عضواً في مجلس السادة.

ويُزعم أن طفل فرانسيسكو، الذي دفن في عام 1499 كان أحد أطفال اليزابيتا، وربما ساعد فقده على تكوين الملامح الجادة البادية خلف ابتسامة الجيوكوندا. أمّا أن يدعوها ليوناردو إلى مرسمه مرات عديدة أثناء السنوات الثلاث تلك؛ وأن ينفق على صورتها الشخصية كل أسرار فنه ودقائقه ـ تمثيلها بنعومة بواسطة الضوء والظل، وإحاطتها بمشهد مثير للخيال من الأشجار

(*) يُسمى: الفريسكو، وهو التصوير على الجص فوق الجدران أو الأسقف. (المترجم).

والمياه، والجبال والسماء، وإلباسها ثياباً من المخمل وحرير الأطلس (الساتان) منسوجة في طيّات كل تجعيدة فيها عمل فني رائع؛ وأن يدرس بعناية شديدة العضلات الدقيقة التي تشكل الفم وتحركه، ويجلب الموسيقيين ليعزفوا لها ويضفي على ملامحها الرقيقة الحنان الخالي من الوهم لأم تتذكر طفلها الراحل... فتلك هي التماعات الروح التي بها أتى إلى هذا المزج الأخاذ بين التصوير والفلسفة. ولم تقوَ آلاف الانقطاعات ومئات الاهتمامات المشتتة للانتباه والصراع في الوقت ذاته مع تصميم آنغياري، على كسر وحدة تصوّره وإصراره الحماسي غير المألوف.

هذا هو - إذن - الوجه الذي طرح ألف ماعون ورق على بحر من الأحبار. ليس هذا وجهاً محبّباً بصورة غير عادية؛ لقد كان يمكن لأنف أقصر أن يطرح مزيداً من مواعين الورق. وكثير من الفتيات المصوّرات بالزيت أو المنحوتات بالرخام - كما في أيٍّ من أعمال كوريجيو(*)- كان يمكن أن تجعل موناليزا بالمقارنة معتدلة الجمال فحسب. إن ابتسامتها هي التي صنعت شهرتها طوال القرون: تلؤلؤ ناشىء في عينيها، وانحناءة ابتسامة مكبوتة على شفتيها.

ما الذي ترمي إليه ابتسامتها؟ وماذا عن جهود الموسيقيين للترفيه عنها؟ وعن الكد المتمهل الذي يبذله فنان يصورها خلال ألف يوم ولا ينتهي أبداً من هذا؟ أم أنها ليست ابتسامة موناليزا وحدها، إنما النساء كافة يقلن للرجال بأسرهم: «أيها المحبون المولهون المساكين! طبيعة تأمر كيفما اتفق بأن تظل أعصابكم تحترق بجوع غير مجد إلى لحمنا، وعقولكم الضعيفة تحترق بإضفائها على نحو غير معقول طابعاً مثالياً على مفاتننا، ترفعكم إلى أشعار غنائية تنحسر مع اكتمالها - وذلك كله حتى يمكنكم أن تسقطوا عاجلاً في الأبوة! هل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر إثارة للسخرية؟ لكننا نحن أيضاً وقعنا في الشرك؛ نحن النساء ندفع ثمناً لافتتاننا بكم أغلى مما تدفعونه أنتم. مع ذلك - أيها الحمقى الظرفاء - فإنه لممّا يسر أن نكون مرغوبين والحياة تسترد قيمتها حينما نكون محبوبين».

(*) Antonio Allegri da Corregio (حوالى 1489-1534) مصور إيطالي اشتهر باستخدامه التداخل بين الضوء والظلمة والخطوط غير المحددة والاهتمام بالموضوعات الأسطورية، وكانت للوحاته تأثيرات حسية وحتى شبقية. (المترجم).

أم أنها كانت فقط ابتسامة ليوناردو نفسه التي ارتدتها موناليزا ـ ابتسامة الروح المنحرفة التي بالكاد تتذكر لمسة الحنان من يد امرأة، وما كان يمكن أن تعتقد بمصير آخر للحب أو العبقرية غير التحلل القبيح، وشهرة صغيرة تومض في ذاكرة الإنسان الكثير النسيان؟

عندما انتهت في آخر المطاف الجلسات، احتفظ ليوناردو بالصورة زاعماً أنها ـ وهي الأكثر اكتمالاً بين كل الصور الشخصية ـ لا تزال غير مكتملة. ربما لم يرق للزوج احتمال أن تقلب زوجته شفتيها أمامه وأمام ضيوفه، ساعة بعد ساعة من فوق جدران قصره. وبعد سنوات عديدة اشتراها فرانسيس الأول مقابل 4 آلاف كراون (50 ألف دولار) ووضعها في إطار في قصره في فونتينبلو. واليوم ـ بعد أن طمس الزمن والترميمات جوانبها الخفية ـ هي الآن معلقة في صالون كاري الملكي في متحف اللوڤر، يستمتع بها يومياً آلاف المتعبدين، الذين ينتظرون أن يطمس الزمن ابتسامة موناليزا ويؤكّدها.

المخترع

من الصعب أن ندرك أنه بالنسبة للودوڤيكو، كما بالنسبة لسيزار بورغيا، كان ليوناردو مهندساً. حتى المهرجانات التي كان يخططها لدوق ميلانو كانت تتضمن عروضاً ميكانيكية غير مألوفة.

يقول ڤاساري: «كل يوم كان يصنع نماذج وتصاميم لإزالة الجبال بسهولة وخرقها من أجل المرور من مكان إلى آخر، وبواسطة عتلات ومرفاعات وأوناش لرفع الأوزان الثقيلة ونقلها. اخترع وسائل لتنظيف المرافىء ولرفع المياه من أعماق سحيقة». «طور آلة لصنع أسنان اللوالب؛ وعمل على أسس سليمة باتجاه صنع عجلة مائية، وصمَّم مكابح شريطية بكرات محامل لا احتكاكية. وصمَّم أول مدفع آلي، ومدافع هاون ذات تروس مسنّنة لرفع مداها. كذلك صمَّم آلية حركة متعددة الأحزمة، وتروساً ناقلة ذات سرعات ثلاث، ومفتاح ربط منزلق الفكّ يمكن تعديل اتساعه، وآلة لدرفلة المعادن، وقاعدة متحركة لآلات الطباعة، وترساً دوديًّا يقفل ذاتياً لرفع سلم. وكانت لديه خطة للملاحة تحت الماء، لكنه رفض أن يشرحها. وأحيا فكرة محرك بخاري باسم «بطل الإسكندرية»، وبيّن كيف يمكن

لضغط البخار داخل مدفع أن يقذف مسماراً حديدياً لمسافة ألف ومائتي ياردة. اخترع وسيلة للف الخيوط وتوزيعها بالتساوي على مغزل دوّار، ومقصات تفتح وتقفل بحركة واحدة من اليد. وغالباً ما كان يترك لخياله العنان لتشويش ذهنه، كما كان الحال حينما اقترح زحلوقة يمكن نفخها للسير فوق الماء، أو طاحونة مائية يمكنها في الوقت نفسه أن تعزف آلات موسيقية متعددة. كما وصف مظلة هبوط: «لو كانت لدى الإنسان خيمة مصنوعة من كتان سدّت جميع ثقوبه، وكان قطرها اثني عشر ذراعاً وعمقها اثني عشر ذراعاً، فإنه سيكون قادراً على أن يرمي بنفسه من أي ارتفاع كبير دون أن تلحق به أي إصابة».

طوال حياته ظل ليوناردو يفكر ملياً في مشكلة طيران الإنسان. فعلى غرار تولستوي كان يحسد الطيور معتبراً إياها أكثر تفوّقاً على الإنسان من جوانب كثيرة. وقد درس بالتفصيل عمل أجنحتها وأذيالها وميكانيكيات ارتفاعها وانحدارها وانعطافها وهبوطها. ولاحظت عينه الثاقبة هذه الحركات بفضول جامح، ورسمها وسجلها بقلمه الرصاص السريع. ولاحظ كيف تترك الطيور نفسها لتيارات الهواء وضغوطه. وصنع رسوماً عدة لآلية لولبية الشكل يستطيع الإنسان بها ـ عن طريق حركة قدميه ـ أن يجعل الأجنحة ترفرف بسرعة تكفي لرفعه في الهواء. وقد وصف في مقال موجز (في الطيران) آلة طائرة صنعها بنفسه من قماش مقوّى بمادة النشا، ومفاصل من الجلد، وسيور من الحرير الخام، وأطلق عليها اسم «الطائر»، وكتب تعليمات تفصيلية بشأن تحليقها.

هل حقاً حاول أن يطير؟ تقول ملحوظة كتبها في «كوديسي أتلانتيكو»: غداً صباحاً، في اليوم الثاني من كانون الثاني/ يناير 1496 سأصنع الحزام وأجري المحاولة»؛ ونحن لا نعرف ما الذي تعنيه هذه الملحوظة. لكن فازيو كاروانو، والد الفيزيائي جيروم كاردانو (1501-1576) أبلغ ابنه بأن ليوناردو نفسه قد حاول الطيران. وقد اعتقد بعضهم أنه حينما كسر أنتونيو ـ وهو أحد مساعدي ليوناردو ـ ساقه في عام 1510، فإن ذلك كان في محاولة للتحليق بإحدى آلات ليوناردو. ونحن لا ندري.

لقد كان ليوناردو يسير على الخط الغلط؛ فالطيران لم يأت عن طريق تقليد الطير، فيما عدا في الانحدار، إنما أتى بتطبيق محرك الاحتراق الداخلي على

مروحة يمكنها دفع الهواء لا إلى أسفل إنما للخلف. فالسرعة للأمام هي التي جعلت التحليق عالياً ممكناً. ولكن التمييز الأنبل للإنسان هو ولعه بالمعرفة. فحين تصدمنا الحروب وجرائم الجنس البشري، وتثبط همتنا أنانية القدرة واستمرار الفقر، وتحزننا الخرافات والسذاجات التي تجمّل فيها الأمم والأجيال قصر الحياة ومهانتها، نشعر بأن جنسنا نجا في جانب منه حينما نرى أنه يستطيع أن يحتفظ بحلم سامق في عقله وقلبه لثلاثة آلاف عام.. من أسطورة ديدالوس وإيكاروس، عبر تلمّسات ليوناردو المتعثرة وآلاف غيره، حتى انتصار عصرنا المجيد والمأسوي.

العالِم

جنباً إلى جنب مع رسومه، أحياناً على الصفحة ذاتها، وأحياناً مخربشة على رسم تخطيطي لرجل أو امرأة، منظر طبيعي أو آلة، توجد ملاحظات كان هذا العقل النهم يحاول من خلالها حل ألغاز قوانين الطبيعة وعملياتها. ربما خرج العالِم من عباءة الفنان: فلوحات ليوناردو حملته على دراسة التشريح وقوانين التناسب ومنظور التكوين وانعكاس الضوء، وكيمياء الأصباغ والزيوت. ومن هذه الأبحاث اجتذبه بحث أكثر حميمية في البنية والوظيفة لدى النباتات والحيوانات؛ ومن هذه البحوث ارتفع إلى تصور فلسفي للقانون الطبيعي الكلي وغير القابل للتغير. وغالباً ما كان الفنان يطل من جديد في العالِم؛ ويمكن أن يكون الرسم العلمي نفسه من قبيل الجمال، أو يمكن أن ينتهي في زخرفة عربية (أرابيسك) رقيقة. لقد جرب نفسه في كل علم تقريباً. اتجه بحماس إلى الرياضيات باعتبارها الشكل الأنقى للاستدلال العقلي. وشعر بجمال معين في الأشكال الهندسية، ورسم بعضها على الصفحة نفسها التي رسم عليها خطاطة لـ «العشاء الأخير». وقد عبر بقوة عن واحد من المبادىء الأساسية للعلم: «ليس هناك يقين حيث لا يمكن للمرء أن يطبق أياً من العلوم الرياضية أو أياً من تلك العلوم التي لا تقوم على أساسها». وردد بفخر قول أفلاطون: «لا تدعوا رجلاً ليس عالماً رياضياً يقرأ عناصر كتبي».

تسلح ليوناردو بنص ثيوفراسطس العظيم في النباتات ووجه عقله اليقظ

إلى «التاريخ الطبيعي». فحص النظام الذي على أساسه تنتظم أوراق الشجر حول سويقاتها، وصاغ قوانينها. لاحظ أن الدوائر في قطاع عرضي لجذع شجرة تسجل بعددها سنوات نموِّها، وباتساعها مطر سنتها. ويبدو أنه كان يشارك في كثير من أوهام عصره فيما يتعلق بقدرة حيوانات معينة على شفاء بعض الأمراض البشرية بمجرد وجودها أو ملامستها. وقد كفَّر عن هذه السقطة التي تند عن الإيمان بالخرافة ببحث تشريح الحصان بدرجة من الشمول لا سابق لها في التاريخ المدوّن. وقد أعد رسالة خاصة في الموضوع ولكنها فقدت أثناء الاحتلال الفرنسي لميلانو. وكاد أن يفتتح علم التشريح المقارن الحديث بدراسة أطراف البشر والحيوانات جنباً إلى جنب. وقد نحى جانباً سلطة جالينوس(*) التي شاخت مع الزمن، وأدى عمله مستخدماً أجساداً فعلية. وهو لم يصف تشريح الإنسان، في كلمات وإنما في رسوم فاقت كل ما تم عمله في ذلك المجال حتى وقتها. وخطط لوضع كتابٍ في الموضوع ذاته، وترك له مئات من الرسوم التوضيحية والملاحظات. وقد زعم أنه «شرّح أكثر من ثلاثين جثة بشرية»، وتؤيد زعمه هذا الأعداد التي لا تحصى من رسومه للأجنّة والقلب والرئتين والهيكل العظمي والهيكل العضلي والأحشاء والعين والجمجمة والمخ والأعضاء التناسلية للمرأة. وكان أول من أعطى - في رسوم وملاحظات بالغة الأهمية - وصفاً علمياً للرحم، ووصف بدقة الأغشية الثلاثة التي تحتوي الجنين. كما كان أول من رسم التجويف العظمي الذي يدعم الوجنة، والذي يسمى اليوم الجيب الفقمي. صب الشمع في صمامات قلب ثورٍ ميت لكي يحصل على السعة المضبوطة لتجاويف القلب. كذلك كان أول من حدّد خصائص التربيق الحاجزي الحافّي (moderator band) للبطين الأيمن. وقد أولع بشبكة الأوعية الدموية. واكتشف الدورة الدموية بالحدس، إلا أنه لم يفهم تماماً آليتها. وكتب «إن القلب أقوى من العضلات الأخرى... والدم الذي يعود حينما يفتح القلب ليس هو نفسه الذي يُغلق الصمامات». وتتبع مسار الأوعية الدموية والأعصاب والعضلات في الجسم بدرجة عالية من الدقة. وعزا تقدم العمر إلى تصلب الشرايين، وعزا هذا بدوره إلى نقص التمارين البدنية. وقد بدأ كتابة مجلد «الشكل البشري» حول

(*) جالينوس: الطبيب والفيلسوف اليوناني الشهير من القرن الثاني الذي ظل قروناً طويلة يُعدّ السلطة الأعلى في مجالات الطب وعلم الأحياء (المترجم).

النسب الصحيحة للشكل البشري كدليل للفنانين، وقد أدمجت بعض أفكاره في كتاب صديقه باكيولي «في النسب الإلهية». كذلك فقد حلل الحياة الفيزيقية للإنسان من الميلاد إلى الموت، ثم خطط مسحاً للحياة العقلية: «آه لو كان يغبط الرب أن يدعني أيضاً أعرض سيكولوجية عادات الإنسان بأسلوب كالذي أصف به جسده!»

وقد ارتفع ليوناردو إلى مرتبة الفلسفة في دراساته في كثير من الميادين. «آه ما أروعك أيتها الضرورة! إنك بالتعليل الأسمى تقيدين من كافة الآثار لتكون النتيجة المباشرة لأسبابها، وبقانون أعلى لا راد له يطيعك كل فعل طبيعي عن طريق أقصر العمليات الممكنة». يردد هذا كل الرنين الفخور لعلم القرن التاسع عشر، ويوحي بأن ليوناردو قد أضفى بعض ظلال اللاهوت. كتب ڤاساري - في الطبعة الأولى من كتابه عن حياة الفنان - أنه «كان نوعاً من العقل المهرطق حتى أنه لم يلتزم بدين أياً كان، معتبراً أن فرصته في أن يكون فيلسوفاً أفضل من فرصته في أن يكون مسيحياً». ولكن ڤاساري محا هذه الفقرة من طبعاته اللاحقة. فشأنه شأن كثيرين من مسيحيي عصره، كان ليوناردو يسخر بين حين وآخر من رجال الدين، فكان يصفهم بالفريسيّين ويتهمهم بخداع البسطاء بمعجزات زائفة، وكان يبتسم إزاء «العملة الزائفة» لصكوك الغفران الكنسية التي كانوا يعطونها مقابل نقود هذا العالم. وكتب في أحد أيام الجمعة الحزينة: «اليوم العالم بأسره في حداد لأن رجلاً واحداً مات في الشرق». ويبدو أنه كان يعتقد أن القديسين الموتى غير قادرين على سماع الصلوات الموجهة إليهم: «لقد كنت أود أن تكون لي هذه القدرة اللغوية التي كانت ستتيح لي حتماً أن ألوم أولئك الذين يضعون عبادة البشر في مكانة أرفع من عبادة الشمس... إن أولئك الذين أرادوا عبادة البشر كأنهم آلهة قد ارتكبوا خطأ جسيماً». وسمح لنفسه بحرية انتقاد صنع الأيقونات المسيحية أكثر من انتقاد أي من فناني عصر النهضة الآخرين: لقد قمع الهالات ووضع العذراء على ركبتي أمها وجعل المسيح الطفل يحاول أن يمتطي الحمل الرمزي. كان يرى العقل في المادة، ويؤمن بنفس روحية. ولكن يبدو أنه اعتقد أن النفس يمكن أن تفعل فعلها فقط من خلال المادة، وفقط في انسجام مع قوانين غير قابلة للتغير. كان يخاطب الرب بخشوع وحماسة في بعض الفقرات، ولكنه في أوقات أخرى كان يطابق بين الرب والطبيعة، بين

القانون الطبيعي و «الضرورة». كان مذهب وحدة الوجود الصوفي دينه حتى سنواته الأخيرة.

يحتمل أن يكون ليوناردو قد رسم القليل بعد عام 1517، لأنه في تلك السنة عانى من سكتة دماغية أصابته بالشلل التام في نصفه الأيمن. فكان يرسم بيده اليسرى، ولكن كان بحاجة إلى يديه كلتيهما ليؤدي عملاً دقيقاً. كان عندئذ قد أصبح شبحاً مجعداً للشاب الذي وصلت سمعة جمال جسمه ووجهه إلى ڤاساري عبر نصف قرن يفصل بينهما. خبت ثقته السابقة بنفسه، واستسلمت جدية روحه لآلام الانحطاط، وتراجع حبه للحياة ليحل محله أمل ديني. كتب وصية بسيطة، إلا أنه طلب أن تؤدى كل الصلوات في الكنيسة في جنازته. وكان قد كتب في إحدى المرات: «كما أن قضاء يوم على نحو جيد يجعل الخلود إلى النوم لذيذاً، هكذا الحياة التي استُخدمت جيداً تجعل الموت شيئاً لذيذاً». ويحكي ڤاساري قصة تمس شغاف القلوب عن الكيفية التي مات بها ليوناردو يوم 2 أيار/مايو 1519 بين ذراعي الملك فرانسيس الأول. (كان ليوناردو قد وصل إلى فرنسا في عام 1516 بمقتضى عقد مع فرانسيس ليكون «مصوِّر الملك ومهندسه ومعماريه، وميكانيكيّ الدولة»)؛ إلا أن فرانسيس كان في مكان آخر وقتها على ما يبدو. وقد دُفن الجثمان في دير كنيسة سان فلورنتين الجامعية في آمبواز.

أين سنضع مرتبته؟ من منا يملك ذلك التنوع من المعرفة والمهارات اللازمة للحُكم على رجل متعدد القدرات مثله؟ إن فتنة عقله المتعدد الجوانب تغرينا بأن نبالغ في أمر إنجازاته الفعلية. ذلك أنه كان أكثر خصوبة في التصوُّر منه في التنفيذ. لم يكن أعظم عالِم أو مهندس أو رسّام أو نحّات أو مفكّر في عصره؛ بل كان مجرد إنسان اجتمع فيه كل هؤلاء ونافس الأفضل في كل من هذه الميادين. ولا بد أنه كان هناك رجال في المعاهد الطبية عرفوا في التشريح أكثر مما عرف؛ كما أن أبرز الأعمال الهندسية في إقليم ميلانو كانت قد أنجزت قبل مجيء ليوناردو؛ كما أن رافائيل وتيتيان تركا على وجه الإجمال صوراً ورسوماً رائعة أكثر تأثيراً من تلك التي خلفتها ريشة ليوناردو. وكان مايكلانجلو نحاتاً أعظم، وماكياڤيللي وجويشيارديني أعمق منه عقلاً. مع ذلك فإن دراسات ليوناردو للحصان ربما كانت أفضل عمل أنجز في علم التشريح في ذلك العصر؛ لقد اختاره لودوڤيكو وسيزار بورغيا ـ من إيطاليا كلها ـ مهندساً لهما. ولا شيء

في لوحات رافائيل أو تيتيان أو مايكلانجلو يعادل «العشاء الأخير»، فلم يجار مصور واحد ليوناردو في براعة التلميح، أو في التصوير الرقيق للشعور والفكر والرقة المتأملة. لم يقيّض لتمثال في ذلك الزمان أن يحظى مرتبة أعلى من مرتبة تمثال «سفوررزا» الذي صنعه ليوناردو من الجص. ولم يتفوّق رسم قط على «العذراء والطفل والقديسة آن»، ولم يرتفع شيء في فلسفة النهضة فوق تصور ليوناردو للقانون الطبيعي.

لم يكن «رجل النهضة»، ذلك أنه كان أرق وأكثر انطواء على الذات وأرقى من أن يمثل عصراً اتسم بهذا القدر من العنف وقوة الفعل والحديث. ولم يكن تماماً «الإنسان الشامل»، حيث إن خصال رجل الدولة أو الإداري لم تجد لها مكاناً ضمن صفاته المتنوعة. إلا أنه، بكل حدوده ونواقصه، كان الإنسان الأكمل لعصر النهضة، وربما لكل العصور. وحين نتأمل إنجازاته، نندهش إزاء المسافة التي قطعها الإنسان انطلاقاً من أصوله، ونجدد إيماننا بإمكانات الإنسانية.

الفصل السادس عشر

النهضة (2): روما

البابوية التائهة (1309-1417)

في عام 1309 كانت البابوية قد تخلت عن روما باعتبارها مدينة لا يمكن حكمها، ووطدت نفسها في آڤينيون، حيث أصبحت أسيرة ملوك فرنسا، الأمر الذي أثار جزع معظم المسيحيين.

وبعد عام 1377 انقسمت البابوية نفسها إلى معسكرات متعادية، حيث البابوات المتنافسون في روما وآڤينيون، بينما انتشرت في البحر الأبيض المتوسط وفي إفريقيا وآسيا الديانة الإسلامية القوية والنزّاعة للحرب، مهددة حياة الديانة المسيحية. استمر هذا الانشقاق البابوي إلى أن اجتمع الأساقفة والأمراء والباحثون في كونستانس في عام 1414، وبعد ثلاث سنوات من المناظرات والتفاوض اختاروا للسدة البابَاوية الكاردينال أودونيه كولونا، الذي اتخذ اسم مارتن الخامس. واستعاد علو سلطة البابوية على المجالس وسرعان ما ملأ الخزانة البابوية، الأمر الذي لم يكن مريحاً لكاثوليكيي مناطق شمال جبال الألب. وفي عام 1430 أطلق مبعوث ألماني إلى روما إشارة التحذير من حركة الإصلاح التي جاءت في عام 1517:

«إن الجشع يتربع حاكماً في بلاط روما ويجد يوماً بعد يوم حيلاً جديدة... لاستخلاص المال من ألمانيا تحت ذريعة رسوم كنسيّة... ومن ثم تلت صيحات الاحتجاج الكثيرة... والحسد؛ كذلك ستُثار تساؤلات كثيرة فيما يتعلق بالبابوية، وإلا فإن الطاعة ستنبذ كلياً في النهاية، هرباً من اغتصاب الأموال الفاحش على يد الإيطاليين؛ وهذا المسلك الأخير - كما أرى - سيصبح مقبولاً في بلدان عديدة».

تلا ذلك نزاع شبه مستتر بين حركة الإصلاح الوليدة وحركة النهضة الناضجة، من أجل السيطرة على دخل وعلى عقل كنيسة روما. وكان مارتن نفسه قد عين كأمين بابوي واحداً من أصحاب النزعة الإنسانية البارزين، هو بوجيو براتشيوليني. أما خليفة مارتن: أوچينيوس الرابع (1431-1447)، فكانت النهضة قد استمالته بالفعل وكان يساعدها أينما قادته نيافته المحصّنة. أبعدته عن روما انتفاضة شعبية كان يقودها كولونّا، ففر مع إدارته البابوية إلى فيرارا واستدعى إليها مجلساً جديداً من المطارنة والكاردينالات.

تضافر حدث كبير في التاريخ العسكري مع وجهات نظره. فبينما كان الأتراك المندفعون يقتربون من القسطنطينية، آتين معهم بالإسلام، كان زعماء المسيحية الشرقية يفرون من عاصمتهم القديمة إلى إيطاليا، ويعرضون الاجتماع إلى الأساقفة الغربيين من أجل اتحاد المسيحية اليونانية والمسيحية اللاتينية. رحب بهم أوچينيوس في فيرارا ودعا مجلساً لكاثوليك روما للاجتماع بهم. هناك، ولمدة ثمانية أشهر ناقش اللاهوتيون الحد الأدنى من الأمور المحبَّبة إليهم في عقائدهم. وحينما انتشر وباء الطاعون في فيرارا، دعا كوزيمو دي ميديتشي اللاهوتيين إلى نقل مشاوراتهم إلى فلورنسا، وبالفعل أتوا إليها ومعهم أوچينيوس، وكرّمهم كوزيمو وأصدقاؤه وأطعموهم واشتروا نصوصهم المقدسة. وأضاف أوچينيوس إلى أمانته (سكرتاريته) فلاڤيو بيوندو وليوناردو بروني وآخرين من ذوي النزعة الإنسانية الإيطاليين الذين كان باستطاعتهم أن يتفاوضوا مع اليونانيين باللغة اليونانية. وافق اللاهوتيون المشردون على توحيد الكنيسة اليونانية والرومانية وعقيدتيهما. ولكن القساوسة والعامة في الشرق المسيحي رفضوا الاتفاق. واستولى الأتراك على القسطنطينية

واستمر الانشقاق الكبير بين المسيحيتين الشرقية والغربية؛ ولكن البابا أوچينيوس، معززاً بموقف الخبراء الكلاسيكيين، حمل النهضة إلى روما.

البابوات الدارسون

كان بين الطلاب المتحمسين الذين أعجب بهم أوچينيوس في فلورنسا توماسو بارنتوتشيللي، وهو قس شاب أنفق كل نقوده على الكتب، وكان يقترض ليشتري المزيد منها، وكان يطمح إلى جمع كل الكتب العظيمة في العالم في مكتبة واحدة.

في عام 1443 نصَّبه أوچينيوس رئيس أساقفة، وفي عام 1446 نُصِّب كاردينالاً. وفي عام 1447 اختاره مجمع الكرادلة بابا. وقد قال معبراً عن دهشته: «من كان يمكن أن يفكر أن قساً قارعاً للأجراس فقيراً يمكن أن يُنصَّب بابا، وسط ارتباك الفخورين؟». كان من الملامح الديمقراطية للعقيدة الكاثوليكية أن بإمكان شاب عادي أن يصعد إلى سدّة البابوية. وقد ابتهج أصحاب النزعة الإنسانية في إيطاليا، وأعلن أحدهم أن رؤيا أفلاطون قد أصبحت حقيقة: فيلسوف أصبح ملكاً.

كانت لنيكولاس الخامس ـ كما أصبح يسمي نفسه ـ أهداف ثلاثة: أن يكون بابا طيباً، وأن يعيد بناء روما، وأن يستعيد الكلاسيكي من الأدب والتعلم والفن. وعندما انهمرت عليه كل إيرادات البابوية، بعث بعملاء إلى أثينا والقسطنطينية وألمانيا وانكلترا ليبحثوا عن المخطوطات اليونانية أو اللاتينية، الوثنية أو المسيحية ويشتروها أو ينسخوها؛ وكوّن فريقاً ضخماً من النساخين والمحررين في الفاتيكان، ودعا كل ذي نزعة إنسانية بارز في إيطاليا تقريباً إلى روما، وكان يدفع أجور باحثيه بسخاء أثار انزعاج مموِّليه وأحزن الأقاليم؛ ووجه النقاد الجسورون اتهاماً بأن مساهمات المؤمنين المخلصين كانت تنفق على مباذل الآداب الوثنية وكماليات الكاردينالات الشكاكين.

وعندما دعا نيكولاس إلى تكريس عُشر كل إيرادات أوروبا الغربية لحملة صليبية ترمي إلى استعادة القسطنطينية من الأتراك (1453)، لم تعره أوروبا آذاناً صاغية. فرضخ نيكولاس للأمر الواقع وبردت شهوة الحياة في عروقه. ومات في عام 1455 في سن الثامنة والخمسين. كان مفرطاً في سخائه، ولكنه أعاد

السلام إلى الكنيسة، وأعاد النظام والأبهة إلى روما. وكان قد أسس مكتبة الڤاتيكان ووحد العالمين الكاثوليكي والقديم (الكلاسيكي)، الكنيسة والنهضة.

بدا التماثل كاملاً في البابا بيوس الثاني. ولد في سيينا في عام 1405 من أسرة البيكدولوميني البارزة، وقد تلقى العمادة باسم إينيا سيلڤيو ولكنه كان يوقّع معظم كتاباته الكثيرة (وكلها تقريباً باللغة اللاتينية) باسم «آينياس سيلڤيوس» على اسم آينياس في «إنيادة» الشاعر فيرجيل؛ وحتى اسمه البابوي كان ترديداً للصفة المفضلة التي كان يطلقها ڤيرجيل على بطله ـ بيوس ـ والتي كانت تعني «التقي» والمخلص تجاه أبويه وبلاده الأصلية. لقد ناسبت الكلمة البابا أكثر مما ناسبت الإنسان، ذلك أنه في سنواته الثلاث والخمسين السابقة على توليه البابوية كان قد أباح لنفسه كل الانحلال الأخلاقي لعصره. اختار دزينة من النساء، وكتب إلى صديق رسالة حب صممت لإذابة عناد فتاة فضّلت الزواج على الزنا. ووسط تجوالاته الضالة ظل مخلصاً فقط للأدب، محباً للكلاسيكيات القديمة، وقد كان أفضل من كتب اللاتينية في عصره. ولأن اللاتينية كانت لغة الدبلوماسية، فإنه كان يجد من يستخدمه بسهولة من العشاق إلى الملوك.

في عام 1445 أرسله فريدريك الثالث ـ الرأس العلماني للامبراطورية الرومانية المقدسة ـ كمبعوث إلى أوچينيوس الرابع. اعتذر سيلڤيوس ـ الذي كان قد هاجم أوچينيوس في منشوراته العديدة ـ بطريقة بليغة للغاية حتى إن الحبر الأعظم الإنساني النزعة عفا عنه بسهولة، ومنذ ذلك الوقت انتمى الباحث التائه إلى البابا. أصبح قسّا (1446)، وفي سن الحادية والأربعين أسلم نفسه للتعفّف ومن وقتها عاش حياة مثالية. وفي عام 1449 نصب أسقفاً لسيينا، وفي عام 1456 أصبح الكاردينال بيتشولوميني؛ وفي عام 1458 اختير للسدة البابابوية.

كان عندئذ في الثالثة والخمسين، وكانت حياته المليئة بالمغامرات قد استنفدت الكثير من قواه بحيث كان يبدو مسنًا بالفعل. لم يقم بأي محاولة لإخفاء أخطاء شبابه وغرامياته، بل على النقيض أصدر بياناً استغفارياً، طالباً من الرب ومن الكنيسة أن يغفرا له. كان قد أصبح إنساني النزعة في فلورنسا، وها هو يضم الآن الباحثين بالاتينا وبيوندو إلى أمانته: كان الأتراك ـ الآتون بدين منافس معهم ـ يتقدمون نحو ڤيينا وداخل بلاد الصرب والبوسنة، وكان يمكن أن

يصلوا عاجلاً إلى بحر الأدرياتيك؛ فما الذي كان يمكن أن يوقفهم عن عبور ذلك البحر إلى داخل إيطاليا المنقسمة المتشاحنة؟

أعلن بيوس الثاني حملة صليبية ثانية؛ توسل إلى دول الشمال أن ترسل أساطيل للانضمام إلى أسطوله، ولم تستجب سوى البندقية. وقاد بيوس سرية خيالة حول إيطاليا وصلت إلى آنكونا وانتظرت آملة وصول البنادقة. وانهار تحت وطأة الإجهاد لحظة وصولهم. نظمت له جنازة رسمية في روما ولكن حملته الصليبية ماتت معه.

أتجاوز البابا سيكستوس الرابع، الذي حكم الكنيسة من عام 1471 إلى عام 1481، وأوصلها قريباً من الإفلاس من خلال الطغيان والحرب، وبنى كنيسة السيستين التي تحمل اسمه، وأعاد بناء مكتبة ‹ڤاتيكان›، وأضاف 1100 مخطوطة كلاسيكية إلى 2527 مخطوطة كانت هناك بالفعل، وعين توركيمادا مديراً لمحاكم التفتيش في إسبانيا. ولقد كان ينبغي أن أغتبط بقول كلمة رقيقة عن البابا الكسندر السادس، وحتى عن نجله عديم الضمير سيزار بورجيا، لكنني أسارع إلى الحديث عن البابا يوليوس الثاني وذروة النهضة الرومانية.

يوليوس الثاني

كان يوليوس قائداً قديراً لا ينثني عزمه، قاد، أو عهد بالقيادة إلى، جيش بعد آخر لاستعادة الدويلات البابوية إلى سلطة البابا كمناطق عازلة ضرورية ضد الإمارات الطامحة إلى السيطرة على الكنيسة. كان مديراً قوياً للشؤون والرجال. مع ذلك فإن بإمكاننا أن نشعر بعمق شخصيته وقوّتها من الصورة الشخصية العميقة التي رسمها له رافائيل والمعلقة في قصر «بيتي» في فلورنسا. وفي ظل قيادته بلغ رافائيل ومايكلانجلو ذروة نضجهما.

رافائيل

ولد رافائيل في عام 1483 لجيوفاني سانتي، الرسام والمصور البارز في أوربينو، وقد أطلق عليه اسم الأجمل بين كبار الملائكة وكبر وسط عبير الفن.

ومن ذلك الشباب السعيد انتقل إلى بيروغيا، حيث تعلم، تحت إشراف بيروچينو لثلاث سنوات، تصوير السيدات (المادونات) الورعات. ثم أغراه بنتوريتشيو للذهاب إلى سيينا وعلّمه أن امرأة يمكن أن تكون إلهة للجمال دون أن تكون أم الرب. وقد تطور الجانب الوثني في رافائيل ـ وهو الجانب الذي سيزيِّن في وقت لاحق حمّام أحد الكرادلة بعرايا في لون الزهر ـ في هذا الفنان اللطيف إلى جانب التقوى التي ستنتج «سيدة السيستين».

في عام 1508 تلقى في فلورنسا دعوة من يوليوس الثاني للمجيء والعمل له في روما. كان مغتبطاً بالذهاب، لأن روما ـ لا فلورنسا ـ كانت آنذاك المركز المثير والحافز للنهضة. وكان يوليوس قد وجد في الڤاتيكان بعض غرف الإدارة التي بدت جدرانها وكأنها تدعو لزخرفة جديدة. وبالتشاور مع لاهوتيين وباحثين، وُضعت خطة لتصوير اتحاد الدين والفلسفة، اتحاد الثقافة الكلاسيكية والمسيحية، الكنيسة والدولة، في حضارة النهضة.

عمل رافائيل في المشروع لمدة أربعة أعوام ونصف العام، بعناية وتفانٍ يكاد يكون دينياً. وعلى أحد الجدران صوّر أقانيم الثالوث المسيحي والعذراء مريم بالقرب منهم؛ وفي سحابة حولهم آدم وإبراهيم وموسى وداوود وبطرس وبولس وغيرهم من أبطال العهدين (القديم والجديد)، تضمهم جميعاً الاستمرارية المنيرة للديانتين(*)، والملائكة وحرّاس العرش يعرجون في الفضاء كما لو كانوا على أجنحة أغنية؛ وتحتهم اللاهوتيون والفلاسفة يتناظرون حول مذهب القربان المقدس، والشخصيات الإنسانية متفردة إلى حد يجعل كل شكلٍ منها سيرة حياة. كل هذا في اللوحة المسماة «نزاع القربان المقدس» من عمل شاب في الثامنة والعشرين.

ولكن هل كان يمكن لهذا المرتزق السعيد بالفرشاة أن يمثّل بقوة وعظمة متساويتين دور العلم والفلسفة بين البشر؟ ليس لدينا دليل على أن رافائيل قرأ الكثير أبداً. كان يتكلم بفرشاته وينصت بعينيه؛ عاش في عالم من الشكل واللون حيث كانت الكلمات أشياء تافهة ما لم تصدر في أفعال الرجال والنساء ذات المغزى. ولا بد أنه كان قد أعد نفسه بدراسة عاجلة، بالانكباب على أفلاطون

(*) المقصود هنا الديانتان اليهودية والمسيحية، (المترجم).

وديوجينس اللايرتي ومارسيليو فيتشينو، وبالتحاور في تواضع مع رجال العلم، كي يرتفع إلى تصوره الأسمى. «مدرسة أثينا» - خمسون شخصاً يلخصون قروناً غنية من الفكر اليوناني، وكلهم مجتمعون في لحظة خالدة تحت العقد المزخرف لرواق وثني معمّد ضخم.

هناك على الجدار قبالة تأليه اللاهوت في لوحة «نزاع»، يقوم تمجيد الفلسفة: أفلاطون بعينيه العميقتين وحاجبيه اللذين يشبهان حاجبي (كبير الآلهة) جوبيتر، وشعره ولحيته البيضاوين المرسَلَيْن، مع أصبع يشير للأعلى إلى دولته الفاضلة الكاملة؛ وأرسطو يمشي بهدوء إلى جانبه، يصغره بثلاثين عاماً، وسيماً ومبتهجاً، يمد يده وراحتها للأسفل كما لو كان يعيد مثالية أستاذه السامقة إلى الأرض وإلى الممكن. سقراط يعد حججه على أصابعه. بينما ينصت ألكبيادس المسلح إليه بإعجاب؛ فيثاغورس يحاول أن يحبس داخل جداول متجانسة موسيقى الأفلاك(*)؛ وسيدة جميلة يمكن أن تكون أسباسيا(**)، وهيرقليطس يكتب ألغازه الأفسيسية، وديوچين يرقد غير مبال وقد حُل رداؤه على العتبات الرخامية؛ أرخميدس يرسم هندسياته على لوح لأربعة شبان منهمكين؛ بطليموس وزارادشت يتقاذفان الكرات؛ وصبي إلى الجانب الأيسر يركض ملهوفاً ومعه كتب، يبحث يقيناً عن توقيع؛ وغلام مثابر يجلس في ركن يدوِّن ملحوظات؛ وعلى الجانب الأيسر ينظر خلسة فيدريغو ابن مدينة مانتوا، طفل يوليوس المدلل؛ وبرامانتي مرة أخرى؛ ويختبىء في تواضع، لا يكاد يُرى، رافائيل نفسه، وقد أطلق الآن شارباً. وهناك كثيرون غيرهم، سندع للنقاد في وقت الفراغ أن يتنازعوا بشأنهم؛ وعلى العموم، لم يصوِّر مثل هذا البرلمان للحكمة من قبل، وربما لم يتصوره أحد قط قبل ذلك. ولا كلمة واحدة عن الهرطقة، ولا عن فلاسفة أُحرقوا على الخازوق؛ هنا في ظل حماية بابا أعظم من أن يُعير اهتماماً للاختلاف بين خطأ وآخر، جمع هذا المسيحيّ الشاب فجأة كل هؤلاء الوثنيين معاً، وصوَّرهم في شخصياتهم هم وبفهم وتعاطف ملحوظين، ووضعهم حيث كان باستطاعة اللاهوتيين أن يروهم وأن يتبادلوا معهم عدم المعصومية من الخطأ،

(*) المقصود عالما الأرض والسماء. (المترجم).

(**) أسباسيا (حوالى 440 ق.م.): امرأة ميليسية اشتهرت بجمالها ومواهبها عاشت في أثينا كعشيقة لبيركليس وكان بيتها مركزاً للمجتمع الأدبي والفلسفي. (المترجم).

وحيث يمكن للبابا ـ بين وثيقة وأخرى ـ أن يتأمل عملية التعاون وإبداع الفكر الإنساني.

هذه اللوحة ولوحة «النزاع» هما المثل الأعلى للنهضة: العصر القديم الوثني والعقيدة المسيحية تعيشان جنباً إلى جنب في غرفة واحدة وفي انسجام تام. إن هاتين المجموعتين المتنافستين، في مجمل تصورهما وتكوينهما وانسجامهما، لم يُقدَّر لأحد أن يتفوق عليهما إلا مايكلانجلو، وتينتوريتو وڤيرونيز، ولم يماثلهما أحد في تمثيل زواج يونان بيركليس وروما ليو. في الوقت نفسه تقريباً (1508-1512) وبينما كان رافائيل يعمل لحساب يوليوس الثاني (1505-1512)، رسمت الشخصية ـ القمة في عصر النهضة، وتحت العين الفاحصة البابوية ذاتها، سقف كنيسة السيستين.

مايكلانجلو

ولد مايكلانجلو ـ الذي تسمى شأنه شأن رافائيل باسم أحد كبار الملائكة ـ في عام 1475، الابن الثاني للودوڤيكو بيوناروتي سيموني، عمدة مدينة كابريزي الصغيرة الواقعة على الطريق من فلورنسا إلى آريتزو.

كان مايكلانجلو يتفاخر بأن فيه قطرة أو اثنتين من الدم النبيل؛ وقد أثبت البحث أنه كان مخطئاً، لكن ربما يكون البحث قد أساء تعريف المصطلحات. لقد تلقى بعض تعليمه في إحدى المدارس في فلورنسا، ولكنه لم يتعلم اللاتينية ولم يشعر أبداً بالتنويم الهادىء الذي يحدثه المزاج الكلاسيكي. كان عبرانياً ولم يكن كلاسيكياً، كان بروتستنتياً أكثر منه كاثوليكياً، على الرغم من أنه صمم معقل الكنيسة المهيمنة ذات المشهد المهيب.

كان يفضل الرسم على الكتابة، التي كان يعتبرها إفساداً للرسم. وفضل النحت على الرسم، وسريعاً ما كسب الإذن بالدخول إلى الحدائق التي كان آل الميديتشي يعرضون فيها مجموعاتهم من التماثيل والمعماريات القديمة. ولما كان لورنزو يغتبط بحماس الشبان وإنتاجهم فقد أخذه إلى بيته وعامله كابن له، وكان يجلسه بانتظام إلى الطاولة نفسها مع بوليتيان وفيتشينو وبيكو ديللا

ميراندولا وكذلك لورنزو نفسه. وهناك استمع مايكلانجلو إلى أكثر الأحاديث استنارة عن الحكم والأدب والفلسفة والفن.

ولكن الدائرة الارستقراطية كانت قد فقدت الأخلاق المسيحية كما فقدت العقيدة المسيحية، وأصبحت تعتقد أن حديقة أبيقور هي أكثر مسرَّة من حديقة «الجثمانية». في تلك السنوات كان سافونارولا يبشر بإنجيله الملتهب للإصلاح التطهري (البيوريتاني) شبه التنسُّكي؛ أما مايكلانجلو فكان يذهب غالباً للاستماع إليه ولم ينسه أبداً. وعندما مات سافونارولا (1498)، مكث شيء من روحه في الفنان الحزين: ازدراء للانحطاط الأخلاقي في العواصم الإيطالية، واحتقار ملتهب للطغيان، وشعور داخلي بقدر مشؤوم. وحينما رسم «الدينونة» فإنه رمى بحدة أحكام الشجب التي أصدرها الكهّان عبر القرون.

في عام 1496 قبل دعوة من أحد الكرادلة لزيارة روما. وهناك، بناء على عقد مع السفير الفرنسي، نحت تمثال «التقوى» «La Pieta» الذي لا يزال يذهلنا في ميدان القديس بطرس: الأم العذراء تضم ابنها المصلوب في حجرها. كان مايكلانجلو آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره فقط، وتظهر المجموعة عيوباً يمكن أن يكون شبابه عذراً لها: الإفراط في الأغطية الفضفاضة، ويد الأم صغيرة للغاية بالقياس لجسمها، ويدها اليسرى معلقة في الهواء بصورة لا تفسير لها، ووجهها وجه امرأة أصغر سناً من ابنها. لكن شكل المسيح، بادي الارتخاء وقد هزل إلى حد لا تكاد تظهر منه إلا عظامه، والغطاء المتهدِّل فوق الحجر، والمجموعة الصغيرة التي تحتوي على جوهر التاريخ الإنساني كسباق بين الأمومة والموت؛ وهذه ـ مثلها مثل «حجرات» رافائيل ـ تكشف عن مدى السرعة التي كان على هذا الفنان أن ينضج بها في معمعان النهضة واندفاعها المحموم.

عند ذاك أعادت المثّال، الذي كان قد أصبح شهيراً، دعوة من ذويه الذين ازدادوا فقراً إلى فلورنسا. هناك، في عام 1501، تحداه مكتب الأشغال في الكاتدرائية أن يدق إزميله لصنع شكل إنساني من كتلة من الرخام بارتفاع ثلاثة عشر قدماً ونصف، وكانت غير منتظمة تماماً في شكلها حتى أنها ظلت لا يستخدمها أحد لمدة قرن. شقي مايكلانجلو على هذه المادة المعاندة لمدة عامين ونصف العام مستخدماً كل بوصة من ارتفاعها، واستخرج منها تمثال «داوود»

الذي ينتصب مزهواً بغير شك، والذي قام لقرون ممثلاً تحدي هذه المدينة لأعدائها. لقد اعتقد جيورجيو فاساري - مؤرخ الفن الشهير - أن هذا الشاب العاري في زهو «تفوّق على كل التماثيل الأخرى، قديمها أو حديثها، اللاتيني منها أو اليوناني».

في تلك الأثناء كان البابا يوليوس الثاني يتحرق إلى ضريح له من الحجم والجمال ما يجعله يذكّر حتى الأجيال القادمة بعد زمن طويل بانتصاراته في السياسة وفي الحرب. بعث إلى مايكلانجلو، الذي أتى على الرغم من خوفه من أنه سيكون تعيساً مع يوليوس؛ فقد كانا متشابهين إلى حد بعيد. اقترح نصباً ضخماً بطول سبعة وعشرين قدماً وعرض ثمانية عشر قدماً ويحتوي على أربعين تمثالاً تحيط بنعش يوليوس الذي سيبدو مهيمناً وإن كان ميتاً. منح البابا الفنان ألفي دوكات، وأرسله إلى كارارا ليختار أحسن عروق الرخام، وذهب هو إلى الحرب من أجل بيروجيا وبولونيا. كانت الحرب باهظة النفقات ولم تترك مالاً للفن؛ وكان مايكلانجلو يريد مقابلة البابا ونقوداً، لكن رُفض طلبه الدخول على البابا، فغادر روما بعد أن أرسل هذه المذكرة إلى يوليوس: «أبانا الأحب، لقد مُنعت اليوم من دخول القصر بناء على أوامركم. لهذا فإنني أخطركم بأنه اعتباراً من اليوم فصاعداً إذا أردتموني فابحثوا عني في مكان آخر غير روما».

بعد مرور سنتين (1508) كان غضبه قد خفت وصرّة نقوده قد نحلت، استجاب مايكلانجلو لاستدعاءات يوليوس وعاد إلى روما، على أمل أن يُنهي الضريح. وهاله عندما علم أن البابا أراده أن يرسم سقف كنيسة السيستين، فاحتج بأنه مثّال وليس رساماً، وأوصى برافائيل باعتباره الرجل الأفضل لهذه المهمة. لكن يوليوس أصر وعرض عليه مكافأة قيمتها 3 آلاف من الدوكات (50 ألف دولار). ورضخ مايكلانجلو، وبدأ، في أيار/مايو 1508، سنواته الأربع والنصف من العمل الشاق في أسمى لوحات عصر النهضة.

تصوّروا البابا العجوز يعتلي السقالة الضعيفة، يعاونه الفنان في الوصول إلى المنصة، ويتساءل بصبر فارغ: «متى ستنتهي؟» وكانت الإجابة كما ذكرها ڤاساري درساً في الاستقامة: «عندما أكون قد صنعت كل ما أعتقد أنه مطلوب لإرضاء الفن». وعندما هبط مايكلانجلو للمرة الأخيرة عن السقالة كان منهكاً هزيلاً وعجوزاً قبل أوانه وهو لم يكن إلاّ في السابعة والثلاثين، وكانت أمامه

إحدى وخمسون سنة أخرى ليعيشها. ومات يوليوس بعد أربعة أشهر فقط. (21 شباط/فبراير 1513).

حزن مايكلانجلو لوفاة البابا العظيم وتساءل إذا كان الحبر الأعظم التالي سيمتلك القدر نفسه من التذوُّق الغريزي للفن العظيم، مثلما كان يوليوس. وعاد إلى سكنه المتواضع في انتظار فرصة ملائمة.

ليو العاشر

كان البابا الذي أعطى اسمه لواحد من أزهى العصور وأكثرها لاأخلاقية في التاريخ، مديناً بمناصبه الكنسية لاستراتيجية والده السياسية. فقد كان لورنزو دي ميديتشي قد تحطم تقريباً على يدي سيكستوس الرابع، وكان يأمل أن تتعزّز قوة أسرة الميديتشي والأمن الذي تتمتع به ذريته في فلورنسا بالحصول على موقع للميديتشي في مجمع الكرادلة. فوهب ابنه الثاني جيوڤاني للدولة الكنسية منذ طفولته المبكرة.

في سن السابعة جُز شعر الصبي، وفي الثامنة عين كاتباً كنسياً رسولياً، وفي الرابعة عشرة نُصِّب كاردينالاً (يمكن للمرء أن يصبح كاردينالاً دون أن يصبح قسيساً، فقد كان الكرادلة آنذاك يُختارون لقدرتهم السياسية وصلاتهم العائلية وليس لورعهم الديني).

كل من التقى بالكاردينال دي ميديتشي أحبّه. كان دمثاً، متواضعاً، وكريماً دون زهو. حتى دخله الكبير لم يكن يكفي لتغطية عونه للشعراء والفنانين والموسيقيين والعلماء. كان يتذوق كل الفنون وكل مباهج الحياة؛ مع ذلك فإن المؤرخ جويتشيارديني ـ الذي لم يكن يكنّ حباً على الإطلاق للبابوات ـ وصفه بأنه «يمتلك سمعة شخص عفيف ولا شيء في سلوكه يمكن أن يؤخذ عليه»؛ وامتدحه آلدوس مانوتيوس «على حياته الورعة التي لا غبار عليها».

في عام 1513 استُدعي إلى روما ليشارك في اختيار خليفة ليوليوس. كان لا يزال عندئذ في السابعة والثلاثين، وما كان يمكن أن يتوقع أن يكون هو البابا المختار. دخل مجمع اختيار البابا على محفة حيث كان يعاني من ناسور شرجي.

وبعد أسبوع من المناظرات، وفيما يبدو من دون مساومة، انتخب جيوڤاني دي ميديتشي (11 آذار/مارس 1513) واتخذ اسم ليو العاشر.

لم يكن قد أصبح قسيساً بعد، ولكن هذا العيب عولج يوم 15 آذار/مارس. لقد تملكت المفاجأة الجميع وغمرهم السرور. فبعد دسائس ألكسندر وسيزار بورجيا المظلمة وحروب واضطرابات يوليوس، كان شعور بالفرج لأن شاباً يتميز بالفعل بطبيعته الطيبة سيقود الكنيسة الآن، ويُفترض أنه سيقودها في طريق السلام. ابتهج الشعراء والمثّالون والمصوّرون وصاغة الذهب؛ ووعد أصحاب النزعة الإنسانية أنفسهم بإحياء العصر الأوغسطيني.

أصبح بلاط ليو مركز العقل والفطنة في روما، المكان الذي يلقى فيه العلماء والشعراء والفنانون والموسيقيون الترحيب وتُدفع لهم المكافآت، وفي كثير من الأحيان يُوفر لهم المسكن. لقد كان بغير شك البلاط الأرقى والأغنى بالمال في العالم بأسره في ذلك الزمان.

ازدهرت روما وتوسعت حينما أخذت تتدفق في شرايينها الاقتصادية والثقافية الإتاوات التي كانت تُجمع في أوروبا دليلاً على تقواها. فأسرع الأساقفة والشعراء، والقوّادون والطفيليون، والمراسلون والبغايا إلى روما لينهلوا من مطرها الذهبي. كان بعض الكرادلة يحقق دخلاً سنوياً يعادل 30 ألفاً من الدوكات (500 ألف دولار). عاشوا في قصور ضخمة يعمل فيها عدد يصل إلى ثلاثمائة من الخدم، مزينة بكل فن وترف معروف في ذلك الزمان. ولم يكونوا ينظرون إلى أنفسهم كرجال كنيسة، كانوا رجال دولة ودبلوماسيين وإداريين؛ كانوا هم مجلس شيوخ الكنيسة الرومانية وافترضوا أنهم لا بد أن يعيشوا كما يعيش أعضاء مجلس الشيوخ. كانوا يبتسمون لأولئك الأجانب الذين توقعوا منهم قناعة القساوسة وتقواهم. لقد استعيدت الامبراطورية الرومانية!

أتى لوثر وشاهد وصُدم. وأتى إيرازموس وشاهد وفُتن. اتفق مايكلانجلو مع لوثر، فقد كان يفضل رجل الشارع على البارون، والأمّي على المثقف، وكدح العامل على كماليات الثري. لقد وهب معظم مكاسبه ليقيم أود أقربائه عديمي الحيلة.

كان رجلاً شديد الاحتمال، منحن ولكنه قوي، ذا شعر أشيب ولحية خطّها

المشيب وعينين حادتين صغيرتين، وأنف أفطس، وأذنين ناتئتين. كان بطبيعته لا يشعر بارتياح في البلاط، لا يكون سعيداً إلاّ مع أدواته ورؤاه للقوة الرجولية في الشخصية وفي الجسد. لم يكن يهتم كثيراً بالنساء. لقد صوّرهن إنما دائماً في مرحلة النضوج الأمومي، وليس في فتنة شبابهن. عاش حياة قلقة فقيرة، يتغدى غالباً بكسرة خبز، أو ينام في ثياب العمل، يقول ڤاساري: «كما لو كان لا يريد أن يخلع ثيابه حتى لا يعود فيرتديها مرة أخرى».

تعلم ليو ـ الذي اعتاد على كل لياقة في الحديث وفي الملابس ـ أن يتحاشى مايكلانجلو، وتركه لعمله على ضريح يوليوس أو على بعض «الأسرى» من ذوي العضلات المفتولة، أو على تمثال «موسى» الجالس ذي اللحية والقرن والحاجب المجعد، يعرض ألواح الشريعة منذراً. وبطبيعة الحال فإن البابا السعيد تحول إلى رافائيل، الذي كان يتفق معه في المزاج والذوق. كلاهما كانا أبيقوريين محبوبين جعلا من المسيحية متعة واتخذا من هذا العالم سماءهما؛ غير أنهما كانا يعملان بالكد نفسه الذي كانا يلعبان به.

أناط ليو الفنان السعيد بالمهام: أن يكمل «الغرف»، وأن يصمم رسوماً خطية (رسوم تكتفي بالخطوط الخارجية للوحات أو جداريات يحتمل أن تُنفَّذ مستقبلاً)، وأن يشارك في بناء كاتدرائية القديس بطرس، وأن يعد العدّة لصيانة الفن الكلاسيكي. وقد قبل رافائيل هذه التكليفات بروح مرحة وشهية طيبة ووجد الوقت ـ إلى جانب هذا ـ لينتج عشراً من اللوحات الدينية وعدة سلاسل من صور الجص الوثنية، وخمسين سيدة (مادونا) أو لوحات شخصية لأي شخص ضمن له ثروةً وشهرةً. عندئذ (1515) صوّر «عذراء السيستين» لدير سان سيستو في بياسينزا. فيه ـ كما هو الحال غالباً في التاريخ المسيحي ـ كانت العذراء تخوض معركة خاسرة مع النساء الشابات ذوات الجمال البادي، كما في لوحة «لافورنارينا» في متحف البورغيزي. وفي النهاية أعطى رافائيل مزيداً من وقته وطاقته للمفاتن المكشوفة. ومات في سن السابعة والثلاثين (1520). وقد سار كافة الفنانين في روما خلف العربة التي حملت نعشه إلى القبر.

عاش بعده البابا المحبب له لمدة عام. فقد رقد ليو في فراشه مريضاً في آب/أغسطس 1521، وكان مصاباً بالمراحل الأولى من الملاريا، وبألم الناسور

المبرح وجزءه المتصاعد من الحرب. وكان قد تحول ـ شأنه في هذا شأن يوليوس الثاني ـ أكثر فأكثر عن الاستمتاع بالفن نحو السعي إلى القوة المادية. وقد اغتبط في الأول من كانون الأول/ديسمبر عندما علم أن مدينتي بياسيرزا وبارما قد سقطتا بيد القوات البابوية؛ وكان قد أعلن ذات مرة أنه سيسره أن يهب حياته لو أن هاتين المدينتين أضيفتا إلى دويلات الكنيسة. وفي ليلة 1-2 كانون الأول/ديسمبر 1521 مات عن عمر يناهز الخامسة والأربعين إلاّ عشرة أيام.

كان إنساناً طيباً دمره حبه للجمال واعتياده على الثروة. تربى في قصر، حيث تعلم الترف كما تعلم الفن. وحينما وضعت إيرادات البابوية تحت وصايته تسربت من خلال أصابعه غير العابئة بينما كان ينعم بسعادة المتلقين أو بانتصارات حروب باهظة النفقات. جعل الدويلات البابوية أقوى من ذي قبل، ولكنه خسر ألمانيا بما اغتصبه من مال وبدّده. كان مجداً وكان شؤماً للكنيسة معاً.

كارثة مفاجئة

المثقف المحاصر

إننا لنرفع من شأن إيطاليا النهضة بما يتجاوز ما تستحقه إذا لم نلاحظ أن الحضارة هناك ـ كما في أماكن أخرى ـ كانت حضارة قلّة، بواسطة القلّة ولأجل القلّة.

كان الإنسان العادي البسيط يكد في فلاحة الأرض أو جر العربات أو حمل الأثقال، يكدح من الفجر إلى الغسق ولا يكون في المساء قد بقي لديه قوة لكي يفكر؛ إنه يدع الآخرين يفكرون له، كما تركه الآخرون يعمل لهم. كان يأخذ آراءه ودينه وإجاباته على ألغاز الحياة لا من الجو المحيط به، ولا من كوخ أسلافه. كان لا يقبل فقط الروائع الفاتنة المريحة الملهمة المخيفة التي كانت تنقل يومياً إليه اللاهوت التقليدي، إنما كان يضيف إليها معتقدات الجن والرقية والمعجزات والسحر والكهانة والتنجيم التي تؤلف ميتافيزيقا شعبية، وهو ما كانت الكنيسة تحقر من شأنه باعتباره أكثر مدعاة لإثارة المتاعب من الهرطقة. ولقد أشار ماكيافيللي ـ على الرغم من أنه كان يتشكك في الدين ـ إلى إمكانية أن يكون

«الهواء مسكوناً بأرواح»، وأعلن إيمانه بأن الأحداث الكبرى إنما بشّرت بها الأعاجيب والنبوءات والرؤى و «علامات في السماء».

وانتشرت على وجه الخصوص بين الناس الفكرة القائلة بأن الشيطان وأي عدد من الشياطين الصغرى تحلق في الجو ويمكنها أن تستخدم قوى خارقة للطبيعة لمساعدة عُبّادها الأوفياء. وزعمت فئة من النساء أنهن على صلة بمثل هذه الشياطين، وأنهن قادرات على الحصول من خلال أولئك على معرفة وقوى خارقة للطبيعة. وفي عام 1484 حرم مرسوم أصدره البابا إينوسنت الثامن اللجوء إلى مثل تلك الساحرات، ونبَّه محكمة التفتيش إلى أن تكون في حالة تأهب ضد أمثال هذه الممارسات. لم يحدد عقوبة معيّنة، ولكن محكمة التفتيش ـ متبعة أمر العهد القديم ـ جعلت السحر جريمة يُعاقب عليها بالإعدام. وفي عام 1485، في مدينة كومو وحدها، أحرقت إحدى وأربعون امرأة حتى الموت لممارستهن السحر. وتكاثرت هذه الإعدامات: 140 في بريتسيا في عام 1486، و 300 أخرى في كومو في عام 1514، وذلك في عهد ليو العاشر الطاهر الرقيق.

في بيئة كهذه راوح العلم مكانه؛ بل الحقيقة أنه هبط إلى ما دون المستوى الذي كان قد بلغه في ظل ألبرتوس ماغنوس في القرن الثالث عشر. لم يكن يمكنه أن يتمتع ـ كما هو شأن الفن ـ بالدعم من العامة والكنيسة معاً. العلم الوحيد الذي ازدهر كان الطب، لأن الناس كانوا يضحون بأي شيء من أجل الصحة، عدا شهيتهم. ولقي الأطباء استنكاراً بسبب أجورهم العالية، وحسدهم الناس على علو مكانتهم الاجتماعية وعلى أرديتهم القرمزية المذهلة. لقد كسروا العداء الوسيطي لعملية تشريح الجثث، وأحياناً كان يساعدهم رجال الكنيسة في ذلك. في عام 1319 سرق طلبة الطب في بولونيا جثة من إحدى المقابر وجلبوها إلى مدرِّس في الجامعة، وقام هذا بتشريحها ليعطيهم دروساً طبّية. وقد حُوكموا ولكن أخلي سبيلهم. ومنذ ذلك الحين والسلطات المدنية تغمض طرفها عن استخدام جثث المحكوم عليهم بالإعدام أو الذين لم يُطالب أحدٌ بجثثهم في «المشرحات». وسرعان ما أصبح تشريح الجثث يمارس في كافة المعاهد الطبية في إيطاليا، بما فيها المعاهد البابوية في روما. ومع ذلك فإنه بحلول عام 1500 كان التشريح قد بلغ فقط مستوى المعرفة التي كان يملكها أبقراط وجالينوس في العصر القديم اليوناني والروماني.

ارتفع شأن الجراحة سريعاً في سمعتها حينما قاربت عملياتها وأدواتها التنوع والمقدرة اللذين كانا يسمان ممارسة المصريين القدماء لها. وبحلول عام 1500 كان كثيرون من الأطباء الأوروبيين قد حققوا المثل الأعلى الأبقراطي الذي يضيف الفلسفة إلى الطب! فعبروا بسهولة من موضوع إلى آخر في دراستهم وتعليمهم، ولما كان بعضهم رجالاً أفاضل أيضاً فإنهم كانوا جزءاً من إكسير عصرهم.

فلسفة النهضة

للوهلة الأولى، لا تقدم النهضة اسماً للذكرى في مجال الفلسفة؛ إذ لا أحد يمكن مقارنته بالمشاهير الأقوياء الذين كان رافائيل قد صورهم في لوحته «مدرسة أثينا» أو حتى مع أصحاب النزعة المدرسية الضعفاء من آبيلار إلى الأكويني. مع ذلك فقد أنجبت واحداً أفرط الجميع في نسيانه، هو بييترو بومباناتزي، وكان ضئيل الحجم إلى حد أن معارفه كانوا يطلقون عليه اسم «بيريتو» (بيتر الصغير). وحينما كان يغطي هرطقاته بنسبتها إلى أرسطو الذي كان مقبولاً بصفة عامة، فإنه كان يشبّه نفسه بنملة تستكشف فيلاً. كان أستاذاً للفلسفة في جامعة بادوا من عام 1495 إلى عام 1509، ثم في جامعة بولونيا من عام 1512 إلى وفاته في عام 1525، وكان قد فر من محكمة التفتيش بفضل أصدقاء له كانوا ممّن لا يمكن إحراقهم.

في مؤلفه الرئيسي «رسالة في النفس التي لا تموت» (Tractus de immortalitatae animae) (1516) فسر أرسطو بأنه كان يعلم أن نفس الفرد مرتبطة بجسده بصورة لا فكاك منها، وهي تموت معه؛ إنما النفس أو عقل الكون وحده غير قابل للفناء. وقد انتهى بومباناتزي إلى أنه كفيلسوف يتفق مع أرسطو، لكنه كمسيحي يقبل تعاليم الكنيسة. وكانت هذه حيلة قديمة يبتسم إزاءها كل لبيب. وعندما أدينت وجهة نظر أرسطو لتوها من جانب المجلس الأسقفي الخامس (1513) تحت رئاسة ليو العاشر نفسه، فإن كثيرين من أصدقاء بومباناتزي توقعوا أن تلقي محكمة التفتيش القبض عليه، لكن بيمبو وبيبيينا، وهما من أصحاب النزعة الإنسانية ـ وكانا يتمتعان بمكانة رفيعة في مجالس ليو ـ تدخلا

لدى الحبر الأعظم اللطيف، الذي اكتفى بإصدار أمر للفيلسوف بأن يكتب ضماناً بالخضوع للكنيسة. وفي كتابه «الدفاع» Apologiae Libri tres، أكد بومباناتزي للعالم أنه كمسيحي طيب قد قبل تعاليم الكنيسة.

رفض بومباناتزي - في كتابين صغيرين كتبهما بحكمة في وقت لاحق لهذا الحكم - كثيراً من المعتقدات الخرافية والتعاويذ السحرية والعلاجات المبهمة؛ معلناً أن لكل الأحداث الدنيوية أسبابها الطبيعية. أما المعجزات، فهي تجليات قوى طبيعية لا نعرف إلا جانباً منها. وقد سلم بالكثير للتنجيم: إن حياة البشر وتاريخ الدول، وحتى تاريخ الديانات، تتأثر بتحركات النجوم. ودافع عن حرية الإرادة الإنسانية، ليس فقط لأننا نبدو واعين بهذه الحرية، إنما لأنه بدونها لا يكون وجود لمسؤولية أخلاقية، وعندئذ يقوم كل نظام اجتماعي بصورة قلقة على خوف من الشرطة أو من عقاب إلهي. ومن ثم خلص إلى أن المشرّعين الكبار علّمونا الإيمان بحالة في المستقبل يتم فيها الثواب والعقاب كعون لا غنى عنه للحكم. وقال في تأملاته الخاصة «هذه الأشياء لا يتم توصيلها إلى عامة الناس، لأنهم عاجزون عن تلقي هذه الأسرار».

لقد احتفظت الطبقات الدنيا بالعقيدة المحببة على الرغم من الفلاسفة. فالآلاف الذين سمعوا سافونارولا لا بد أنهم آمنوا. ومثال ڤيتوريا كولونّا يبرهن على أن التقوى يمكن أن تبقى حية بعد التعليم. لكن روح العقيدة العظيمة قد اخترقتها سهام الشك، والروعة القوطية للأسطورة الوسيطية قد لوثها الذهب المتراكم.

ماكيافيللي

يبقى رجل واحد يصعب تصنيفه أو تحديد مكانه: دبلوماسي، مؤرخ، مؤلف مسرحي، فيلسوف؛ هو المفكر الأكثر سخرية في زمانه، مع ذلك فهو وطني ألهبه مثل أعلى؛ رجل أخفق في كل ما شرع به تقريباً، لكنه ترك على التاريخ بصمات أعمق من أي شخصية في عصره تقريباً.

كان نيكولو ماكياڤيللي ابناً لأحد المحامين الفلورنسيين، رجل متوسط الحال، كان يشغل منصباً صغيراً في الحكومة ويملك ڤيلا ريفية صغيرة في سان

كاسشيانو، على بعد عشرة أميال من المدينة. تلقى الصبي تعليمه الأدبي المعتاد، فتعلم قراءة اللاتينية بسهولة، لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليونانية. شُغف بالتاريخ الروماني وأصبح مغرماً بليڤي(*)، ووجد لكل مؤسسة سياسية ولكل حدث سياسي تقريباً في زمانه مثيلاً منيراً في تاريخ روما.

بدأ دراسة القانونٌ لكنه لا يبدو أنه أنهاها. لم يكن معنياً كثيراً بفن النهضة، ولم يعبر عن اهتمام بحدث اكتشاف أميركا؛ وربما يكون قد أحس بأن كل ما في الأمر أن مسرح السياسات قد اتسع آنذاك، بينما ستبقى العقدة والشخصيات بلا تغيير. كان الاهتمام الأوحد الذي استوعبه تماماً هو السياسة، تقنية النفوذ، وشطرنج السلطة. في عام 1498، وكان في سن التاسعة والعشرين، عُيِّن أميناً للـ «دايسي ديلا غيرا»، أي مجلس الحرب العشري، واحتفظ بهذا المنصب لأربعة عشر عاماً.

في عام 1500 رافق بعثة إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا، وسرعان ما قادها. قد تتبع البلاط الفرنسي من قلعة إلى قلعة، ونقل إلى السادة الفلورنسيين «معلومات» طارئة وتحليلات دقيقة إلى حد أنه لدى عودته أعلنه أصدقاؤه دبلوماسياً متخرِّجاً.

كانت نقطة التحول في تطوره بعثته إلى سيزار بورجيا (1502). في سينيغاليا، لاحظ اغتباط بورجيا وهو يشهد المغامرين الذين تآمروا ضده وهم يقعون في الشرك فيُخنقون أو يُسجنون في أقفاص. تلك كانت أحداث هزت إيطاليا بأسرها؛ أما بالنسبة لماكياڤيللي فكانت دروساً في الفلسفة. هنا كان رجل يصغره عمراً بست سنوات، تمكن خلال عامين اثنين من الإطاحة بدزينة من الطغاة، وإصدار أوامره لدزينة من المدن، وجعل من نفسه شهاب عصره. كم كانت تبدو ضعيفة الكلمات أمام هذا الشاب الذي كان يستخدمها باقتصاد المحتكم! من تلك اللحظة أصبح سيزار بورجيا بطل فكر ماكياڤيللي، على غرار ما سيصبح بسمارك بطلاً لفكر نيتشه؛ هنا في «إرادة القوة» المجسّدة هذه كانت الأخلاقية تتجاوز الخير والشر؛ كانت نموذجاً للرجال الفائقين (السوبرمان).

(*) ليفي: واحد من اكبر ثلاثة مؤرخين عرفتهم روما، التي كتب تاريخها. مارس تأثيراً قوياً على أسلوب وفلسفة كتابة التاريخ من زمانه حتى القرن الثامن عشر. (المترجم).

في عام 1512 أطاح يوليوس الثاني بالجمهورية الفلورنسية وأعاد آل ميديتشي إلى السلطة. فقد ماكياڤيللي منصبه الدبلوماسي، واتُّهم بالتآمر لاستعادة الحكومة وأُلقي القبض عليه وعُذب. وبعد أن أطلق سراحه، اعتزل، مع زوجة وأربعة أبناء، في ڤيللا في سان كاسشيانو. هناك أمضى بقية حياته، وكتب «مطارحات» حول الكتب العشرة الأولى لليڤي»، وملخصاً لاستنتاجاته، أسماه «الأمير» Il Principe. وقد وُزع بخط يده، ولكنه لم يُنشر إلا بعد خمس سنوات من وفاته. بعد ذلك أصبح من بين أكثر الكتب التي تعاد طباعتها في تاريخ الفلسفة.

إنه أكثر الكتب نزاهة ولا أخلاقية. يعرض، بوضوح وصراحة، مذهباً يرى أن لا حاجة بالدولة ولا يتعين عليها أن تمارس القوانين الأخلاقية التي توصي بها مواطنيها. إنها يمكن أن تعاقب عن حق جريمة أداء اليمين الكاذب، والتزييف، والسرقة والقسوة والقتل، لكن يمكنها عن حق أن تمارس أياً من هذه التجاوزات أو كلها إذا اعتبرت ذلك ضرورياً لحماية الدولة.

يفسِّر ماكياڤيللي القاعدة الرومانية القديمة Salus populi suprema Lex بأنها تعني أن سلامة الدولة (أي الشعب منظماً) هي القانون الأسمَى. وعلاوة على هذا (يتابع ماكياڤيللي)، يُمكن لمثال السلام المسيحي أن يوهن المواطنين قاطبة؛ لكن الحرب بين الحين والآخر مقوٍّ قومي، يعيد النظام والوحدة والقوة. الفضيلة ـ في الجمهورية الرومانية ـ لم تكن تواضعاً أو رقة، إنما رجولة، وقوة وشجاعة مسلحة بالطاقة والذكاء. إن الحرب التي تقوّي الأمة هي حرب طيبة. وحينما تكف الدولة عن التوسع فإنها تبدأ في الاحتضار.

في «المطارحات» وسّع ماكياڤيللي مقولته من أخلاقيات الحكم إلى ما بدا له التجزؤ البائس لإيطاليا إلى دويلات صغيرة تتحارب فيما بينها بجيوش قابلة للشراء تعاني من حساسية للقتال، ومستعدة لقبول أي عرض سخي من أي عدو. كان يعرف أن حكام الشمال يشتهون أراضي إيطاليا الخصبة وفنونها الرائعة. وقد تعلق فترة بالأمل في أن سيزار بورجيا ـ الذي كان مظفراً في العادة ـ سيحكم إيطاليا برمَّتها وعندئذ سيقود جيشاً محباً للوطن للدفاع عن شبه الجزيرة. لكن سيزار بورجيا مات في عام 1507، وبعد أن سئم ماكياڤيللي من

السياسة وسئم من معتزله الريفيُ بل وحتى من أصدقاء الحانة أسلم الروح في عام 1527. وفي تلك السنة، غزا روما جيش مكوَّن في معظمه من الألمان ودمرها، ووضع نهاية للنهضة الإيطالية.

أدريان السادس

صُدم سكان العاصمة ـ من الأمراء إلى العامة ـ عندما علموا يوم 2 كانون الثاني/يناير 1522 أن مجمع الكرادلة قد انتخب للكرسي البابوي من ليس إيطالياً (الأول منذ عام 1378)؛ والأسوأ من هذا أنه اختار بابا من أصل جرماني (الأول منذ عام 1161) في الوقت الذي كان فيه مارتن لوثر يقود ألمانيا إلى ثورة سافرة ضد كنيسة روما.

كان أدريان ديديل هولندياً، ولد لأبوين من الطبقة الدنيا في أوتريخت في عام 1459، وتعلم في لوڤان. عين مستشاراً لتلك الجامعة وهو في سن الرابعة والثلاثين، ومعلماً في سن السابعة والأربعين للشاب العنيد الحازم الذي سيصبح شارل الخامس، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة. وفي عام 1515 أُرسل أدريان في مهمة إلى إسبانيا، وهناك ترك انطباعاً مؤثراً في الملك فرديناند بقدراته الإدارية حتى أنه عُيِّن أسقفاً لمدينة تورتوزا. خلال هذا التقدُّم كله ظل متواضعاً في كل شيء إلاّ في اللاهوت، وأدان الهراطقة بحماس حبَّبه إلى شعب إسبانيا. وربما كان عن طريق نفوذ شارل الخامس أنه اختير بابا بواسطة مجمع كرادلة أغلبيته الساحقة من الإيطاليين.

أحس أدريان السادس بالضياع في حاضرة الفاتيكان وقال عنها إنها أليق بامبراطور منها بخليفة صائد السمك بطرس. وقد صرف السيّاس المائة الذين كان يحتفظ بهم ليو لاصطبله، عدا أربعة فقط؛ وخفض عدد خُدامه الشخصيين إلى اثنين ـ كليهما هولنديين ـ وجعلهما يخفضان نفقاته المنزلية إلى دوكات واحد (12,5 دولاراً) في اليوم. وقد أفزعه التسيُّب في الجنس واللسان والقلم في روما، ووافق مع لورنزو ولوثر على أن عاصمة المسيحية كانت حمأة من الجور.

لم يعنِ له الفن القديم الذي أراه إياه الكرادلة شيئاً؛ استنكر التماثيل باعتبارها من تراث الوثنية وأقام سوراً حول قصر البلڤيدير الذي كان يضم أول

مجموعة أوروبية من المنحوتات الكلاسيكية. كان يميل إلى سدّ الطريق أمام أصحاب النزعة الإنسانية أيضاً، والشعراء الذين بدا له أنهم يعيشون ويكتبون كما كان يفعل الوثنيون الذين طردوا المسيح.

أصبح الشغل الشاغل للبابا أدريان أن يقود الكنيسة عائداً بها من ليو إلى المسيح. هيّأ نفسه باستقامة صريحة لكي يصلح كل المفاسد الكنسية التي يمكنه أن يطالها. فألغى المناصب الزائدة عن الحاجة مفرطاً أحياناً في عدم المراعاة وعدم التمييز. وألغى العقود التي كان ليو قد وقّعها لدفع مكافآت سنوية لأولئك الذين كانوا قد اشتروا مناصب كنسية. 2550 شخصاً كانوا قد اشتروا هذه المناصب كاستثمار خسروا - إذا جاز التعبير - رأس المال والفوائد؛ وترددت صرخاتهم في جوانب روما بأنهم قد تعرضوا للنصب، وحاول أحد الضحايا قتل البابا. أما الأقارب الذين أتوا إلى أدريان للحصول على وظائف براتب دون عمل فكان يقال لهم إن عليهم أن يعودوا من حيث أتوا وأن يكسبوا من عيش شريف.

وضع أدريان حداً للمتاجرة بالمناصب الكهنوتية ومحاباة الأقارب، وقرَّع ارتشاء الإدارة البابوية وطبَّق عقوبات قاسية على الرشوة والاختلاس، وعاقب الكرادلة المذنبين بالعقوبات ذاتها التي كان يوقعها بأدنى رجال الدين مستوى. وأمر الأساقفة والكرادلة بأن يعودوا إلى أبرشياتهم وأن يقرأوا الدروس في الأخلاق التي يتوقعها منهم. وأبلغهم أن سمعة روما السيئة هي حديث أوروبا. لم يكن ليتهم الكرادلة أنفسهم بالخطيئة، ولكنه اتهمهم بالسماح بأن ترتكب الخطايا بلا عقاب في قصورهم. طلب منهم أن يضعوا حداً لترفهم وأن يرضوا بحد أقصى للدخل قيمته 6 آلاف من الدوكات (75 ألف دولار) سنوياً. وكتب سفير البندقية يقول إن روما الكنسية برمتها «تكاد تخرج عن طورها من شدة الفزع، وهي ترى ما فعله البابا في غضون ثمانية أيام».

لكن الأيام الثمانية لم تكن كافية، ولا كانت كافية الأشهر الثلاثة عشر الوجيزة لبابوية أدريان النشيطة. لقد أخفت الرذيلة وجهها بعض الوقت، ولكنها بقيت على قيد الحياة، والإصلاحات أغضبت ألف موظف وقوبلت بمقاومة متجهمة وبأمل في موت مبكر لأدريان. كان البابا يحزن لرؤية ضآلة ما يستطيع أن يفعله رجل واحد لتحسين البشر. وكثيراً ما كان يقول: «تعتمد كفاية إنسان

بدرجة كبيرة على العصر الذي يُطلق فيه عمله!». وقد أبدى حزيناً ملاحظة لصديقه القديم ديتريش هيزه: «ديتريش، كم كان أفضل لنا حينما كنا نعيش في هدوء في لوڤان!»

بعد ثلاثة عشر شهراً فحسب في روما سقط أدريان مريضاً كسير الجسد والروح، ومات في 4 أيلول/سبتمبر 1523. ترك كل ممتلكاته للفقراء وأصر على إقامة جنازة هادئة له بغير نفقات. وكان ما يثير الشفقة أن أدريان الجرماني الطهراني لم يستطع أن يفهم النهضة الإيطالية الوثنية ولم يستطع أن يوفّق بين ألمانيا التي تدفع درهم بطرس وإيطاليا التي تنفقه.

لكنها كانت جريمة وحماقة أن روما لم تستطع أن تتحمَّل بابا مسيحياً.

نهب روما (1527)

كان خليفة أدريان ـ الذي اتخذ اسم كليمنت السابع ـ هو جيوليو دي ميديتشي، الابن غير الشرعي لجيوليانو شقيق لورنزو. وعندما قتل جيوليانو ضم لورنزو جيوليو إلى أسرته ورباه مع أبنائه. وكان بين هؤلاء الأبناء ليو الذي ـ كبابا ـ خلّص جيوليو من وصمة ابن الحرام التي كانت تمنعه من الانخراط في السلك الكهنوتي، إذ نصَّبه أسقفاً ثم كاردينالاً، ثم مديراً رئيساً للكرسي البابوي. وكان جيوليو طويل القامة ووسيماً، ثرياً ومثقفاً، حسن التصرف ويعيش حياة أخلاقية، وكان معجباً بالأدب والموسيقى والفن وراعياً لها.

حيَّت روما صعوده إلى سدّة البابوية باعتباره بشيراً بعودة عصر ليو الذهبي. وقد وزع بين الكرادلة كافة المزايا التي كان يتمتع بها. وكسب قلوب وتفاني العلماء والكتّاب عندما قرَّبهم إلى خدمته أو دعمهم بالهبات. وقد تعامل مع القضاء بعدالة، وأتاح اللقاء به بحرية، وأنعم بالتبرعات الخيرية بدرجة أقل مما كان يفعل ليونين إنما بسخاء أكثر حكمة، وفتن الجميع بمودته لكل شخص ولكل طبقة. لم يسبق لأحد البابوات أن بدأ مثل هذه البداية الجيدة، أو انتهى مثل هذه النهاية التعيسة.

أثبتت مهمة اتباع طريق آمن بين فرانسيس الأول وشارل الخامس في

حرب كادت تكون حتى الموت، بينما كان الأتراك يكتسحون المجر، وثلث أوروبا كان في ثورة ضد الكنيسة، أنها تفوق كثيراً قدرات كليمنت، وكذلك قدرات ليو أيضاً. إن صورة كليمنت الشخصية العظيمة في أوائل بابويته - والتي رسمها سيباستيانو ديل بيومبو - هي صورة خادعة: فهو لم يُظهر في أفعاله الحزم الشديد الذي يبدو على ملامح وجهه؛ بل في هذه الصورة يظهر جزع ضعيف ما في الجفنين المتعبين المتهدلين على عينين حزينتين.

انتهج كليمنت سياسة غير حاسمة. مارس التفكير بإفراط واعتبره، خطأ، بديلاً عن الفعل وليس هادياً له. كان يجد مائة سبب لاتخاذ قرار ما ومائة سبب لعدم اتخاذه. بدا وكأن «حمار بوريدان» كان هو الذي يجلس على العرش البابوي (يتعين عليّ أن أوضح أن جان بوريدان كان فيلسوفاً سكولائياً فسَّر سيكولوجية التردد بوصف حمار يتضوَّر جوعاً، لكن حيث أنه موضوع بين كومتين من القش على مسافة متساوية منه، فإنه عاجز عن أن يجد أي سبب للاتجاه إلى واحدة منهما بدلاً من الأخرى، ولهذا مات من الجوع).

كانت «كومتا القش» اللتان يقف بينهما كليمنت هما فرانسيس ملك فرنسا، وشارل الأول ملك إسبانيا (1516-1556) الذي كان أيضاً امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (1519-1556). وعندما تحارب هذان العاهلان على السيطرة على إيطاليا، تذبذب كليمنت بين الفرنسي والإسباني إلى أن أرسل شارل عملاء لكسب ود كليمنت أو خلعه.

في تلك الأثناء كان الأتراك تحت قيادة سليمان القانوني(*) قد استولوا على بودابست (10 أيلول/سبتمبر 1526) وعلى بلغراد وعلى مدينة الجزائر. وخشي كليمنت من أن تصبح أوروبا، لا مجرد بروتستانتية، بل إسلامية. أما شارل فقد بقي في إسبانيا وظل يحرك شخصياته الدرامية بالتحكم عن بعد وكلف عملاءه بأن يجمعوا جيشاً. وقد وعدوا حاكماً إدارياً لإقليم التيرول - هو جورج فون فروندزبرغ - بحرية النهب إذا ما قاد مرتزقته الألمان إلى داخل إيطاليا وخلع كليمنت السابع. وكان فروندزبرغ لا يزال من الناحية الإسمية كاثوليكياً، لكنه كان يتعاطف مع لوثر ويبغض كليمنت معتبراً أنه خائن لرأس الامبراطورية الرومانية

(*) هو السلطان سليمان الأول (1520-1566).

المقدسة. جمع 38 ألف قطعة ذهبية و 10 آلاف مرتزق يتحرقون إلى المغامرة والسلب، ولا يحجمون عن قتل البابا نفسه. قادهم جميعاً عبر نهر الپو وسمح لهم بتخريب لومباردي.

في الوقت نفسه كان شارل آخر، هو دوق بوربون، الذي كانت لديه أسباب شخصية لمعارضة فرانسيس الأول، يقود جيشه من ميلانو للانضمام إلى قوات فروندزبرغ بالقرب من بياسينزا. وتقدم القطيع المختلط ـ الذي بلغ تعداده آنذاك نحو 22 ألف رجل ـ نحو روما، يسرق بحرية وهو يعبُر.

عندما أدرك كليمنت أنه لن يأتي أي من شارل الخامس أو فرانسيس الأول لمساعدته، دبر مبلغ 60 ألفاً من الدوكات تمكّن مبعوثوه بواسطتها من إقناع فروندزبرغ وبوربون بإبقاء رجالهما خارج الدويلات البابوية. ولكن قواتهما رفضت احترام هذا الاتفاق. فقد تحملوا ألف مشقة طوال أربعة أشهر، فقط على أمل نهب روما. وكان معظمهم آنذاك قد أصبح في ثياب رثة، وكثيرون منهم حفاة وجميعهم جياع، لم يتلق أي منهم أية مدفوعات، لهذا رفضوا رشوتهم بمبلغ زهيد هو 60 ألفاً من الدوكات، كانوا يعرفون أن جزءاً ضئيلاً منه فقط سيتسرب إليهم. ونظراً لخشيتهم من أن يوقِّع بوربون الهدنة، فإنهم حاصروا خيمته وأخذوا يصيحون «ادفع! ادفع!». اختبأ في مكان آخر، ونهبوا خيمته. حاول فروندزبرغ تهدئتهم، ولكنه أصيب بسكتة دماغية أثناء محاولته، ولم يلعب دوراً بعد ذلك في الحملة ومات بعد عام. تولّى بوربون القيادة، إنما فقط بعدما وافق على السير إلى روما. وفي يوم 29 آذار/مارس بعث برسائل إلى شارل دي لانوي (حاكم نابولي بالنيابة عن شارل) وكليمنت بأنه لم يستطع أن يثني رجاله، وأن الهدنة بحكم الظروف قد انتهت.

عندئذ فقط أدركت روما أنها الفريسة المطلوبة التي لا حول لها ولا قوة. وفي يوم خميس الصعود (9 نيسان/أبريل)، وبينما كان كليمنت يبارك حشداً من 10 آلاف شخص أمام كنيسة القديس بطرس، اعتلى متعصِّب يرتدي مئزراً من الجلد فحسب تمثال القديس بولس وصاح في البابا: «أيها اللوطي ابن الزانية! من أجل خطاياك ستدمر روما. تب وارجع! فإذا كنت لا تصدقني، فإنك في غضون أربعة عشر يوماً سترى». وعشية عيد الفصح جال ذلك الناسك البري ـ بارتولوميو

كاروزي، المسمى براندانو ـ في الشوارع صائحاً: «روما، التوبة! إنهم سيعاملونك كما تعامل الرب مع سدوم وعمورة».

أرسل بوربون ـ ربما آملا أن يُرضي رجاله بمبلغ أضخم ـ إلى كليمنت طالباً 240 ألفاً من الدوكات؛ ورد كليمنت بأنه لا يمكنه أن يجمع مثل هذه الفدية. وكان لديه آنذاك نحو 4 آلاف جندي لمواجهة الهجوم من 20 ألف رجل جائع.

في يوم 6 أيار/ مايو اقتربت حشود بوربون من الأسوار تحت غطاء من الضباب. رُدوا على أعقابهم بوابل من النيران، وكان بوربون نفسه بين المصابين ومات لتوِّه. لكنه لم يكن بالإمكان ردع المهاجمين عن شن هجوم آخر؛ كان خيارهم إما الاستيلاء على روما أو الموت جوعاً. وقد وجدوا نقطة ضعيفة في دفاعاتها، فاخترقوها وتدفقوا عبرها إلى المدينة. ففرَّ كليمنت ومعظم الكرادلة المقيمين ومئات من المسؤولين إلى قلعة سان آنجلو.

وفيما تدافع الغزاة عبر الشوارع كانوا يقتلون بلا تمييز. دخلوا المستشفى ودار الأيتام اللتين تحملان اسم سانتو سبيريتو وذبحوا تقريباً كافة المرضى. ونبشوا كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من أعلاها إلى أسفلها. ورُبطت الجياد في «غرفة» رافائيل (المسماة «ستانزي»). وقد دفع كل قصر فدية للفوز بالحماية، إنما ليواجه هجمات لاحقاً من مجموعات أخرى وليدفع فدية مرة ثانية. تم إلقاء الأطفال من النوافذ العالية لإجبار الآباء على إخراج مدخراتهم من أماكنها السرية. وأُنزِل أحد الكرادلة إلى قبر وقيل له إنه سيدفن حياً إذا لم تأتِ فديته.

لا أحد يمكن أن يحسب عدد الموتى. وقد استمر النهب ثمانية أيام، فيما كان كليمنت يتابع المشهد من أبراج قلعة سان آنجلو مثل أيوب المعذَّب. أما شارل ـ الذي كان لا يزال في إسبانيا ـ فكان مسروراً بسماع أنباء الاستيلاء على روما، لكنه صُدم عندما سمع بوحشية النهب؛ تبرأ من المسؤولية عن التجاوزات، ولكنه استغل تماماً انعدام حيلة البابا. ففي يوم 6 حزيران/يونيو أرغم ممثلوه ـ ربما من دون علمه ـ كليمنت على توقيع صلح مهين. وقد سمح لكل أولئك الذين كانوا في سان آنجلو بالرحيل عدا كليمنت وثلاثة عشر كاردينالا كانوا يصحبونه. وبدا أن صرح البابوية برمَّته، المادي والروحي، قد تقوَّض ليصبح حطاماً مأساوياً استثار العطف حتى لدى أولئك الذين كانوا يشعرون بأن عقاباً من نوع

ما كان يحق على كليمنت لأخطائه وخطايا البابوية، وجشع الإدارة البابوية وفسادها وجور روما.

نعى إيرازموس انقضاء أيام ازدهار المدينة قائلاً: «لم تكن روما مقام العقيدة المسيحية المقدس، وحاضنة أرواحها النبيلة، وموئل فضائلها فحسب، بل كانت أيضاً أم الأمم. فلكم من الناس لم تكن أعزّ وأجمل وأغلى بالنسبة إليهم من بلادهم؟!... في الحقيقة ليست هذه أطلال مدينة واحدة، إنما هي أطلال العالم بأسره».

خشية تحالف انكلترا مع فرنسا، وتحت تأثير مهدىء من 112 ألفاً من الدوكات من الإيرادات المستمرة من الكنيسة، أطلق شارل سراح البابا السجين (27 كانون الأول/ديسمبر 1527)، وسلك كليمنت السابع ـ متخفياً كخادم ـ طريقه من روما إلى أورڤيتو ومن هناك إلى ڤيتيربو. وبعد سبعة أشهر من المهانة والفقر سُمِحَ له بدخول روما من جديد. كان شارل في حاجة إلى حليف فأقام سلاماً مع البابا، وأعلن نفسه خادماً متواضعاً للمسيح وقبّل قدم البابا اعترافاً منه بأن دولته الممتدة بحاجة إلى عون من الكنيسة المعتلة. وفي 22-24 شباط/فبراير 1530 توّج كليمنت شارل بتاج لومباردي المصنوع من الحديد وتاج الامبراطورية الرومانية المقدسة.

توفي كليمنت بعد أربع سنوات (25 أيلول/سبتمبر 1534) بعد أكثر عهود البابوية كارثية في تاريخ الكنيسة الرومانية. ولدى تنصيب هنري الثامن كان هذا لا يزال «المدافع المخلص» (defensor fedei) ضد لوثر، ولم تكن الثورة البروتستانتية قد اقترحت بعد أياً من التغييرات المذهبية الحيوية. وعند وفاة كليمنت كانت انكلترا والدانمارك والسويد ونصف ألمانيا وجزء من سويسرا قد انفصلت بصورة مؤكدة عن الكنيسة، وكانت إيطاليا قد خضعت لهيمنة إسبانية مقوِّضة للفكر والحياة اللذين ميَّزا ـ خيراً أو شراً ـ عصر النهضة. كان كل فرد قد اغتبط بصعود كليمنت؛ واغتبط كل واحد تقريباً بموته؛ ومراراً دنس غوغاء روما قبره.

ولكن، على الطرف الآخر من إيطاليا، كانت البندقية، حتى في غروب شمس مجدها، تعطي النهضة حياة رائعة أخرى.

الفصل السابع عشر

النهضة (3): غروب شمس البندقية

البندقية وعالمها

في عام 1378 كانت البندقية في الحضيض. فقد كبح أسطول جنوة تجارتها في البحر الأدرياتيكي. وأقفلت قوات معادية مواصلاتها مع روافدها؛ كان شعبها يتضور جوعاً، وحكومتها تفكر في استسلام مهين.

لكنها بعد نصف قرن كانت تحكم بادوا وڤيشينزا وفيرونا وبريسيا وبيرغامو، على كلا جانبي شمال البحر الأدرياتيكي، ووراءه ليبانتو وباتراس وكورينثيا. وفي أمن قلعتها بخنادقها المتعددة بدت محصنة من التقلّبات السياسية لإقليمها الرئيسي؛ كانت ثروتها وقوتها قد تضاعفتا حتى جلست كملكة متوّجة على رأس إيطاليا. وقد تجاوز الدخل السنوي لحكومتها -800 ألف من الدوكات (20 مليون دولار) في عام 1455 ـ دخل أي دولة إيطالية أخرى وتساوى مع دخل إسبانيا المسيحية بأسرها. قادت قصورها المزهوة ومتنزّهها الممتد إلى جوار القناة الكبرى الرحالة فيليب دي كومينيس لأن يقول «هذا أجمل شارع في العالم».

نتجت ثروتها من مائة صناعة: بناء السفن، والحديد، والزجاج، والجلود،

والمنسوجات، والأحجار الكريمة؛ وأسطول تجاري كان يحمل منتجات البندقية وتوابعها إلى اليونان ومصر وآسيا ويعود بالحرير والتوابل والسجاد والعبيد؛ وكانت صادراتها تبلغ في المتوسط سنوياً 10 ملايين من الدوكات: فلم تكن ثمة مدينة أخرى في أوروبا تعادل تلك التجارة.

تلازمت في الشخصية البندقية (والإيطالية) نزعة تحرير وتجديف دنيوية مع إيمان متزمِّت (أورثوذكسي) وتقوى أسبوعية. ففي أيام الآحاد والأعياد كان السكان يتزاحمون في كنيسة القديس مرقص، ويلتهمون جرعات من الرعب والأمل من الزخارف والتماثيل، ومن الأيقونات والصلوات. بل إن العاهرات كن يأتين إلى هناك بعد ليلة منهكة ليطهِّرن أنفسهن من الرجال. وما كانت تلك الكاتدرائية الكبرى بالكاد ترمز إلى حضارة البندقية، أو الفن البندقي. لقد بنيت في شكلها الراهن في عام 1073، وظلت، بعد كل التجديدات التي أُدخلت عليها، بيزنطية تماماً في زخارفها الخارجية وعتمتها الداخلية. كانت طقوسها وصلواتها وزخارفها تُوصل خرافات العصر الوسيط وأهواله أكثر مما تُوصل الابتهاج الشديد والعقيدة اللامبالية للنهضة الإيطالية.

إلى جانب الكنيسة الممتدة، كان هناك قصر الدوج(*)، يجمع بين الأعمدة الكلاسيكية والقناطر ذات الطابع الروماني، والأبراج القوطية لكي يضم حجرات مترفة للسادة الشيوخ، أو ليغطي زنازين تحت الأرض لأعداء مهملين. لقد أخذت ترتفع القصور عاماً بعد عام في مواجهة «بياتزا سان ماركو» أو القناة الكبرى، متواضعة في مظهرها الخارجي، لكنها في الداخل مزينة بكل ثروة ودفء الفن البندقي وترفه. هنا أبدع بايرون ومات ڤاغنر. أجل، هنا، كما في قصر القضاة، أو في عشر من الكنائس ـ متواضعة كانت أم ضخمة ـ أو في مدارس الرهبان سترتفع، في تعاقب مذهل، لوحات جنتيله وجيوفاني بيلليني وكاباتشيو وجيورجيوني وتيتيان وتنتوريتو وڤيرونيزي. وستجد روما أن من الصعب عليها منافسة تلك السلالة الحاكمة.

حتى أعداء البندقية أعجبوا بحكومتها وأرسلوا عملاء لدراسة بنيتها وطريقة أدائها. كانت تحت سيطرة أقلية ضيقة من العائلات القديمة، مذكورة

(*) الدوج Doge كان لقب كبير القضاة في جمهورية البندقية. (المترجم).

قوائمها في كتاب «ليبرو دورو» (الكتاب الذهبي)، التي تختار «ماجيور كونسيغليو» أو المجلس الأكبر، الذي يختار ستين رجلاً لخدمة مجلس شيوخ تشريعي، الذي بدوره يختار قائداً ليكون صاحب السلطة التنفيذية، والذي يشكل، مع ستة أعضاء من مجلس شورى السيد، مجلس السادة. واحتياطاً ضد مؤامرات داخلية أو خارجية، كان المجلس الأكبر يختار سنوياً مجلس العشرة كلجنة لشؤون السلامة العامة. وعن طريق جواسيسه وإجراءاته الفورية وجلساته ومحاكماته السرية أصبح مجلس العشرة لبعض الوقت أقوى ذراع للحكم.

ظهرت أساطير كثيرة حول هذا المجلس، تبالغ عادة في أمر سريته وقسوته. وعلى وجه الإجمال، فإنه كان دستوراً ذا كفاية وقد صان الدولة في حالة من الاستقرار والرخاء، وكان قادراً على وضع سياسات محسوبة لزمن طويل كان من الصعب الإبقاء عليها في ظل حكومة تخضع لتقلبات دائمة للمشاعر العامة.

كانت حياة البندقية أكثر جاذبية في إطارها مما في روحها. وكانت الأقلية الحاكمة كفوءة وأظهرت شجاعة كبيرة في أوقات المحن، لكنها قاسية أحياناً وأنانية دائماً؛ فشأنها شأن جيرانها، لم تؤمن هذه الأقلية قط بنفسها كجزء من إيطاليا، ولم تعبأ كثيراً بالمأساة السياسية التي يمكن أن تحيق بتلك البلاد المقسمة. لقد أنجبت شخصيات قوية، تعتمد بدرجة كبيرة على نفسها، داهية، ومحبة للتملك، وشجاعة، ومزهوة؛ ونحن نعرف مائة منهم من خلال الصور الشخصية التي رسمها فنانون على درجة عالية من البراعة استتبعت رعاية تلك الشخصيات لهم. كانت ثقافة، إذا قورنت بثقافة فلورنسا، تفتقر إلى الدقة والعمق؛ وإذا قورنت بثقافة ميلانو في ظل حكم لودوڤيكو تفتقر إلى الدقة والعذوبة. إلا أنها كانت أكثر حضارة عرفها التاريخ حيوية وترفاً وسحراً من الناحية الحسية.

فن البندقية

ما قبل تيتيان

اللون الحسي هو جوهر الفن البندقي، حتى لفن العمارة فيها. فكثير من كنائس البندقية وأبنيتها السكنية، وكذلك بعض مبانيها المخصصة للأعمال، كانت ذات واجهات مزخرفة أو مصنوعة بالجصّ المزيَّن.

كانت واجهة كنيسة القديس مرقص تلمع مطلية بالذهب أو بزينة عشوائية إلى حد كبير. وكان كل عقد من الزمان تقريباً يأتي إليها بأشكال ومفاسد جديدة، إلى أن أصبحت واجهة الكنيسة العظيمة مزيجاً غريباً من العمارة والنحت والزخرفة. طغت فيه الزخرفة على البنية وانصرفت فيه الأجزاء عن الكل. ولكي يعجب المرء بهذه الواجهة عليه أن يقف على مسافة 576 قدماً منها، عند الطرف الأقصى لبياتزا سان ماركوس (ميدان القديس مرقص)؛ عندئذ فإن الخليط الرائع من الأبواب ذات الطابع الروماني والعقود القوطية والأعمدة الكلاسيكية، والأسيجة من عصر النهضة، والقباب البيزنطية، يمتزج في مظهر خيالي غريب، في حلم سحري من أحلام علاء الدين.

بين كنيسة القديس مرقص والقناة الكبرى يبرز قصر الدوج بمثابة الوجه المزهو للدولة المدنية. لقد أعيد بناؤه في معظمه من عام 1309 إلى عام 1443. واجهته الجنوبية تطل على المياه، وواجهته الغربية تقابل المكتبة القديمة Libreria Vecchia التي بناها إياكوبو سانسوڤينو في عام 1536 لتضفي على الميدان فخامة وروعة. إن القناطر والشرفات القوطية، ورؤوس الأعمدة المنحوتة بطريقة فائقة الروعة في ذلك القصر يمكن أن تأسر العين والعقل لساعات. وقد اعتقد راسكين(*) أن واحداً من رؤوس الأعمدة تلك هو الأروع في أوروبا. وداخل البلاط أقام بارتولوميو بيون الأصغر وانتونيو ريتزو قنطرة مزخرفة زُيِّنت بتمثالين غريبين: آدم يبدو وكأنه يحتج لأنه قد تعرض للغواية، وحواء ربما يأخذها العجب متسائلة لماذا تعد المعرفة خطيئة. ومن ذلك البلاط تهبط أدراج العمالقة Scala dei Giganti الشهيرة تتقدمها العتبات الضخمة إلى المكاتب وحجرات الاجتماعات الخاصة بالمجلس الأكبر، ومجلس الشيوخ، ومجلس العشرة.

كان خيلاءً ولكنه كان مع ذلك مجداً أن ينشد أهل البندقية الصور: الأفراد ليخلّدوا امتيازهم، ومن هنا كثرة الأعمال العظيمة لتيتيان؛ والحكومة لتترك انطباعاً قوياً لدى رعاياها بقوتها وعزّتها، ومن هنا بعضٌ من أجمل الجداريات في التاريخ؛ والكنيسة لتتلو القصة المسيحية للشعب، الذي لا تجيد القراءة منه إلا

(*) John Ruskin (1819-1900): كاتب وناقد انكليزي كتب كثيراً عن تاريخ الفن وبالأخص عن المصورين المحدثين، أهم مؤلفاته «راحة القديس مرقص: تاريخ البندقية» (1877-1884)، «صباح في فلورنسا» (1875-1877) «والاقتصاد السياسي للفن» (1857). (المترجم).

قلة، ومن هنا هذه الكثرة من جداريات عيد البشارة، وميلاد المسيح، وعيد زيارة السيدة العذراء، والمذابح ضد الأبرياء، والهروب من مصر، وعيد تجلّي المسيح، والعشاء الأخير والصلب ودخول القبر وقيامة السيد المسيح وصعود السيد المسيح والشهادة. حتى اليونانيون لم يصيبوا مثل هذا النجاح في تخليد عقائدهم.

لقد ساعدتهم حوافز خارجية على أن يقيموا مدرسة بندقية للتصوير. اثنان من فناني مدن أخرى ساعدا في الاستعاضة عن الوجوه القاتمة والحزينة للتراث البيزنطي والأشكال الخالية من الحياة لقديسي چيوتو. انتونيللو القادم من ميسّينا، مسافراً في رحلة عمل إلى بلاد الفلاندر، لاحظ اللمسات الأخيرة الأكثر لمعاناً والثبات الأكبر للوحات الزيتية والتدرُّج الدقيق لألوانها، مقارنة بالتامپرا(*)، أي خلط الألوان مع بعض المادة الهلامية، الذي كان لا يزال مستخدماً في إيطاليا. وقد استقر به المقام في البندقية لأنه «أدمن بدرجة كبيرة على النساء والمتعة»، وجرب الرسم بالزيت، وهكذا ترك انطباعاً لدى رسامي التامپرا بأن ثورة في المناهج قد أدت إلى أول ازدهار لفن التصوير البندقي.

تقدم العرض الصاخب أخوان غير شقيقين هما جنتيله وچيوڤاني بيلليني. وفي عام 1474 عهد السيد إليهما بمهمة إعادة رسم أربعة عشر لوحة متآكلة في قاعة المجلس الأكبر. وكانت النتائج لوحات من بين أقدم اللوحات الزيتية في البندقية. ويمكن أن يكون نجاحهما قد شجع محمد الثاني (1453)، فاتح القسطنطينية، على أن يطلب من حكومة البندقية رسّاماً قديراً للشخصيات. وقد أرسلت إليه جنتيله بيلليني. وقد أنعش جنتيله السلطان المسن بصور شبقية، ثم صوّره كشخصية قوية معتادة على النصر (1474).

وفي عام 1480 عاد جنتيله إلى البندقية، ومات محمد (الفاتح) بعد عام؛ أطاع خليفته الحظر الإسلامي على تصوير الشكل الإنساني وشتت في غياهب النسيان كافة لوحات جنتيله التركية عدا اثنتين. واستمر جنتيله في إنتاج لوحات عظيمة حتى موته (1507).

عاش أخوه الذي يصغره بسنة واحدة چيوڤاني (جيان المولع) تسع سنوات بعده، وأعطى لفن الرسم بالزيت أول ذروة بندقية له. حقق امتيازاً في

(*) Tempera: طريقة في الرسم بألوان ممزوجة بالبيض أو الغراء بدلاً من الزيت (المترجم).

اللون ورقة ودقة في الخط، وعذوبة في الشعور وعمقاً في التفسير جعلته المصور الأكثر شهرة وطلباً في البندقية، حتى في حياة أخيه. بدا أن الكنائس والجمعيات والزبائن الأفراد لا يملون أبداً لوحاته لمريم ويسوع؛ ووجد كبير القضاة اللامع لوريدانو وقتاً للجلوس أمامه لواحدة من أعظم الصور الشخصية في فن البندقية.

بين أعمال بيلليني وانتصارات تيتيان تدخَّل مصور فاتن بشكل خاص لا يزال معروفاً لنا باسم عائلته فحسب، هو: جيورجياني داكاستلفرانكو. إننا لا نعرف أبويه ولكننا نرى نسبه حينما نعلم أنه في عمر الثالثة عشرة أُرسل إلى البندقية لخدمة جيان بيلليني كصبي له. تطور سريعاً، وكسب تكليفات مشجعة، واشترى بيتاً، زيَّن واجهته بالجص وملأه بالموسيقى والمرح الصاخب، لأنه كان يعزف العود بمهارة أخّاذة. وكان يفضّل النساء المستهترات أحياء على أجمل الجميلات الجامدات على القماش أو الجدران، أضف قليلاً من صمت الغابات وسترى أول أعماله العظيمة «الغجرية والجندي»: امرأة غير مكترثة عارية إلا من شال حول كتفيها تجلس على ردائها الممزق على ضفة جدول يترقرق وترضع طفلها، بينما بالقرب منها شاب وسيم الطلعة مسرور بالمشهد إلى حد أنه يتجاهل البرق الذي ينذر بعاصفة.

في لوحة جيورجياني «ڤينوس نائمة»، يكتمل العبور من الموضوعات والعواطف المسيحية إلى تلك الوثنية. إذ تصبح المسيحية منسية بالنسبة لروما التي استعادت مزاج أوفيد. وفي قطعة أخرى، وهي «المشهد الريفي»، التي يقتنيها متحف اللوڤر، ثمة امرأتان عاريتان لا تشعران بخجل، ورجلان في ثيابهما ويبدوان ظافرين بغير ما عجلة، يحتفلان بالجمال الأنثوي بفتنة لها طابع الغابات. إنما فقط في لوحته الأجمل والأدق: «السيمفونية الريفية»، يتجاوز جيورجياني الرغبة في تحقيق حس وإنجاز جماليين. ناسك يجلس إلى الكلافيكورد، يداه المستديرتان الجميلتان على المفاتيح، ووجهه يلتفت نحو رجل دين أصلع الرأس إلى يميننا، ويضع رجل الدين هذا يداً على كتف الناسك ويمسك بالأخرى آلة تشيللو مستقرة على الأرض. هل انتهت الموسيقى، أم أنها بدأت لتوها؟ لا يهم، إن ما يحرك مشاعرنا هو العمق الصامت للشعور بالهدوء في ملامح الناسك الذي حدد بدقة كل نسيج فيه، واكتسبت كل عاطفة فيه نبلاً بفعل الموسيقى؛ فهو يسمعها بعد أن تكون كل الآلات قد صمتت بوقت طويل.

ذلك الوجه الذي لم يكتسب طابعاً مثالياً إنما تحقق واقعياً بعمق، هو واحد من معجزات تصوير عصر النهضة.

عاش جيورجياني حياة قصيرة ومرحة في ظاهرها. إذ يبدو أنه عرف نساء كثيرات وكان يضمد كل غرام كسير بغرام جديد يبدأه عاجلاً. ويخبرنا ڤاساري أن جيورجياني أصيب بعدوى الطاعون من غرامه الأخير؛ وكل ما نعرفه أنه مات في الوباء في عام 1511 في سن الرابعة والثلاثين. وقد خلّف تلميذين قُدِّر لهما أن يحدثا هزة في العالم: سيباستيانو ديل بيومبو، الذي انتقل إلى روما؛ وتيزيانو ڤيتشيللي، أعظم المصورين البندقيين قاطبة.

تيتيان

ولد في پييف في الدولوميت(*) (1477). وعلى الرغم من أنه كان قد انتقل إلى البندقية وهو في سن العاشرة، فإن تلك الجبال، الشبيهة بمخلوقات خارقة للطبيعة تحلق فوق عبثيات الإنسان، ظلت ماثلة في ذكرياته وفي رسومه للمناظر الطبيعية. درس على يد الأخوين بلليني، وعمل إلى جانب جيورجياني وأحس بتأثيره حتى أعماقه.

تطور تيتيان ببطء، كما لو أنه كان يترك وقتاً لكل مواهبه كي تنضج. وفي عام 1515 بلغ درجة الأستاذية بثلاث صور تثير الفكر: الأولى، «عصور الإنسان الثلاثة»: أطفال ينامون في عري بريء تحت شجرة، بينما كيوبيد يطعّمهم بالرغبة؛ وزوجان شابان في ربيع الحب؛ وشيخ ملتح في ثمانينياته يتأمل جمجمة. الثانية: «حب مقدس ومحرم»، حيث العري مرسوم بكمال محبَّب حتى إنه يمكن أن يكون قد جعل روبينز يبدأ جولة طويلة من جمال لا يردعه شيء: هنا حركة النهضة من العذراء إلى ڤينوس تبدو كاملة. ولكن، في العام نفسه، (1515)، صوَّر تيتيان لحساب كنيسة الفراري ما لعله أعظم أعماله، «صعود العذراء» من الأرض إلى الفردوس؛ وحتى يومنا هذا فإن رؤية تلك اللوحة الرائعة حدث لا ينسى في حياة أي جائل حساس. يقف الشكاك دون النطق بكلمة أمام هذا

(*) مجموعة شعاب في جبال الألب مشهورة بمناظرها الفاتنة، والألوان البرّاقة لصخور الدولوميت فيها؛ ومن هنا اسمها (المترجم).

المشهد المثير للأحزان القوية دون إرادة منه يبكي شكوكه ويعترف بقوة الأسطورة وجمالها.

كان الصديق المفضل لهذا المصور الأعظم بين المصورين البندقيين هو الأكثر اندفاعاً ولاأخلاقية وقلة حياء وأروع كتّاب زمانه، راعي العاهرات والصديق المفضل للامبراطور شارل الخامس. كان ابناً لإسكافي غامض وامرأة مجهولة، وكان راضياً بأن يسمى آريتينو، وهي تسمية أطلقها عليه مواطنه أريزو. لم يكن يعبأ بأن يكون ابن حرام لأنه كان يجد صحبة مميزة في تلك الطبقة.

مرّ خلال أشكال عدة من الفقر حتى استطاع أن يجمع عدداً لا بأس به من الدوكات بذكائه وقلمه؛ كان البارزون من الناس يدفعون له ليعفيهم من سخريته، وآلاف قرأوا كتبه للاستمتاع برؤية أصحاب الملايين ممزقين شرّ تمزيق والنبلاء يُعذبون بالتشهير. عندما انتقل إلى البندقية في عام 1521 استأجر «سوط الأمراء»، كما كان يُلقَّب، غرفاً مريحة تطل على القناة الكبرى واستمتع بموكب الأعمال والمتعة يمضي تحت نافذته بقدر من الصخب لا يكاد يزيد عن إشارات ربابين زوارق الجندول وهم يضربون المياه بمجاذيفهم.

عندئذ كان يلبس كما يلبس اللوردات ويوزع إحساناته على الفقراء، ويعيل طابوراً متتالياً من العشيقات، ويرفه عن طابور من الأصدقاء. كان تيتيان سعيداً يتمتع بكرم ضيافة آريتينو ويجني الربح من توصياته لنبلاء من أصحاب الألقاب أو أصحاب المال. في عام 1530 عرّفه آريتينو على شارل الخامس.

كان امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ وقد غزا معظم إيطاليا ـ مشغولاً بإعادة تنظيمها، وكان يتململ بفارغ الصبر بانتظار انتهاء صورة شخصية ظنها تساوي دوكاتاً واحداً (12,50 دولاراً). لكن فيدريغو، ماركيز مانتوا، دفع لتيتيان بهدوء 150 دوكاتاً أكثر، وأكد لشارل أنه إنما جلس أمام «أفضل مصوّر حيّ الآن». وبحلول عام 1532 كان الامبراطور قد اقتنع بذلك، وخلال السنوات الست عشرة التالية جلس أمام تيتيان كثيراً إلى حد أن الفنان لا بد كان يتوق إلى الحرية.

ولا بد أنه انتقل ببعض شعور بالارتياح إلى تصوير البابا. وكان بول الثالث هو الآخر «امبراطورياً»: رجلاً ذا شخصية قوية ودهاء شديد، وله وجه

سجّل وقائع جيلين من التاريخ؛ وهنا كانت لتيتيان فرصة أفضل من تلك التي وجدها مع الامبراطور الذي يصعب التفاهم معه. في بولونيا في عام 1543، واجه بول بصراحة واقعية طريقة تيتيان في رسم الصور الشخصية. كان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، منهكاً ولكنه لا يقهر. جلس في ردائه البابوي، الرأس المستطيل واللحية الضخمة ملقاة على الجسم الذي كان يوماً قوياً، وخاتم السدّة واضح بجلاء على يده الارستقراطية؛ هذه الصورة وصورة رافائيل ليوليوس الثاني تتنافسان على التميز كأروع وأعمق صورة شخصية في عصر النهضة الإيطالية.

في عام 1552 أنهى تيتيان أسفاره وعاد إلى البندقية. كان مشغولاً للغاية حتى أنه لا يجد متسعاً من الوقت ليموت. لكنه الآن وقد بلغ الخامسة والسبعين ربما أحس بالموت وبعض الدعوات للعودة عن الاهتمام بآلهة الإغريق إلى العقيدة التي كان يعتنقها في شبابه. فصوَّر سلسلة أخرى من الصور المسيحية، ولكن بعض الحيوية الملحة ظلت تجتذبه مراراً إلى الموضوعات الوثنية، وصدرت عن فرشاته كثير من اللوحات لديانا وأفروديت(*).

أعظم وأعمق من هذه الصور الأسطورية العارية كانت الصور الشخصية التي أنتجها تيتيان آنذاك بوفرة إلى الحد الذي بدا معه فنه طبيعةً ثانية. كان مدهشاً في تصويره آريتينو ـ ذكريات صديق مخلص عن وغد ساحر. كانت لوحة تكشف بالقدر نفسه الذي تكشف عنه صورة تيتيان التي رسمها لنفسه وهو في التاسعة والثمانين: وجه مليء بالتجاعيد ومع ذلك نقّاه تعاقب الأيام الكثيرة؛ عينان زرقاوان فيهما لمحة حزن ضئيلة، تريان الموت لكن يداً تقبض على فرشاة. لم ينفد حنينه إلى الفن بعد.

مات في عام 1576 في سن التاسعة والتسعين. وكان لا يزال هناك عمالقة مثله بعده، أمثال تنتوريتو وڤيرونيس، اللذين مجدا بفنهما غرف الحكومة؛ نتركهما لأعمال أكثر طولاً. لقد تغنّى فن البندقية وآدابها بعظمة البندقية حتى حينما كان اقتصادها قد غرق حطاماً في البحر المتوسط الذي أصبح في جانب منه تحت هيمنة الأتراك، وفي الجانب الآخر مهجوراً من أوروبا الباحثة عن الذهب الأمريكي.

ما كان يمكن لأية تقلبات في التجارة أو الحرب أن تطفىء ذاكرة قرن عظيم

(*) الأولى ديانا إلهة الصيد والثانية إلهة الجمال في الأساطير اليونانية. (المترجم).

يملؤها الفخر ـ (1480-1580)؛ قرن صنع وأنقذ البندقية خلاله موسينيغي وبيريولي ولوريداني. وكان لومباردي وليوباردي قد زيَّناها بالتماثيل. وسانوڤينو وباللاديو قد توَّجا مياهها بالكنائس والقصور. ورفعها بيلليني وجيورجياني وتيتيان وتنتوريتو وڤيرونيس إلى مرتبة قيادة إيطاليا الفنية. وأتحف آلدوس مانوتيوس، في طباعة وشكل ممتازين، كل من كان معنياً بالتراث الأدبي لليونان وروما. وتربع كتاب «الانتقاد المفيستوفيلي(*) للأمراء» الجامح متوَّجاً على القناة الكبرى يصدر الأحكام ويحتلب البشرية.

المكوث في إيطاليا

لم ننصف تنتوريتو والآخرين الذين زخرفوا الغرف الرائعة لقصر الدوج، فقد أهملنا كوريجيو وتشيلليني، ونفوساً أخرى كرست نفسها ولبعض الوقت جعلت من إيطاليا «نور العالم». وقد نسينا العقد الأخير لمايكلانجلو والأعمال التي أنجزها خلاله، وهو الذي دفن ميديتشي الميت في ضريح ذي نحت خالد، وتوَّج القديس بطرس بقبة لا تزال ـ في عصر شكاك ـ مركز الحضارة الغربية وذروتها.

إننا نمجد مايكلانجلو لأنه طوال حياة مديدة ومعذبة واصل الإبداع، وأنتج في كل حقل رئيسي عملاً عظيماً. إننا نرى هذه الأعمال قد اقتطعت ـ إذا جاز التعبير ـ من لحمه ودمه، من عقله وقلبه، تاركة إياه لبعض الوقت ضعيفاً بفعل الولادة. إننا نرى هذه الأعمال تتشكل عبر مئات الآلاف من ضربات المطرقة والإزميل وقلم الرصاص والريشة، ضربةً تلو ضربة، وكشعب لا يموت اتخذت مكانها بين أشكال قائمة من الجمال أو المغزى.

إننا لا نستطيع أن نعرف ما هو الله، ولا أن نفهم عالماً يمتزج فيه الخير والشر، والمعاناة والجمال، والدمار والجلال. إنما في حضور أم تحتضن طفلها، أو إرادة عارفة تهب النظام للفوضى، والمعنى للمادة، والنبل للشكل أو الفكر، فإننا نشعر بأننا قريبون ـ أشد ما يمكن أن نكون قرباً ـ من الحياة والناموس اللذين يشكلان الذكاء الذي يستعصي على الفهم، ذكاء هذا العالم.

(*) المفيستوفيلي: الشيطاني؛ نسبةً إلى «مفيستوفيلس»، أحد الشياطين السبعة الرئيسيين في أساطير القرون الوسطى. (المترجم).

الفصل الثامن عشر

حركة الإصلاح (1): وايكليف وإيرازموس

تمهيد (30-1307 م)

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هي واحدة من أبرز المنظمات في التاريخ، ويمكن لدراسة موضوعية لأصولها وأهدافها ومناهجها وتقلُّباتها وأخطائها وإنجازاتها أن تلقي مزيداً من الضوء على طبيعة وإمكانيات الإنسان والحكومة أكثر من دراسة أي موضوع آخر أو مؤسسة أخرى مفتوحة لبحث إنساني.

حينما لم يعد الإيمان الآفل بآلهة روما الوثنية قادراً على إعطاء دعم أخلاقي لدولة تسودها الفوضى وتتعرض للخطر في مهمة السيطرة على النزعة الفردية الداخلية لدى الرجال والجماعات، فإن عقيدة جديدة تؤمن بإلّه صارم لكنه غفور، والإيمان بابنه المفتدي والملهم، زودت أقلية متعاظمة بعقيدة غذَّت وفي الوقت نفسه هدأت عجب الإنسان وخوفه، وطوَّرت قانوناً أخلاقياً ونظاماً اجتماعياً جعلا قيام حضارة جديدة أمراً ممكناً.

رقَّت رجولية اللاتينية القديمة التي كان يتميز بها الجنود الرومان لتتناسب مع الترانيم؛ والتمع الأدب وجُرّب في أشكال إنسانية؛ وأضاف الفن مرحاً وإثارة للخيال من النقوش والأبراج القوطية إلى النبالة الهادئة للأبهاء والقِباب

الكلاسيكية. ونمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لتبلغ حداً من القبول والورع حتى أصبحت قادرة على إيقاف المسعى الذاتي للبشر والدولة بقوة الكلمة المبجلة.

بحلول عام 1300 م، كان ذلك البنيان العظيم قد تآكل بفعل الطبيعة والإنسان. برهن بعض مديري الكنيسة على أنهم بشر، فاسدون يمكن شراؤهم بالمال أو متحيِّزون أو قمعيّون أو مبتزّون؛ رفض بعض الملوك ـ الذين زادهم النظام الاجتماعي والاقتصادات النامية قوة ـ المزاعم البابوية بحقها في السلطة الدنيوية وأحزنهم انتقال أموال شعوبهم إلى حكام أجانب.

في عام 1303 نجح فيليب الرابع ملك فرنسا في تحدي سلطة البابا بونيفاس الثامن على أملاك الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ونشاطاتها. سُجن بونيفاس لثلاثة أيام في آنانيي بوسط إيطاليا ومات الحبر الأعظم بعدها بقليل. وفي عام 1305 يسّر فيليب انتخاب فرنسي لمنصب البابوية باسم كليمنت الخامس، وفي عام 1309 أقنعه بنقل مقر الكرسي البابوي من روما إلى آڤينيون على نهر الرون. وهناك ـ حتى عام 1377 ـ أصبحت البابوية بدرجة ما إقطاعة تابعة لملك فرنسا، وهكذا اعتبرها الحكام الآخرون الذين أحزنهم أكثر فأكثر تصدير مدخرات شعوبهم إلى بابوية أجنبية.

وكما لو كانوا يعلنون إقطاعاتهم، رشح بابوات آڤينيون ـ من مجموع 134 ترشيحاً لمجمع الكرادلة ـ 113 فرنسياً. ونبذ ناخبو الامبراطورية الرومانية المقدسة أي تدخل من جانب البابوات في انتخاب الملوك أو الأباطرة. وفي بعض المدن الألمانية جرت مطاردة جامعي الأموال البابويين وسجنهم وقطع أطرافهم أو شنقهم. وفي عام 1372 ألزم رجال الدين في مدن بون وكولونيا ومينز أنفسهم برفض دفع الضرائب العُشرية البابوية.

وفي إيطاليا استولى على الدويلات الرئيسية البابوية ـ لاسيما فيرارا وبولونيا وريڤينا وريميني وأوربينو ـ الولاة الطغاة الذين منحوا البابا البعيد طاعة صورية ولكنهم احتفظوا بالإيرادات لأنفسهم. واستشاطت الحكومة الانكليزية غضباً إزاء قروض بابوات آڤينيون التي دأبوا يقدمونها لملك فرنسا طوال حرب المائة عام. ووجد بابوات آڤينيون، وقد أصبحوا يتعرضون

للتحرُّشات من كل جانب، أن من المستحيل عليهم أن يفوا بنفقات الإدارة ومطالب الكرادلة والمقربين لنيل ما اعتادوا عليه من متع ومباهج. وصاح الأسقف الإسباني آلڤاروبيلايو: «الذئاب تسيطر على الكنيسة وتتغذى على دم القطيع المسيحي». وفي عام 1311 قال وليام ديوراند، أسقف ميندي (في جنوب فرنسا) لمجلس ڤيينا:

«يمكن إصلاح كنيسة روما كلها إذا ما بدأت بإزالة أمثلة الشرّ من داخلها... التي بواسطتها يتعرض الرجال للفضائح والشعب بأسره يصاب بالعدوى... ذلك أنه في كل البلاد... ساءت سمعة كنيسة روما، والجميع يصيحون وينشرون في الخارج أن الناس جميعاً في كنفها - من أعظمهم إلى أوضعهم - قد وجهوا نواياهم شطر اشتهاء ما للغير... وأن يأخذ القوم المسيحي بأسره أمثلته السيئة في الجشع من رجال الدين، فهذا أمر واضح ومشين السمعة، حيث إن احتفالات رجال الدين هي أكثر ترفاً من احتفالات الأمراء والملوك».

وفي انكلترا كان الملوك والبرلمان يبتسمون لقسٍ سبق لوثر وهنري الثامن بنحو قرنين في الهجوم على المزاعم اللاهوتية والسياسية للكنيسة الكاثوليكية.

جون وايكليف

ولد جون وايكليف في عام 1320 بالقرب من قرية يوركشاير التي أعطته اسمه. درس في أوكسفورد وأصبح قسّا وخدم لسنة واحدة كأستاذ في كلية باليول، وقبل كثيراً من المنح من البابوات، وأصدر مجلدات عديدة أضفت عليها لغتها اللاتينية الفجة غموضاً وحمت لوقت طويل لاهوتاً قَدَرياً(*) بلا رحمة. باتفاق الرأي بين المسيحيين عامة، فإن الرب قادر على كل شيء وعليم بكل شيء؛ فلا عمل ولا حدث ولا فكر أو إرادة، مهما كانت «حرة»، حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً، غير معروفة له؛ من ثم لا شيء يحدث من دون قبوله الضمني. ويترتب على هذا الاعتقاد فيما يبدو أن أولئك الخُطاة الذين لا حصر لهم ممّن لم يقيموا سلامهم مع الرب أو يحصلوا على عفوه قبل موتهم إنما حكم عليهم

(*) المقصود بالقدري هنا الاعتقاد بأن كل شيء مقدر سلفاً من قبل الخالق. (المترجم).

الخالق بجحيم أبدي قبل أن يُولدوا. إن الأعمال الطيبة لا تُكسب الخلاص، إنما هي تشير إلى أن من يأتيها قد تَلقى عفواً إلَهياً، وأنه واحد من المختارين ـ اختير منذ الأزل لنعمة أبدية.

من عقيدة الشيوع والوحي الإلَهي المنسوبة إلى الرسل في «العهد الجديد»، استنتج وايكليف أن خلفاءهم ومندوبيهم الكهنوتيين قد قُصد أن لا تكون لهم أملاك. والإصلاح الذي تحتاج إليه الكنيسة أكثر من غيره ويحتاج إليه رجالها هو النبذ الكامل للسلع الدنيوية. أحب البرلمان هذا ورفض أن يدفع الرسوم المتوقعة للبابوية، وعين وايكليف للدفاع عن هذا الرفض. واقترح جون ألغونتي أن تصادر الحكومة الانكليزية جزءاً من ممتلكات الكنيسة في انكلترا؛ ودعا وايكليف للدفاع عن هذا المشروع في سلسلة عظات. جاء وايكليف مدعوماً بحاشية جون المسلحة، فلم يجرؤ رجال الكنيسة على الاحتجاج.

أصدر البابا غريغوري الحادي عشر مراسيم تدين ثماني عشرة أطروحة كانت موجودة في كتابات وايكليف، وأعلن أنه ما لم يسحبها فسيلقي الأساقفة القبض عليه ويبقونه مكبلاً بالسلاسل. ولكن البرلمان الذي اجتمع في تشرين الأول/أكتوبر 1377 كان شديد العداء لرجال الكنيسة إلى حد أن مستشاري الملك طلبوا من وايكليف أن يعد رأياً حول مسألة: «ما إذا كان باستطاعة مملكة انكلترا أن تحجب بطريقة مشروعة ـ وعندما تكون هناك ضرورة ناجمة عن غزو وشيك ـ أموال خزينة المملكة فلا تُرسل إلى أنحاء أجنبية، حتى وإن كان البابا يطلبها، تحت طائلة الزجر وبحكم الطاعة له؟».

أجاب وايكليف: «لا يستطيع البابا أن يطلب هذه الأموال إلا على سبيل الصدقة». وخلافاً للاعتقاد بأن الكنيسة الانكليزية جزء من العقيدة الكلية أو الكنيسة الكاثوليكية وينبغي أن تطيعها، أوصى وايكليف بالاستقلال الكنسي لانكلترا: «إن مملكة انكلترا، بنص كلمات الكتاب المقدس، ينبغي أن تكون جسماً واحداً، ورجال الكنيسة، سادتها وعامتها هم أعضاء هذا الجسم». هذا الإرهاص في عام 1377 بإعلان هنري الثامن الاستقلال الكنسي لاحقاً، بدا من الجسارة حتى أن مستشاري الملك أصدروا توجيهاً إلى وايكليف بأن لا يصدر أي بيان آخر في الموضوع.

مع ذلك ظهر وايكليف ـ في آذار/مارس 1378 ـ أمام اجتماع الأساقفة في لامبث للدفاع عن وجهات نظره. وأرسلت أم الملك ريتشارد الثاني رسالة إلى الأساقفة تستنكر أي إدانة ختامية لوايكليف. وفي معمعمة الإجراءات شق حشد من العامة طريقه إلى الداخل قادمين من الشارع وأعلنوا أن الشعب الانكليزي لن يسمح بأي محكمة للتفتيش في انكلترا. وأجّل الأساقفة اتخاذ أيّ قرار وعاد وايكليف إلى بيته منتصراً.

عندئذ أخذ في كتبه وكراساته يكرر هرطقاته وضاعف من إداناته. فوصف بعض الأديرة بأنها «أوكار لصوص وأعشاش للثعابين ومساكن لشياطين حية». «الأساقفة يخدعون الناس بصكوك غفران أو مراسيم عفو مزيفة، ويسلبون منهم نقودهم... رجال على درجة كبيرة من الحمق هم الذين يشترون هذه الصكوك... ويدفعون فيها ثمناً غالياً». فإذا كانت لدى البابا السلطة لانتزاع النفوس من المطهر، فلماذا لا يحررها دفعة واحدة؟ وذهب وايكليف إلى أن «كثرة من القساوسة... يدنسون الزوجات والخادمات والأرامل والراهبات». وشجب بقوة الأساقفة الذين يمارسون الصيد ويقامرون ويزيفون المعجزات؛ الذين لا يصلّون إلا للتظاهر، ويجمعون الرسوم لكل طقس ديني يؤدونه؛ والذين يمتطون جياداً سمينة ألجمتها من ذهب وفضة. «إنهم لصوص... ثعالب ماكرة... ذئاب شرهة... نهمون... أشرار... قرود» ـ هنا تنبؤ حتى بتوبيخ لوثر الودي. ولعل وايكليف أشار إلى أن البابا ربما يكون المسيح الدجال الذي تنبأ به الرسول يوحنا، وحش يوم الدينونة الذي يبشر بالقدوم الثاني للمسيح.

وكدواء لهذه العلل، اقترح وايكليف أن تُحرم الكنيسة من كل ممتلكاتها وسلطاتها المادية، وأن يعيش القساوسة في فقر على غرار الحواريين. ويتعين على الرهبان أن يعودوا إلى الالتزام التام بأحكام هؤلاء الحواريين. فإذا ما رفض رجال الكنيسة تسليم ممتلكاتها المادية، يتعين على الدولة أن تصادر كل الممتلكات الكنسية، و «يتعين على القساوسة أن يُلزموا بالبقاء على حالة الفقر التي طوَّبها المسيح». ويمكن للملوك أن يأمروا بهذا كله وأن يفرضوا الطاعة، فإنهم مسؤولون أمام الرب وحده، الذي يستمدّون منه مُلكهم وسلطانهم. وينبغي أن يُرسم القساوسة من قِبَل الملك.

أثارت إدانات وايكليف استياء كثير من النبلاء في الحكومة الانكليزية؛ بل إن بعض مؤيديه انزعجوا. فأعاد تأكيد وجهات نظره في عظة «الاعتراف» التي ألقاها يوم 10 أيار/مايو 1381. وبعد شهر واحد اندلعت ثورة اجتماعية في انكلترا وأخافت أصحاب الأملاك. وعندئذ فقد وايكليف معظم الدعم البرلماني الذي كان يتمتع به. وأمر الملك ريتشارد الثاني ـ الذي أفلت بأعجوبة من السقوط عن العرش على يد الانتفاضة ـ جامعة أوكسفورد بطرد وايكليف وكل أتباعه، فتقاعد في محل عيشه في لاترورث، وتنصّل من الثوار، وواصل إصدار كتيباته ضد الكنيسة. ونظم هيئة من «القساوسة المبشرين الفقراء» (أُطلق عليهم فيما بعد وصف «لولارد»)، وجمع باحثين لترجمة الكتاب المقدس من طبعة جيروم اللاتينية، ويبدو أنه ترجم بنفسه «العهد الجديد». لم تكن الحصيلة الجماعية نموذجاً في النثر الانكليزي، لكنها كانت حدثاً في التاريخ الانكليزي.

في عام 1384 استدعى البابا أوربان السادس وايكليف للمثول أمامه في روما. لكن استدعاءً بلهجة أكثر حدة جاء إلى وايكليف في صورة سكتة دماغية أصابته بالشلل في 28 كانون الأول/ ديسمبر 1348، بينما كان وايكليف يحضر إحدى الصلوات. وبعد ثلاثة أيام مات. وقد دفن في لاترورث، إلا أنه بمقتضى مرسوم أصدره مجلس النظام (4 أيار/مايو 1415) أُخرجت عظامه من القبر ورميت في جدول قريب.

الانشقاقات البابوية

(1417-1378)

اتفقت ألمانيا وإيطاليا مع انكلترا على ازدراء بابوية آڤينيون. وفي عام 1372 اتفق رؤساء أديرة كولونيا علناً على أن «الكرسي الرسولي قد سقط في احتقار إلى حد أن خطراً شديداً بات يتهدد العقيدة الكاثوليكية في هذه الأنحاء». وفي عام 1362، عندما أرسل أوربان الخامس مندوبين إلى ميلانو لطرد الڤيكونت المتمرد بيرنابو، أجبرهم على أن يأكلوا المراسيم، الورق والأربطة الحريرية وأختام الرصاص (1362). وفي عام 1376 أزالت فلورنسا ـ في شجار مع البابا

غريغوري الحادي عشر ـ المباني التي كانت تشغلها محاكم التفتيش، وسجنت أو شنقت القساوسة المقاومين، ودعت إيطاليا إلى إنهاء كل سلطة دنيوية للكنيسة. وأصبح واضحاً أن بابوات آڤينيون يخسرون أوروبا في ولائهم لفرنسا. وفي عام 1377 أعاد البابا غريغوري الحادي عشر البابوية إلى روما.

مع ذلك، فإن بابا منافساً نصِّب نفسه في آڤينيون، وانقسمت أوروبا والكاثوليكية الرومانية في «انشقاق بابوي» دام تسعاً وثلاثين سنة، وفي بعض الأحيان كان ثلاثة بابوات يتنافسون، يدّعي كل منهم السلطة الدينية الشاملة ويطالب بكل الإيرادات البابوية. وكانت النتيجة حملة مالية ثلاثية أدى إلحاحها ومباذلها إلى إغضاب العالم المسيحي. وأنقل هنا مرة أخرى رسالة بعث بها في عام 1430 مبعوث ألماني في روما إلى أميره:

«إن الجشع يسيطر تماماً في البلاط الروماني، ويجد يوماً بعد يوم مزيداً من الحيل... لانتزاع المال من ألمانيا... ومن هنا الكثير من الصرخات وحُرقة القلوب... تساؤلات كثيرة فيما يتعلق بالبابوية ستُثار، أو فإن الطاعة ستُنبذ تماماً في النهاية للهروب من هذا الابتزاز المثير للحنق الذي يمارسه الإيطاليون. وهذا المسار الأخير، فيما أتصور، سيكون مقبولاً لبلدان كثيرة».

ولقد كان يمكن أن تغتفر الاستقبالات الكنسية للوفود المتدفقة على روما لو أن هذه الأموال كانت تحول إلى إدارة للكنيسة تتمتع بالكفاءة. لكن لقد بدا للشمال أن تلك الاستقبالات غارقة إلى حد كبير في حياة الترف. ولا بد أن نتذكر نداء البابا بيوس الثاني إلى كرادلته في عام 1643:

«يقول الناس إننا نعيش في متعة تراكم الثروة، ونتصرف بغطرسة، ونمتطي بغالاً سمينة وجياداً صغيرة جميلة... ونحتفظ بكلاب للصيد، وننفق الكثير على الممثلين الطفيليين بينما لا ننفق شيئاً على الدفاع عن العقيدة. وهناك شيء من الحقيقة في كلماتهم: كثيرون بين الكرادلة وغيرهم من المسؤولين في بلاطنا يمارسون هذا النوع من الحياة. وإذا كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة، فإن ترف بلاطنا وبذخه عظيم بصورة مفرطة. وهذا هو السبب في أن الناس قد هجرونا إلى حد أنهم لن ينصتوا إلينا، حتى حينما ننطق بما هو عادل ومعقول».

ولعل المؤرِّخ الكاثوليكي لودڤيغ فون باستور يرسم صورة مفرطة القتامة:

«إن فساداً عميق الجذور قد تملّك كافة مسؤولي الإدارة البابوية تقريباً... لقد تجاوز العدد المفرط للمنح والمخصصات كل الحدود. وعلاوة على هذا وعلى جميع الجوانب، فإن صكوك المِلْكية تُستغل بطريقة يعوزها الشرف، بل ويتم تزييفها. فلا عجب أن ترتفع في جميع الأرجاء التي تسود فيها المسيحية أعلى الأصوات شاكية من الفساد والانحرافات المالية للمسؤولين البابويين».

وينشر المؤرِّخ نفسه حكمه بغير تمييز:

«ليس مفاجئاً حينما يكون أصحاب المواقع الأرفع من رجال الكنيسة في مثل هذه الحالة، أن تصبح الخطايا والانحرافات من كل ضرب بين المراتب العادية وبين القساوسة العلمانيين أكثر شيوعاً. لقد فقد ملح الأرض مذاقه... ولكن من الخطأ أن نفترض أن فساد رجال الكنيسة كان أسوأ في روما منه في أي مكان آخر؛ فإن هناك أدلة موثقة على لاأخلاقية القساوسة في كل مدينة تقريباً في شبه الجزيرة الإيطالية... فلا عجب، كما يشهد الكتّاب المعاصرون بحزن، أن ينحدر نفوذ رجال الكنيسة، وفي كثير من الأماكن لا يكاد يُبدى أي احترام للكهنوت. لقد كانت لاأخلاقياتهم من الضخامة بحيث بدأت تُسمع اقتراحات تحبذ السماح للقساوسة بالزواج».

يمكن أن نقترح تعديلين لعريضة الاتهام هذه. إذ يبدو أن قسيس الأبرشية كان محبوباً ومبجلاً في كل مكان تقريباً، كان مشغولاً تماماً بخدمة مجتمعه أو يشارك في عمله، حتى لم يكن لديه وقت كثير للخطيئة. وعلى الرغم من أن كلاً من رجال الكنيسة العلمانيين وأولئك المنتمين للنظام الكهنوتي كانوا على السواء متهمين بمغامرات جنسية، غالباً مع محظيات خصوصيات أو محظيات علنيات، فقد كان هذا بمثابة ثورة ضد القانون الكنسي المضجر الصادر في عام 1074 الذي حرم زواج القساوسة. لقد استمرت الكنيستان الأورثوذكسيتان اليونانية والروسية تسمحان بمثل هذه الزيجات، وتاق رجال الكنيسة الكاثوليكية إلى الحق نفسه، ولما حرموا منه اتخذوا لأنفسهم محظيات بدرجة أو أخرى من العلنية.

وقد أعلن هاردوان أسقف آنجرز في عام 1428، أن دوقيته لا تعتبر اقتناء محظية خطيئة، ولم يقم بأي محاولة لإخفاء ممارستهم لها.

هذا الانتصار المتكرر لمريم المجدلية على العذراء في تاريخ الديانة، وعشرة تطورات أخرى على هذا الصعيد، كانت تقوِّض البنية الأخلاقية والمذهبية التي كانت مسيحية العصر الوسيط قد شيدتها على صورة المسيح المطواعة. إن انتشار التربية والتعليم واستعادة الثقافة الكلاسيكية، وزيادة استقلال الجامعات وعلمانيتها، والازدهار السري للشك بالمسيحية الذي غذّاه انتصار الإسلام على الحملات الصليبية، وتحرر العقل عن غير قصد على يد الفلاسفة المدرسيين، والنزعة الشكّية الجريئة لدونز سكوتوس ووليام الأوكامي، وتحرير الجسد في كل الطبقات، ودنيوية الكرادلة والرهبان، والانتقال من الزراعة الورعة إلى اللامبالاة الدينية لدى عمّال المدن والتجار الرحّل وذوي النزعة الواقعية المحبين للأرباح من رجال المال، وارتفاع قدر الثروة، وتعاظم الجيوش التي كان يكوّنها الملوك والدول، والاستعاضة عن رجال الكنيسة بموظفين علمانيين في الحكومة.. وبعد ذلك انقسام البابوية؛ إن كل هذه التطورات وغيرها قد هدّدت بانهيار كل الصرح العظيم - المذهبي والإداري والأخلاقي - للكنيسة التي كانت ذات يوم مفخرة الكنيسة الكاثوليكية، أي «العالمية».

في عام 1381، ذهب هاينريش فون لانغشتاين، وكان لاهوتيا ألمانياً في جامعة باريس، في رسالة بعنوان «تجمّع السلام» Consilium pacis، إلى أن أزمة قد نشأت ولا يمكن إلا لقوة من خارج البابوات المتنافسين أن تنقذ الكنيسة منها وتعيد النظام الأخلاقي إلى عالم المسيحية المضطرب. وفي عام 1411 أجبر سيغيسموند، ملك المجر ورأس الامبراطورية الرومانية المقدسة آنذاك، البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي كان واحداً من ثلاثة يدّعون حق البابوية، على دعوة مجلس عام للانعقاد في كونستانس في جنوب غرب ألمانيا. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1414 بدأ اجتماع أضخم مجلس في التاريخ المسيحي، ضمّ 3 بطاركة، و29 رئيس أساقفة، و150 أسقفاً، و14 مندوباً من الجامعات، و26 أميراً، و140 نبيلاً، و 4000 قسيس. وفي 6 نيسان/أبريل 1415 أصدر المجلس مرسوماً وصفه أحد المؤرخين بأنه «الوثيقة الرسمية الأكثر ثوريّة في تاريخ العالم»:

«إن هذا المجمع المقدس المجتمع في كونستانس، بكونه مجلساً عاماً، وقد اجتمع بهيئة شرعية في الروح القدس لامتداح الرب وإنهاء الانشقاق الراهن، ومن أجل اتحاد وإصلاح كنيسة الرب في رأسها وأعضائها... يقضي ويعلق ويرسم ما يلي: أولاً، يعلن أن هذا المجمع... يمثّل الكنيسة المناضلة ويملك سلطتها المستمدة مباشرة من المسيح. وكل فرد، أيا كانت مرتبته أو مكانته، بمن في ذلك أيضاً البابا، ملزم بطاعة هذا المجلس في تلك الأشياء التي تتعلق بالعقيدة، وبإنهاء هذا الانشقاق، وبإصلاح عام للكنيسة في رأسها وأعضائها. وبالمثل يعلن أن أي فرد، من أي مرتبة أو حالة أو مكانة، بمن في ذلك أيضاً البابا، إذا ما رفض أن يطيع الأوامر واللوائح والمراسيم والتوجيهات الصادرة من هذا المجلس، أو من أي مجلس مقدس آخر يجتمع على نحو سليم بهدف إنهاء الشقاق أو إصلاح الكنيسة، فإنه سيخضع للعقاب المناسب... وإذا اقتضت الضرورة ستتخذ إجراءات أخرى لمساندة العدالة».

وفي 6 تموز/يوليو 1415، أدان المجلس كتابات وايكليف الراحل وأمر بإعدام جون هوس. وفي يوم 30 أيار/مايو 1416، أمر بإعدام جيروم أسقف براغ. وفي 17 تشرين الثاني/نوفمبر، اختار أودون كولونا، الذي اتخذ لقب مارتن الخامس، للسدّة البابوية وأنهى الانشقاق البابوي. وفي 22 نيسان/ابريل 1418، أعلن المجلس نفسه منحلاً.

جون هوس

اتخذ التمهيد الثاني لحركة الإصلاح شكله في بوهيميا. كان ذلك المجال الرومانتيكي قد أرسى أركانه السلافيون في القرن الخامس، وارتفع إلى مرتبة الأهمية في القرن الثاني عشر كجزء من الامبراطورية الرومانية المقدسة، وبلغ عصره الذهبي في القرن الرابع عشر في ظل حكم الملك شارل الأول (1342-1378)، وهو الذي جعل براغ واحدة من أجمل المدن في أوروبا. وفي السنة السابعة والعشرين من عهد ذلك العاهل، أي في عام 1369، ولد جون هوس في قرية هوسينتز، التي أصبح المقطع الأول من اسمها اسماً له.

وفي عام 1390 جاء إلى براغ طالباً فقيراً. كان يكسب عيشه بالخدمة في

الكنائس، ودرس لينخرط في سلك الكهنوت، لكنه انخرط فيما أسمته باريس فيما بعد بالطرق «البوهيمية»، لشباب الجامعة. وفي عام 1401 دخل سلك الكهنوت وعاش حياته على نمط من التقشف أشبه بالزهد. وكرئيس لجماعة «أخوة الكنيسة»، أصبح أشهر واعظ في براغ.

تحدد مصيره عندما وقع في يديه بعض كتب وايكليف. فقد فتن بهرطقات هذا المؤلِّف إلى حد أنه قال: «إنني على يقين من أن وايكليف سينال الخلاص، لكنني لو اعتقدت أنه يمكن أن يدان لتمنيت أن تكون روحي مع روحه». لقد اقترح الفرع الإداري من كاتدرائية براغ أن تحظر تعاليم وايكليف من الجامعة؛ لكن هوس واصل تأييده لها. وفي عام 1409 طرده رئيس الأساقفة زبينيك من الكنيسة ومعه عدد من المقربين إليه. رفع هوس التماساً إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين مستأنفاً هذا الحكم، واستدعاه البابا للمثول أمام المحكمة البابوية، ورفض هوس الذهاب. وعندما أرسل البابا عملاء له إلى براغ لبيع صكوك الغفران لصالح حملة صليبية ضد ملك نابولي، نادى هوس وتلميذه الرئيسي ـ الذي نعرفه فقط باسم جيروم البراغي ـ ضد قيام الكنيسة بجمع المال لإهدار دم مسيحي. ووصف هوس ـ الذي كان يزدري الحذر ـ البابا بأنه «سالب أموال»، وبأنه «مسيح دجال». فأنزل به البابا الحرم الكنسي، وحرّم المزايا الكنسية على أي مدينة تؤويه. ولمدة سنتين عزل هوس نفسه في معتزلات ريفية.

وأغلب الظن أنه خلال هاتين السنتين كتب مؤلفاته الرئيسية باللاتينية، وبعضاً منها باللغة التشيكية، وكلها تقريباً تتبنى هرطقات وايكليف. وقد رفض عبادة الصور، والاعتراف السمعي، والمعصومية البابوية. واتبع وايكليف بشأن عقيدة القدرية. وقَبِلَ الأسطورة بأن أحد البابوات، يُفترض أنه يوحنا الثامن، تبيَّن أنه أنثى عندما ولدت طفلاً حملت به دون قصد.

في عام 1414، نصح سيغيسموند، ملك المجر ورأس الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ والذي كان راغباً بشدة في استعادة الوحدة والقوة إلى مملكته ضد تقدم الأتراك والإسلام ـ هوس بالذهاب إلى مجلس كونستانس وطلب المصالحة مع الكنيسة. وزود هوس بتصريح امبراطوري بالعبور في أمان إلى كونستانس، ووعده بجلسة استماع إليه في المجلس وضمن له عودة آمنة إلى

بوهيميا. وانطلق هوس إلى رحلته هذه في تشرين الأول/أكتوبر يرافقه بعض النبلاء والأصدقاء التشيكيين.

وصل هوس وعومل معاملة ودية من جانب المجلس والكنيسة وعاش في حرية. ولكن عندما قرأ بعض البوهيميين الأورثوذكس على اجتماع المجلس نص هرطقات هوس، استدعاه للدفاع عن نفسه. صدمتهم إجاباته فحبسوه. وسقط مريضاً ولبعض الوقت شارف على الموت، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرين أطباء بابويين لمعالجته. في تلك الأثناء، شق تلميذه وزميله في الهرطقة جيروم البراغي طريقه إلى كونستانس، وعلق بمسامير على بوابات المدينة وأبواب الكنائس وبيوت الكرادلة التماساً بأن يمنح المجلس هوس جلسة استماع علنية ويدعه يعود بسلام إلى موطنه. وحاول جيروم نفسه أن يعود إلى بوهيميا، لكنه أوقف في الطريق بسبب تبشيره ضد المجلس. وألقي القبض عليه واقتيد إلى كونستانس وسُجن.

احتج سيغيسموند لأن المجلس قد انتهك إذن العبور الآمن الذي أعطاه إلى هوس؛ ورد المجلس بأن سلطته لا تمتد إلى الأمور الروحية. وناشد الملك هوس أن يبدي بعض التراجع عن هرطقاته؛ وعرض هوس أن يتخلى عن أي من آرائه التي يمكن أن لا تتفق والكتاب المقدس. وفي 6 تموز/يوليو 1415، أدان المجلس وايكليف وهوس، وسُلّم هوس إلى الشُّعبة العلمانية. وبعد رفض التماسٍ أخير بإنقاذه عن طريق تراجع ما من جانبه، اقتيد إلى خارج المدينة وأُحرق حتى الموت بينما كان ينشد التراتيل.

وفي يوم 30 أيار/مايو 1416، أي بعد نحو سنة من حبس جيروم البراغي وبعد أن أنكر إنكاراً سابقاً له، اقتيد إلى البقعة نفسها وإلى المصير ذاته.

كنيسة النهضة (1418-1517)

جاءت حركة النهضة بالتحديد في الوقت الذي كانت البابوية تمر بواحدة من ألمع فتراتها. كان مجلس كونستانس قد خفض عدد البابوات من ثلاثة إلى واحد؛ واستعاد مارتن الخامس الإدارة والمالية ذات الطابع المركزي إلى الكنيسة؛ وجلب أوجينيوس الرابع جماعة من العلماء الكلاسيكيين من فيرارا وفلورنسا

وحتى من اليونان، لبثّ الحياة من جديد في روما الناعسة التي تدب الفوضى بين رجال كنيستها، والتمرد على إقطاعييها، والعنف في صفوف شعبها.

وعندما صعد نيكولاس الخامس إلى سدّة البابوية في عام 1447، فإن تدفق أموال بطرس من أوروبا عبر جبال الألب كان يعيد الخصب مجدداً إلى إيطاليا، ويساعد على توليد النهضة إلى الجنوب من الألب والحركة الإصلاحية إلى شمالها. وكاد نيكولاس الخامس يفلس البابوية مجدداً بدعمه الحماسي للعلماء الذين كانوا يستخرجون أو يترجمون أو يحررون المخطوطات الكلاسيكية، حتى أصبحت العاصمة الكاثوليكية أشبه ما يكون باستئنافٍ لأثينا أفلاطون أو روما سينيكا.

ذرّ سيزار بورجيا الأخلاق المسيحية في الرياح وطبق مبادىء «الأمير» المكيافيلية في استعادة البابوية دويلاتها وإيراداتها المفقودة، في حين أن أبوه البابا ألكسندر السادس (1492-1503) أثرى العمارة الرومانية وأبناءه بسيل متدفق من الذهب. أما يوليوس الثاني (1503-1513)، فإنه أكمل غزو وسط إيطاليا من جديد لحساب البابوات. وعلى الرغم من الاستنزاف المتكرّر لخزانته، فإنه جمع من الأموال ما يكفي لكي يدفع لرافائيل ومايكلانجلو مقابل تزيين القصر البابوي وكنيسة السيستين. وبعثر ليو العاشر (1513-1521)، ابن المصرفي لورنزو دي ميديتشي، الذهب بين الشعراء والفنانين والمحاسيب؛ وأرسل متعهدي صكوك الغفران لجمع المال لاستكمال بناء كنيسة القديس بطرس.

غير أن الإيرادات التي جُمعت موَّلت الفساد السياسي والتسيُّب الأخلاقي والإباحة الجنسية بين رجال الكنيسة كما بين العامة، بينما ظل البابا نفسه فاضلاً إلى حد معقول وسعيداً بدرجة حاسمة. وعندما زار لوثر روما في عام 1510، أزعجته أبهتها، لكنه آنذاك لم يعلن أي انتقاد لأخلاقياتها، وكسب كثيراً من صكوك الغفران حتى كاد يرغب في أن يموت والداه ليخلّصهما من المطهر فينتقلان إلى السماء؛ مع ذلك فإنه في مراجعة لاحقة وصف روما عام 1510 بأنها «شيء بغيض»، وأن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين، والبلاط البابوي تخدمه على مائدة العشاء «اثنتي عشرة فتاة عارية».

وعندما زار إيرازموس روما عام 1509، فتنته الحياة الرخيّة والسلوكيات

المرهفة فيها، والتربية العقلية للكرادلة. وأضحكته الموضوعات الوثنية التي كانت قد دخلت آداب العاصمة وأحاديثها؛ إلا أنه صُدم بالحملات العسكرية الباهظة النفقات للبابا يوليوس الثاني. فلنبقَ مع إيرازموس لأنه كان يعد الأذكى بين كتّاب عصره.

ديزيديريوس إيرازموس

لا نعرف كيف عُرف بهذا الاسم الذي يعني «المحبوب المرغوب». لقد ولد في روتردام في عام 1466 أو 1469، أو بالقرب منها، وهو الابن الطبيعي الثاني لرجل دين ذي مرتبة دنيا وأرملة كانت ابنة لأحد الأطباء.

أُرسل ليدرس في رابطة «أخوة الحياة العامة» في مدينة ديڤينتر، حيث كانت اللاتينية اللغة الرئيسية المستخدمة. وحيث كانت بعض الكلاسيكيات الوثنية تستخدم كنصوص. وأصبح أستاذاً للاتينية وقرأ مزيداً من الكلاسيكيات ووجد أنها مبعث بهجة وحبور.

في نحو عام 1484 مات كلا أبويه، ترك الأب ميراثاً متواضعاً لولديه؛ لكن الوصي عليهما ابتلع معظمه ووجّه الشابين إلى الرهبانية الدين التي لا تتطلب نفقة على الإطلاق. وقد احتجا لأنهما كانا يرغبان في الذهاب إلى إحدى الجامعات، لكنهما استسلما، وأصبح ديزيديريوس راهباً، ثم في عام 1492 صار قسّاً، وبعد ذلك بوقت قصير أميناً لهنري، أسقف مدينة كامبراي.

خدم سيده بإخلاص لسنوات عدة، وكافأه هذا بأن أرسله إلى جامعة باريس. وهناك استمع بلهفة إلى المحاضرات، مفضِّلاً استطلاع الآداب القديمة ولهو الشباب. وقد علّم نفسه اللغة اليونانية؛ ومع مضي الوقت كانت أثينا أفلاطون وأرسطو وسوفوكليس ويوريبيديس وزينون وأبيقور مألوفة له مثلها مثل روما قيصر وشيشرون، أوغسطس وهوراس، نيرون وسينيكا. لقد حطمت تلك الصداقات عقيدة الشاب الأصلية وتركته لا تزيد مسيحيته عن مسيحية معجب مهرطق بأخلاق المسيح.

كان إدمانه على الكتب باهظ التكاليف كما الخطيئة. ولكي يضيف إلى دخله كان يدرّس التلاميذ الذين أعجبوا بإلمامه باللغات والمعارف القديمة. وقد أخذه

أحدهم، وهو مونتجوي، إلى إنكلترا وإلى البيوت الارستقراطية. وكتب القس الذي هاجت مشاعره رسالة تفيض بالوجد إلى صديق: «هناك حوريات حيثما ذهبت يستقبلنك بملامحهن الإلهية، رقيقات وعطوفات... حيثما ذهبت تُستقبل من الجميع بالقبلات، وحيثما تغادر فإنك تُودع بالقبلات... آه يا فاوست! لو أنك ذقت مرة مدى نعومة هذه الشفاه وعبيرها، لرغبت في البقاء طوال حياتك في انكلترا».

في بيت مونتجوي التقى إيرازموس بتوماس مور، الذي كان وقتها في الثانية والعشرين من عمره، لكنه كان شخصية بارزة بما يكفي لكي يعرّف هذا العالم بملك انكلترا في المستقبل: هنري الثامن. وفي أوكسفورد فتنته الصحبة غير الرسمية بين الطلاب والأساتذة. وتأثر بتقدم النزعة الإنسانية في انكلترا، كما أثر هذا بعمق في تطوره هو نفسه نحو الأفضل. فمن شاب مختال وطائش، سكران بنبيذ الكلاسيكيات وطيب مذاق النساء، تحول إلى باحث مهتم ومجدّ، شغوف بتحقيق إنجاز يدوم ويفيد. وعندما غادر انكلترا (كانون الثاني/يناير 1500) كان قد وطد عزمه على دراسة وتحرير النص اليوناني للعهد الجديد باعتباره الجوهر المنقّى للمسيحية الحقة، التي حُمّلت أكثر مما تحتمل ـ في نظر الإصلاحيين والإنسانيين على السواء ـ بالاعتقادات والإضافات الجامدة على مدى القرون فاختفت تحت وطأتها.

استقر في باريس حيث أعد ونشر كتابه *Adagia* (الأقوال المأثورة)، الذي ضم 818 قولاً استمدّها أساساً من مؤلفين كلاسيكيين. سرَّه الاستقبال الذي قوبل به الكتاب فأخذ يصدر طبعة بعد أخرى منه، وكل منها موسَّعة إلى أن أصبح يحتوي على 3260 مدخلاً. وكان الكتاب كافياً تقريباً لإعالته، ولكنه قبل مسروراً (1506) الدعوة من طبيب بريطاني ليصبح «المرشد والمشرف العام» على ولديه في رحلة في إيطاليا. ورحب به كرادلة روما باعتباره بالفعل عالماً ذا شهرة أوروبية.

في عام 1509 دعاه صديق من ذوي النزعة الإنسانية الإنكليز ـ وقد أصبح آنئذ الملك هنري الثامن ـ إلى انكلترا. وذهب إيرازموس إلى هناك وتلقى إيرادات أبرشية في «كنت»، وعُيِّن أستاذاً لليونانية في جامعة كمبردج. وأثناء مكوثه مع توماس مور في عام 1511، كتب في سبعة أيام، أشهر كتاب له *Ecomium moriae*

(إطراء الحمقى). وقد صدرت منه أربعون طبعة أثناء حياته؛ وبعد وقت طويل، في عام 1632، وجده ميلتون «في يد كل شخص» في كمبردج.

استهلّ الكتاب الصغير كلامه بالقول إن الجنس البشري يدين بوجوده للحمقى. إذ ما الذي يمكن أن يدفعه الإنسان، وهو في كامل قواه العقلية، مقابل لحظة متعة مع عمر كامل من الزواج بواحدة؟ ما الذي يمكن أن تدفعه امرأة عاقلة مقابل نشوة عابرة مع آلام الولادة ومحن الأمومة؟ هل يمكن لأحد أن يكون سعيداً إذا ما واجه حقائق الحياة أو عرف المستقبل؟ لو أن الرجال والنساء أنصتوا لصوت العقل لخسروا كل شيء. مع ذلك فقد تجاهل الناس العلم والفلسفة ولم يتسبب هذا في ضررٍ كبير للجهل الحيوي لدى الجنس البشري.

ويمضي الكتاب الصغير ليبتسم إزاء معتقدات المسيحيين وممارساتهم: خلق العالم من العدم، خطيئة حواء البريئة، العقاب الذي لا يرحم لجيل بعد جيل، الميلاد العذري، التحوّل المقدس(*)؛ و «ماذا سأقول في أمور مثل الإطراء الشديد والإبقاء على خدعة صكوك العفو والغفران؟ - إنه بواسطة هذه يُختزل الوقت الذي تقتضيه كل نفس في المطهر، وتُمنح إقامة تطول أو تقصر هناك طبقاً لما يكون الكائن الحي قد اشترى كثيراً أو قليلاً من صكوك العفو الخسيسة تلك من البائعين المتجولين البابويين؟» (هذا كله قبل ست سنوات من تحدّيات لوثر في ويتنبرغ). وتمضي السخرية على حساب الرهبان والمفتشين والكرادلة والبابوات: إن كل رجال الكنيسة بجميع مراتبهم وأصنافهم يتفقون في السعي إلى المال ومفاتن النساء حتى الموت.

لقد فقد البابوات، حسب كاتبنا الساخر، كل شبهٍ بالرُّسُل، بفعل «ثرواتهم وتشريفاتهم وترخيصاتهم الكنسية وبراءاتهم وصكوكهم وضرائبهم»، وسياساتهم الدنيوية وحروبهم الدامية. كيف يمكن لمؤسسة كهذه أن تقوم لولا بساطة الحمقى وسهولة انقيادهم؟

لعل بيئة إيرازموس الفكرية في كمبردج وفي أوساط هنري الثامن قد وفّرت جمهوراً متعاطفاً مع السخرية من الكنيسة الكاثوليكية. فكان كتابه التالي

(*) المقصود هنا، وفقاً للعقيدة المسيحية، تحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه. (المترجم).

خالياً من الرحمة إلى حد غير معقول، حتى أنه بذل كل جهد لكي يخفي كونه المؤلف، ولكن توماس مور ذكر كتاب «عزل يوليوس» *Iulius exclusus* (1514) بين كتب صديقه. وكان البابا يوليوس الثاني قد مات في عام 1513 بعد حقبة بابوية تميزت بأعماله كقائد عسكري وبتمويله رافائيل ومايكلانجلو في رسم أعظم لوحاتهما. وقد صوَّر الحوار المتخيل الذي كتبه إيرازموس القديس بطرس يمنع يوليوس من دخول الجنة:

بطرس: دعني ألقي نظرة عن كثب أكثر قليلاً... رداء قس، لكن تحته درعاً ملطخة بالدماء؛ عينان متوحشتان، وفم متعجرف، وجبهة وقحة، وجسد عليه انتشرت ندب الخطايا. أنفاس مشحونة بالنبيذ، صحة حطمها الزنا. آه، فلتهدد ما شئت لكنني سأقول لك من أنت... أنت يوليوس الامبراطور القادم من الجحيم...

يوليوس: إذن فلن تفتح البوابات؟

بطرس: افتحها أسرع لأي شخص آخر مما أفتحها لواحد مثلك.

على وجه الإجمال، ونحن نستعرض على عجل مؤلفات إيرازموس السابقة على عام 1517، لا يمكننا أن نلوم لوثر وغيره من الإصلاحيين على تأنيبهم إيرازموس لكونه دق ناقوس الثورة ثم ركض يبحث عن غطاء يحتمي به عندما حان وقت العمل.

في تموز/يوليو 1514 عاد إيرازموس من انكلترا إلى البر الأوروبي. وعندما سمع بعودته رئيس ديره المنسي الذي كان ينتمي إليه في السابق، أرسل إليه تذكيراً بأن فترة إجازته انتهت منذ وقت طويل، وأن الوقت قد حان كي يعود التائه إلى قَسَمه وإلى خلوته. فزع إيرازموس من هذا الاحتمال، وناشد أصدقاءه الانكليز التوسط له لدى البابا ليو العاشر. وبعد بعض التأخير، أرسل البابا العطوف إلى لندن الوثائق التي حررت إيرازموس ليس فقط من التزاماته تجاه الدير، وإنما أيضاً من نواحي عجزه القانوني المتعلقة بكونه ابن حرام. وإلى هذه الصفحات أضاف ليو ملحوظة شخصية:

«ابني الحبيب. بركة رسولية وتمنيات بالصحة. إن الذكر الطيب لحياتك وشخصيتك، معارفك الواسعة النادرة ومواهبك الرفيعة التي لم تشهد بها

دراساتك فحسب، التي يُحتفى بها في كل مكان، وإنما يشهد بها أيضاً التصويت العام لمعظم المثقفين، وأوصتنا بها في النهاية رسائل اثنين من ألمع الأمراء هما: ملك انكلترا والملك الكاثوليكي [الفرنسي].. هذه كلها تعطينا مبرراً لكي نميزك بمعروف خاص ومفرد. لهذا فإننا بكل ترحاب قد منحناك طلبك، إذ إننا مستعدون لأن نعلن بفيض أكبر تعاطفنا معك حينما توجد بنفسك الفرصة أو توجدها المصادفة، حيث نعتقد أن من الصواب تشجيع حرفتك المقدسة، التي تمارسها بكل كد من أجل الصالح العام، على بلوغ مراتب أعلى عن طريق مكافآت كافية».

ربما كان ذلك بمثابة رشوة مسيلة للعاب لكي يُحسِن إيرازموس التصرّف، أو ربما كانت لفتة مخلصة من بلاط متسامح وإنساني النزعة فعلاً. أياً كان الأمر، فإن إيرازموس لم ينسَ أبداً هذه المجاملة البابوية، وسيظل دائماً يجد من الصعب عليه أن يحطم الجسور مع كنيسة احتملت بهذه الدرجة من الصبر لذعات قلمه.

ألمانيا عشية لوثر (1300-1517)

الاقتصاد

في القرن الأخير ما قبل لوثر، ازدهرت كل الطبقات في ألمانيا عدا الفلاحين الأشد فقراً: وربما كان ارتفاع مكانة معظم الفلاحين هو الذي شحذ حدة سخطهم على نواحي العجز الباقية.

كانت الغالبية العظمى تتألف من المزارعين الأجراء الذين يدفعون إيجاراً لسيدٍ إقطاعي في صورة منتجات أو خدمات أو نقود. وكانوا يشكون من الأيام الاثني عشر ـ الستين في بعض الأحيان ـ من العمل غير المدفوع التي كانت العادات تفرضها عليهم كل عام؛ ومن انتزاعه الأرض من «العامة»، حيث كان التقليد يسمح لهم بأن يصطادوا الأسماك ويقطعوا الأخشاب ويرعوا قطعانهم، ومن الأضرار الذي كان يلحق بمحاصيلهم بسبب صيادي السيد وكلابه، ومن الإدارة المتحيّزة في الأحكام في المحاكم المحلية حيث كانت السيطرة لملاّك الأرض؛ ومن ضريبة الموت التي كانت تفرض على أسرة المستأجر حيثما يؤدي

موت كبيرها إلى انقطاع رعاية الأرض. كانت كافة طبقات الكادحين تشكو من الضريبة العُشرية السنوية التي تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وحيواناتهم.

اندلعت ثورات زراعية في أوقات متفرقة طوال القرن الخامس عشر في أنحاء ألمانيا. ففي عام 1431 هب الفلاحون حول منطقة «وورمز» في تمرد بلا جدوى. وفي عام 1476 أعلن أحد رعاة الأبقار - وكان يدعى هانز بويم - أن أم الرب ظهرت له وكشفت له أن مملكة السماء على الأرض أصبحت وشيكة: لن يعود هناك مزيد من الأباطرة أو البابوات أو الأمراء أو السادة الإقطاعيين؛ كافة الرجال سيكونون أخوة، وكل النساء أخوات؛ الكل سيشاركون في ثمرات الأرض، والأراضي والغابات والمراعي والمياه ستصبح مشاعاً ومجانية. جاء آلاف الأشخاص ليستمعوا إلى هانز؛ وانضم إليه أحد القساوسة؛ بينما ابتسم أسقف وورتزبرغ ابتسامة تسامح.

ولكن عندما أبلغ هانز أتباعه بأن عليهم أن يجلبوا إلى الاجتماع التالي كل الأسلحة التي يمكنهم حيازتها أمر الأسقف بالقبض عليه؛ وأطلق جنوده النار على الحشد الذي حاول إنقاذه، وانهارت الحركة.

في عام 1493 طالب المستأجرون في إقطاعية أسقف ستراسبورغ بإنهاء الرسوم الإقطاعية والضرائب العشرية الكنسية، وبإزالة كل الديون والموت لكل اليهود. وخططوا للاستيلاء على مدينة شليتسات ومن ثم نشر سلطتهم عبر منطقة الألزاس. وقد علمت السلطات بأمر المؤامرة، فألقت القبض على الزعماء وعذَّبتهم وشنقتهم وأرعبت الباقين فخضعوا بصفة مؤقتة. وفي عام 1502 شكّل فلاحو أسقف سباير مجموعة ثورية من 7 آلاف رجل تعهدوا بإنهاء الإقطاع، و «مطاردة وقتل كل القساوسة والرهبان»، وإحياء ما اعتقدوا أنه شيوعية أسلافهم. وقد كشف فلاح عن الخطة في اعتراف للكاهن؛ فاتحد رجال الكنيسة والنبلاء في محاصرتها؛ وقد عُذّب وشُنق المتآمرون الرئيسيون. ونظمت انتفاضات مماثلة في ألمانيا حتى بلغت ذروتها في «حرب الفلاحين» التي هددت ألمانيا بأسرها في عام 1525، وأخافت لوثر إلى حد أوقعه في أحضان الأمراء.

كانت ثورة أخرى من نوع أكثر واقعية تمضي في الصناعة والتجارة الألمانية. كان معظم الصناعة لا يزال يدوياً، وكانت تزداد سيطرة رجال الأعمال

عليها، وهؤلاء كانوا يوفرون المواد الخام ورأس المال ثم يشترون ويبيعون المنتج الجاهز. ازدهرت صناعة التعدين، وتحققت أرباح كبيرة من تحويل الذهب إلى كؤوس للقربان وأوعية لمذابح الكنيسة، وصنع المقاعد والطاولات من الفضّة الخالصة؛ وسهّلت العملات الفضية والذهبية المعوَّل عليها الانتقال إلى اقتصاد نقدي. وقد اغتبط إنياس سيلفيوس في عام 1458 لرؤية النساء الألمانيات، وكذلك الألجمة والخوذات والدروع، مزينة بالذهب.

عندئذ كان رجال المال قد أصبحوا قوة سياسية رئيسية. واستعيض عن مقرضي المال اليهود بمؤسسات تملكها أسر مسيحية، مثل أسر: ويلزر وهوشستيتر وفوغر، وكلهم من أوغزبرغ، التي كانت ـ في نهاية القرن الخامس عشر ـ العاصمة المالية للمسيحية. وقد رفع آل فوغر مؤسستهم إلى أرفع مرتبة بتقديم النقود لأمراء ألمانيا والنمسا وهنغاريا مقابل إيرادات المناجم والأراضي والمدن. ومن مثل استثمارات المضاربة هذه، أصبح آل فوغر بحلول عام 1500 أغنى أسرة في أوروبا.

ويمكننا أن نؤرخ ابتداء من جاكوب فوغر الثاني (1459-1525) الحقبة الرأسمالية في ألمانيا، وهيمنة رجال الأعمال المتحكّمين بالمال على السادة الإقطاعيين الذين يملكون الأرض. وبحلول نهاية القرن الخامس عشر كانت صناعتا التعدين والمنسوجات الألمانيتان قد أصبحتا بالفعل منظمتين على أسس رأسمالية، أي يسيطر عليها من يوفرون رأس المال.

كانت ممتلكات بعض التجار الرأسماليين في أوغزبرغ أو نورمبرغ تساوي خمسة ملايين من الفرنكات (25 مليون دولار؟)لكل منهما. وقد استطاع كثيرون أن يشتروا طريقهم بالمال إلى طبقة الارستقراطية مالكة الأرض، وإلى شعارات النبالة المترفة. لقد أنفق يواكيم هوشستيتر وفرانز باومغارتز 5 آلاف فلورين (125 ألف دولار) على حفل تكريم واحد، أو راهنوا بعشرة آلاف فلورين في مباراة واحدة. ولقد أثارت البيوت المؤثثة تأثيثاً مترفاً والمزينة بطرق فنية التي كان يملكها رجال الأعمال الأثرياء، استياء النبلاء ورجال الدين والطبقة العاملة على السواء. وطالب غايلر ڤون كايزربرغ بأن «يُطاردوا كما تطارد الذئاب حيث أنهم لا يخشون الرب ولا الإنسان ويتسبَّبون في المجاعة وفي العطش والفقر».

ودعا المجلس التشريعي (الرايشستاغ) في كولونيا في عام 1512 كافة السلطات المدنية إلى التصرف «بكل جدية وبقسوة... ضد المرابين والمحتكرين والشركات ذات النزعة الرأسمالية». وتكررت مثل هذه المراسيم من مسؤولين آخرين، لكن بلا جدوى. فلقد كان بعض المشرعين يملكون هم أنفسهم استثمارات في المؤسسات التجارية الضخمة؛ وكان القائمون على القانون قد تأمن سكوتهم بأسهمٍ في البورصة، وازدهر كثير من المدن من وراء حرية التمويل والتجارة.

كانت مدن ستراسبورغ. كولمار، ميتز، أوغزبرغ، نورمبرغ، أولم، رايتسبون (ريجنزبرغ)، مينز، سباير، تريير، وورمز، كولونيا، بريمين، هامبورغ، لوبيك وبريسلاو هي المحاور المزدهرة للصناعة والتجارة والآداب والفنون. هذه المدن وسبع وسبعون أخرى كانت «مدناً حرة»، أي تسنّ قوانينها الخاصة، ولا تعترف بأي ولاء سياسي إلاّ للامبراطور، الذي كان عادة ما يدين بصورة مفرطة لها بالرجال أو المال إلى حد لا يسمح له بمهاجمة حرياتها. وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها نقابات يهيمن عليها رجال الأعمال، فإن كل واحدة منها تقريباً كانت «دولة رفاهية» أبوية إلى حد أنها كانت تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وجودة السلع بغرض حماية الضعيف من القوي وتأمين ضرورات الحياة للجميع.

كانت نورمبرغ مركزاً للفنون والحرف أكثر منها مركزاً للصناعة أو التمويل على نطاق واسع. كانت شوارعها لا تزال مُنْهكَة بصورة أقرب إلى شوارع العصور الوسطى، وكانت تظللها طوابق عالية أو شرفات؛ أسقفها مبلطة بالقرميد الأحمر، وأسطحها ذات الرؤوس العالية بالجمالون ونوافذها ذات المشربيات تشكل منظراً شديد الاختلاط على خلفيتها الريفية وازدحامها الصاخب. لم يكن الناس هنا أثرياء كما كان الحال في أوغزبرغ، لكنهم كانوا مرحين يحبون الانطلاق في المهرجانات مثل كرنفالهم السنوي بالأقنعة والثياب والرقص. هنا كان هانز ساكس وكبار المغنّين يطلقون أنغامهم الشرهة؛ هنا رفع البريخت دورر فن التصوير والنحت الألماني إلى ذروته؛ هنا كان أفضل صياغ الذهب والفضة في مقاطعات شمال الألب يصنعون أواني الزهور الغالية وأواني الكنائس والتماثيل الصغيرة؛ هنا كان حرفيو المعادن يصنعون الآلاف من أشكال النبات والحيوان والإنسان بمعدن البرونز أو يصهرون الحديد على شكل

درابزونات جميلة أو بوابات أو ستائر! هنا كان محترفو الحفر في الخشب يهنأون بصنع أشكال عابثة. وقد أصبحت كنائس تلك المدن مستودعات ومتاحف للفن؛ فإن كل حرفة أو مؤسسة أو أسرة غنية كانت تمنح عملاً من أعمال الجمال الورع لمقام راعيها القديس. وكان من الخصائص المميزة لمدينة نورمبرغ أن أشهر تجارها، واسمه ڤيليبالد بيركهايمر، كان في الوقت نفسه أحد أصحاب النزعة الإنسانية المتحمسين، راعياً للفنون، وصديقاً مخلصاً لدورر.

ولقد أدت رحلات كولومبوس ودا غاما، والسيطرة التركية على بحر إيجة وحروب ماكسيميليان ـ مع البندقية إلى أحداث اضطراب في التجارة بين ألمانيا وإيطاليا. أخذ المزيد والمزيد من الصادرات والواردات الألمانية تتحرك على الأنهار الكبرى إلى بحر البلطيق وبحر الشمال والمحيط الأطلسي؛ وانتقلت الثروة والقوة من أوغزبرغ ونورمبرغ وإلى كولونيا وبريمين وهامبورغ وآنتويرب. وعزز آل فوغر وآل ويلزر هذا الاتجاه بجعل آنتويرب مركزاً رئيساً لعملياتهم. فقد فصلت حركة النقود والتجارة الألمانية المتجهة شمالاً الشمال الألماني عن الاقتصاد الإيطالي، وجعلته من القوة بما يكفي لحماية لوثر من الامبراطور والبابا. ولأسبابٍ مغايرة لهذه في جانب منها، بقي الجنوب الألماني كاثوليكياً.

الدين

ازدهرت الكاثوليكية في ألمانيا القرن الخامس عشر بشكل عام. كانت الغالبية الساحقة من الشعب أصولية بصورة متزمتة، وشديدة الورع فيما بين ارتكاب الخطايا واحتساء الخمر. كانت الأسرة الألمانية أشبه ما تكون بكنيسة حيث الأم تؤدي دور حامي العقيدة والأب دور القس، كما كانت الصلاة تؤدى في أوقاتها، والكتب التي تتحدث عن التكريس المخلِّص للأسرة موجودة في كل بيت. وكانت أديرة عديدة قد عادت إلى اتِّباع قاعدتها الخاصة وأداء كثير من أعمال البر ذات الطابع العملي.

كانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجَّهة بصورة أساسية ضد الأساقفة وتتعلق بمقدار ثروتهم ومدى انغماسهم في أمور الدنيا. كان على بعض الأساقفة ورؤساء الأديرة أن ينظموا الإدارة والاقتصاد في مناطق واسعة كانت

قد انتقلت إلى ملكية الكنيسة؛ وعلى الرغم من أنهم كانوا مقلنسين أو حليقين، فإنهم كانوا من الناحية العملية سادة إقطاعيين؛ فكانوا يسلكون كما يسلك رجال هذا العالم، وقد زُعم أن بعضهم كانوا يركبون إلى مقارهم الإقليمية أو إلى المجالس الاتحادية ومحظياتهم إلى جانبهم في مركباتهم. وقد لخص الأسقف المثقف والمؤرِّخ يوهان يانسين، ربما بقسوة مفرطة، سوءات الكنيسة الألمانية عشية حركة الإصلاح على النحو التالي:

«لقد ظهر التعارض بين الحب الورع والجشع الدنيوي، بين الزهد الرباني وحب الذات الذي لا يعرف رباً، في صفوف رجال الدين كما في طبقات المجتمع الأخرى. وأهملت أعداد كبيرة للغاية بين قساوسة الرب التبشير بالدين ورعاية الأرواح إهمالاً تاماً. ظهر الجشع، وحلت خطيئة العصر بين رجال الدين من جميع الأنظمة والمراتب الكنسية، في شغفهم بزيادة كل الإيجارات والمداخيل والضرائب والمنح الكنسية».

كانت الكنيسة الألمانية هي الأغنى في العالم المسيحي. فكان يُعتقد أن نحو ثلث ملكيات الأرض في البلد تعود إلى الكنيسة، مما جعل الناس تزداد نقمة لأن السلطات الكنسية كانت تسعى دائماً إلى زيادة ممتلكاتها. في كثير من المدن كانت الأبنية والمؤسسات الكنسية تغطي الجانب الأكبر من الجماعة.

في عام 1457 وجه مارتن ماير، مستشار ديتريش كبير أساقفة مينز. خطاباً إلى الكاردينال بيكولوميني لخص فيه بطريقة غاضبة الأخطاء التي يشعر الألمان أنهم يعانونها من الإدارة التابعة لبابوية روما:

«كثيراً ما يؤجَّل انتخاب الأساقفة دون ما سبب، ويحتفظ بالفوائد والمزايا من كل الأنواع للكرادلة والأمناء البابويين؛ ولقد مُنح الكاردينال بيكولوميني نفسه أرضاً عامة بصورة غير معتادة ولم يُسمع بها من قبل في ثلاث مقاطعات ألمانية. توقعات لا عدّ لها يتم التداول بها، وضرائب سنوية وضرائب أخرى تُجمع بطريقة فظة، ولا يُسمح بأي تأخير. ومن المعروف أيضاً أن أموالاً أكثر مما كان مقدراً قد جمعت. كذلك مُنحت الأسقفيات لا لمن هم أكثر استحقاقاً، وإنما على أساس من يدفع أكثر. ومن أجل جمع الأموال تُعرض صكوك غفران

جديدة يومياً، وتفرض ضرائب حرب عُشرية دون استشارة الأساقفة الألمان. والدعاوى القانونية التي كان يتعين البتّ فيها محلياً أصبحت تُحوَّل بصفة عاجلة إلى المحكمة الرسولية. إن الألمان يعاملون كما لو كانوا برابرة أغنياء وأغبياء، وتُستنزف منهم أموالهم بألف حيلة ماكرة... وها هي ألمانيا منذ سنوات عديدة تمرغ في التراب، وتتحسر على ما هي فيه من فقر وعلى مصيرها الحزين. أما الآن فقد استيقظ نبلاؤها كما لو أنهم كانوا نياماً؛ الآن عقدوا العزم على فك الأغلال واستعادة حريتهم القديمة».

بين صفوف الشعب مضت نزعة العداء لرجال الكنيسة يداً بيد مع التقوى. يكتب المؤرخ النزيه باستور: «إن روحاً ثورية من الكراهية للكنيسة ورجالها قد أطبقت على الجماهير في جميع أنحاء ألمانيا... وأصبحت صيحة (الموت للقساوسة!) التي كان يُهمس بها في السر، الكلمة المسموعة اليوم».

كانت الكراهية الشعبية هذه من الحدة حتى أن محاكم التفتيش ـ التي كانت في صعود آنذاك في اسبانيا ـ لم تعد تجرؤ على إدانة أي شخص في ألمانيا. مناشير عنيفة أمطرت هجمات، لا على رأس الكنيسة الألمانية، وإنما أكثر منه على الحبر الأعظم الروماني. وقد انضم بعض الكهنة والقساوسة إلى الهجوم واستثاروا مشاعر جموعهم ضد ترف رجال الكنيسة الكبار. وقد جلب الحجاج العائدون من يوبيل عام 1500 إلى ألمانيا حكايات رهيبة ـ مبالغ فيها غالباً ـ عن بابوات لا أخلاقيين، وجرائم دس سم بابوية، وعن عربدات الكرادلة، وعن وثنية سائدة وانحلال خُلقي. وقد أقسم كثيرون من الألمان على أنهم أو أبناءهم، وكما سحق أسلافهم سطوة روما في عام 476، سيسحقون ذلك الطغيان مرة أخرى؛ واستذكر غيرهم الهوان الذي لحق بالامبراطور هنري الرابع على يد البابا غريغوري السابع في كانوسا، وأعربوا عن اعتقادهم بأن الوقت قد حان للانتقام. وفي عام 1521 قال السفير البابوي آليانور، محذِّراً البابا ليو العاشر من انتفاضة وشيكة ضد الكنيسة، إنه سمع قبل خمس سنوات من كثيرين من الألمان أنهم إنما ينتظرون «أحمقاً ما» يفتح فاه ضد روما.

ثمة عوامل ومؤثرات عديدة ـ منها ما هو كنسي وفكري وانفعالي واقتصادي وسياسي وأخلاقي ـ كانت تتجمع معاً، بعد قرون من المنع والقمع،

في زوبعة من شأنها أن تلقي بأوروبا في أعظم انتفاضة منذ الغزو البربري لروما. إن ازدياد ضعف البابوية بفعل المنفى في آڤينيون والانشقاق البابوي؛ وانهيار الانضباط الرهباني والعزوبة الكهنوتية، والأساقفة المترفين وفساد البلاط البابوي، والنشاطات الدنيوية للبابوات؛ وأخلاقيات ألكسندر الرابع، وحروب يوليوس الثاني، ومرح ليو العاشر غير الآبه؛ وصكوك الغفران التي كانت تأتي على الممتلكات ويروجها الباعة المتجولون؛ وانتصار الإسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية وفي الحروب التركية؛ وانتشار التعارف مع العقائد غير المسيحية؛ وتدفق العلم والفلسفة العربيين؛ وانهيار النزعة السكولائية في مذهب سكوتوس اللاعقلاني والمذهب الأوكامي الشكّي؛ وإخفاق المحاولة التصالحية للتأثير في حركة الإصلاح؛ واكتشاف الزمن القديم الوثني وأمريكا؛ واختراع الطباعة؛ وانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم؛ وترجمة الكتاب المقدس وقراءته؛ والتضاد الذي تم إدراكه مؤخراً بين فقر الرسل وبساطتهم وثراء الكنيسة الفاضح؛ والثروة المتعاظمة لألمانيا وانكلترا واستقلالهما الاقتصادي؛ ونمو طبقة متوسطة تزدري القيود والمزاعم الكنسية؛ والاحتجاجات على تدفق الأموال إلى روما؛ وإضفاء طابع علماني على القانون والحكم؛ وازدياد حدة النزعة القومية واشتداد قوة الأنظمة الملكية؛ والنفوذ الملكي على اللغات العامية والآداب؛ واختمار حمى ميراث والدنسز ووايكليف وهوس؛ والمطلب الصوفي بدينٍ أقل طقوسية وأكثر شخصانية وجوّانيّة ومباشرة.. اتحدت هذه الأسباب معاً في طوفان من القوى التي ستكسر قشرة العادات الوسيطية، وتخفّف من قوة المقاييس والروابط، وتبعثر أوروبا إلى أمم وطوائف، وتزعزع أكثر فأكثر دعائم العقائد التقليدية وامتيازاتها. ـ وهي ربما تمثّل علامة على بداية النهاية لهيمنة المسيحية في الحياة العقلية والأخلاقية للإنسان الأوروبي الغربي.

الفصل التاسع عشر

حركة الإصلاح (2): (1517-1555)
لوثر والشيوعية

تيتزل

في 15 آذار/مارس 1517 أعلن البابا ليو العاشر أشهر عروض الغفران على الإطلاق. وقتها قبل الكاثوليك المبدأ القائل بأن المسيح قد أعطى بطرس - وبطرس نقل إلى كل البابوات الذين جاؤوا بعده - سلطة غفران خطايا النادم التائب، لكن ليس الكفّارات المتعلّقة بتلك الخطايا. فإذا بقيت أي كفارة من هذا القبيل غير مسدّدة عند حلول الموت، فلا بد أن يسدّدها بالمعاناة في المطهر، وهو جحيم موقوت أقامه الرب الرحيم ويمكن الإفلات منه.

في الوقت نفسه، فإن القديسين بمعاناتهم، والمسيح بموته، قد فازوا بكنز من الفضائل يستطيع البابا أن يسحب منه لإلغاء جزء من الفترة المقرّرة على الخاطىء أن يقضيها في عذاب المطهر إذا أدى النادم في الدنيا الكفّارة أو قام بأعمال طيبة أو يسهم بعطايا تحددها الكنيسة. أما الاستعاضة بالغرامة المالية عن العقوبة فكانت تُقبل بسهولة من قِبل المؤمن لأنها كانت عادة استقرت منذ وقت طويل في محاكم العصر الوسيط.

أما الغفران الذي عرضه ليو العاشر فكان من أجل المساهمة في نفقات

إكمال الكاتدرائية الكبرى التي كان قد بدأها يوليوس الثاني، وكاد ينساها في معمعان الحرب. عيَّن ليو ألبريخت البراندنبرغي، أسقف مينز الشاب، لإدارة توزيع هذا الغفران في ماغدبرغ وهالبرستات ومينز. واختار ألبريخت متعهداً رئيسياً له هو يوهان تيتزيل، وهو راهب دومنيكاني اشتهر بقدرته على جمع أموال التبرعات. وشرع تيتزيل في العمل ـ عادةً بموافقة من رجال الدين المحليين ـ وعرض الغفران التالي:

«فليتولك ربنا يسوع المسيح برحمته، وليغفر لك بفضائل عطفه الأقدس. وإني بسلطته وسلطة الرسولين بطرس وبولس، والبابا الأقدس التي مُنحت وأُلزمت لي في هذه الأنحاء، أحلّك أولاً من كل الاستهجانات الكنسية... وبعدها من كل خطاياك وتعدياتك وتجاوزاتك، مهما عظم شأنها، حتى تلك المحجوزة لاختصاص الحبر الأعظم. وإلى المدى الذي تمتد إليه مفاتيح الكنيسة المقدسة، فإنني ألغي لك كل عقوبة تستحقها في المطهر بسببها، وأستعيدك إلى القرابين المقدسة للكنيسة... وأُعيد إليك تلك البراءة والطهر اللذين كُنتَ تمتلكهما عند تعميدك، حتى أنك حين تموت ستكون بوابات العقاب مغلقة، وبوابات الفردوس البهيجة مفتوحة؛ وإذا لم تمت في الوقت الحاضر، فإن هذه النعمة ستبقى نافذة المفعول حينما تكون على شفير الموت. باسم الأب والابن والروح القدس».

كتب المؤرِّخ الكاثوليكي باستور عن هذا:

«لا شك في أن تيتزل أعلن بالفعل، وفقاً لما اعتبره تعليمات يملك سلطة إصدارها، مبدأ مسيحياً مؤداه أن لا شيء سوى تقديم المال مطلوبٌ لكسب الغفران للميت، دون أن يكون هناك أي سؤال عن ندم أو اعتراف. كذلك فإنه علّم، وفقاً للرأي الذي كان سائداً آنذاك، أن الغفران يمكن أن يطبَّق على أي نفس دون أي احتمال للفشل. وبدءاً من هذه الفرضية، فإنه لا شك أن هذا المبدأ كان في الحقيقة القول المتطرف بأنه (ما أن يسمع رنين النقود في الصندوق، حتى تقفز النفس من نار المطهر). إن مرسوم الغفران البابوي لم يعط أي موافقة أياً كانت على هذا العرض. إنما كان رأياً سكولائياً غامضاً... وليس أي مبدأ للكنيسة».

وقد كان يمكن لتيتزل أن يفلت من التاريخ لو أنه لم يقترب أكثر مما يلزم من بلاد فريدريك الحكيم، ناخب(*) ساكسونيا. لقد تحرك كارهاً أن يدع عملة سكسونيا تهاجر، وربما بفعل تقارير عن غلو تيتزل حظر فريدريك التبشير بغفران 1517 في إقليمه. ولكن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن الناس في ويتنبرغ كانت تعبر الحدود لتحصل على الغفران. جلب عديدون من المشترين هذه «الرسائل البابوية» إلى مارتن لوثر، أستاذ اللاهوت في جامعة ويتنبرغ، وطلبوا منه أن يشهد على فاعليتها، فرفض. وصل الرفض إلى أذني تيتزل، فأدان لوثر، وهذا ما جعله يدخل في عداد الخالدين.

لوثر يكبر (1483-1517)

إن الرجل الذي سيتفوق على الجميع في التأثير على التاريخ اللاحق، فيما عدا كوبرنيك وكولومبوس، رأى النور في أيزلبين بألمانيا، لفلاح تحول إلى عامل منجم اسمه هانز لوثر وزوجته مارغريت. وقد دفعهما خوفهما من لاهوت الرعب والعقاب إلى تربية أبنائهم بالنبرة القوية والعصا حتى ليتذكر لوثر قائلاً: «الحياة القاسية والصعبة التي عشتها معهما كانت السبب في أنني لجأت فيما بعد إلى الدير وأصبحت راهباً». كان أبواه والأطفال يؤمنون بالملائكة والساحرات والشياطين التي تحوم في الجو، وكانوا يؤمنون بإله حكم على الجانب الأكبر من مخلوقاته الإنسانية بجحيم يدوم إلى الأبد. وكان مارتن يقابل المحن التي يبتلى بها بقوة الجسم والإرادة التي رسمت ملامحه القاسية وجنّبته كأس الهزيمة حتى الموت.

في المدرسة في مانسفيلد كان هناك المزيد من العصي والتعاليم الدينية. لقد جُلد مارتن (هكذا قيل لنا) خمس عشرة مرة في أحد الأيام لأنه أساء النطق باسم. وفي سن الخامسة عشرة نُقل إلى مدرسة سان جورج في إيزناخ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً في بيت السيدة كورتا. ولم ينس أبداً قولها إنه ليس هناك شيء على الأرض أثمن من حب امرأة طيبة. في هذا الجو طور

(*) أحد الصفوة الذين كان لهم وحدهم حق الاقتراح في اختيار رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة. (المترجم).

مارتن المفاتن الطبيعية لشاب: الصحة والبهجة والميل للاندماج الاجتماعي والصراحة. وكان يجيد الغناء وعزف العود.

في عام 1501 أرسله أبوه، الذي كان قد أصاب ثراء، إلى جامعة إيرفورت. وهناك تعلم قليلاً من اللغة اليونانية وقدراً أقل من اللغة العبرية، وقرأ الكلاسيكيات اللاتينية الأكثر شهرةً. وجد المذهب السكولائي كريهاً إلى حد أنه كان يمتدح صديقاً فقط لأنه «لا يحتاج لأن يتعلم الروث» الذي يسمى فلسفة. في عام 1505 تلقى درجة ماجستير في الآداب، وأرسل أبوه إليه، كهدية تخرّج، طبعة غالية الثمن من كتاب مجموعة القوانين المدنية. وابتهج عندما علم أن ابنه بدأ بدراسة القانون. ولكن بعد شهرين اثنين رمى مارتن جانباً كتب القانون التي كانت لديه باعتبار أنها لا تلقي ضوءاً على المشكلات التي تطارده.

كان يتدفق حيوية حتى حدود الاستمتاع بالملذات الجسدية، ويتمتع ببنية ظاهرة تهيّئه لحياة ذات غرائز سوية، ومع ذلك تشرّب في البيت والمدرسة بالعتقاد بأن الإنسان مجبول بطبيعته على الإثم، وأن الخطيئة تُغضب ربّاً قادراً على كل شيء وشديد العقاب. فلم يكن قادراً قط على مصالحة نوازعه الطبيعية مع معتقداته المكتسبة، فقد كان الرب الذي علموه إياه يثير فيه رعباً أكثر مما يثير حباً. ولم يكن المسيح هو فقط «المسيح الرقيق الضعيف والهادىء» الذي تصوُّره الطوبيات(*)، لكنه أيضاً مسيح الحساب الأخير الذي يهدد الخطاة بنار أبدية. في أحد الأيام فاجأته عاصفة رعد وبرق، فبحث عن مأوى يحتمي به ونذر للقديسة آن إن عاش أن يصبح راهباً.

وقد عاش وطلب قبوله راهباً لدى النساك الأوغسطينيين، وهم الأكثر تشدّداً بين الأديرة العشرين في إيرفورت. استُقبل وأدى أدنى الواجبات بمذلة فخورة. تجمد في عنبر نوم صغير غير مدفأ وهو يردد الصلوات بتكرار وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي. صام وعذّب نفسه بقسوة على أمل أن يخرج الشياطين التي بدا له أنها تسكن جسده. وفي عام 1506 تعهد بما لا يمكنه النكوص عنه ورُسم قسّاً.

خشي زملاؤه النسّاك على سلامة عقله فأعطوه إنجيلاً لاتينياً وحثوه على

(*) الفقرات من عظة المسيح على الجبل التي يبدأ كل منها بتعبير (طوبى لمن...) (المترجم).

أن يقرأه من دون إثارة تساؤلات. لكن في قراءته لرسالة القديس بولس إلى أهل رومية (17:1)، وصل إلى فقرة زادت من تساؤلاته: «أما البار فبالإيمان يحيا». ووجد في كتابات القديس أوغسطين الفكرة المربكة القائلة بأن الرب، قبل الخلق، اختار بعض الأرواح للخلاص والنعيم، وغيرها للعنة أبدية، وأن المختارين إنما فازوا بالخلاص عن طريق فضائل كسبوها من معاناة المسيح. هذه الأفكار ـ اختيار من جانب الرب للخلاص، وخلاص ليس عن طريق أعمال المرء الخيّرة بل عن طريق الإيمان بفضائل اكتسبها المسيح للإنسان ـ أصبحت هي معتقدات لاهوت لوثر الأساسية ومعتقدات أتباعه.

في عام 1505 نُقل إلى أحد الأديرة في ويتنبرغ وكُلِّف بتدريس المنطق والفيزياء في الجامعة، ثم شغل كرسي الفلسفة واللاهوت. وعندما جاءت الأخبار إليه عن طريقة تيتزل مع صكوك الغفران، شعر بأن الوقت قد حان ليتكلم عن المتاجرة بالدين، وألّف سريعاً باللاتينية خمساً وتسعين أطروحة وضع لها عنواناً: «نقاش لإيضاح سلطة الغفران». وفي يوم 11 تشرين الأول/اكتوبر 1517، علّق نسخة من هذه الأطروحات على البوابة الرئيسية لقلعة كنيسة ويتنبرغ. وكانت هذه الطريقة في إعلان الأطروحات ـ وعرض الدفاع عنها ضد كل من يتحداها ـ قد ترسخت منذ وقت طويل في جامعات العصور الوسطى، والبوابة التي اختارها لوثر كانت قد استخدمت كلوحة بيانات أكاديمية. وقد ألحق بهذه الأطروحات دعوة ودودة:

«بدافع الحب للعقيدة والرغبة في وضعها في النور، فإن القضايا التالية ستناقش في ويتنبرغ تحت رئاسة الأب المبجل مارتن لوثر، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر في الخدمة الدائمة في الميادين ذاتها في ذلك المكان. وهو لهذا يطلب من أولئك الذين لا يستطيعون الحضور أو المناظرة شفوياً معنا أن يتفضلوا بعمل هذا عن طريق المراسلة».

وبجرأة كانت مميزة لشخصيته أرسل نسخة من هذه الأطروحات إلى أسقف ميتز ألبريخت. ولكي يتأكد من أنها ستقرأ على نطاق واسع أجرى ترجمة لها إلى الألمانية وُزعت بين أفراد الشعب. وبحرص، وربما من دون قصد، كان لوثر قد بدأ بذلك حركة الإصلاح الألمانية.

الإصلاح بمثابة الثورة

أصبحت هذه الأطروحات حديث الأوساط المتعلمة في مجالسهم الخاصة في ألمانيا. لقد وجدت نزعة العداء المكبوتة لأجيال ضد الكنيسة صوتاً لها. هبطت بيعات صكوك الغفران. ولكن، كان هناك استنكار قوي للوثر: استنكار جاء من نائب مستشار جامعة انغولشتات، وآخر جاء من جاكوب فان هوغستراتين في كولونيا، الذي اقترح إحراق لوثر على الخازوق. ودافع لوثر عن وجهة نظره في كتيب باللغة اللاتينية بعنوان «القرارات» *Rosolutiones* (نيسان/أبريل 1518) وأرسل نسخاً منه إلى الأسقف المحلي وإلى البابا. ولكنه أبدى لليو العاشر خضوعاً غير مألوف:

«أيها الأب الأكثر تبريكاً، إنني أمثل أمامك جاثياً عند قدميك المقدستين، بكل ما هو أنا وكل ما أملك. الإحياء، القتل، الدعوة، الاستدعاء، الموافقة، اللوم، افعل ما يبدو لك خيراً. إنني سأعترف بصوتك باعتباره صوت المسيح مقيماً ومتكلماً فيك. فإذا استحققتُ الموت فإنني لن أرفض أن أموت».

غير أن مستشاري ليو حذّروه من أن كتيب «القرارات» يؤكد علو المجلس المسكوني (المؤلف من كافة الأساقفة) على البابا، وأنه يتحدث باستخفاف عن «ذخيرة» القديسين أو الشهداء وعن الحجّات، ويرفض كل الإضافات التي وضعها البابوات خلال القرون الثلاثة الأخيرة لنظرية صكوك الغفران وممارستها. إن السماح بمثل هذه الآراء بأن تنتشر يعرِّض الانضباط الكنسي والإيرادات البابوية. للخطر عندئذ فإن ليو ـ الذي كان قد طرح جانباً أفكار لوثر باعتبارها حمّى طارئة بين المنظّرين ـ وضع الأمر بين يديه واستدعى الراهب إلى روما (7 تموز/يوليو 1518).

خشية أن يتم إبقاؤه رهينة أو سجيناً في روما، كتب لوثر إلى جورج سبالاتين، قسيس فريدريك ناخب ساكسونيا، مقترحاً أن يحمي الأمراء الألمان مواطنيهم من التسليم إلى إيطاليا. ووافق فريدريك على هذا ونصحه الامبراطور ماكسيميليان بأن «يُعنى جيداً بهذا الكاهن». واتخذ ليو موقفاً وسطاً بأن اقترح أن يقدم لوثر نفسه في أوغزبرغ ليمثل أمام الكاردينال كاييتان للرد على اتهامات الخروج عن الطاعة والهرطقة.

ذهب لوثر (12 تشرين لأول/أكتوبر 1518) ولكنه لم يجد لاهوتياً ليحاجّه، بل وجد كاردينالاً متمسكاً بطريقة جامدة بالحرفية. أعلم المتمرِّد بأن الكنيسة، في أمر يتعلق بالنظام الكهنوتي، لا تستطيع أن تسمح لكاهن ينتهك تعهده بالطاعة التي لا تطرح تساؤلات، بأن ينشر وجهات نظر أدانتها الكنيسة منذ وقت طويل. وطلب كاييتان أن يتراجع لوثر علناً عن هرطقاته وأن يتعهد بأن لا يعود إلى إزعاج سلام العالم المسيحي. رفض لوثر وعاد إلى صومعته في ويتنبرغ.

طلب كاييتان من فريدريك أن يرسل المتمرد إلى روما؛ لكن الناخب رفض. وفي يوم 9 تشرين الثاني/نوفمبر، أصدر ليو مرسوماً يندد بكثير من المزاعم المتطرفة التي قيلت ضد صكوك الغفران. وفي 18 تشرين الثاني/نوفمبر، تقدّم لوثر باستئناف ضد حكم البابا أمام مجلس عام. وأرسل ليو نبيلاً شاباً ساكسونياً ذا مرتبة متواضعة للقيام بمحاولة أخرى للفوز برضوخ لوثر. وعندما التقيا (3 كانون الثاني/يناير 1519) افتتن لوثر بالشاب إلى حد أنه كتب رسالة ودية إلى تيتزيل (الذي مات بعد هذا بوقت قصير). وفي 3 آذار/مارس بعث برسالة إلى ليو كانت رسالة خضوع كامل. ورد البابا بجواب ودي (19 آذار/مارس) ودعاه للحضور إلى روما وعرض عليه مالاً لنفقات الرحلة: لكن في 17 آذار/مارس، كان لوثر قد كتب إلى سبالاتين، ولعله كان يهزل: «إنني حائر لا أدري إذا كان البابا مسيحاً دجالاً أو هو من حوارييه». وبقي لوثر في ألمانيا.

أخذ الرأي العام يزداد تهليلاً له. كثيرون من طلاب الجامعات كانوا مدافعين بحرارة عنه. رجال ذوو شأن لا يكاد يعرفهم لوثر، مثل دورر الفنان وبيركهايمر التاجر المحترم، وكلاهما من نورمبرغ، أعلنا تأييدهما له. أورليك فون هوتين الشاعر الثائر، امتدحه ودعا فريدريك وكل الحكام الألمان الآخرين إلى أن يصادروا كل ثروة الأديرة ويضعوا في خدمة الألمان النقود التي كانت في العادة ترسل إلى روما.

تشجع لوثر إلى حد أنه نشر، في ربيع عام 1520، مذكرة هاجم فيها الحقائق المطلقة للعقيدة:

«إذا كانت روما تعتقد بهذا وتعلِّمه بمعرفة البابوات والكرادلة (وهو ما أتمنى أن لا يكون صحيحاً) فإنني إذن أعلن في هذه الكتابات أن المسيح الدجال الحقيقي

يجلس في معبد الرب يحكم في روما ـ بابل الأرجوانية تلك ـ وأن البلاط البابوي في روما هو معبد الشيطان... فإذا استمر غضب أصحاب النزعة الرومانية، فلن يبقى هناك علاج إلا أن يهاجم الأباطرة والملوك والأمراء، المدجّجين بالقوة والسلاح، هذه الحشرات في العالم، وأن يسووا الأمر لا بالكلمات إنما بالسيف... فإذا كنا نُداهم اللصوص بالمشانق، والنهابين بالسيف، والهراطقة بالنار، فلماذا بالأحرى لا نهاجم بالأسلحة سادة الخراب هؤلاء: هؤلاء الكرادلة، هؤلاء البابوات، وكل هذا في سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا نهاية، ونغسل أيدينا في دمائهم؟»

أدان ليو العاشر ـ في مرسوم أصدره يوم 15 حزيران/يونيو 1520 ـ واحدة وأربعين من أطروحات لوثر وأمر بإحراق الكتابات التي تحتويها، وأمره بالمجيء إلى روما لإعلان خطئه على الملأ. وبعد ستين يوماً من الرفض المتواصل، سوف تقطع صلة لوثر كلية بالعالم المسيحي كله وذلك لعرض الحرم الكنسي عليه، وكذلك إدانته كمهرطق من جانب كافة المؤمنين. وكان على كافة السلطات العلمانية أن تحظر عليه دخول أراضيها أو تسلّمه إلى روما.

واجه لوثر هذا كله بإعلان لا يكاد يكون مسبوقاً في التاريخ. وقد وجد من ينشره، لا في اللاتينية بل في الألمانية، «رسالة مفتوحة إلى النبلاء المسيحيين في الأمة الألمانية تتعلق بإصلاح السلطات المسيحية». ولم تكن هناك بعد أمة ألمانية، إنما كانت هناك إمارات ألمانية، كل منها مستقلة، لها جماركها وقوانينها وجيشها وكبرياؤها الداعم لوجودها؛ لكن لوثر تخطى كل هذه الحدود وتحدث إلى الألمان قاطبة، وإن كان ذلك من خلال حكامهم الذين كانوا ـ من وجهة نظر لوثر ـ يدعون إيرادات غالية تتسرب عبر حدودهم إلى إيطاليا المعادية.

«لقد قدَّر بعضهم أن في كل عام تجد أكثر من 300 ألف غُلدين طريقها من ألمانيا إلى إيطاليا... **لقد بلغنا لب المسألة...** كيف يتأتى لنا نحن الألمان أن نخضع لمثل هذه السرقة وهذا النهب لممتلكاتنا على يدي البابا؟... إذا كُنا عدلاً نشنق اللصوص ونقطع رؤوس قطاع الطرق، فلماذا يتعين علينا أن ندع الجشع الروماني يمضي طليقاً؟ ذلك أنه اللص وقاطع الطريق الأعظم الذي جاء أو يمكن أن يأتي إلى هذا العالم، وهذا كله باسم المسيح

المقدس وباسم القديس بطرس! من ذا الذي يُمكنه أن يتحمل أطول من ذلك أو أن يظل صامتاً؟»

ومضى لوثر إلى تناول تفصيلات برنامجه الديني: يتعيَّن على رجال الدين الألمان أن يؤسسوا كنيسة ألمانية تحت قيادة أسقف ميتز؛ يتعيَّن أن تخفض أعداد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات؛ يتعين على القساوسة أن يتزوجوا؛ يتعين أن تُلغى صلوات الميت وأيام الأعياد (المقدسة) عدا الأحد؛ يتعين أن تلغى كل القوانين الكنسية (التي فصلت الانتهاكات الكنسية عن التشريع العلماني)؛ يتعين على الكنيسة الألمانية أن تتصالح مع أتباع هوس في بوهيميا؛ «يتعين علينا أن نهزم المهرطقين بالكتب لا بإحراقهم»؛ «البابا هو المسيح الدجال حقاً»؛ و«أنت ـ أيها البابا ـ لست أقدس البشر إنما أكثرهم انغماساً في الخطيئة. آه، لسوف يحطم ربنا الذي في السماء عرشك ويغرقك في هاوية الجحيم!»

اعتبر الحذرون من الرجال «الرسالة المفتوحة» اندفاعاً وإفراطاً، لكن كثيرين من الألمان أشادوا بها باعتبارها من بين أكثر الأفعال بطولية في التاريخ. وظلت مطابع ويتنبرغ مشغولة بتلبية الطلبات لطبعات جديدة من «الرسالة المفتوحة». كانت ألمانيا ـ شأنها شأن انكلترا ـ قد نضجت لنداء التوجه نحو القومية؛ لم تكن هناك بعد ألمانيا، إنما كان هناك ألمان، واعون حديثاً بأنفسهم كشعب. وكما كان هوس يؤكد على نزعته الوطنية البوهيمية، وكما كان هنري الثامن يتهيأ لرفض السلطة البابوية على انكلترا، وإن لم يرفض المذهب الكاثوليكي، كذلك فإن لوثر زرع عندئذ معياره لثورة لا في الصحاري اللاهوتية، إنما في الأرض الخصبة للروح القومية الألمانية. وحيثما فاز المذهب البروتستانتي كانت القومية تحمل أعلامه.

وعلى الرغم من تحدي لوثر الذي لم يكن يقبل حلولاً وسطاً، فإن مندوباً من البابا حاول واستطاع أن يقنعه بأن يرسل إلى ليو رسالة يتخلّى فيها عن أي زعم بأنه إنما كان ينوي مهاجمته شخصياً، ويعرض عليه قضية الإصلاح بطريقة معتدلة. وقد أعرب لوثر عن احترامه للبابا كفرد، ولكنه أدان بدون تسوية فساد البابوية في الماضي وفساد البلاط البابوي في الحاضر:

«إن سمعتك وشهرة حياتك التي ليسا فيها ما يستوجب اللوم... معروفة جيداً وتُمتدح إلى أعلى درجة... ولكن الكرسي الذي يطلق عليه البلاط الروماني، والذي لا يمكنك ولا يمكن لأي إنسان أن ينكر أنه أكثر فساداً من أي بابل أو سدوم كان... هذا الكرسي أنا أحتقره عن حق... لقد أصبحت الكنيسة الرومانية أشد أوكار اللصوص فسقاً، والأقل حياء بين كافة بيوت الدعارة، مملكة الخطيئة والموت والجحيم... لقد أحزنني دائماً، يا ليو الممتاز، أن تكون البابا في هذه الأوقات، لأنك أجدر بأيام أفضل...

لذلك لا تنصت، يا عزيزي ليو، إلى تلك الأبواق التي تريد منك أن لا تكون مجرد إنسان إنما شبه إلَه... إنك خادم خدم... وهم يخطئون أولئك الذين يمجّدونك فوق الكنيسة العالمية. هم يخطئون أولئك الذين ينسبون إليك حق تفسير الكتاب المقدس، لأنهم تحت ستار من هذا الاسم يسعون لأن يوطدوا أذاهم في الكنيسة، وعبرهم، ويا للأسف، أستطاع الشيطان أن يمضي بعيداً بالفعل في دفع أسلافك في طريقه. وبإيجاز عليك أن لا تصدق أحداً ممن يمجدونك، صدق أولئك الذين يوضعونك».

في الوقت نفسه كان العملاء البابويون ينشرون مرسوم ليو الخاص بالحرمان الكنسي في جميع أنحاء ألمانيا. وقد نظموا في بعض المدن أعمال إحراق كتب لوثر علناً. وانتقاماً لنفسه، قاد لوثر بعض طلاب جامعة ويتنبرغ في إحراق نسخة من هذا المرسوم، إلى جانب المراسيم البابوية ومجلدات اللاهوت الكاثوليكي. وقد جمع الطلاب وهم في بهجة مجلدات إضافية استطاعوا بها إبقاء النار متأججة حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. وفي يوم 11 كانون الأول/ ديسمبر أعلن لوثر أن أحداً لا يمكن أن يحصل على الخلاص ما لم يستنكر حكم البابوية. لقد طرد الراهبُ البابا من الكنيسة.

المجلس التشريعي لمدينة وورمز (1521)

عندئذ بدأ ليو يسعى للحصول على مساعدة دنيوية للكنيسة فيما تواجهه من تحد بأن طلب من شارل الخامس ـ الذي كان قد أصبح وهو في سن التاسعة عشرة رأساً للامبراطورية الرومانية المقدسة في عام 1519 ـ أن يدعو لعقد

مجلس للأمراء والأساقفة الألمان لفحص سلوك لوثر ومطبوعاته باعتبارها تشكل خطراً ليس فقط على الكنيسة الكاثوليكية، إنما أيضاً على النظام الاجتماعي الأساسي للحضارة الأوروبية.

كان الوضع الذي واجه البابا والأمراء الألمان والامبراطور الشاب عندئذ ينطوي على بعض المشكلات الأساسية للحكم وللتاريخ: إلى أي مدى تعتمد حكومة على العوامل النفسية للحفاظ على حكمها؟ وإلى أي مدى تتوقف العوامل النفسية على الأحوال الاقتصادية وعلى السلطة السياسية؟ هل تعتمد سلطة حاكمٍ وكفايته على مساعدة الدين له في الحفاظ على النظام الاجتماعي والطاعة العامةً والحفاظ على المكانة الحكومية؟ وهل تستطيع حكومة أن تكتسب سلطة أو تحافظ عليها بتأمين سيطرتها على المؤسسات والإيرادات الدينية؟

لقد غامر أولئك الأمراء الألمان الذين حموا لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية، معتمدين على قدرتهم على تنظيم المعتقدات الدينية لشعبهم واستخدامها بطريقة مستقلة عن بابوية روما؛ وغامر ليو بالاعتماد على عدم احتمال لجوء الحكام الألمان إلى أنتهاز هذه الفرصة لتحرير أنفسهم من السلطة البابوية على الكنيسة الألمانية وإيراداتها المتنامية.

بطبيعة الحال، كانت هذه مقامرة حياة أو موت بالنسبة للوثر. لقد تحدى أقوى مؤسسة في أوروبا ـ كنيسة ضعيفة في أسلحتها المادية، لكنها قوية في تمثيل الأسس الدينية لحضارة أوروبا الغربية. لقد هاجم كل جانب تقريباً من جوانب الكنيسة الكاثوليكية، ولم يكن لديه شيء يحميه إلا عدد قليل من الأمراء الألمان غير الموثوق بقوتهم ودعمهم له.

وحدهم عامة الناس أيَّدوه، وبحماس يذهل العقول. حتى لقد ذكر أحد الموفدين البابويين في تقريره:

«ألمانيا بأسرها هبّت حاملة السلاح ضد روما. العالم كله متشوِّق إلى مجلس سيجتمع على التراب الألماني. المراسيم البابوية بالحرمان الكنسي تثير الضحك. أعداد من الناس كفوا عن تلقي قرابين الندم... مارتن (لوثر) يُصوَّر وحول رأسه هالة القداسة. الناس يقبلون صوره هذه. كميات كبيرة منها بيعت حتى أنني لم أعد أستطيع الحصول على واحدة... لا أستطيع أن أخرج إلى

الشوارع ولكن الألمان يضعون أيديهم على سيوفهم ويعضون على نواجذهم لمرآي. آمل أن يمنحني البابا عفواً بابوياً وأن يرعى إخوتي وأخواتي إذا ما حدث شيء لي».

اجتمع المجلس التشريعي لمدينة وورمز يوم 27 كانون الثاني/يناير 1521: نبلاء ألمانيا الرئيسيون ورجال كنيستها وممثلو المدن الحرة وممثلو الامبراطور والبابا. بعث شارل بدعوة إلى لوثر للحضور أمام المجلس والإدلاء بشهادة فيما يتعلق بالاتهامات الموجهة ضده. وعرض عليه عبوراً آمناً من ويتنبرغ إلى وورمز والعودة، مضيفاً: «لا حاجة بك لأن تخشى عنفاً أو تحرُّشاً». أصدقاء لوثر نصحوه بعدم الذهاب، مذكرين إياه بمصير هوس في كونستانس. لكن لوثر ذهب قائلاً: «على الرغم من أن هناك كثرة من الشياطين في وورمز بكثرة بلاطات الأسطح فيها فإنني سأذهب». امتلأت شوارع وورمز لرؤية المهرطق الشهير: ألفان من الناس تجمعوا حول عربته؛ حتى الامبراطور حُجب في الظل.

في 17 نيسان/أبريل ظهر لوثر في مسوح كاهن أمام المجلس الذي كان منعقداً برئاسة الامبراطور. ووجه بمجموعة من مؤلفاته وسُئل عما إذا كان سيرفض كل الهرطقات الواردة فيها؛ وأعطاه شارل مهلة يوم. وفي يوم 18 نيسان/أبريل واجه المحكمة مرة ثانية ووافق على التراجع عن أي فقرة في كتبه يمكن البرهنة على أنها تتعارض مع الكتاب المقدس. وتحداه - باللاتينية - جوناثان إيك، الذي كان يمثل كبير أساقفة ترير:

> «مارتن، إن التماسك بأن يستمع إليك على ضوء ما جاء في الكتاب المقدس هو التماس يأتي دائماً من هراطقة. إنك لا تفعل شيئاً سوى تجديد أخطاء وايكليف وهوس... كيف يمكنك أن تزعم إنك وحدك الذي تفهم معنى الكتاب المقدس؟ هل تضع حكمك فوق أحكام كثيرين من الرجال المشاهير وتزعم أنك تعرف أكثر مما يعرفون جميعهم؟ إنك لا تملك الحق في أن تضع موضع التساؤل أكثر العقائد المقدسة أصولية، تلك التي أسسها المسيح، المشترع الأكمل. والتي أعلنها الرسل في أرجاء العالم، وخُتم عليها بدم الشهداء الأحمر، وأكدتها المجالس المقدسة، وحددتها الكنيسة... والتي حرم البابا والامبراطور مناقشتها، وإلا فلا نهاية للنقاش. إنني أسألك، يا مارتن، أن تجيب صراحة وبلا تمييز: هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التي تحتويها؟»

وقدم لوثر إجابته التاريخية باللغة الألمانية:

«حيث أن جلالتكم وفخامتكم ترغبون بإجابة بسيطة، فإنني سأجيب دون تمييز... ما لم تتم إدانتي بشهادة الكتاب المقدس أو بالعقل الواضح (إنني لا أقبل سلطة البابوات والمجالس لأنهم يتناقضون الواحد مع الآخر)، فإن ضميري هو أسير لكلمة الرب. لا أستطيع أن أنكر، ولن أنكر أي شيء، لأنني إن اتجهت عكس ضميري لا أكون على حق ولا أكون آمناً. فليعنّي الرب. آمين»(*).

ورد إيك بأنه لا يمكن البرهنة على خطأ ما في المراسيم المذهبية للمجالس، فيما أجاب لوثر بأنه مستعد للبرهنة على مثل هذه الأخطاء. ولكن الامبراطور تدخل على الفور صائحاً: «هذا يكفي، فحيث أنه أنكر المجالس لا نريد أن نسمع المزيد». وعاد لوثر إلى محل إقامته.

وفي يوم 19 نيسان/أبريل ـ بعد انتظار يومين لكي يعلن لوثر توبته ـ دعا شارل الأمراء الرئيسيين إلى غرفته وقرأ عليهم إعلان نوايا:

«إن راهباً واحداً يذهب في غير اتجاه المسيحية الذي اتخذته كلها لألف عام لا بد أن يكون مخطئاً... إنني لن أتعامل بعد الآن مع لوثر. يمكنه الآن أن يعود بمقتضى ضمان العودة الآمنة الممنوح له، لكن من دون تبشير أو إثارة اضطراب. لسوف أقيم الدعوى ضده كمهرطق سيّىء السمعة، وأثق بأنكم ستعلنون مواقفكم منه على النحو الذي وعدتموني».

وافق أربعة من الناخبين؛ وامتنع عن التصويت فريدريك أمير ساكسونيا، ولودفيغ أمير مقاطعة البلاتين. وفي يوم 26 نيسان/أبريل بدأ لوثر رحلة عودته إلى ويتنبرغ. وأرسل ليو العاشر أوامره بضرورة مراعاة الضمانات التي أعطيت له. مع ذلك فإن الناخب فريدريك، وخشية من أن تقبض شرطة الامبراطور على لوثر بعد انقضاء مهلة العبور الآمن له يوم 6 أيار/مايو، رتّب بموافقة لوثر أن

(*) لا نستطيع أن نتحقق تماماً من صحة نسبة الكلمات الشهيرة المحفورة على النصب التذكاري في مدينة وورمز: «هنا أقف؛ لا أستطيع أن أفعل غير هذا». فهذه الكلمات لا ترد في نص إجابة لوثر كما وردت في محاضر المجلس؛ إنما ظهرت للمرة الأولى في النسخة المطبوعة من خطبته (المؤلِّف).

يعيش لفترة في عزلة هادئة ومتخفياً كريفي في قلعة وارتبرغ النائية على قمة جبل يبعد مسافة ميل عن إيزناخ. لم يقم شارل بأي محاولة للقبض عليه. وفي 19 شباط/فبراير 1522 عاد لوثر إلى جامعة ويتنبرغ حيث مضى إلى شرح لاهوت لا يزال في أساسياته هو عقيدة الكنائس اللوثرية في كل مكان. في غضون ذلك، وجد لوثر نفسه في مواجهة ثورة مختلفة ولكنها ذات علاقة، ثورة أساسية كثورته.

الثورة الاجتماعية (1522-1536)

حروب الفلاحين

شجَّع النجاح الظاهر لتمرد لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية على قيام انتفاضات للكهنة والقساوسة ضد العزوبة والفقر والخضوع لقوة غريبة ومتسلِّطة. فالضائقة التي أحدثت بالفعل دزينة من الهبَّات الريفية كانت لا تزال تهيِّج عقول الفلاحين، وبالحدة الجديدة التي تحدى بها لوثر الكنيسة وعنَّف الأمراء وحطَّم سدود الطاعة والخنوع، صار كل إنسان قسّاً، وأُعلنت حرية الإنسان المسيحي. وكان ازدياد تداول «العهد الجديد» لطمة للسلطة السياسية، وكذلك الدينية: لقد عرَّى دنيوية رجال الكنيسة، وأظهر شيوعية الرسل، وتعاطف المسيح مع الفقراء والمقهورين. ومن هذه الناحية، كان ذلك بالنسبة لراديكاليي ذلك العصر بمثابة «بيان شيوعي» حقيقي.

في عام 1521 طالب كتيب أصدره يوهانز إيبرلين بحق التصويت العام لكل الذكور، وبإخضاع كل حاكم ومسؤول لمجالس منتخبة انتخاباً شعبياً، وإلغاء التنظيمات ذات الطبيعة الرأسمالية، والعودة إلى نظام تحديد الأسعار الذي كان سائداً في العصور الوسطى بالنسبة للخبز والنبيذ، وتعليم كافة الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب.

في عام 1522 دعا كتيب بعنوان «حاجات الأمة الألمانية» إلى إزالة «كافة الرسوم والجمارك وجوازات السفر والغرامات»، والحد من مؤسسات الأعمال بحيث لا يتعدى رأسمال أي منها 10 آلاف غُلدين، واستبعاد رجال الكنيسة من الحكومة المدنية، ومصادرة ثروة الأديرة، وتوزيع إيراداتها على الفقراء. ولقد مزج المبشِّرون النزعة التبشيرية الإنجيلية البروتستانتية بالأماني الطوباوية:

كشف أحدهم أن السماء مفتوحة للفلاحين ولكنها مغلقة بوجه النبلاء ورجال الدين؛ وأشار آخر على الفلاحين بأن لا يُعطوا مالاً بعد الآن للقساوسة أو الرهبان؛ ونصح مونزر وكارلشتات وهوبماير مستمعيهم بأن «المزارعين وعمال المناجم ودرّاسو الذرة يفهمون الإنجيل على نحو أفضل ويستطيعون أن يعلّموه على نحو أحسن من قرية بأكملها... من رؤساء الأديرة والقساوسة... أو دكاترة الألوهية»؛ وأضاف كارلشتات إلى ذلك: «وأفضل من لوثر».

لقد أثارت حياة توماس مونزر العملية اهتمام العصر. كان قد دعا الأمراء لأن يقودوا الشعب في ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين. وعندما لم يهب الأمراء لانتهاز هذه الفرصة، دعا الشعب للإطاحة بهم أيضاً، و«لإقامة مجتمع نقي كذاك الذي كان يأمل فيه أفلاطون»، وكتب يقول: «كل الأشياء مشتركة، وينبغي أن تُوزع وفقاً لما تتطلبه الأحوال، طبقاً للضرورات المتعددة للجميع... وكل أمير أو كونت أو بارون لا يكون مستعداً - بعد أن يتم تذكيره بجدية بهذه الحقيقة - لأن يقبل هذا، ينبغي قطع رأسه أو شنقه». نظم مونزر العمال والفلاحين في جيش، وصنع له مدفعية ثقيلة في أحد الأديرة. وكانت صيحة: «إلى الأمام! «إلى الأمام في النار لا تزال حامية! فلتجعلوا سيوفكم دافئة بالدم دائماً!». وفي يوم 22 آب/أغسطس 1524، جمع هانز موللر حوله، بناءً على اقتراح من مونزر، بعض فلاحي شتوهلينغن وربط بينهم في «أخوة تبشيرية» هدفها تحرير الفلاحين في جميع أنحاء ألمانيا. وبحلول نهاية عام 1524، كان هناك نحو 30 ألف فلاح مسلح في جنوب ألمانيا، يرفضون دفع الضرائب وعُشريات الكنيسة، أو الرسوم الإقطاعية، ويقسمون على التحرير أو الموت. وقد وضع مندوبوهم في ميننغين (آذار/مارس 1525) «اثنتي عشرة مادة» أشعلت حريقاً في نصف ألمانيا:

«إلى القارىء المسيحي، السلام ونعمة الله من خلال المسيح... لقد كانت عادة السابقين أن يتحكموا فينا باعتبارنا ملكية لهم، وهذا أمر يدعو للشفقة، حين ترى أن المسيح قد افتدانا واشترانا جميعاً بثمن دمه الغالي المُراق... أمّا لحكامنا، مختارين ومعيَّنين (الذين عُيّنوا لنا من قبل الرب)، فنحن مطيعون لهم عن رضى وقبول في كل الأمور الملائمة والمسيحية، ولا شك أنهم كمسيحيين حقيقيين وفعليين سيطلقوننا باغتباط من أسر القنانة، أو يُظهرون لنا في الإنجيل أننا أقنان...

إن حزننا ثقيل بسبب الخدمات التي تزداد يوماً بعد يوم. إننا حزانى لأن بعضهم قد استباح لنفسه مروجاً من الحقول العامة، التي كانت يوماً مِلكاً للجماعة...

فإذا أمكن تبيان أن مادة أو أكثر من المواد المحددة هنا على خطأ... بكلمة الرب، فإننا سنتراجع عنها إذا ما فُسِّر لنا ذلك بحجج من الكتاب المقدس...».

أرسل زعماء الفلاحين إلى لوثر، وقد شجعتهم بياناته شبه الثورية، نسخة من هذه المواد وطلبوا تأييده. فرد عليهم بكتيب طُبع في نيسان/أبريل 1525 بعنوان : «لفت نظر للسلام». وقد أشاد بعرض الفلاحين الخضوع للتصويب من قبل الكتاب المقدس. ولاحظ الاتهامات التي كانت تتردد آنذاك بأن خطبه وكتاباته قد أثارت تمرداً. فأنكر مسؤوليته عن ذلك، وأشار إلى اقتناعه العميق بالطاعة المدنية، إلا أنه لم يسحب انتقاده الموجَّه لطبقة السادة:

«ليس هناك شخص واحد على وجه الأرض يُشكر على هذا التمرد المزعج سواكم أنتم أيها الأمراء والسادة، وبالأخص أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان المجانين، الذين قست قلوبهم على الإنجيل المقدس، على الرغم من أنكم تعرفون أنه حق... إنكم، في حكومتكم الزمنية، لا تفعلون شيئاً سوى نهب رعاياكم حتى يمكنكم أن تعيشوا حياة أُبهة وزهو وحتى لا يعود عامة الشعب الفقراء قادرين على التحمّل أكثر من ذلك... فحيث أنكم أنتم سبب غضب الرب هذا، فإن ما لا شك فيه أنه سيحلّ عليكم إذا لم تعودوا عن أفانينكم في الوقت المناسب... الفلاحون يتجمعون، ولا بد أن يؤدي هذا إلى الخراب والدمار وإلى إقفار إلمانيا بفعل الجرائم القاسية وإراقة الدماء، ما لم يتأثر الرب بتوبتنا فيمنع وقوع ذلك».

نصح لوثر الأمراء والسادة بأن يعترفوا بعدالة الكثير من المواد، وحثَّهم على انتهاج سياسة إعادة نظر بطريقة رحيمة. ووجَّه إلى الفلاحين خطاباً اعترف صراحة بالأخطاء التي ارتكبت بحقهم، ولكنه ناشدهم أن يحجموا عن العنف والانتقام، وتنبأ بأن اللجوء إلى العنف سيتركهم في حال أسوأ من قبل. كما تنبأ بأن تمرداً عنيفاً من شأنه أن يجلب سوء السمعة على الحركة الداعية إلى الإصلاح الديني وأنه سيُلام على كل شيء. ونصح الفلاحين بأن يطيعوا

السلطات، وطلب منهم - في لحظة طيش - أن يفسروا «حرية الإنسان المسيحي» بأنها حرية روحية، تتفق مع القنانة وحتى مع العبودية:

«ألم يستخدم إبراهيم والآباء(*) والأنبياء الآخرون العبيد؟ اقرأوا ما يعلمه القديس بولس عن الخدم، الذين كانوا جميعاً في ذلك الوقت من العبيد. لهذا فإن مادتكم الثالثة خاسرة في مواجهة الكتاب المقدس... إن هذه المادة تجعل جميع الناس سواسية... وهذا مستحيل. إذ لا يمكن لمملكة دنيوية أن تقوم ما لم يكن فيها لامساواة بين الأشخاص، حتى يمكن أن يكون بعضهم أحراراً، وبعضهم سجناء، وبعضهم سادة وبعضهم رعايا».

نعى زعماء الفلاحين لوثر كخائن ودفعوا عجلة ثورتهم قُدماً. بعضهم أخذ حرفياً حلم المساواة: يتعين تفكيك قلاع النبلاء، وأن يعيشوا كما يعيش الفلاحون أو القرويون؛ لن يسمح لهم بعد الآن بامتطاء ظهور الجياد، لأن ذلك يرفعهم فوق نظرائهم البشر. يتعين أن يتحول القساوسة إلى خدم لجمهورهم لا سادة، وأن يُطردوا إذا لم يلتزموا التزاماً شديداً بالكتاب المقدس وبه وحده. عمال المدن استنكروا احتكار المناصب بواسطة الأغنياء واختلاس المسؤولين الفاسدين الأموال العامة، والارتفاع المتكرر للأسعار بينما الأجور تتراجع. واقترح بعض قادة التمرد أن تصادر كل ممتلكات الكنائس لصالح الاحتياجات الدنيوية، وأن تلغى كل رسوم النقل وأشكال التعرفة، وأن تصبح هناك عملة واحدة ونظام واحد للأوزان والمقاييس في جميع أنحاء الامبراطورية.

وفي ربيع عام 1525 اندلع التمرد في عشرات من المواقع المتناثرة. وفي هايلبرون وروثنبرغ وورزبرغ استولت كومونة(*) من ممثلي العمال على الإدارة البلدية. وفي فرانكفورتام - مين أعلنت الكومونة المنتصرة أنها ستصبح من وقتها فصاعداً مجلساً وعمدة وبابا وامبراطوراً، الكل في واحد. وفي روثنبرغ طُرد القساوسة من الكاتدرائية وأُزيلت الصور الدينية، ودُمرت إحدى الكنائس الصغيرة، وأفرغت أقبية النبيذ الكنسية على يد المبتهجين المنتصرين. وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الانتفاضة. وأقسم كثيرون من السادة

(*) يُقصد بهم آباء الجنس البشري، كما ورد ذكرهم في التوراة (المترجم).

والأساقفة، الذين لم يكن لديهم استعداد للمقاومة، على قبول الإصلاحات التي طُلبت منهم؛ وحرّر العديد منهم أقنانهم دفعة واحدة.

بل إن كثيراً من رجال الدين من مراتب أدنى، المعادين للمراتب العليا، دعموا التمرد: ففي لايبهايم الواقعة على نهر الدانوب، استولى نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين، بزعامة أحد القساوسة، على المدينة، وشربوا كل ما أمكن كشفه من النبيذ، ونهبوا الكنيسة، وحطموا آلة الأورغون، وصنعوا لأنفسهم أغطية للسيقان من الأردية الكهنوتية، وقاموا بتكريم هزلي لأحدهم إذ ألبسوه كقسيس وأقعدوه على المذبح. وقد حاصر المدينة جيش من المرتزقة استأجرته «عصبة سوابيا» وقاده الجنرال جيورج فون تروشسيس، وأشاعت الخوف بين الثوار غير المنضبطين فاستسلموا. قُطعت رؤوس خمسة من الزعماء، وأطلق سراح الباقين، ولكن قوات العُصبة أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين.

في يوم الجمعة الحزينة، 15 نيسان/أبريل 1525، حاصرت ثلاث فصائل ثورية تحت قيادة ميتزار وغاير وروورباخ مدينة واينزبرغ (بالقرب من هايلبورن) حيث كان الحاكم الكونت لودفيغ فون هلفنشتاين مكروهاً بشكل خاص بسبب إجراءاته القاسية. اقترب وفد من الفلاحين من أسوار المدينة وطلب الدخول في محادثات؛ قام الكونت وفرسانه بهجمة مفاجئة وذبحوا أعضاء الوفد. وفي يوم أحد الفصح تمكن المهاجمون من اختراق الأسوار ومزقوا الرجال الأربعين المسلحين الذين قاوموا. وأُخذ الكونت وزوجته (ابنة الامبراطور الراحل ماكسيميليان) وستة عشر فارساً أسرى. وأمر روورباخ الرجال الستة عشر بالتعرّض لمحنة السير بين صفوف الفلاحين المسلحين بالفؤوس. وعرض الكونت كل ثروته لتكون فدية؛ فرُفضت باعتبارها محاولة تهدئة مؤقتة. وتوسلت زوجة الكونت منبطحة على الأرض وبانفعال شديد من أجل الإبقاء على حياة زوجها. ولكن روورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها لتقف حتى تتمكّن من مشاهدة حفل الانتقام. وفيما سار الكونت إلى حتفه وسط صليل السكاكين والفؤوس ظل الفلاحون يذكّرونه بتصرفاته الوحشية. صاح أحدهم: «لقد قذفت

(*) الكومونة: لجنة ثورية على غرار تلك التي حلت في وقت الثورة الفرنسية محل بلدية العاصمة باريس (1789). (المترجم).

بأخي إلى المقصلة لأنه لم يرفع غطاء رأسه وأنت تعبر». وصاح آخرون: «لقد سقتنا كما يساق الثور إلى النير»، «تسببت في قطع يدي أبي لأنه قتل أرنباً وحشياً في حقله هو...»، «أحصنتك، كلابك، وصيادوك دمروا محصولي...»، «لقد نزعت منا آخر بنس نملكه». وخلال نصف الساعة التالي اقتيد الفرسان الستة عشر إلى مثواهم الأخير. أما الكونتيسة فقد سمح لها بالاعتزال في أحد الأديرة.

في كل قسم تقريباً من ألمانيا قام الفلاحون باضطرابات. لقد نهبت الأديرة، أو أجبرت على دفع فديات باهظة. في ميتز فر كبير الأساقفة ألبريخت أمام العاصفة، ولكن نائبه أنقذ الموقف بالتوقيع على المواد الاثنتي عشرة ودفع فدية قيمتها 15 ألف غيلدر. وفي يوم 11 نيسان/أبريل رفض سكان بلدة بامبرغ الاعتراف بسيادة الأسقف ونهبوا قلعته وأحرقوها، ونهبوا مساكن الأورثوذكس. وفي الألزاس انتشر التمرد سريعاً حتى أنه بحلول نهاية شهر نيسان/أبريل كان كل أورثوذكسي أو مالك أرض غني في حالة فزع خوفاً على حياته. وفي يوم 28 نيسان/أبريل هاجم جيش من الفلاحين مؤلف من 10 آلاف رجل مدينة زابيرن، مقرّ أسقف ستراسبورغ، وسلب الدير واستولى على البلدة وأجبر رُبع رجالها على الانضمام إليهم، وألغى دفع الضرائب العُشرية وطالب بأن يكون كافة المسؤولين ـ من وقتها فصاعداً ـ عدا الامبراطور منتخبين بتصويت شعبي عام وخاضعين لإمكانية العزل من مناصبهم. وفي مدينة فرايبرغ إيم براسغاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأجبروا المدينة على الانضمام إلى رابطة «الأخوّة التبشيرية». وفي شهر أيار/مايو التالي ساقت عصبة من الفلاحين أسقف ورزبرغ إلى خارج قصره واستباحت مخازنه. وفي نيوستات في مقاطعتي البلاتاين، دعا الناخب لودفيغ ـ وقد حاصره ثمانية آلاف من الفلاحين المسلحين ـ قادة هؤلاء إلى عشاء وخضع مبتهجاً لمطالبهم. وقال أحد المعاصرين لتلك الأحداث: «هناك رأى المرء الفلاحين الأقنان وسيدهم يجلسون ويأكلون ويشربون معاً. ويبدو أنه كان في قلبه ميل إليهم، وفي قلوبهم ميل إليه».

ووسط هذا الطوفان من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة ويتنبرغ في أيار/مايو 1525 كُتيباً بعنوان «ضد قطعان الفلاحين اللصوص والقتلة». وقد أذهلت حدته في النقد الأمير والفلاح، الأسقف وذا النزعة الإنسانية، على السواء. لقد صدمته تجاوزات الثوار الغاضبة، وأرعبه احتمال قلب كل قانون وحكومة في

ألمانيا، وأذهلته الاتهامات بأن تعاليمه هي التي أطلقت هذا الفيضان، لهذا فإنه وضع نفسه بلا تحفظ في جانب القانون والنظام:

«إن أي إنسان يمكن أن تثبت عليه إثارة الفتنة هو خارج على قانون الرب والامبراطورية، حتى أن أول من يستطيع أن يذبحه إنما يصنع الصواب والخير... ذلك أن التمرد يجلب معه أرضاً تملأها الجريمة وسفك الدماء، ويصنع الأرامل واليتامى ويقلب كل شيء رأساً على عقب... لذا فليتذكر كل من يستطيع الضرب والقتل والطعن، سراً أو علناً، أنه لا شيء يمكن أن يكون أشد تسميماً وأذى أو شيطانية من متمرد. إنه تماماً مثل حالة المرء حين يقتل كلباً مسعوراً...».

ورفض لوثر التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوعية:

«إن الإنجيل لا يجعل السلع مشاعاً، إلا في حالة أولئك الذين يفعلون بإرادتهم الحرة ما فعله الرسل والتلاميذ في سفر أعمال الرُّسُل الرابع. إنهم لم يطلبوا، كما يفعل فلاحونا المجانين... أن تكون سلع الآخرين ـ سلع أي بيلاطس أو أي هيرودس ـ سلعاً عامة، وإنما سلعهم هم. ومع ذلك فإن فلاحينا يريدون أن تصبح سلع الرجال الآخرين عامة، وأن يحتفظوا هم بسلعهم لأنفسهم. حسناً إذن! إنني أعتقد أنه لم يعد يوجد شيطان واحد في الجحيم، لقد انضموا جميعاً إلى الفلاحين».

وعرض العفو للحكام الكاثوليك إذا هم قتلوا المتمردين دون محاكمة. أما بالنسبة للحكام البروتستانت فإنه أوصى بالصلاة والندم والتفاوض، لكن إذا بقي الفلاحون على عنادهم، فإن عليهم أن يستلّوا سيوفهم سريعاً. ذلك أن أميراً أو سيداً لا بد أن يتذكر في هذه الحالة أنه هو وزير الرب وخادم غضبه (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية -13)؛ والسيف بالنسبة له مُعدّ للاستخدام مع مثل هؤلاء الناس:

«إذا كان باستطاعته أن يعاقب ولم يفعل ـ حتى وإن كان العقاب يقوم على إزهاق الروح وإهدار الدم ـ فهو إذن مذنب بكل القتل والشر الذي ارتكبه هؤلاء الناس... وإذن يتعين على الحكام أن يمضوا غير عابئين، وبضمير صاف، للبتّ في أمرهم

طالما أن قلوبهم لا تزال تنبض... فإذا كان أحد يظن أن هذه قسوة بالغة فليتذكر أن التمرد أمر لا يمكن التسامح فيه وأن تدمير العالم متوقع في كل ساعة».

كان من سوء طالع لوثر أن هذه الدعوة إلى الحرب بلغت سامعيها بالتحديد في حوالى الوقت الذي كانت فيه طبقات الملاكين قد بدأت ترضخ للتمرد: وتلقى المصلح الكبير (لوثر) فضلاً لا يستحقه عن إرهاب القمع. مات الناخب الامبراطوري فريدريك في 5 أيار/مايو 1525، تاركاً لخليفته نصائح بالاعتدال، أما الناخب جون فقد أحس بأن شقيقه كان ليِّناً عن غير حكمة. ضم قواته إلى قوات الدوق هنري حاكم برونزفيك وفيليب الأول نبيل منطقة هيسه. وتحركوا جميعاً ضد معسكر مونزر خارج مدينة مونشاوزن. كانت الجيوش التي تواجههم تماثلهم عدداً فحسب، إذ كان كل منها يتألف من نحو ثمانية آلاف رجل؛ ولكن القوات الدوقية كانت مؤلفة في معظمها من جنود مدربين، في حين أن الفلاحين كانوا مسلحين تسليحاً عارضاً. وأدت أولى هجمات الأمراء بنيران المدفعية إلى قتل المئات وإشاعة الذعر بين المتمردين، ففروا إلى مدينة فرانكنهاوزن (15 أيار/مايو). وتعقّبهم المنتصرون وذبحوا منهم خمسة آلاف. وحكم على مئات الفلاحين بالإعدام؛ فالتمست زوجاتهم الرأفة، ومُنحت لهم إنما بشرط أن يأكلوا مُخَّي اثنين من القساوسة كانا قد شجعا التمرد، وكان ذلك على مرأى من الأدواق المنتصرين. ووقع مونزر في الأسر، وعُذب حتى اعترف بخطأ أساليبه وقُطع رأسه.

في الوقت نفسه استولى جيورج فون تروشسيس ـ الذي كان يقود قوة أميرية أخرى ـ على مدينة بوبلنغين، ومن أسوارها قذف القنابل على معسكر للثوار خارجها (11 أيار/مايو). وقد أعمل الفرسان تقطيعاً في أولئك التلاميذ الذين بقوا على قيد الحياة بعد مذبحة المدفعية. وتحول تروشسيس بعد ذلك إلى وايزنبرغ وأحرقها حتى سوَّاها بالأرض. وببطء شوى جاكلاين روورباخ ـ الذي كان قد أشرف على «مذبحة وايزنبرغ». ومضى تروشسيس ليستولي مجدداً على ورزبرغ، وقطع رؤوس واحد وثمانين من الثوار المختارين كإنذار للباقين. وكان أحد الذين بقوا على قيد الحياة فارس الثورة غوتز ڤون بيرليشنغن، الذي ألهمت أسطورته غوته إحدى مسرحياته المبكرة.

سُحق تمرد الألزاس بقتل ما بين ألف وستة آلاف من الفلاحين في ليبشتاين وزابيرن. وبحلول يوم 27 أيار/مايو كان قد قُتل نحو 20 ألفاً من الفلاحين في الألزاس وحدها: حتى أن الهواء في بعض المدن كان مشبعاً برائحة الموت. أمر ماغراف كازيمير بقطع رؤوس بعض الفلاحين الذين استسلموا له، وشنق بعضهم؛ وفي حالات أخف قطع الأيدي أو فقأ الأعين. تدخل بعض الأمراء من ذوي العقول الأرجح للتخفيف من بشاعة الانتقام. وحذر أحد النبلاء: «لو أن كل المتمردين قُتلوا، فمن أين سنأتي بفلاحين لإطعامنا».

لقد تجاوزت خسائر الأرواح والممتلكات الألمانية في حرب الفلاحين كل خسائر الحروب الأخرى عدا حرب الثلاثين عاماً. من الفلاحين وحدهم مات نحو 130 ألفاً في المعارك أو في الكفّارة. وزعم الجلاد الذي استأجره تروشسيس متفاخراً أنه قتل ألفاً ومائتين من المحكومين بيديه. والفلاحون من جانبهم دمّروا مئات القلاع والأديرة. كذلك هُجرت مئات القرى والبلدات أو دُمرت أو حط عليها الفقر بسبب ما دفعته من تعويضات.

هام أكثر من 50 ألفاً من الفلاحين بلا مأوى على وجوههم في الطرقات أو اختبأوا في الغابات. الأرامل واليتامى كانوا بأعداد كبيرة، ولكن المحسنين كانوا إما بلا قلوب وإما مفلسين بلا نقود. قُدمت تنازلات إلى الفلاحين في النمسا وبادن وهيسه؛ وفي أماكن أخرى ازدادت القنانة قوة، ولسوف تبقى في مناطق شرق جبال الألب حتى عام 1800. وأحبطت التطورات الفكرية، وزادت الرقابة على المطبوعات، في ظل حكم السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء. وضمرت النزعة الإنسانية وسط النيران. وتراجعت بهجة النهضة في الحياة والأدب والفن أمام اللاهوت ونزعة التقوى والتأملات في الموت.

لم يغفر الفلاحون أبداً للوثر. كانوا قد شعروا بأن الدين الجديد أمدَّ قضيتهم بقدسية وأثار فيهم أملاً وعملاً، ثم تخلى عنهم عند ساعة الحسم. بعضهم اعتراه يأس غاضب فأصبح ملحداً ساخراً. وكثيرون، أو أبناؤهم، عادوا إلى الحظيرة الكاثوليكية. وبعضهم سار وراء المتطرفين الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون «العهد الجديد» نداءات إلى الشيوعية.

شيوعية تجديد العماد(*)

كانت أكثر الطوائف الجديدة راديكالية تلك التي اتخذت اسم «المعمِّدون من جديد»، وذلك لإصرارهم على أن التعميد إن تم في الطفولة، فينبغي أن يتكرر في البلوغ أو أن يؤجل، وذلك أفضل مثلما فعل يوحنا المعمدان، حتى يتمكن المتلقي من أن يحدد عن معرفة وإرادة اعتناق العقيدة المسيحية.

كانوا يُدينون كل استخدام للقوة، وخاصة من جانب الحكومات. كما كانوا يرفضون أداء الخدمة العسكرية على أساس أنه من قبيل الخطيئة دائماً حصد الحياة البشرية. ورفضوا إطلاق الأيمان. ولم يستثنوا قَسَم الولاء للأمير أو للامبراطور. وكانت تحيتهم التقليدية، «سلام الرب عليكم»، وهي صدى للتحية اليهودية والإسلامية، والسابقة على طريقة جماعة «الكويكر»(**).

وفي حين اتفق لوثر وزوينغلي وكالڤين ونوكس مع البابوات على ضرورة الالتزام الديني، فإن أصحاب عقيدة «تجديد العماد» مارسوا تسامحاً دينياً، وكتب أحدهم، وهو بالثازار هوبماير، أول دفاع واضح عنه معروف لنا (1524). نأوا عن المناصب الرسمية ولجأوا إلى الدعاوى القضائية. كانوا فوضويين على غرار تولستوي قبل تولوستوي بثلاثة قرون. أعلن بعضهم إقامة جماعية السلع؛ وبعضهم ـ إذا كان لنا أن نصدق بعض كتاب اليوميات المعادين لهم ـ اقترحوا جماعية الزوجات. مع ذلك فإن هذه الطائفة بوجه عام رفضت أي مشاركة قسرية في السلع، وارتاحت إلى الأمل في أن المملكة القادمة، مملكة شيوعية السماء ـ ستكون تلقائية وعالمية. عاشوا على الثقة بتوقعهم القدوم الثاني للمسيح، الذي سيقيم مملكة السماء على الأرض، والتي سيعيش فيها المختارون في جنة أرضية بلا قوانين أو زواج وتكون كل الطيبات فيها للجميع.

(*) Anabaptism: المعمدانيون الجُدد (أو اللامعمدانيون): تعبير يطلق بشكل عام على مجموعات متباينة من البروتستانت ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان يجمع بينهما اعتقادها بأنها تستعيد نقاء المسيحية البدائية إلى الكنيسة، وتمارس تعميد البالغين. (المترجم).

(**) جماعة الأصدقاء المسيحية، أسسها جورج فوكس، لا يوجههم سوى ما يطلقون عليه «النور الداخلي»، وأخذوا بالبساطة في كل شيء من ملابسهم إلى حديثهم. (المترجم).

ظهر أصحاب عقيدة العماد الجديد أول ما ظهروا في سويسرا نحو عام 1521، ولكن زوينغلي ـ الذي كان قد أصبح مهيمناً في زيوريخ ـ جعل الحياة صعبة لهم حتى أنهم هاجروا إلى ألمانيا، حيث بدا أن لوثر أعدّ الساحة لهم بتحطيم سدود العادات والانضباط، جاعلاً «كل رجل قسّاً»، ومعلناً حرية الإنسان المسيحي. في أوغزبرغ حققوا تقدماً سريعاً بين عمال النسيج، وفي التيرول فإن كثيرين من عمال المناجم، الذين قارنوا بين فقرهم بثراء أسرتي فوغر وهوشستيتر اللتين كانتا تملكان المناجم، اعتنقوا عقيدة العماد الجديد عندما انهارت ثورة الفلاحين. وفي ستراسبورغ نمت الطائفة الجديدة بلا عراقيل لبعض الوقت لأن الخصوم كانوا منهمكين في الصراع بين البروتستانت والكاثوليك. ولكن كتيباً صدر في عام 1528 حذر السلطات من «ذلك الذي يعلّم أن كل شيء هو عام»، ولا يشغل شيء عقله سوى تحريض الفقير ضد الغني، الرعايا ضد الحكام الذين عيّنهم الرب. وفي تلك السنة أصدر شارل الخامس مرسوماً يجعل «العماد الجديد» جريمة يُعاقب عليها بالإعدام.

صادق المجلس التشريعي لمدينة شبيير (1529) على مرسوم الامبراطور، وأمر بقتل المعمدانيين الجدد أينما كانوا كأنهم وحوش مفترسة بمجرد أسرهم دون قاض ودون محاكمة. وبحلول عام 1530 ـ حسب قول معاصرهم سيباستيان فرانك ـ كان قد أُعدم ألفان منهم.

وعلى الرغم من هذه الإعدامات فإن الطائفة ازدادت عدداً وأخذت تنتقل من مكان إلى مكان في ألمانيا. وفي بروسيا وورتمبرغ رحّب بهم بعض النبلاء باعتبارهم مزارعين مسالمين ونشيطين. وفي ساكسونيا ـ حسب ما يقول مؤرخ لوثري مبكر ـ امتلأ وادي نهر ڤيرا بهم. وفي إيرفورت زعموا أنهم أرسلوا ثلاثمائة من المبشرين لإدخال العالم المحتضر في العقيدة.

في أوسترليتز أقام هانز هوت وأتباعه مركزاً مشاعياً وحافظوا عليه لنحو قرن كامل. وقد حماهم النبلاء الذين كانوا يملكون الأرض باعتبار أنهم قد أثروا المقاطعة بكدهم الذي نمّ عن ضمير حي. كانت المزارع مشاعاً: مواد الزراعة أو أدوات الحرف كانت تُشترى وتوضع بعهدة موظفين جماعيين؛ وكان يدفع لملاك الأراضي جزء من العائدات كإيجار، ويوزع الباقي طبقاً للحاجة. ولم تكن الأسرة

هي الوحدة الاجتماعية، وإنما أهل البيت. وكانوا يتراوحون عدداً بين أربعمائة وألفين، مع مطبخ عام، ومغسل عام، ومدرسة، ومستشفى ومصنع للبيرة. كان الأطفال، بعد الفطام، يربون في مشاع. لكن أحادية الزواج بقيت كما هي. وفي حرب الثلاثين عاماً، وبمرسوم امبراطوري صدر في عام 1622، قُمع هذا المجتمع المشاعي؛ وقبل أعضاؤه الكاثوليكية أو جرى نفيهم.

في هولندا، بشر ملكيور هوفمان، الذي كان صباغاً من سوابيا - بإنجيل العماد الجديد وأصابه قسط من النجاح. وفي مدينة لايدن انتهى تلميذه يان ماثيس إلى أن ظهور القدس الجديدة لا يمكن انتظاره في صبر أطول من ذلك، إنما لا بد أن ينجز فوراً، وإذا لزم الأمر فبالقوة. وبعث في جميع أنحاء هولندا اثني عشر رسولاً لإعلان الأنباء السارة. كان الأقدر بينهم خياط شاب اسمه يان بوكلزوون. عرف في التاريخ باسم جون اللايدني، وفي دار الأوبرا في مايربير عرف بلقب «النبي». لم يكن على حظ من التعليم الرسمي لكنه كان يملك ذهناً حاداً ومخيلة ممتلئة حيوية، وحضوراً وسيماً، ولساناً مستعداً، وإرادة حاسمة. في عام 1533، وكان في الرابعة والعشرين من عمره، قبل دعوة للحضور لمساعدة المعمدانيين الجدد الذين كانوا قد سيطروا على الوضع في مونستر، العاصمة الغنية والكثيفة السكان لإقليم ويستفاليا.

وصل إلى هناك يوم 13 كانون الثاني/يناير 1534 حيث وجد المدينة محاصرة بقوة كاثوليكية تحت قيادة الأسقف فرانز فون فالديك. انخرط جون في المقاومة العنيدة وصعد سريعاً إلى مركز القيادة المطلقة تقريباً للجنة التنفيذية للسلامة العامة (5 نيسان/أبريل 1534). وأجريت انتخابات جديدة، ففاز فيها المعمدانيون بالسيطرة على اللجنة وأقاموا الشيوعية كاقتصاد حرب. ألهم المواطنين إيمانهم الديني وبلاغة جون الخطابية، فقبلوا «حكم رجال الدين الاشتراكي» على أمل أنهم بذلك يحققون القدس الجديدة التي وعد بها سفر الرؤيا.

ارتدى جون ومساعدوه ثياباً فاخرة كان قد خلَّفها وراءهم الأثرياء المنفيون، ربما لمنح سلطتهم غير المستقرّة بعض المساعدة. وطبقاً لشهادة خصم لهم، فإنهم أصدروا أمراً قضى بأن «تصبح كل الممتلكات مشاعاً»، ولكن يبدو أن قليلين أطاعوا هذا الأمر. وقد عين ثلاثة من الرهبان لتوفير الإيرادات

الضرورية للفقراء. وبغية إمداد هذه المؤسسات الخيرية، تمّ إقناع الموسرين الباقين أو إجبارهم على تسليم ما لديهم من فائض. وخُصصت الأراضي القابلة للزراعة داخل المدينة لكل بيت حسب حجمه. وقد أكد مرسوم صادر عنهم الهيمنة التقليدية للزوج على زوجته.

نظمت الأخلاقيات العامة بقوانين صارمة. فقد شُجعت الرقصات والألعاب والمسرحيات الدينية الخاضعة للإشراف والرقابة، ولكن السُّكر ولعب القمار كانا يعرِّضان مرتكبهما لعقاب قاس. وحُظرت الدعارة؛ وعُدّ الفسق والزنا جريمتين يعاقب عليهما بالإعدام. ودفع ازدياد عدد النساء الناجم عن فرار رجال كثيرين الزعماء إلى إصدار مرسوم، على أساس سوابق توراتية، بأن تصبح النساء اللاتي بغير ارتباط «مرافقات للزوجات»، أي في الواقع محظيات. وقد اتخذ جون نفسه العديد منهن.

وعلى الرغم من أن كثيراً من المعمدانيين الجدد في ألمانيا وهولندا أدانوا لجوء إخوتهم في مونستر إلى القوة، فإن عدداً أكبر أشاد بالثورة. وترددت في أرجاء كولونيا وتيريير وأمستردام ولايدن تمتمات المصلين من المعمدانيين الجدد من أجل نجاحها. وفي يوم 28 آذار/مارس، وكصدى لانتفاضة مونستر، استولت عصبة من المعمدانيين الجدد على أحد الأديرة في فريدلاند الغربية وقامت بتحصينه. وفي مواجهة هذا التمرد الآخذ في الانتشار، تحركت القوى المحافظة في الامبراطورية، البروتستانت والكاثوليك على السواء، لقمع المعمدانيين الجدد حيثما كانوا. فما كان من لوثر، الذي أوصى في عام 1528 باستعمال اللين مع الهراطقة الجدد إلا أن نصح في عام 1530، «باستخدام السيف» ضدهم باعتبارهم «زنادقة» وعصاة. وأخذت المدن، واحدة بعد أخرى، ترسل المال أو الرجال إلى الأسقف فون فالديك وقواته؛ وأمر مجلس مدينة وورمز التشريعي (2 نيسان/أبريل 1535) بفرض ضريبة على ألمانيا بأسرها لتمويل الهجوم على مونستر. وعندئذ فقط كان الأسقف قد أصبح قادراً على الإطاحة بالمدينة وقطع كل الإمدادات عنها.

وفي مواجهة المجاعة وانهيار المعنويات، أعلن الملك جون أن باستطاعة كل الراغبين أن يغادروا المدينة. واغتنم كثيرون من النساء والأطفال وبعض

الرجال الفرصة. فقتلت قوات الأسقف الرجال أو سجنتهم: أما النساء فتم إطلاقهن مقابل خدمات مختلفة. وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن وافق على أن يكشف للمحاصرين عن قسم من أسوار المدينة يفتقر إلى الدفاع. وبتوجيهه قامت قوة من مساحي الأرض بمساعدتهم على التسلق وفتح إحدى البوابات (24 حزيران/يونيو). وسريعاً ما اندفعت قوات عدة إلى داخل المدينة. وكان الجوع قد فعل حتى الآن فعله حتى أن 800 فقط من الرجال المحاصرين كانوا قادرين على حمل السلاح. وقد تحصّنوا في سوق المدينة ثم استسلموا بناءً على وعد بتركهم يسلكون طريقهم بأمان إلى خارج مونستر، وعندما سلّموا أسلحتهم ذُبحوا عن آخرهم. فُتشت البيوت وذُبح 400 كانوا على قيد الحياة مختبئين. وحكم على جون اللايدني واثنين من مساعديه بالموت على الخازوق؛ وقد نُتش كل جزء من أجسامهم بكماشات ساخنة بلون الجمر، حتى أن «كل الواقفين في سوق المدينة أصابهم الإغماء من رائحة اللحم المحترق»، وفي النهاية دُقت الخناجر في قلوبهم.

استعاد الأسقف مدينته وعزز سلطته السابقة؛ وأخضعت بعد ذلك كل أفعال السلطة المدنية لحق النقض الأسقفي. وعادت الكاثوليكية مظفرة. وفي جميع أنحاء الامبراطورية أنكر المعمدانيون الجدد - خشية على حياتهم - كل عضو منهم أدين باستخدام القوة، ومع ذلك فإن كثيرين من الهراطقة المسالمين قد أعدموا. ونصح لوثر وميلانكثون فيليب حاكم هيسه بأن ينفذ حكم الموت في كل المنتمين للطوائف. وقبل المعمدانيون الجدد الدرس، وأجّلوا الشيوعية إلى الألفية الجديدة. وأذعنوا لحياة رصينة، ورعة مسالمة لا تغضب الدولة.

قدّم مينّو سيمونز - وهو قس كاثوليكي كان قد تحوّل إلى مذهب العماد الجديد - إلى أتباعه الهولنديين والألمان نصيحة بارعة للغاية بحيث أن «المينونيين» صمدوا لكل المحن وشكلوا مجتمعات زراعية ناجحة في هولندا وروسيا وأمريكا. هذا ولا توجد رابطة انتماء واضحة بين المعمدانيين الجدد القاريّين (الأوروبيين) وجماعة الكويكر الانكليزية أو المعمدانيين الأمريكيين. ولكن رفض الكويكر الحرب والقَسَم، والإصرار المعمداني على التعميد بعد البلوغ، ربما نبع من التقاليد ذاتها لعقيدة وسلوك اتخذا أشكال المعمدانية الجديدة في سويسرا وألمانيا وهولندا. وقد هاجر أحد فروع المعمدانيين الجدد في عام 1719 من ألمانيا إلى بنسلڤانيا واستقر في «جرمانتاون» أو بالقرب منها. وفي

شرق بنسلفانيا لا يزال «الآميش» من المينونيين (الآميش استمدوا اسمهم من أحد زعماء القرن السابع عشر، جاكوب آمين) يرفضون رسمياً استعمال الأمواس والأزرار والسكك الحديدية والسيارات والصور المتحركة (السينما) والصحف والجرارات؛ ولكن مزارعهم هي من أكثر المزارع تنظيماً وأكثرها رخاء في أمريكا.

إنّ اللاهوت الذي دعم المعمدانيين الجدد وجعلهم يحتملون الفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفاتنا العابرة، لكنهم بدورهم، في إخلاصهم وتفانيهم وودّهم أغنوا تراثنا وردوا الاعتبار لإنسانيتنا التي فقدت بريقها.

حركة الإصلاح منتصرة (1525-1555)

إذا كانت حركة الإصلاح قد نجحت في ألمانيا، فربما كان ذلك لأن الامبراطور شارل الخامس والبابوات ليو العاشر وأدريان السادس وكليمنت السابع انشغلوا في التنافس فيما بينهم على من يكون له التفوق في العالم المسيحي، ولأن الأمراء الألمان ظنوا أن إيرادات الكنيسة الألمانية يمكن أن تُستخدم بواسطتهم على نحو أفضل مما تُستخدم بواسطة روما. وبينما كانت إيطاليا وفرنسا مشغولتين بالحرب، كان الألمان يتخلّصون من مطالب الكنيسة الباهظة، وأخذ الناخبون واحداً بعد آخر يُعلنون قبولهم بالسيادة(*).

وقف ايرازموس يتفرّج بحزن ودهشة بينما كانت أوروبا تمزّق نفسها باللاهوت والحرب. كان قد دعم المراحل المبكرة من تمرد لوثر، لكنه نأى بنفسه حينما هدد هذا التمرد بتقويض الكنيسة الكاثوليكية بوصفها عماد النظام الاجتماعي في أوروبا. وقد اعترف بنصيبه في فتح الدرب أمام لوثر، وكان كتابه «إطراء الحمقى» في تلك اللحظة يوزع بآلاف النسخ في جميع أنحاء أوروبا، ساخراً من الرهبان واللاهوتيين، ومسجلاً النقاط لصالح بيانات الشجب الصريحة التي كانت تصدر عن لوثر.

وعندما اتهمه الكاثوليك بأنه هو الذي وضع البيضة التي كان يفقسها لوثر، اعترف بذلك قائلاً: «نعم، ولكن البيضة التي وضعتها كانت دجاجة، في

(*) يقصد المؤلف هنا: الاستقلال عن الكنيسة طبعاً (المترجم).

حين أن ما فقسه لوثر كان ديكاً من ديوك المصارعة». وقد خشي أن يؤدي انقسام المسيحية إلى معسكرات متعادية، إلى إعادة أوروبا إلى الوراء قرناً (كما حدث لألمانيا في القرن التالي فعلاً).

وحينما ناشده لوثر أن يستمر في مصادقته (18 آذار/مارس 1519)، أجابه محذِّراً أن لا يطلق كلاب الحرب، وفي الوقت نفسه كتب إلى الناخب الامبراطوري فريدريك طالباً منه أن يحمي المتمرد. وتذكَّر ـ على نحو ما يفعل أي عالم فقير ـ معاشاته البابوية ورواتبه عن مناصبه الانكليزية فآثر السلامة.

على أي حال فإن انسحاب الأمراء الألمان من الاتحاد الروماني مضى بسرعة متزايدة. وفي عام 1546 مات لوثر في سن الثالثة والستين، بعد أمراض عدة ومعاناة كثيرة. وحمل إنجيله بعده بهدوء ميلانكثون، وحماه الناخبون الذين زادت سلطتهم في الوقت الذي كانت سلطة الامبراطور الكاثوليكي تتقلّص سنةً بعد سنة بسبب الحروب الباهظة، والهموم المتزايدة، وأمراض الشيخوخة. وفي عام 1555، وأمام المجلس التشريعي لمدينة أوغزبرغ، سلَّم شارل الخامس بمعظم مطالب الناخبين الألمان، الذين تُركت لهم حرية اختيار دينهم وجعل ذلك مبدأ إلزامياً بين رعاياهم. لم يكن ثمة ادعاء بالتسامح الديني؛ وكان الحقّ في تكوين الحكم الخاص، الذي احتفظت به حركة الإصلاح في فوران الثورة، قد تم التخلي عنه، إن لم يكن لأي سبب فلأنه أدى إلى تباين العقائد المتناحرة كما هدد عقل أوروبا. مع ذلك فإن المتمرد المستاء كان حراً في أن يهاجر إلى إمارة تُناسب عقيدتها الرسمية عقيدته.

أو كان بإمكان مثل هذا المواطن أن يكسر كل الحدود القومية ويبحث في سويسرا عما يختاره من العقائد الإصلاحية ما بين زوينغلي في زيوريخ وكالڤين في چينيف؛ أو بإمكانه أن يعبر البحر ليعتنق الكالڤينية السكوتلاندية بقيادة جون نوكس، أو الكاثوليكية الانغليكانية بقيادة هنري الثامن.

ووسط النزعات الإطلاقية للجمود العقائدي، لم تبق الحرية العقلية حيّة إلا في الهرطقات السرية لعدد قليل من ذوي النزعة الإنسانية في ألمانيا، أو في النزعة الشكية الهادئة لقلة من الإيطاليين والإنكليز.

الفصل العشرون

حركة الإصلاح الكاثوليكية

(1563-1517)

الإصلاحيون الكاثوليك

حزن كثير من الإيطاليين لتدهور الكنيسة في القيادة الأخلاقية والإصلاح المذهبي. ففي البندقية، محور تجارة إيطاليا مع الدول غير المسيحية، انتعشت النزعة الشكية وكان انتقاد رجال الدين يحظى بشعبية كبيرة؛ كتب الكاردينال كارافا في تقرير إلى البابا كليمنت السابع (1532) أن عدداً صغيراً للغاية من ذكور البندقية مارس الاعتراف على الإطلاق؛ ووصف كليمنت نفسه «الهرطقة اللوثرية» بأنها واسعة الانتشار بين رجال الكنيسة والمؤمنين على السواء في إيطاليا. ومن الثابت أن رينيه، ابنة لويس الثاني عشر وزوجة إيركول ديستي، حاكم فيرارا، كانت بروتستانتية، واستقبلت كالڤن هناك. وفي مودينا ولوكا وروما ضمت الأكاديميات التعليمية هراطقة كثيرين، وكان بعضهم أكثر تشككاً من لوثر.

مع ذلك، فقد كان من المستحيل، بطبيعة الحال، على إيطاليا أن تتجه إلى البروتستانتية. فقد كان عامة الناس هناك ـ على الرغم من عدائهم لرجال الكنيسة ـ متدينين حتى حينما كانوا لا يذهبون إلى الكنيسة. كانوا يحبون الاحتفالات التي

ينسون فيها الوقت، والقديسين المساعدين أو المؤاسين؛ العقيدة التي نادراً ما توضع موضع التساؤل والتي رفعت حياتهم من فقر مساكنهم إلى جلال أعظم دراما أمكن تصورها أبداً: افتداء الإنسان الساقط بموت ربه.

كانت ثروة البابوية ميراثاً إيطالياً غالياً ومصلحة راسخة؛ وكان كل إيطالي يقترح إنهاء تلك المنظمة التي تتلقى الاحترام يبدو لمعظم الإيطاليين على حافة الجنون. ولقد تعاركت الطبقات العليا مع البابوية كقوة سياسية على وسط إيطاليا، ولكنهم اعتزوا بالكاثوليكية كعون حيوي للنظام الاجتماعي والحكم السلمي. لقد أدركوا أن مجد الفن الإيطالي يرتبط بالكنيسة عبر إلهام أساطيرها ودعم ذهبها. وكانت الكاثوليكية ذاتها قد أصبحت فناً؛ وكانت عناصرها الحسية قد أخضعت العنصرين الوجداني واللاهوتي: الزجاج الملون، عبق البخور، الموسيقى، العمارة، النحت، التصوير، وحتى الدراما.. هذه كلها في الكنيسة ومنها، وفي مجموعها الرائع بدت غير قابلة للانفصال عنها. لم يكن يتعين تحويل فناني إيطاليا وعلمائها عن الكاثوليكية، فقد كانوا هم الذين حولوا الكاثوليكية إلى ثقافة وفن.

كان مئات، آلاف، من العلماء والفنانين يتلقون دعماً من الأساقفة والكرادلة والبابوات؛ وارتقى كثير من ذوي النزعة الإنسانية، وبعض المتشكّكين المهذبين، إلى مناصب عليا في الكنيسة. وأحبت إيطاليا ذلك الجمال الذي كان في متناولها حباً جماً إلى حد كان من غير الممكن معه أن تحرم نفسها بسبب حقائق لا يمكن بلوغها. وهل وجد الحقيقة أولئك التيوتونيون الألمان المتعصبون، أو ذلك الخصم اللدود للبابا في جنيف، أو ذلك الحاكم الفظ على عرش انكلترا؟ أي لغو يسبب الاكتئاب ينادي به الإصلاحيون، وتحديداً في الوقت الذي كانت فيه الطبقات المثقفة في إيطاليا قد نسيت الجحيم واللعنة الأبدية!

بالتالي كانت الحجة الإيطالية تؤيد كل إصلاح داخل الكنيسة. والحقيقة أن رجال الكنيسة المخلصين كانوا يعترفون منذ قرون - بل وجهاراً بالحاجة إلى إصلاح كنسي. وأعطى اندلاع حركة الإصلاح وتقدمها أهمية جديدة ملحة للحاجة والمطلب، حتى «إن طوفاناً هائلاً من الإساءة في مئات بل آلاف الكتيبات والرسوم الكاريكاتيرية قد انهمر على رجال الكنيسة». لقد مس نهب روما ضمير

ودخل الكرادلة والشعب الفزعين؛ وأعلن مئات القساوسة أن الكارثة إنذار من الرب. وفسر الأسقف ستافيلو ـ الذي كان يبشر في عام 1528 أمام الروتا (الفرع القضائي من البلاط البابوي) ـ بتعابير تكاد تكون بروتستانتية، لماذا ضرب الرب عاصمة العالم المسيحي: «لأن كل لحم أصبح فاسداً، نحن لسنا مواطني مدينة روما المقدسة، إنما بابل مدينة الفساد».. تماماً كما قال لوثر.

في وقت باكر من عهد بابوية بولس الثالث، رفع إليه القاضي الموهوب چيوڤاني باتيستا كاتشيا رسالة عن إصلاح الكنيسة، قال في ديباجتها: «إني أرى الكنيسة الأم المقدسة قد تغيرت إلى حد أنها تبدو لا تملك علامات شخصيتها التبشيرية، ولا يمكن العثور على أثر لتواضعها وضبطها نفسها وكبحها شهواتها، وقوتها الرسولية». ولقد أظهر بولس نفسه حالته المزاجية بقبوله التفرُّغ لهذا العمل. وفي 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1534، عيّن الكرادلة بيكولوميني وسانڤيرينو وسيزي لوضع برنامج للتجديد الأخلاقي للكنيسة؛ وفي 15 كانون الثاني/يناير 1535 أمر بفرض مراسيم ليو العاشر الإصلاحية التي صدرت في عام 1513 بكل صراحة. وجد بولس نفسه عالقاً في السياسات البابوية والامبراطورية، ومعرّضاً للخطر بفعل تقدم الأتراك، وغير راغب، وسط هذه الأزمات، في زعزعة بنية أو أداء البلاط البابوي بإجراء تغييرات راديكالية، لذلك أجَّل الإصلاح النشيط، ولكن الرجال الذين رفعهم إلى مرتبة الكردينالية كانوا جميعاً معروفين بالاستقامة والإخلاص.

انتصرت حركة الإصلاح الداخلي حينما أصبح زعيمها كارافا البابا بولس الرابع (1555). طولب الرهبان الغائبون عن أديرتهم من دون تصريح رسمي وضرورة واضحة بالعودة فوراً إليها. وفي ليلة 22 آب/ أغسطس 1558 أمر البابا بإغلاق كافة بوابات روما وإلقاء القبض على كل الرهبان الشاردين؛ واتبعت إجراءات مماثلة في جميع أرجاء الدويلات البابوية، وأرسل بعض الجناة إلى المجاديف(*). لم يعد يعهد إلى الأديرة بمهمة دعم المسؤولين الغائبين بإيراداتها. وطلب من الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين لا يخدمون البلاط البابوي حقاً في منصب محدد بأن يعودوا إلى مراكزهم أو يُلغى دخلهم. وحظر الاحتفاظ بالمزايا

(*) المقصود هنا أنه حُكم عليهم بالتجديف، كشكل من أشكال السخرة، في السفن الشراعية الضخمة. (المترجم).

الكثيرة. وأمرت كل دوائر البلاط البابوي بأن تزيل أي شك عن وجود شراء للتعيينات في المناصب الكنسية. لقد استأنفت روما جواً غير ملائم لطبيعتها من الورع والأخلاقية الظاهرية. وفي إيطاليا ـ وبصورة أقل حيوية خارج حدودها ـ كانت الكنيسة قد أصلحت رجالها وأخلاقها بينما تركت مذاهبها عن عمد دون مساس.

القديسة تيريزا

فريدة بين الإصلاحيين في الأديرة كانت تيريزا الآفيلية في إسبانيا. كان أبوها فارساً قشتاليًّا من آفيلا، مزهواً بصلابته الأخلاقية وبولائه للكنيسة. كان في كل ليلة يقرأ لأسرته نبذة من حياة القديسين، وأمها كانت امرأة معتلة، وكانت تخفف آلامها بقراءة غراميات فروسية.

تأرجح خيال تيريزا في طفولتها بين الحب الرومانسي وشهادة القديسين، وعندما ازدهر جمالها أتى المعجبون؛ وقعت في حب أحدهم فأرسلها أبوها إلى دير للراهبات. وهناك ظهرت عليها أعراض شكل من أشكال الصرع تركتها نوباته منهكة جسدياً. ونقلها أبوها من الدير وأرسلها للعيش مع أختها غير الشقيقة في الريف. وفي طريقها إلى هناك أعطاها عم لها كتاباً للقديس جيروم. وكانت رسائله الممتلئة حيوية تصف فظائع جهنم وتمثل العبث بين الجنسين بأنه من أعراض لعنة أبدية. قرأته تيريزا بشغف قلق. وفي عام 1534 عادت إلى آفيلا وهناك دخلت دير التجسيد لطائفة الكرمليين.

لبعض الوقت كانت تيريزا سعيدة بالروتين المهدىء من القداديس المتكررة والصلوات الجماعية والاعترافات المطهرة. تحوّلت خيالاتها الرومانسية إلى وجدٍ ديني، وحينما كانت تتناول القربان كانت تشعر بالرقاقة المقدسة كأنها المسيح حقاً على لسانها ثم في دمها.

ومع نمو حدة مشاعرها الدينية أصبحت تيريزا أكثر فأكثر اضطراباً إزاء الانضباط المتراخي للدير. لم تكن الراهبات يعشن في صوامع إنما في غرف مريحة؛ كن يأكلن وجبات دسمة على الرغم من الصوم الأسبوعي؛ وكن يتزين بالعقود والأساور والخواتم؛ ويستقبلن زواراً في الصالون ويستمتعن بإجازات ممتدة خارج أسوار الدير.

استمرت نوبات تيريزا وازدادت سوءاً لتصبح نوبات شلل قصيرة لكنها مؤلمة، وفي النهاية أرقدتها في فراشها. وقد صممت على رفض كل علاج طبي واعتمدت كلية على الصلاة. ظلت تعاني وتصلي ثلاث سنوات وفي صبيحة أحد الأيام في سنة 1540، استيقظت لتجد أنها لم تعد مشلولة. فنهضت ومشت، وشاركت يوميًّا بنشاط أكبر في الطوابير التقليدية. وقد اعتبر شفاؤها معجزة، وهي اعتقدت أنه كذلك. استمرت رؤاها، لكنها آنذاك كانت تتخذ شكل وجد ديني. وفي إحداها بدا لها أن ملاكاً مفرط الجمال أغمد سهماً طويلاً من الذهب، ملتهباً رأسه بالنار، «في قلبي عدة مرات، حتى أنه وصل إلى أحشائي. كان الألم حقيقياً إلى حد أنني اضطررت لأن أصدر أنيناً بصوت مرتفع، مع ذلك فقد كان لذيذاً إلى أبعد حد حتى أنني لم أشأ أن يخلصني أحد منه. لا يمكن لأي متعة في الحياة أن تعطي شعوراً بالرضا أعمق من ذلك. وعندما سحب الملاك سهمه تركني احترق كلي بحب عظيم لله». هذه الفقرة وغيرها من كتابات تيريزا أغرت بتفسيرات من التحليل النفسي، لكن لا أحد يمكن أن يشك بإخلاص القديسة السامي. لقد اقتنعت بأنها رأت الرب وأن أشد المشكلات استعصاء بدت لها واضحة في هذه الرؤى.

قوَّتها هذه الرؤى وقررت تيريزا ـ التي كانت في الثامنة والخمسين من عمرها ـ أن تصلح نظام الراهبات الكرمليات. نظمت ديراً نقلت إليه راهبات ومبتدئات ممن يقبلن نظام فقر مطلق. كانت الكرمليات الأصليات يرتدين لباساً فضفاضاً خشناً، ويسرن دائماً حافيات. ويأكلن بزهد ويصمن أوقاتاً عديدة، وقد تطلبت تيريزا من الكرمليات الحافيات القاعدة ذاتها تقريباً لا كغاية في ذاتها، إنما كرمز للتواضع ورفض عالم الغواية هذا. وقد وُضعت ألف عقبة أمامها، إذ استنكر رجال مدينة آڤيلا الخطة باعتبارها تهدد بنهاية كل اتصال بين الراهبات وذويهن.

ورفض رئيس الرهبنة الكرملية في المقاطعة التصريح بهذه التجربة. وناشدت تيريزا البابا بيوس الخامس وفازت بموافقته. وجدت أربع راهبات مستعدات للانضمام إليها، وجرى طقس القربان المقدس لدير القديس يوسف الجديد في عام 1562 في أحد شوارع آڤيلا الضيقة. ارتدت الأخوات الراهبات صنادل من الحبال، وكن ينمن على القش ولا يأكلن لحماً وبقين داخل مسكنهن لا يغادرنه على أي نحو.

كان حكم تيريزا ودوداً مبتهجاً وحازماً في آن، وكان الدير مغلقاً بوجه العالم الدنيوي، النوافذ مغطاة بالستائر، الأرض المبلطة قامت بدور الأسرّة والموائد والمقاعد. وبُني قرص دوار في الجدار، وكان الطعام الذي يضعه فيه أناس غير مرئيين يُقبل بالعرفان، لكنه لم يكن مسموحاً للراهبات بأن يتوسلن. كن يحتلن على معيشتهن بالغزل وشُغل الإبرة؛ توضع المنتجات خارج بوابة الدير وأي مشتر يرغب يأخذ ما يريد ويترك ما يود أن يترك كمقابل. وعلى الرغم من هذا التقشف كانت تأتي عضوات جديدات؛ وكانت واحدة منهن هي المرأة الأجمل والمرغوبة أكثر من غيرها في آڤيلا.

تأثر رئيس طائفة الكرمليين إلى حد أنه طلب من تيريزا أن تقيم بيوتاً مماثلة في أماكن أخرى من إسبانيا. وفي عام 1567 سافرت - وقد اصطحبت معها عدداً قليلاً من الراهبات - في عربة سيئة الحال لمسافة سبعين ميلاً على طرق غير ممهدة لإقامة «دير للراهبات الكرمليات الحافيات» في «مدينا ديل كامبو». وكان البيت الوحيد المتاح لها مبنى مهجوراً مهدماً متصدع الجدران تتسرب المياه من سطوحه؛ ولكن عندما رأى سكان المدينة أن الراهبات يحاولن العيش فيه، جاء النجارون وبناة الأسطح، ومن دون أن يطلب منهم أحدٌ ذلك، وبلا مقابل أجروا إصلاحات وصنعوا أثاثاً بسيطاً.

وسط أسفارها ومحنها كتبت تيريزا كتيباتها الشهيرة عن انغماسها الصوفي. وفي إحداهما تكشف عن عودة اعتلالاتها البدنية: «يبدو كأن أنهاراً كثيرة فائضة تندفع داخل مخي، فوق جرف هار؛ ثم مرة أخرى، وبعد أن يكاد يغرقني صخب المياه، تأتي أصوات الطيور تغني وتصفر. فيتعب مخي ويسوء صداع رأسي». لقد عادت إليها النوبات وأصبحت معدتها تجد صعوبة في الاحتفاظ بالطعام. وعلى الرغم من هذا كانت تنتقل بين بيوت الراهبات التي أسستها من واحد إلى آخر: تفحص، تحسّن، وتلهم. وفي قلعة ملقة أصابتها نوبة شلل؛ شفيت منها وذهبت إلى توليدو (طليطلة)، وهناك أصابتها نوبة أخرى. وشفيت منها أيضاً؛ وذهبت إلى سيغوفيا وڤالادوليد (بلد الوليد) وبورخوس وإلى آلبا دي تورميس. وهناك أجبرها نزيف في الرئتين على التوقف. قبلت الموت بابتهاج، واثقة من أنها تترك عالم ألم وشر إلى عالم الصداقة الدائمة مع المسيح.

في الوقت نفسه كان قد ظهر في إسبانيا قديس أكثر شهرة ليصلح الكنيسة ويحرك العالم.

إغناطيوس لويولا

ولد في قلعة لويولا في غيبوسكوا بإقليم الباسك في عام 1491. وقد نشّىء ليكون جندياً ولم يُظهر اهتماماً بالدين. كانت قراءاته مقتصرة تقريباً على الروايات الرومانسية الفروسية. وقع في حب ملكة إسبانيا الجديدة جيرمين دو فوا؛ اختارها «ملكة القلوب» بالنسبة إليه. وكان يحلم بأن يفوز بمنديل تقدمه له بيدها كمكافأة في مباراة.

اعترف في سيرته الذاتية بأنه انخرط في علاقات غرامية أقل سمواً كنوع من العزاء في حياة جندي. وحينما هاجم الفرنسيون باملبونا حارب بحماس دفاعاً عنها؛ وقد أصيب بجرح في ساقه اليمنى عانى منه آلاماً قاسية، وأدت جراحة غير ماهرة إلى ترك ساقه المصابة أقصر من الأخرى. وأثناء فترة نقاهة طويلة في قلعة الأسرة طلب كتباً. وكان الكتابان الوحيدان المتاحان هما «حياة المسيح» و«حياة القديسيين» (Flos Sancforium)، الذي يستذكر عذابات القديسيين ويشيد بها. وقد صمم على أن يتساوى معهم في الشجاعة بمجرد أن يلتئم جرح ساقه، وأن يقود جيشاً مسيحياً ضد الإسلام. فيه ـ كما في القديس دومينيك ـ كانت جذوة الإيمان الإسباني قد جعلت الدين لا مجرد تكريس هادىء إنما تفان كلي في حرب مقدسة.

كان قد قرأ أن «الكأس المقدسة»(*) خبئت في وقت من الأوقات في قلعة مونتيسيرات في إقليم برشلونه. وهناك ـ حسب ما قالته أشهر الروايات الرومانسية ـ قضى أماديس ليلة كاملة يقظاً أمام صورة للعذراء لإعداد نفسه للفروسية. وبمجرد أن تمكن إغناطيوس من السفر، امتطى جحشاً وشرع يقطع المسافة إلى ذلك المزار. وعندما وصل إلى مونتيسيرات طهّر روحه بثلاثة أيام من الاعتراف والتكفير عن الذنوب، ومنح ثياباً باهظة الثمن لمتسول، واستبدل بذلك رداء من قماش خشن.

(*) الكأس التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير مع الحواريين، والتي تتعدد الروايات حول الجهود الرامية إلى العثور عليها. (المترجم).

أمضى ليلة 24-25 آذار/مارس 1522 وحيداً، كما قيل لنا، في كنيسة صغيرة ملحقة بأحد الأديرة البندكتية، راكعاً أو واقفاً أمام مذبح أم الرب. نذر نفسه لعفة وفقر دائمين. وفي صباح اليوم التالي تلقى القربان المقدس، أعطى جحشه للرهبان، وبدأ رحلته ـ على قدم عرجاء ـ إلى القدس.

أبحر من برشلونة في شباط/فبراير 1523. بقي أسبوعين في روما، وفر قبل أن تتمكن روحها الوثنية من أن تثنيه عن ورعه. وفي يوم 14 تموز/يوليو استقل سفينة من البندقية إلى يافا. وقد ألمّ به عدد من المصائب قبل أن يصل إلى فلسطين، ولكن رؤاه دعمته. القدس نفسها كانت محنة: الأتراك الذين كانوا يسيطرون عليها يسمحون للمسيحيين بزيارتها، لكنهم كانوا لا يسمحون بتبشير ديني، وحينما اقترح التبشير في أوساط المسلمين فإن الأساقفة الفرانسيسكان، الذين كان البابا قد عهد إليهم بمهمة حفظ السلام، أمروا القديس بالعودة إلى أوروبا. وفي آذار/مارس 1524 كان قد عاد إلى برشلونه.

ربما أحس عندئذ أنه عبد لتخيلاته، على الرغم من أنه كان سيداً على جسده. فصمم على أن يصون عقله بالتربية. وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ آنذاك الحادية والثلاثين انخرط في مدرسة للبنين لدراسة اللاتينية. ولكن الرغبة الملحة في التدريس كانت أقوى من إرادة التعلم لديه. وسرعان ما بدأ إغناطيوس ـ كما كان يطلق عليه السكولاتيون ـ التبشير في دائرة من النساء الورعات إنما الفاتنات. وقد أنكر عشاقهن عليه ذلك واعتبروه مفسداً لمسرّاتهم وضربوه بقسوة.

خاب أمله بإسبانيا فشد رحاله إلى باريس، على قدميه كما هو الحال دائماً وفي رداء حاج، ولكنه كان عندئذ يسوق أمامه حماراً محملاً بالكتب. وفي باريس عاش في ملجأ للفقراء وتسوَّل في الشوارع للحصول على طعامه ورسومه الدراسية. دخل كلية مونتاغو، حيث جعله وجهه الشاحب المنهك وجسمه الجائع، ولحيته المشعثة وثيابه البالية بؤرة أنظار عيون تفتقر إلى التعاطف؛ ولكنه تابع هدفه بجدة وانهماك حتى إن بعض الطلاب بدأ يبجِّله كقديس. وتحت قيادته انخرطوا في تدريبات روحية على الصلاة والندامة والتأمل. وفي عام 1529 انتقل إلى كلية سانت بارب، وهناك أيضاً جمع حوله تلاميذ. وكان زميلا غرفته قد أتيا من طريقين مختلفين إلى الإيمان بقداسته. بيير فافر ـ أو بيتر فابر ـ كان يعاني

بشدة من مخاوف خرافية أو حقيقية، وتحت تأثيرها أقسم على التزام العفة دوماً. أما زميل غرفته الآخر ـ فرانسيس إكزافييه ـ فكان آتيا من بامبلونا، حيث كان لويولا قد خدم في الجندية. وكان له خط طويل من أسلاف متميزين: كان وسيماً، غنياً، فخوراً، طائشاً، مرحاً، يعرف حانات باريس وفتياتها؛ مع ذلك كان ماهراً في دراساته؛ وكان قد حصل بالفعل على درجة الأستاذية (الماجستير) وكان يهدف إلى الحصول على درجة الدكتوراه. في أحد الأيام رأى رجلاً امتلأ وجهه ببثور مرض الزهري فدفعه ذلك إلى التأمّل. وفي إحدى المرات، حينما كان فرانسيس يشرح طموحه لأن يلمع في العالم، تلا عليه إغناطيوس من الإنجيل: «ماذا يربح الإنسان إذا كسب العالم كله وخسر نفسه؟» لم يستطع إكزافييه أن ينسى هذا السؤال. بدأ ينخرط مع لويولا وفابر في تمارينهما الروحية.

كانوا ينتقدون أنفسهم، يصومون، ينامون في قمصان خفيفة على أرض غرفة غير مدفأة، ويقفون حفاة وعراة تقريباً في الثلج لإكساب أجسامهم صلابة وإخضاعها رغم ذلك. وكان إغناطيوس هو الذي صمم هذه التمارين على غرار صورة بندكتانية قديمة، ولكنه صبّ في هذا القالب حماس الشعور والتخيل الذي جعل كتابه الصغير قوة محركة في التاريخ الحديث.

وجدت دعوتهم إلى حياة طويلة من التفاني تسعة طلاب في باريس مستعدين لقبولها. وهو اقترح أن يذهبوا معاً ـ في الوقت الملائم ـ إلى فلسطين ليعيشوا هناك أقرب ما يمكنهم إلى المسيح. وفي 15 آب/أغسطس 1534 قبل لويولا وفابر وإكزافييه وسبعة آخرون في كنيسة صغيرة في مونمارتر قسم العفة والفقر، وعاهدوا أنفسهم على أن يذهبوا ويعيشوا ـ بعد سنتين أخريين من الدراسة ـ في الأراضي المقدسة. وفي شتاء 1536-1537 ساروا عبر فرنسا ـ فوق جبال الألب ـ وعبر إيطاليا إلى البندقية، حيث كان أملهم أن يجدوا طريقاً إلى يافا. لكن البندقية كانت في حرب مع الأتراك، فكانت الرحلة مستحيلة. واتفق لويولا وتلاميذه على أنه إذا ظلت فلسطين ـ بعد عام من الانتظار ـ مغلقة بوجههم، أن يقدموا أنفسهم للبابا ليؤدوا أي خدمة يعهد بها إليهم. وتمكن فابر من الحصول على التصريح لهم جميعاً ليرسموا قساوسة. وفي خريف عام 1537 انطلق لويولا وفابر ولاينيه من البندقية إلى روما ليسألوا البابا الموافقة على خططهم. ساروا الطريق كله وتسوّلوا خبزهم وعاشوا معظم وقتهم على الخبز والماء. ولكنهم

كانوا يغنون بسعادة وهم يمضون في طريقهم، كما لو كانوا يعرفون أنهم من عددهم القليل ستنمو منظمة قوية ورائعة.

استقبلهم البابا بولس الثالث استقبالاً حسناً، وأثناهم عن الذهاب إلى فلسطين. وأعادوا تنظيم أنفسهم في «رابطة المسيح» Campania de Jesus كجنود مجندين مدى الحياة للحرب ضد الكفر وكل القوى الأخرى التي تعمل من أجل حل الكنيسة. ومع استقبال مرشحين جدد في الرابطة أصبح من المرغوب فيه أن يحددوا مبادئها وأحكامها. وقد أضيف دور الطاعة إلى أدوار العفة والفقر، وكان من المتعين عليهم أن يطيعوا «القائد» الذي يختارونه بعد طاعتهم للبابا وحده.

أدوا قسماً رابعاً بأن «يخدموا قداسة البابا الروماني بوصفه وكيل الرب على الأرض»، وأن «ينفذوا فوراً ودون تردد أو اعتذار كل ما يمكن للبابا القائم أو خلفاؤه أن يكلفهم به لما فيه خير النفوس أو من أجل نشر العقيدة» في أي مكان من العالم. وفي عام 1539 سأل لويولا الكاردينال كونتاريني بأن يعرض هذه المواد التنظيمية على البابا بولس الثالث. وقد تغلب البابا على كل معارضة، وبمرسوم أصدره في 27 أيلول/سبتمبر 1540 أنشأ رسمياً ما أسماه المرسوم جمعية المسيح Societas Jesu.

في 17 نيسان/أبريل 1541 انتخب إغناطيوس قائداً للجماعة الكهنوتية الجديدة. ولعدة أيام بعدها ظل ينظف الصحون ويقوم بأحط الواجبات. وبين عام 1547 وعام 1552 وضع «الدساتير» التي - مع تغييرات طفيفة، تحكم اليسوعيين اليوم. من غرفته الخالية وجّه بسلطة حادة ومهارة كبيرة تحركات جيشه الصغير في كل دوائر أوروبا وفي دوائر أخرى في العالم. وقد برهنت مهمة حكم «الجمعية» الآخذة بالاتساع وإقامة وإدارة كليتين وعدة مؤسسات خيرية، أنها مهمة تفوق كثيراً قدرته وهو يكبر سناً، وعلى الرغم من أنه كان عطوفاً على الضعفاء فإنه كان فظاً قاسياً على مرؤوسيه المقربين. وكان أقسى على نفسه. كان يصنع لنفسه عدة وجبات من حفنة من الجوز وكسرة خبز وكوب ماء. وحينما مات (1556) شعر كثير من الرومانيين أن ريحاً قوية قد خمدت، وأخذ بعض أتباعه يمزجون إحساسهم بالارتياح بحزنهم. لم يستطع الرجال أن يدركوا

سريعاً أن هذا الإسباني الذي لا يُغلب كان واحداً من أكثر الرجال نفوذاً في التاريخ الحديث.

وفي وقت وفاته كانت قد أصبحت هناك مائة كلية لليسوعيين. ومن خلال التعليم والدبلوماسية والتفاني، عن طريق الحماس الذي وجهه الانضباط، وتنسيق الغايات والوسائل، عن طريق التنويع البارع للوسائل قلب اليسوعيون في عام 1536 اتجاه التيار البروتستانتي وأعادوا السيطرة على معظم ألمانيا ومعظم هنغاريا وبوهيميا وكل بولندا المسيحية للكنيسة. نادراً ما أنجزت مجموعة صغيرة إلى هذا الحد بهذه الكثرة بهذه السرعة. عاماً بعد عام نمت مكانتها ونفوذها، حتى أصبح معترفاً بها ـ بعد عشرين سنة من تأسيسها رسمياً ـ كأروع نتاج لحركة الإصلاح الكاثوليكية.

وعندما جرؤت الكنيسة في النهاية على الدعوة لمجلس عام لتهدئة صراعها اللاهوتي ولأم جراحها، كانت حفنة من اليسوعيين ـ بفضل علمهم وولائهم وتعقلهم وثراء معارفهم وبلاغتهم ـ عهد إليهم البابوات بمهمة الدفاع عن سلطتهم التي تواجه التحديات ومهمة الحفاظ على العقيدة القديمة التي لا تتلاشى.

مجلس ترانت (1545-1563)

ألف صوت دعا ـ قبل لوثر ـ إلى مجلس لإصلاح الكنيسة. وناشد لوثر البابا أن يأمر بمجلس حر وعام؛ وطالب شارل الخامس بمثل هذا المجلس على أمل تخليص نفسه من المشكلة البروتستانتية، وربما تأديب كليمنت السابع. وقد وجد هذا البابا المتسرع مائة سبب لتأجيل عقد مثل هذا المجلس حتى يكون بعيداً عن متناوله. ولقد كانت لدى بولس الثالث كل مخاوف كليمنت، غير أنه كان أشجع.

في عام 1536 أعلن أن مجلساً عاماً سيجتمع في مانتوا يوم 23 أيار/مايو 1537، ودعا البروتستانت لحضوره. وقد افترض أن كل المشاركين سيقبلون النتائج التي يتوصل إليها المؤتمر، ولكن البروتستانت ـ الذين كانوا سيشكلون أقلية فيه ـ لم يستطيعوا قبول مثل هذا الإلزام. ونصح لوثر بعدم الحضور، وأعاد كونغرس البروتستانت في شمالكالدن دعوة البابا دون فتحها. وبعد مفاوضات كثيرة وتأخيرات وافق بولس على أن يجتمع المجلس في ترانت، عند سفح الألب،

في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر 1542. وطالب شارل الخامس ـ آملاً في إقناع البروتستانت بالحضور ـ بتأجيل، ولم يستطع «المجلس المسكوني التاسع عشر للكنيسة المسيحية» أن يبدأ جلساته الفعلية حتى 13 كانون الأول/ ديسمبر 1545.

تشكل الاجتماع من أربعة كرادلة وأربعة مطارنة وعشرين أسقفاً وخمسة رؤساء للرهبانيات، وبعض رؤساء الأديرة، وعدد قليل من اللاهوتيين. وعلى حين أنه في مجلس كونستانس وبال استطاع القساوسة والأمراء ومدنيون معينون، وكذلك المطارنة، أن يصوتوا، لم يستطع هنا أن يصوت إلا الكرادلة والمطارنة ورؤساء الرهبانيات ورؤساء الأديرة، وكان التصويت فردياً. من هنا فإن الأساقفة الإيطاليين ـ الذين يدين معظمهم للبابوية ـ سيطروا على الاجتماع بأغلبيتهم العددية. وجلس «الرعايا» في روما تحت إشراف البابا يعدون القضايا التي يمكن أن تطرح للمناظرة دون غيرها. وحيث أن المجلس قد زعم أنه يتلقى توجيهه من الروح القدس فإن مندوباً فرنسياً أبدى ملاحظة بأن الشخص الثالث في الثالوث المقدس(*) إنما يأتي إلى ترانت بانتظام في كيس حامل الحقيبة من روما.

في أيار/مايو 1546 أرسل بولس اثنين من اليسوعيين ـ لاينيه وسالميرون ـ لمساعدة قاصديه الرسوليين في أمور اللاهوت والدفاع عن البابوية؛ وفي وقت لاحق انضم إليهما بيتر كانيسيوس وكلود لو جاي. وقد كان لسعة اطلاع اليسوعيين تأثير عظيم في المناظرات، ووجهت أصوليتهم التي لا تلين هذا المجلس إلى إعلان الحرب على أفكار حركة الإصلاح بدلاً من السعي إلى المصالحة والوحدة. وقد بدا أن حكم الأغلبية بعدم تقديم تنازلات للبروتستانت سيؤدي إلى رأب صدع الانشقاق؛ وأن البروتستانت كانوا بالفعل متعددين ومتباينين حتى أنه لم يكن لأي حل وسط أن يُرضي بعضهم دون أن يغضب غيرهم؛ وأن أي تغيير جوهري للعقائد التقليدية من شأنه أن يضعف البنية المذهبية واستقرار الكاثوليكية؛ وأن ضم قوى القساوسة إلى القوى المدنية من شأنه أن يقوض السلطة الأخلاقية للكهنوت والكنيسة؛ وأن السلطة أمر لا غنى

(*) أي الروح القدس، بعد الأب والابن في العقيدة المسيحية. (المترجم).

عنه للنظام الاجتماعي، وأن لاهوتاً مؤسساً صراحة على الإيمان من شأنه أن يُسخِّف نفسه بالرضوخ لتفاهات الاستدلال العقلي الفردي.

نتيجة لذلك فإن الجلسة الرابعة للمجلس (نيسان/أبريل 1546) أعادت تأكيد كل بند في العقيدة النيقينية Nicene Creed، وزعمت سلطة لتقاليد الكنيسة مكافئه لسلطة الكتاب المقدس، وأعطت الكنيسة الحق الأوحد في تفسير الإنجيل وشرحه، وأعلنت الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس على يد جيروم الترجمة والنص النهائيين. وأطلق على توما الأكويني لقب الشارح الأوثق للاهوت الأصولي، ووضع كتابه «موجز لكل اللاهوت» Suma Theologica في مكانة لا يعلوه فيها إلا الإنجيل والمراسيم البابوية. وترجع الكاثوليكية كدين ذي سلطة معصومة من الخطأ مجلس ترانت، واتخذت شكلها كاستجابة لا تلين لتحدي البروتستانتية والعقلانية والحكم الخاص. وهكذا وصلت إلى نهايتها «اتفاقية الأفاضل» (Gentlemen's Agreement) التي توصلت إليها كنيسة النهضة مع الطبقات المثقفة.

وأعادت الجلسة الثالثة عشرة للمجلس (تشرين الأول/أكتوبر 1551) تأكيد المذهب الكاثوليكي عن التحول: إن القسيس، حين يكرس الخبز والنبيذ في طقس القربان المقدس إنما يحوّل كلاً منهما في الحقيقة إلى جسد المسيح ودمه. ومن ثم بدا عديم الجدوى الاستماع إلى البروتستانت، مع ذلك فإن شارل الخامس أصر عليه. واختار دوق ورتنبرغ، والناخب الامبراطوري الساكسوني موريس وبعض مدن الجنوب الألماني أعضاء وفد بروتستانتي، ووضع ميلانكتون بياناً للعقيدة اللوثرية ليُعرض على المجلس. وفي يوم 24 كانون الثاني/يناير 1552 خاطب النواب البروتستانت الاجتماع. اقترحوا تأكيد مراسيم مجلسي كونستانس وبال بشأن السلطة العليا للمجالس على البابوات، وأن يُعفى أعضاء المجلس الراهن من قسمهم الولاء للبابا (الذي كان آنذاك يوليوس الثالث). وأن تلغى كل القرارات التي سبق أن اتخذها المجلس، وأن تجري مناقشة جديدة للأمر بواسطة مجمع موسع يمثل فيه البروتستانت تمثيلاً كافياً. ومنع يوليوس الثالث النظر في هذه المقترحات.

كانت للتطورات العسكرية الغلبة على اللاهوت. ففي كانون الثاني/يناير

1552 وقع ملك فرنسا حلفاً مع البروتستانت الألمان، وفي آذار/مارس قاد موريس الساكسوني جيشاً بروتستانتياً ضد إنسبروك؛ وفر شارل الخامس، ولم تعد هناك قوة تستطيع أن تمنع موريس من الاستيلاء على ترانت وابتلاع المجلس لو أراد ذلك. اختفى الأساقفة واحداً بعد الآخر، وفي يوم 28 نيسان/أبريل أوقف مجلس ترانت رسمياً. وبإبرام معاهدة باسو (2 آب/أغسطس) سلم الملك فرديناند ملك ألمانيا بالحرية الدينية للبروتستانت الذين كان لهم الانتصار العسكري. فلم يعد لديهم اهتمام بأمر المجلس.

بعد تأخيرات متنوعة انعقدت الجلسة السابعة عشر للمجلس يوم 18 كانون الثاني/يناير 1562. وبناء على طلب فرديناند، منح عبور آمن لأي مندوب بروتستانتي قد يعنيه الحضور، لكن أحداً لم يأت. وفي النهاية لم تخفض السلطة البابوية إنما وسّعت وأصبح مطلوباً من كل أسقف أن يقسم يمين طاعة تامة للبابا. أما وقد سويت هذه المسألة الأساسية فإن المجلس سارع إلى إتمام أعماله المتبقية. حُرِّم زواج رجال الكنيسة، وقضت مراسيم بتوقيع عقوبة قاسية على اقتناء المحظيات من جانب رجال الكهنوت. وقد أدخلت إصلاحات ضئيلة لتحسين أخلاقيات رجال الكنيسة وانضباطهم. وتم الحد من سلطات البلاط البابوي. ووضعت قواعد لإصلاح الموسيقى والفن الكنسيين؛ وقضي بأن تغطى بدرجة كافية الصور العارية للأشخاص تجنباً لإثارة الخيال الحسي. وجرى الدفاع عن المطهر وعن صكوك الغفران وعن التضرع إلى القديسين وأعيد تعريف هذه جميعاً.

واعترف المجلس صراحة بالإساءات التي أطلقت شرارة تمرد لوثر. ونص مرسوم على أنه «عند منح صكوك الغفران... يقضي المجلس بأن كل ما يجنيه المجرمون نتيجة لها سيلغى كمصدر إساءة خطيرة بين الشعب المسيحي». وبعد أن وافق البابا والامبراطور على أن المجلس، وقد وصل عندئذ إلى نهاية واجباته والفائدة المرجوّة منه، حُل نهائياً يوم 4 كانون الأول/ديسمبر 1563، وسط صيحات سرور من المندوبين المجهدين. لقد تحدد مسار الكنيسة لعدة قرون.

لقد نجح الإصلاح الكاثوليكي أو الإصلاح «المضاد» في تحقيق أغراضه الرئيسية. ظل الناس ـ في البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية ـ يكذبون ويسرقون ويغوون الفتيات ويبيعون المناصب، يقتلون ويشنون الحرب. ولكن أخلاق رجال

الدين تحسَّنت، والحرية الوحشية للنهضة في إيطاليا رُوضت لتلتزم التزاماً مهذباً بمزاعم الإنسانية.

أخفت الدعارة وجهها الآن بعد أن كانت صناعة رئيسية في روما والبندقية في عصر النهضة وأصبحت العفة الزيّ المقبول. أما الطابع المرح لإيطاليا النهضة فقد خبا؛ وفقدت النساء الإيطاليات بعض إغرائهن وابتهاجهن الذي كان قد أتى مع حرية فترة ما قبل حركة الإصلاح؛ لقد أدت أخلاق مبنية على الضمير إلى ظهور عصر شبه تطهري في إيطاليا. وعادت حياة الأديرة إلى الحياة.

كانت الإصلاحات الكنسية جوهرية وباقية. وعلى الرغم من أن الملكية البابوية كانت تمجد باعتبارها تعارض الارستقراطية الأسقفية التي ميزت المجالس، فإن هذا كان جزءاً من روح تلك الأزمنة، حينما كانت الارستقراطيات في كل مكان ـ عدا ألمانيا ـ تفقد سلطتها للملوك. والبابوات أصبحوا الآن متفوقين أخلاقياً على الأساقفة، والانضباط الذي يتطلبه الإصلاح الكنسي يمكن أن يفرض بواسطة سلطة مركزية على نحو أفضل مما تفرضه سلطة مقسمة. لقد أنهى البابوات طغيانهم وعالجوا البلاط البابوي من مماطلاته الباهظة وفساده السافر.

كذلك فقد أصبحت إدارة الكنيسة، طبقاً لما يقوله الدارسون غير الكاثوليك، نموذجاً للكفاية والاستقامة. لقد أدخل صندوق الاعتراف المظلم (1547) ثم أصبح إلزامياً (1614)، ولم يعد القسيس يتعرض لغواية جمال التائبات العابر. واختفى بائعو صكوك الغفران المتجولين. وبدلاً من التراجع أمام تقدم البروتستانتية والفكر الحر انطلقت الكنيسة الكاثوليكية لتستعيد عقول الشباب وولاء السلطة.

لقد أصبحت روح اليسوعيين ـ الواثقة، والإيجابية، والنشيطة، والمنضبطة ـ روح الكنيسة المناضلة.

الفصل الحادي والعشرون

شيكسبير وبيكون

منظور

كان عصر إليزابيت الأولى في انكلترا هو النهضة (شيكسبير)، والإصلاح (إليزابيت)، والأنوار (بيكون)، مجتمعة في تركيز متفجر للعبقرية والتاريخ.

أسهمت مائة من العوامل في النتيجة المركبة: تحرير انكلترا من السيطرة الخارجية على حياتها الدينية والفكرية؛ أربع وخمسون سنة من الاستقرار والتطور السياسي تحت حكم ملكة حكيمة ومستشاريها الذين لا يهتمّون بأنفسهم؛ تخصيص ثروة الكنيسة للحياة التعليمية والسياسية والاقتصادية الانكليزية؛ نمو الزراعة والصناعة والملاحة البحرية والتجارة والتمويل لدى أمة تتفجر طاقةً وأبتكاراً بلا قيد؛ إلحاق الهزيمة بالأرمادا الإسبانية في عام 1588، والسيطرة التي نجمت عن ذلك على شمال المحيط الأطلسي؛ الوصول اليسير إلى أميركا الشمالية المجتذب للاستثمارات والمشروعات؛ وانتشار التعليم وتكاثر أعداد المدارس والكليات، واتساع تعرف الإنكليز رجالاً ونساء على الحضارة والأدب والفن الإيطالي والفرنسي...

هذه وتطورات أخرى رفعت عقل وروح شعب صلب وصبور ونشيط إلى قمم لم يبلغها أحد من قبل أو منذ ذلك الوقت على

هذه القلعة التي شيّدتها الطبيعة لنفسها
ضد العدوى ويد الحرب،
هذه الفصيلة السعيدة من الناس، هذا العالم الصغير،
هذا الحجر الثمين المستقر في بحر فضة...
هذه البقعة المباركة، هذه الأرض، هذه المملكة، هذه إنكلترا.

هكذا غنى أشهر أبنائها (في مسرحية «ريتشارد الثاني»، 3-2).

مشكلة واحدة لم تتمكن انكلترا من حلها: كيف تستعيد سلام الذهن والعبادة بعد ثورة دينية تركت انكلترا منقسمة إلى دزينة من العقائد أو بلا عقيدة دينية على الإطلاق، وتستدعي الفوضى الأخلاقية التي تأتي مع إزاحة الآلهة التي كانت يوماً مهابة ومبجلة والتي قامت بدورها كحراس للنظام والسلام؟ لقد تنافس الكاثوليك والبروتستانت، الطهرانيون والأبيقوريون، اللاأدريون والملحدون، الواحد مع الآخر، فوق حلبة أوسع من أي وقت مضى منذ مجيء المسيحية إلى الجزيرة.

بذل رالي ومارلو جهداً ضئيلاً لإخفاء إلحادهما. وقد قطع رأس رالي بعد العفو عنه مرات متعددة وانتهاكات متعددة من جانبه؛ ومات مارلو في شجار في إحدى الحانات. وكان كثيرون من أهل لندن لاأدريين، ولكنهم احتفظوا بهذا سراً ولم يجهروا به إلاّ داخل دوائرهم الضيقة. ونعى شيكسبير فقدان إيمانه باعتباره حطّا من قيمة الحياة الإنسانية إلى تعاقبٍ غير محتمل من الآلام والأحزان يبلغ ذروته في تحول حتى أكثر النفوس فضيلة إلى حلم مهزوم. لقد أصاب ازدراؤه لهزيمة اللاهوت هذه على يد البيولوجيا بعضاً من أعظم مسرحياته بالقتامة لتتحول إلى أمرّ إدانة للحياة الإنسانية في الأدب الإنكليزي.

تشاؤم شيكسبير

في عام 1582 تقدم شيكسبير، وكان بعد في الثامنة عشرة، لزواج

«بالإكراه» من آن هاثاوي، وكانت في الخامسة والعشرين، وكان كلاهما من مدينة ستراتفورد على نهر آفون. بعد ستة أشهر ولدت له ابنة، سوزانا، وفي عام 1585 ولد له توأمان: هامنيت وجوديث. وربما قرب نهاية تلك السنة هجر زوجته وأطفاله؛ عندئذ نفقد أثره حتى نجده، وقد بلغ الثامنة والعشرين، في لندن وقد أصبح ميسور الحال كممثل ويكتب مسرحيات بالفعل. أدهشت مسرحيته «ريتشارد الثالث» (1593) مارلو وغيره ممن سبقوه بعمق تحليلها وحدّة مشاعرها، والومضات اللامعة في جُملها الباعثة على السعادة؛ كان شبان العاصمة المفعمين بالشهوة يصيحون «حصان! حصان! مملكتي مقابل حصان!». مع ذلك فإن شيكسبير ـ في تلك البيئة المضطربة التي تتساقط أوهامها ـ وربما لكي يفوز بهدية من أحد أصحاب الألقاب، كرَّس مسرحية له، وكتب قصائده الروائية: «ڤينوس وأدونيس»، و«اغتصاب لوكريس»، وبأسلوب بترارك كتب 154 سونيتة حامت بين الحب الجنسي المثلي والجنسي الغيري.

إن كل المستنيرين العارفين بالعالم الذي يتكلم الإنكليزية يألفون موضوعات ومباهج المسرحيات السبع والثلاثين التي كتبها شيكسبير، إنْ جزئياً أو كلياً، ولكنهم ربما لم يُبدوا عجباً كثيراً إزاء نزعة السخرية الضارية التي تصرخ أحياناً في واحدة بعد أخرى من مسرحياته. وسط العظمة السعيدة لأسلوبها، هناك صرخات تُسمع خارجة من ملحوظة ساخرة بالأسى، حتى في الكوميديات خلية البال؛ وهكذا، في مسرحيته «كما تهواها» (1600)، يذكرنا «مسيو ميلانخولي جاك» بأن اليقين الأوحد في الحياة هو الموت:

«وهكذا من ساعة إلى ساعة ننضج وننضج
ثم من ساعة إلى ساعة نهترىء ونهترىء
وهكذا تتدلى حكاية» (2-7)

وفي «هاملت» (1601)، تؤدي جريمة وحشية إلى تفجير المرارة داخل ابن الضحية المرهف الحسّ بدرجة عالية حتى ليجد قبراً نهايةً لكل عظمة: «ما أحط ما لا بد أن ننتهي إليه يا هوراشيو؛ ألا يمكن للخيال أن يقتفي تراب الإسكندر النبيل إلى أن يجده واقفاً يسد فتحة قبو؟» (5-1). إن العالم كما يراه هاملت «حديقة لم تنزع أعشابها الضارة، شاخت فلم تعد تعطي البذور ولا يعود فيها إلا كل شيء

خشن ومتعفن» (2-1). وفي «عطيل» (1604) يقف إياغو مدافعاً عن الشر والزيف والخداع ويبقى على قيد الحياة منتصراً؛ أما ديدمونة فهي خيِّرة وشريفة ومخلصة ولكن مآلها القتل.

والقاتل في «ماكبث» يحكم على الحياة بلا رحمة:

«*فلتنطفئي أيتها الشمعة القصيرة الأجل*
ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل رديء
يتمايل ويمضي ساعته على خشبة المسرح
ثم لا يعود يُسمع عنه شيء؛ إنها حكاية
يرويها أبله، مفعمة بالضجيج والعنف.
ولا معنى فيها» (5-5)

هل يمكن أن يكون هناك حكم أشد مرارة على الحياة من ذلك؟ نعم. فكّر في تيمون الأثيني الذي كان يوماً من أصحاب الملايين الأثينيين محاطاً بأصدقاء منافقين يأخذون ولا يعطون. حينما يخسر نقوده ويرى أصدقاءه يختفون بين يوم وليلة، فإنه يرفس تراب الحضارة من قدميه ويتقاعد في عزلة في إحدى الغابات، حيث ـ هكذا يأمل ـ «سأجد أشد الوحوش قسوة أكثر رحمة من البشر». إنه يتمنى لو كان ألكبيادس كلباً، «إذن لكُنت أحببتك بعض الشيء». يعيش على جذور النبات، يحفر ويجد ذهباً. يظهر الأصدقاء من جديد؛ يطردهم باحتقار لاذع، ولكن حينما تأتي إليه العاهرات فإنه يعطيهن ذهباً، شرط أن يصبن بعدوى المرض التناسلي أكبر عدد ممكن من الرجال:

«*الاستهلاك يبذر*
في عظام الإنسان الجوفاء؛ يضرب قصباتها الحادة،
ويشوه (زيجات) الإنسان المهمازة. يكسّر
صوت المحامي،
حتى لا يعود أبداً يلتمس لقباً زائفاً،
وصوت دورانه (مراوغاته) يصرخ بحدة؛ يشيب الكاهن (القس)

الذي يسخر من جودة اللحم
ولا يؤمن هو نفسه. فلتسقط الأنف،
فلتسقط منبطحة. خذوا الجسر بعيداً...
ودعوا المتبجحين الذين لم يمسّهم أذى في الحرب
يستمدون بعض الألم منكم. فليحل الطاعون
حتى ليهزم نشاطكم ويخضع
مصدر كل نهوض. هناك مزيد من الذهب؛
فلتلعنوا الآخرين، ودعوا هذا يلعنكم». («تيمون الاثيني» 4-3)

في حالة وجد من الكراهية يأمر الطبيعة أن تتوقف عن إنتاج البشر، ويأمل أن تتكاثر الوحوش لكي تبيد الجنس البشري. إن تجاوزات هذا البغض للبشر تجعله يبدو غير حقيقي؛ فنحن لا نستطيع أن نعتقد أن شيكسبير شعر بهذا التفوق المثير للسخرية على الرجال الخاطئين، بهذا العجز الجبان عن هضم الحياة. يوحي هذا «الدليل الباعث على الدوار» (reductio ad nausean). بأن المرض كان يطهِّر نفسه، وأن شيكسبير سريعاً ما سيبتسم من جديد.

في مسرحيات الذروة يوجد إدراك متردد بأن هناك، وسط شرور هذا العالم، بركات ومباهج، ووسط الأشرار أبطال كثيرون وبعض القديسين. فمقابل كل إياغو ديدمونة، ومقابل كل غونيريل كورديليا، ومقابل كل إدموند إدغار أو كِنت. حتى في «هاملت» تهب ريح منعشة من إخلاص هوراشيو ورقة أوفيليا الحزينة. وليس إلاّ بعد أن يغادر الممثل والكاتب المسرحي المتعب فوضى لندن المُجْهدة وشعور الوحدة المزدحمة فيها إلى الحقول الخضراء وحب الأسرة في موطنه ستراتفورد. سوف يستعيد حب الإنسان القوي للحياة.

المصالحة

قال جون أوبري (1626-1697) إن شيكسبير «كان ميّالاً إلى الذهاب إلى موطنه الريفي مرة في كل عام». في عام 1597 اشترى مقابل ستين جنيهاً «نيوبليس»، وهو ثاني أكبر بيت في ستراتفورد، ولكنه استمر في العيش في

لندن. مات أبوه في عام 1601، تاركاً له منزلين في ستراتفورد. وبعد عام اشترى الكاتب المسرحي المزدهر 127 أكراً من الأرض بالقرب من ستراتفورد. في عام 1605 اشترى مقابل 440 جنيهاً نصيباً في العُشريات الكنسية في ستراتفورد وثلاثة أقضية أخرى. وبينما كان يكتب أعظم مسرحياته، كان معروفاً في ستراتفورد كرجل أعمال ناجح دخل مرات عديدة في دعاوى قضائية بسبب استثماراته.

مات ابنه هامنيت في عام 1596. وفي عام 1607 تزوجت ابنته سوزانا طبيباً بارزاً في ستراتفورد، وبعد سنة جعلت من الشاعر جَدًّا. عندئذ كانت قد أصبحت له روابط جديدة تجذبه نحو موطنه. وفي حوالى عام 1610 غادر لندن وخشبة المسرح وانتقل إلى القصر الجديد. ويبدو أنه هناك ألّف «كيمبيلين» (1609)، و«حكاية الشتاء» (1610)، و«العاصفة» (1611). وتظهر الأخيرة أنه كان لا يزال سيد مهاراته الدرامية وتوجهه الشعري. فها هي ميراندا، التي تكشف في بداية المسرحية عن طبيعتها حين تصيح إذ ترى من الشاطىء حطام سفينة: «أوه، لقد عانيت مع أولئك الذين رأيتهم يعانون!». وها هو بروسبيرو، الساحر العجوز العطوف، يسلِّم عصا فنّه السحري، ويودّع عالمه الخيالي وداعاً جميلاً. ونسمع شيكسبير يقول في وداع بروسبيرو لفنّه:

الآن انتهت مباهجنا، تلك كانت أيها الممثلون،
كما سبق أن أبلغتكم، أشباحاً كلها،
وقد ذابت الآن في الهواء الواهن،
ومثل النسيج الذي لا أساس له لهذه الرؤيا،
الأبراج التي أطبقت عليها السحب، والقصور الفارهة،
والمعابد الرصينة، والعالم الكبير نفسه،
نعم، كل ما ورثه، سوف يتلاشى؛
ومثلما خفتت هذه الاحتفالات التافهة،
ولم تترك وراءها وجعاً، نحن مصنوعون
كما تُصنع الأحلام، وحياتنا الضئيلة
تنتهي بنوم.

لكن ليس هذا هو المزاج السائد الآن، على النقيض، فإن المسرحية هي

استرخاء شيكسبير، حديث عن الجداول والزهور، عن أغنيات تغنّى مثل «أطياف خمسة كاملة»، و «حيث تمتص النحلة أمتص أنا». وعلى الرغم من كل اعتراض الحذرين، فإن الشاعر الذي يتقدم به العمر يتكلم من خلال وداع بروسبيرو:

«...*القبور* تحت *إمرتي*
قد أيقظت *نائميها*. فُتحت، وتركتهم يمضون
بفعل فني *القادر*. لكن *هذا السحر الفظ*
يجبرني هنا على أن أُقسم بأنني... سوف أحل هيئة أركاني،
سأدفن أشباحاً معينة في *الأرض*،
وأعمق *مما* فعل أبداً من قبل *رصاص الميزان*
سوف أُغرق كتابي».

وربما هو شيكسبير مرة أخرى، وقد سرّته ابنته وحفيدته، الذي صاح من خلال ميراندا:

«*يا للعجب!*
ما أكثر الطبائع الخيّرة الموجودة هنا!
ما أجمل البشرية! يا للعالم الجديد الجسور
الذي فيه يستحم هؤلاء *الناس!*»

لكن الآن، وقد تعلم أن يحب الحياة، كان عليه أن يستعد للموت. لقد أبلغ إدغار غلوستر في «الملك لير»:

على *البشر أن* يتحملوا رحيلهم من هنا،
تماماً كما تحملوا *المجيء إلى* هنا؛
النضج هو كل شيء. (5-2)

النضج، وليس الأبدية، ينبغي أن يكون الهدف. في 25 آذار/مارس 1616، كتب شيكسبير وصيته. وفي نيسان/أبريل، حسب رواية جون وول، أسقف كنيسة ستراتفورد (1661-1681) ، «أقام شيكسبير ودرايتون وبن جونسون

حفلاً مرحاً فيما يبدو وشربوا كثيراً، لأن شيكسبير مات بحمى أصابته هناك». جاء الموت يوم 23 نيسان/أبريل 1616 ودفن جثمانه تحت هيكل كنيسة ستراتفورد. وقريباً منه على الأرض، نُقش على حجر لا يحمل اسماً تكريمٌ يعزوه المأثور المحلي إلى شيكسبير:

«أيها الأصدقاء الطيبون، لأجل خاطر المسيح امتنعوا
عن الحفر في التراب المكوَّم هنا.
رجاء أيها الإنسان أن تدع هذه الأحجار،
ولتنزل اللعنة بمن يحرك عظامي».

بيكون، وإسيكس، وإليزابيت

ما أشد ما اختلف فرانسيس بيكون عن شيكسبير: العاطفة أُخضعت للعقل؛ الهزيمة تغلَّب عليها الأمل؛ وتقلبات الحياة استوعبتها الرؤية الأوسع للنصر القادم للعقل البشري. فهل حدث في أي وقت أن عاش تفاؤل كهذا بعد هزيمة ساحقة إلى هذا الحد؟

كانت لديه كل ميزة، ومُني بما بدا أنه هزيمة قاتلة. ولد بيكون (1561) في الجو المميز للبلاط ذاته، في «يورك هاوس»، مقر الإقامة الرسمي للورد حامل أختام الملكة، والذي كان أباه السير نيكولاس بيكون: وكانت الملكة إليزابيت (الأولى) تنادي الصبي بلقب «اللورد الصغير حامل الأختام». أبعده بنيانه الضعيف عن الرياضة إلى الدراسة؛ واعتاد ذهنه الحاد الجوع إلى المعرفة؛ وسريعاً ما أصبحت معرفته الواسعة المستمدة من الكتب من بين عجائب تلك الأزمنة الفسيحة. بعد ثلاث سنوات في كيمبردج، أُرسل إلى فرنسا مع السفير الانكليزي ليجعله يتعلم شؤون الدولة. وبينما كان هناك مات أبوه قبل أن يشتري الأملاك المعيلة التي كان قد اعتزم شراءها من أجل فرانسيس، الذي كان ابنه الأصغر؛ وهكذا تحول الشاب فجأة إلى إنسان يعيش على مصادر شحيحة، فعاد إلى لندن لدراسة القانون في غراي إين.

ولما كان ابن أخت لوليام سيسيل، وزير خزانة المملكة، فإنه التمس منه أن يجد له منصباً سياسياً ما؛ وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه تذكيراً

غريب الصياغة يقول: إن «اعتراض سنواتي سيبلى مع طول دعواي». وكان يتعين عليه أن يعرف أن النباهة تعرقل التقدم في المضمار السياسي. مع ذلك فإنه في تلك السنة، 1584، وكان لا يزال في الثالثة والعشرين، انتخب عضواً في البرلمان.

أشاد إيرل إسيكس بحدة ذهن بيكون ودعاه. لأخذ مشورته؛ فأشار الحكيم الشاب على النبيل الشاب بأن يتظاهر بالتواضع، إن لم يكن يستطيع أن يكون بالفعل متواضعاً؛ أن يضفي تواضعاً على نفقاته، وأن ينظر إلى شعبيته لدى العامة كحاجز بينه وبين الملكة. وهو نفسه لم يكن بالكاد متواضعاً، وهو ما يشهد به التماسه التالي إلى سيسيل (1591):

«إنني أبدو خارجياً الآن قديماً بعض الشيء. إن سنواتي الإحدى والثلاثين هي قدر كبير من الرمل في الساعة الزجاجية... وضآلة ملكيتي تؤثر فيّ إلى حد ما... إنني أعترف بأن لدي غايات تأملية واسعة بقدر ما لدي غايات مدنية متواضعة؛ ذلك أنني اتخذت من المعرفة كلها ميداني... هذه، سواء أكانت فضولاً أم خيلاء، أم طبيعة... ثابتة في ذهني إلى حدٍ لا يمكن إزالتها».

وقد اختير إدوارد كوك، وهو أكثر كفاءة من الناحية التقنية للمنصب الذي كان في ذهنه، منصب المدعي العام، بدلاً منه.

على الرغم من نصيحة بيكون، انخرط إسيكس في حزب الحرب واعتزم أن يجعل من نفسه قائداً لجيش. لقد جعلته شجاعته المندفعة في قاديش ذا شعبية أكثر من احتمال مجلس شورى الملكة؛ وفشله في الآزور وزهوه الذي لا ينكسف وغلواؤه ولسانه اللاذع نفّرت البلاط وأزعجت الملكة. وحينما رفضت بصورة قاطعة توصية سير جورج كاريو بأن يعين في منصب في إيرلندا، أعطاها ظهره في لفتة ازدراء. صرخت في أذنيه بغضب «فلتذهب إلى الشيطان!». قبض على سيفه وصاح فيها: «هذا أمر مثير للغضب ولن أقبله. ولم أكن لأقبله من يدي أبيك». واندفع غاضباً إلى خارج القاعة. وتوقع البلاط كله أن ينفى إلى البرج(*) (1598). بدلاً من ذلك ـ وربما لتتخلص منه ـ عينته لورداً نائباً لحاكم ايرلندا.

كان بيكون قد حذره بأن يتفادى المهمة المذمومة التي تتمثل في مواجهة

(*) برج لندن، كان لعدة قرون سجنا للسجناء السياسيين الانكليز. بناه وليام الفاتح في القرن الحادي عشر. وكان بين سجنائه عدد من الملوك والملكات ونفذ في عدد منهم حكم الإعدام داخله. (المترجم).

عقيدة بواسطة جيش. لكن إسيكس كان يريد جيشاً. وفي يوم 27 آذار/مارس 1599 غادر إلى دبلن وسط تهليل العامة، واستياء أصدقائه، واغتباط أعدائه. وبعد ستة أشهر، عندما أخفق في مهمته، سارع عائداً إلى انكلترا بدون تصريح من الحكومة، واندفع من غير سابق إعلان إلى داخل غرفة ملابس الملكة وحاول أن يفسِّر لها أسباب فشله. أنصتت إليه غاضبة ثم أمرت بوضعه تحت إمرة اللورد حامل الأختام (والد بيكون) في «يورك هاوس» إلى أن يتم الاستماع إلى الاتهامات الموجهة إليه.

تهامس سكان لندن، لأنهم كانوا يجهلون أمر فشله ويتذكرون انتصاراته. وأمر مجلس شورى الملكة بمحاكمة شبه علنية له، وكُلِّف بيكون ـ بوصفه محامي الدفاع عن الملكة ـ بوضع عريضة الاتهامات ضد إسيكس. فطلب بيكون إعفاءه، لكن المجلس أصر. وقد وضع عريضة اتهام معتدلة قدر الإمكان.

اعترف إسيكس بحقيقته وعرض إذعاناً كاملاً. وقد أوقف عن كل مناصبه وأبلغ بالبقاء في مسكنه حتى ترضى الملكة عن الإفراج عنه (5 حزيران/يونيو 1600). استأنف بيكون الحكم لصالحه وفي 26 آب/أغسطس استعاد إسيكس حريته. وفي بيته «إسيكس هاوس» واصل سعيه للسلطة. وكان أحد أصدقائه المقرّبين راعي شيكسبير هنري ريوتيسلي، إيرل ساوثهامبتون. أرسله إسيكس إلى إيرلندا ليقترح على مونتجوا ـ الذي أصبح اللورد نائب الحاكم هناك ـ العودة إلى انكلترا ومعه الجيش الإنكليزي لمساعدة إسيكس في الاستيلاء على الحكومة. رفض مونتجوا. وفي أوائل عام 1601 كتب إسيكس إلى جيمس السادس، ملك اسكتلندا طالباً عونه وواعداً إياه بأن يدعمه كخليفة لإليزابيث. فأرسل إليه جيمس رسالة تشجيع معتدل. وانتشرت شائعات قوية في أنحاء العاصمة الهائجة مفادها أن روبرت سيسيل يُخطط لجعل الطفلة الإسبانية ملكة لانكلترا، وأن إسيكس سيحبس في سجن البرج، وأن رالي قد أقسم على قتله. وربما بهدف إجبار إسيكس على أن يكشف عمّا يضمره، حرض إسيكس الصغير الملكة على أن تأمر إسيكس بأن يأتي ويحضر مجلس شورى الملكة. فحذّرة أصدقاؤه من أن هذا فخ للإيقاع به. ودفع أحد هؤلاء الأصدقاء ـ سير جيللي ميريك ـ نقوداً إلى فرقة تشيمبرلين المسرحية لكي تؤدي في تلك الأمسية ذاتها في ساوثوارك

مسرحية شيكسبير «ريتشارد الثاني» التي تُظهر ملكاً يُعزل بطريقة عادلة.

في صباح اليوم التالي (7 شباط/فبراير 1601) تجمع نحو ثلاثمائة من مؤيدي إسيكس، متحمسين ومسلحين، في فناء مسكنه. وحينما جاء اللورد حامل الأختام وثلاثة آخرون من الأعيان ليسألوا عن سبب هذا التجمع غير المشروع، حبسهم الحشد وجرّوا «الإيرل»(*) المتردد معهم إلى لندن والثورة. كان يأمل أن ينهض الشعب للدفاع عن قضيته، ولكن المبشِّرين أمروهم بأن يبقوا داخل مساكنهم، فأطاعوهم. وأبادت قوات الحكومة المتمردين. ووقع إسيكس في الأسر وأُودع السجن في البرج.

بسرعة قُدِّم إسيكس للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. وأمر المجلس بيكون بأن يساعد كوك في إعداد وتقديم موقف الحكومة. وكان رفضه سيؤدي إلى تدمير مستقبله السياسي، لكن قبوله دمَّر سمعته بعد وفاته. وعندما تعثر كوك في تقديم عريضة الاتهام، نهض بيكون وشرح القضية بوضوح مقنع. واعترف إسيكس بذنبه وذكر أسماء المتواطئين معه. وقد أُلقي القبض على خمسة من هؤلاء وقُطعت رؤوسهم.

وتحكي الأسطورة كيف أرسل إسيكس إلى الملكة خاتماً كانت قد أعطته له يوماً مع وعد بأن تقف إلى جانبه إذا ما أعاده أبداً إليها وهو في ساعة احتياج. وإذا كان قد أرسله فعلاً، فإنه يبدو أنه لم يصل إليها أبداً. ففي يوم 25 شباط/ فبراير 1601، وكان في عمر الخامسة والثلاثين، توجه إسيكس بشجاعة إلى مصيره الذي كان خاتمة شخصيته. ولسنة كاملة، ظل البرج يعرض الرأس المقطوع والمتحلّل.

الذبول السحري

لا بد أن يكون مشهد ذلك الرأس، أو معرفة إليزابيث بأنه كان يحملق فيها ليلاً ونهاراً، قد أسهم في ذلك المزاج الحزين الذي حط على سنواتها الأخيرة. كانت تجلس وحدها لساعات كئيبة غارقة في التفكير. لقد حافظت على كل أوجه الابتهاج والتسلية في بلاطها وتظاهرت في بعض الأوقات بالمرح. أحسّت بأنها

(*) لقب نبالة أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت كان يحمله إسيكس (المترجم).

قد تجاوزت حياتها ويتعين عليها أن تفسح المجال لملكية شابة. تمرد آخر برلماناتها بقوة أكثر من أي برلمان سابق ضد تدخلها في الحرية البرلمانية، وضد اضطهادها للطهرانيين، وضد إهدائها الاحتكارات للمقربين إليها. وكان مفاجأة للجميع أن سلّمت الملكة بهذه النقطة الأخيرة ووعدت بإنهاء هذه الممارسة السيئة. وذهب كافة أعضاء مجلس العموم لشكرها. وجثوا على ركبهم وهي تُلقي ما تبين أنه آخر خطاب لها فيهم، «الخطبة الذهبية» الحزينة (30 تشرين الثاني/نوفمبر 1601):

«ليست هناك من جوهرة، ولو كانت أغلى الجواهر طرًّا، أفضّلها على حبكم. ذلك أنني أقدره أكثر من أي كنز... وعلى الرغم من أن الرب رفعنا عالياً، إلا أنني أعد مجد تاجي في أنني حكمت بحبكم لي».

وطلبت منهم أن ينهضوا، ثم واصلت:

«أن تكون ملكاً وتضع تاجاً لهو شيء مجيد لمن يراه، أكثر مما هو سارّ لمن يحمله... ومن جانبي، لو لم يكن لخاطر الضمير أن أتولى الواجب الذي كلفني الرب به، وأن أصون مجده، واحتفظ به سليماً في حوزتي، لتعين عليّ أن أكون مستعدة لأن أعتزل المكان الذي أشغله لأي شخص آخر، وأن أغتبط بالتحرر من المجد الذي تصاحبه المشاق. ذلك لأنها ليست رغبتي أن أعيش أو أن أحكم لفترة أطول مما يتوجب لحياتي وحكمي لما فيه خيركم. وعلى الرغم من أنه كان لكم أو سيكون لكم أمراء كثيرون أقوى وأكثر حكمة يجلسون على هذا الكرسي، فإنه لم يكن لكم قط، ولن يكون لكم أبداً، من يحبّكم أكثر مني».

عمَّت الشائعات عبر أوروبا بأن إليزابيث تحتضر بمرض السرطان. ولكنها كانت تحتضر من الإفراط في الحياة. لم يعد جسمها يحتمل المباهج والأحزان والصدمات وأعباء السنين التي لا تلين. في آذار/مارس 1603، وقد عرضت نفسها بجسارة مفرطة لبرد الشتاء أصابتها حمى، وأنهكتها طوال ثلاثة أسابيع، أمضتها في معظمها على مقعد، أو راقدة على وسائد. لم تشأ أن ترى أطباء، لكنها طلبت موسيقى. وفي النهاية أُقنعت بأن تُحمل إلى فراشها.

وتمنى لها كبير الأساقفة جون ويتغيفت أن تطول حياتها، فنهرته. جثا إلى جانب فراشها وصلّى. وعندما ظن أن في ذلك الكفاية وحاول أن ينهض، طلبت

منه أن يواصل. ومرة ثانية حينما «تعبت ركبتا الرجل العجوز»، أشارت إليه بأن يتلو مزيداً من الصلاة. ولم يفلت إلا في ساعة متأخرة من الليل، حينما غلبها النوم. ولم تستيقظ منه أبداً.

لم تكن قديسة ولا حكيمة، ولكنها كانت امرأة ذات شجاعة وعاطفة،تحب الحياة بشره. لم يكن كل رعاياها يستطيعون، كما ظن شيكسبير، «أن يأكلوا في أمان تحت كَرْماتهم ما كانوا قد زرعوه بأنفسهم، وأن يغنوا أغنيات السلام المرحة». فالطهرانيون، وبدرجة كبيرة الكاثوليك، تحملوا قدراً من الاضطهاد وفقدان الأهلية. كانت حكمة عهدها في جانب منها حكمة معاونيها. وقد اقترنت تقلباتها الذهنية في غالب الأمر بحسن الطالع، وربما كان ذلك لمجرد حدوث التغيير؛ وأحياناً ما جلبت ضعفاً للسياسة إلى حد أن الاضطرابات الداخلية عند أعدائها هي التي ساعدتها على البقاء. أما عن البقاء، فقد بقيت، وأصابت رخاءً سواء كان ذلك بوسائل عادلة أم ملتوية.

لقد تسلّمت انكلترا منهكة ومحتقرة، وتركتها غنية وقوية؛ ونمت فضائل التعليم والأدب بقوة بفضل سعة فهمها وثروة شعبها. ولقد واصلت طغيان أبيها، ولكنها لطّفت منه بإنسانية وسحر.

حُرمت من الزوج والولد، فأصبحت أماً لانكلترا، فأحبتها بكل تفان، وأفنت نفسها في خدمتها. كانت حكيمة في اختيار مستشاريها، وبمساعدة مشورتهم كانت أعظم حاكم عرفته انكلترا على الإطلاق.

صعود وسقوط فرانسيس بيكون (1603-1621)

في مناسبة الصعود السلمي لجيمس السادس ملك اسكتلندا ليصبح جيمس الأول ملك انكلترا، اقترح فرانسيس بيكون، في رسالة تزلف بأسلوب ذلك العصر، على الملك أن يعيِّنه في منصب حكومي يُناسبه وفي الوقت الذي يراه. وكان قد خدم بالفعل في البرلمان لتسعة عشر عاماً، واكتسب سمعة لثقافته الواسعة وفكره البنّاء وخطابه الواضح والمؤثر.

وقد دأب بيكون بصورة دورية على إرسال «مذكرات» إلى الملك فيها نصح يتسم بالبلاغة: كيفية تحسين التفاهم بين مجلسي العموم واللوردات،

توحيد برلمانيّ انكلترا واسكتلندا، وإنهاء اضطهاد التنوع الديني، وإعادة السلام إلى إيرلندا بالمصالحة مع كاثوليكييها، وإعطاء قدر أكبر من الحرية للكاثوليك في انكلترا دون فتح الباب أمام مزاعم بابوية، وإيجاد حل وسط بين التبشيريين والطهرانيين. وفي تقدير المؤرخ الذي درس سياسات تلك الفترة على النحو الأكثر شمولاً، فإن «تنفيذ هذا البرنامج كان من شأنه تفادي شرور نصف القرن التالي». وقد وضع جيمس هذه المقترحات جانباً باعتبارها متقدمة كثيراً على الرأي العام، واكتفى بضم بيكون إلى ثلاثمائة مرتبة فروسية وُزعت في عام 1603. فكان على سير فرانسيس أن يكبح جماح نفسه.

مع ذلك، فإن مهارته كمحام جلبت عليه الثروة. وبحلول عام 1607 كانت ثروته تُقدّر بـ 24,155 جنيهاً. وقد أمكنه أن يستمتع بالجمال والراحة اللتين أحبهما كثيراً، في عزبته الفاخرة في غورهامبوري، التي كانت تديرها مجموعة مختارة ومكلفة من الخدم والأمناء اليقظين مثل توماس هوبز. وقد رعى صحته بممارسة زراعة الزهور، وبنى وسط بساتينه منتجعاً لمكتبته الخاصة. كتب كفيلسوف وعاش كأمير. ولم ير سبباً لأن يكون العقل مفلساً، أو لماذا لا يكون سليمان ملكاً.

لم يسقط بعيداً كثيراً عن خط الهدف. ففي عام 1607 اختاره الملك جيمس ـ الذي قدّره حق قدره في النهاية ـ محامياً عاماً؛ وفي عام 1613 مدّعياً عامّاً؛ وفي عام 1616 عضواً في مجلس شورى الملك؛ وفي عام 1617 اللورد حامل أختام الملك؛ وفي عام 1618 مستشاراً (قاضي القضاة)، وأضيفت تكريمات جديدة لتعزيز سلطته: في عام 1618 استُحدث له لقب لورد أول؛ وفي كانون الثاني/ يناير 1621 سُمّي فايكونت سان آلبانز. وحينما ذهب جيمس إلى سكوتلندا ترك مستشاره في حكم انكلترا. وكان بيكون «يلتقى السفراء في دولة عظمى»، وعاش حياة رائعة في غورهامبوري حتى أنه «بدا كما لو أن البلاط أصبح هناك، وليس في وايتهول أو في سان جيمس».

كسب كل شيء، عدا الشرف. ففي مناسبات عديدة، وفي غمرة سعيه إلى المنصب، ضحّى بيكون بالمبدأ. فهو كمدّع عام استخدم نفوذه لتأمين أحكام قضائية يرغبها الملك. وكحامل لأختام الملك دافع عن أكثر الاحتكارات قمعية وحماها. وكقاضٍ قبل هدايا قيّمة من أشخاص تُنظر قضاياهم في محكمته. كان

ذلك كله في ظل العادات الفالتة لذلك العصر: فقد كانت مرتّبات المناصب العامة منخفضة فكانت تعوض نفسها بـ «هدايا» من أولئك الذين تساعدهم. واعترف جيمس: «لو أنني كنت... لأعاقب أولئك الذين يتلقون رشاوى فسرعان ما لن يتبقى لي أحد من الرعية». وكان جيمس نفسه يتلقى الرشاوى.

كان البرلمان الذي انعقد في كانون الثاني/يناير 1621 في ثورة غاضبة ضد الملك. ولطالما كره البرلمان بيكون لكونه أبرع مدافع عن جيمس، وكان بيكون قد قضى بأن الاحتكارات مشروعة. وإذا لم يكن البرلمان قادراً بعد على عزل الملك فإنه كان باستطاعته أن يحاكم وزيره. وفي شهر شباط/فبراير ألّف لجنة للتحقيق في المحاكم القضائية. وفي آذار/مارس أعلنت اللجنة أنها وجدت كثيراً من الانحرافات، وخاصة في سلوك اللورد المستشار. ووجِّهت إليه اتهامات في ثلاث وعشرين قضية فساد. التمس بيكون من الملك أن ينقذه، متوقِّعاً أن «أولئك الذين يوجهون ضرباتهم الآن ضد المستشار سيوجهونها عاجلاً إلى التاج». نصحه جيمس بأن يعترف بالاتهامات وبذلك يكون قد ضرب مثلاً رادعاً لمزيد من الفساد في المناصب. وفي 22 نيسان/أبريل بعث بيكون باعترافه إلى مجلس اللوردات. أقر بأنه تلقى هدايا من متقاضين كما كان يفعل باقي القضاة؛ وأنكر أن تكون قراراته قد تأثرت بذلك. فهو كان أصدر أحكاماً في عدد من القضايا ضد المانح.

أدانه اللوردات وحكموا عليه بدفع غرامة قيمتها 40 ألف جنيه، وأن يُسجن في البرج طوال الفترة التي يرضى بها الملك؛ وأن يحرم إلى الأبد من تولي أي منصب عام في الكومنولث: أن لا يشغل أبداً مقعداً في البرلمان ولا يقترب من حافة البلاط. وأُخذ إلى البرج يوم 31 أيار/مايو، ولكن أطلق سراحه بعد أربعة أيام بأمر من الملك، الذي أمر أيضاً بإعادة قيمة الغرامة المدمِّرة. انسحب المستشار المُعاقب إلى غورهامبوري وحاول أن يعيش حياة أكثر بساطة. وفي رموز شفرية على ورقة تركها بيكون لدى وفاته، عثر مؤرخه الأول رولي على هذا البيان الشهير: «لقد كنت أعدل القضاة في انكلترا خلال خمسين عاماً. ولكن هذا كان أعدل توبيخ في البرلمان خلال مائتي عام».

كانت تأثيرات هذه الإدانة جيدة. فقد خفّضت من مستوى الفساد في

المناصب العامة، وخلقت سابقة في مُساءلة وزراء الملك أمام البرلمان. أبعدت فرانسيس بيكون عن السياسة، حيث كان ليبرالياً في وجهات نظره، ورجعياً في الممارسة، ووجّهته إلى مسعاه البديل: العلم والفلسفة، حيث سيكون هو من «يدق الجرس الذي جمع ضروب الحكمة معاً» والذي سيعلن، في نثر رائع، ثورة العقل ووعده.

التجديد العظيم

لطالما الفلسفة ملاذ بيكون من الفضائح، إن لم يكن حبه السري وأكثر موهباته مجلبة للسعادة قدراته. كان قد نشر بالفعل في عام 1605 كتابه «براعة التعليم وتقدمه»، ولكنه بدا الآن إعلاناً كثر منه إنجازاً. وفي عام 1609 كان قد كتب إلى أسقف إيلي، «لو أن الرب أعطاني فرصة لكتابة مجلد قويم وكامل في الفلسفة...»؛ وفي عام 1610 كتب إلى إيزاك كازوبون عن «تحقيق نظام أفضل لحياة الإنسان... بمساعدة تأملات سليمة وصادقة ـ هذا هو الشيء الذي أرمي إليه».

كان خلال السنوات المضنية تلك في منصبه قد تصور، مفترضاً بتسرع بأن الأيام وفيرة، خطة عظيمة لتجديد العلم والفلسفة. وقبل سبعة أشهر من سقوطه، أعلن الخطة في عمل باللاتينية موجه إلى أوروبا بأسرها، وضع له عنواناً جسوراً هو «التجديد العظيم». كانت صفحة العنوان ذاتها تحدياً: أظهرت سفينة تعبر بأشرعةٍ مفتوحة جميعاً عبر «عمودي هرقل»(*) إلى المحيط الأطلسي؛ وحيث يظهر شعار وسيطي بين هذين العمودين محذراً: «لا تمضِ إلى أبعد من هذا». أما بيكون فكتب يقول: «كثيرون سيمرون عبره والمعرفة ستزداد».

عندما وجد أن «فيما تم إنجازه الآن في مسألة العلم توجد فقط جولة تدور بعجلة، وباهتياج مستمر، تنتهي حيث تبدأ»، استنتج أنه: «لم يعد سوى مضمار

(*) قمتا الجبل المتقابلتان الداخلتان في البحر عند مدخل البحر المتوسط، واحدة في إسبانيا والأخرى في أفريقيا. وتذهب الأساطير إلى أنها كانت متماسكة معاً حتى قسمهما هرقل ليصل إلى قادس. والتسمية الحديثة لهذين الطرفين هي «جبل طارق» و «جبل هاكو». وكان القدماء يعتقدون أنهما يمثلان الحدود المسكونة بالبشر من الكرة الأرضية. (المترجم).

واحد متروك... أن نحاول الشيء نفسه برمته من جديد بناءً على خطة أفضل، وأن نشرع في إعادة بناء كاملة للعلوم. والفنون [العملية] وأن نقيم كل المعرفة الإنسانية على أساس سليم».

كرَّس المشروع برمته لجيمس الأول، مع اعتذارات لكونه «سرق من شؤونك الوقت الكثير، بالقدر الذي تطلبه هذا العمل»، لكن على أمل أن النتيجة «ستدخل في ذكرى اسمك وشرف عصرك» ـ وهو ما حدث. كان جيمس رجلاً على قدر كبير من الثقافة وحسن النية؛ ولو أمكن إقناعه بتمويل الخطة، فأيُّ تقدم ذلك الذي لا يمكن تحقيقه؟

ومثلما أرسل روجر بيكون في عام 1268، إلى البابا كليمنت الرابع كتابه «السِّفر الكبير» *opus majus* طالباً عونه لتوسيعٍ مقترحٍ للمعرفة، فإن سميّه بالمثل ناشد مليكه أن يحتضن بصفة «عمل ملكي» تنظيم البحث العلمي والتوحيد الفلسفي للنتائج من أجل فائدة البشرية المادية والمعنوية. وذكّر جيمس بـ «الملوك الفلاسفة»: نيرفا وتراجان، وهادريان وأنطونيوس وبيوس وماركوس أوريليوس، الذين قدموا للامبراطورية الرومانية حكماً طيباً طوال قرن من الزمن (96-180 م).

وفي عرض فخم قدم خطة المشروع: أولاً، إنه سيقوم بمحاولة تصنيف جديد للعلوم القائمة أو المرغوب في قيامها، ويقسّم بينها مشكلات البحث وميادينه. وهذا ما أنجزه في «تقدم التعليم» الذي ترجمه (من اللاتينية) ووسعه في «تجميع العلوم» (1623) لكي يصل إلى جمهور دولي. ثانياً، سيفحص نواقص المنطق الحديث ويسعى إلى «استخدام أكثر كمالاً للعقل الإنساني» من ذلك الذي صاغه أرسطو في رسائله التي تعرف مجمّعة بعنوان «الآلة» (أورغانون)؛ وقد فعل بيكون هذا في كتاب «الآلة الجديدة» (الأورغانون الجديد) *Novum Organum (1620)*. ثالثاً، سيبدأ «تاريخاً طبيعياً لظواهر الكون»: الفلك، والفيزياء، والبيولوجيا. رابعاً، سيعد قائمة على «سُلَّم العقل»، لأمثلة التقصي العلمي وفقاً لوجهته الجديدة. خامساً، كما فعل «الرواد»، سيصف «تلك الأشياء التي اكتشفتها بنفسي».

وسادساً، إنه سيبدأ في عرض تلك الفلسفة، التي تكون قد استُمدت من

العلوم، ويطورها ويتحقق منها. «مع ذلك فإن استكمال الجزء الأخير هو... فوق قدرتي ويتجاوز آمالي». وبالنسبة إلينا، نحن الذين نتعثر ونلهث في محيط المعرفة والتخصصات، يبدو برنامج بيكون عبثاً عظيماً؛ غير أن المعرفة آنذاك لم تكن هائلة أو دقيقة إلى هذا الحد، وروعة الأجزاء التي تم إنجازها تغفر التسليم بالكل. عندما أبلغ سيسيل: «لقد اتخذت من كل المعرفة مجالاً لي»، لم يكن يعني أن باستطاعته أن يضم كل المعرفة بتفصيلاتها، وإنما قصد فقط أنه يقترح مسح العلوم «كما لو كان ذلك من فوق صخرة»، بهدف تنسيقها وتشجيعها. وقال وليام هارڤي عن بيكون إنه «كتب الفلسفة كقاضي القضاة»؛ أجل وخطّط لها كجنرال.

إننا نشعر بمدى سعة عقل بيكون وحدته ونحن نتابعه في «تقدم التعليم»، إنه يعرض أفكاره بتواضع غير مألوف، باعتبارها «ليست أفضل كثيراً من ذلك الصخب... الذي يصدره الموسيقيون وهم يضبطون آلاتهم الموسيقية». إنه يدعو لمضاعفة أعداد الكليات والمكتبات والمختبرات والحدائق البيولوجية ومتاحف العلم والصناعة ودعمها؛ كما كان يدعو إلى دفع أجور أفضل للمدرسين والباحثين، وإلى تخصيص أموال أكبر لتمويل التجارب العلمية، ولاتصالات داخلية وتعاون وتقسيم للعمل أفضل بين جامعات أوروبا. وهو لا يفقد منظوره في عبادة العلم؛ إنه يدافع عن تعليم عام وليبرالي، بما في ذلك تعليم الأدب والفلسفة، وكذلك لتبنّي تقديرات حكيمة للغايات لتصاحب التحسين العلمي للوسائل.

ولقد لُبي كثير من مطالبه من جانب العلوم، من أجل سجلات عيادية (كلينيكية) أفضل من أجل إطالة الحياة بتطوير الطب الوقائي، ومن أجل الفحص الدقيق لـ «الظواهر الجسمانية»، وتطوير علم النفس الاجتماعي. إنه حتى تكهّن بدراساتنا المعاصرة في مجال الإنجازات التقنية.

أما الجزء الثاني والأكثر جرأة من «التجديد العظيم»، فكان محاولة لصياغة منهج جديد للعلم. كان أرسطو قد أدرك ـ وفي بعض الأحيان مارس ـ الاستقراء. ولكن الطريقة المهيمنة في منطقه كانت الاستنباط، وكان مثلها الأعلى القياس. ولقد شعر بيكون بأن «الآلة» (الأورغانون) القديمة قد أبقت العلم جامداً بتأكيدها

على الفكر النظري وليس على الملاحظة العملية. واقترح كتابه «الآلة الجديدة» أداة جديدة ونظاماً جديداً للإجراء العلمي: الدراسة الاستقرائية للطبيعة نفسها عن طريق الخبرة والتجربة. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ـ هو الآخر ـ قد تُرك غير مكتمل، فإنه، بكل نواقصه، يُعدّ أروع إنتاج في الفلسفة الإنكليزية، لأنه أول دعوة واضحة إلى عصر العقل.

كُتب باللغة اللاتينية، إنما في جمل سلسة بليغة حتى أن نصفها يشع بالحكمة. سطوره الأولى ذاتها انطوت على فلسفة، إذ تعلن الثورة الاستقرائية، وتتنبأ بالثورة الصناعية، وتعطي قوة دافعة تجريبية لهوبز ولوك وجون ستيوارت ميل:

«لما كان الإنسان خادماً للطبيعة ومفسِّراً لها، فإن باستطاعته أن يفعل وأن يفهم الكثير، وفقط الكثير، بينما هو يرقب، في الواقع أو في الفكر، مسار الطبيعة؛ فيما يتعدّى هذا ليس يعرف أي شيء ولا يستطيع عمل أي شيء... إن المعرفة الإنسانية والقوة الإنسانية تلتقيان في نقطة واحدة: فحيث لا يكون المسار معروفاً، لا يمكن إنتاج الأثر. والطبيعة، كي ما تُؤمر، لا بد أن تُطاع».

وكما فعل ديكارت ـ بعد ذلك بسبعة عشر عاماً في كتابه «مقال في المنهج»، إذ يقترح أن تبدأ الفلسفة بالشك في أي شيء، فإن بيكون بالمثل يطالب «بتطهير العقل» باعتباره الخطوة الأولى في «التجديد العظيم»:

«المعرفة الإنسانية كما نملكها هي مجرد كتلة مختلطة وغير مهضومة جيداً، مكوَّنة من كثير من السذاجة وكثير من الأمور العرضية، وكذلك من أفكار صبيانية تشربناها في البداية».

لهذا يتعين علينا، بدايةً، أن نصفّي أذهاننا من كل التصورات المسبقة والأهواء والفرضيات والنظريات. يتعين علينا أن نبتعد عن أفلاطون وأرسطو؛ علينا أن نكنس من فكرنا «الأوثان» أو أوهام وأباطيل الزمن، الناشئة عن خصوصيات حكمنا الشخصي أو المعتقدات التقليدية والعقائد الجامدة لجماعتنا؛ علينا أن نزيل كل الخدع المنطقية التي يخلقها التفكير المستند إلى الأماني، وكل

عبثيات الفكر الغامض. علينا أن نرمي وراء ظهورنا كل تلك الأنساق الاستنباطية المهيبة التي تقترح رسم ألف حقيقة أبدية من عدد قليل من المسلّمات والمبادىء.

لا توجد «قبعة سحرية» في العلم؛ أي شيء يؤخذ من داخل تلك القبعة ينبغي أن يكون قد وضع فيها أولاً بطريق الملاحظة أو التجربة. وليس بمجرد ملاحظة عارضة، ولا بـ «عدّ بسيط» للمعطيات، إنما بواسطة «خبرة... يتم الحصول عليها بالتجربة». بناء على هذا، فإن بيكون ـ الذي كثيراً ما حُط من شأنه باعتباره يتجاهل النهج الحقيقي للعلم ـ يمضي إلى وصف المنهج الفعلي للعلم الحديث:

«يُشعل منهج الخبرة الحقّة الشمعة أولاً [بواسطة الفرضية] ثم بواسطة الشمعة يبيِّن الطريق، بادئاً بالخبرة حسب الترتيب السليم... ومنها يستنتج بديهيات [«ثمار أولى»، استنتاجات مؤقتة]، ومن البديهيات الثابتة تجري تجارب جديدة مرة أخرى... والتجربة ذاتها ستحكم».

مع ذلك كان بيكون منزعجاً من الفرضيات؛ فتلك كانت غالباً ما تقترحها التقاليد أو الأهواء أو الرغبة ـ «الأوثان»: لم يكن يثق بأي إجراء تختار فيه الفرضية ـ بوعي أو بدونه ـ من الخبرة معطيات مؤكّدة وتتغاضى أو تتعامى عن الدليل المناقض.

كان بيكون يشعر بأن الهدف الثاني ينبغي أن يكون تطبيق منهج العلم على التحليل الدقيق وإعادة التشكيل الصارم للشخصية الإنسانية. إنه يحثّ على إجراء دراسة للغرائز والانفعالات، التي ترتبط مع العقل البشري بذات العلاقة التي تربط بين الريح والبحر. هنا يكمن الخطأ، لا في مجرد السعي للمعرفة وإنما في نقلها. إن إعادة صنع الإنسان ممكنة عن طريق تربية مستنيرة إذا ما كنا مستعدين لأن نشرك عقولاً من الطراز الأول في وضع نظام تعليمي بإعطائها مكافآت وتكريمات كافية. يعجب بيكون باليسوعيين (اليسوعيين) كمربِّين، وينتهي المستشار الواثق إلى: «أنني أُراهن بكل شيء على انتصار الفن على الطبيعة في السباق».

فلسفة رجل الدولة

هنا نشعر بأننا أمام عقل قوي ـ إنسان، واحد في قرن بأكمله، إنسان

ضليع في الفلسفة كما في الحكم. وإنه لمن المثير للاهتمام أن نعرف ما هي نظرة الفيلسوف في السياسة، وما هي نظرة السياسي في الفلسفة.

ولأنه لم يكن لديه أي مذهب في الفلسفة، أو يخلف أي عرض لفكره، إلا في المنطق، علينا أن نجمع آراءه من ملاحظات عرضية وجزئيات أدبية، بما في ذلك «المقالات» (1597، 1612، 1625). وبالغرور الكامن في المؤلف، كتب في إهدائه هذا النص إلى باكنغهام: «إنني أتصور... [أن] المجلد قد يدوم بقدر ما تدوم الكتب» ـ ولكنه في الحقيقة يمكن أن يدوم. وفي رسائله الرسمية فإن أسلوبه عسير وملتو حتى إن زوجته اعترفت: «إنني لا أفهم كتابته الغامضة الملغزة». وفي «المقالات» أخفى أكثر من هذا من الجهد الشديد، وضبط قلمه ليكون واضحاً، وحقق قوة تعبير موجزة لا تستطيع سوى صفحات قليلة للغاية في النثر الانكليزي أن تجاريها. ذلك أن الموضوع ذا الدلالة قد ضُغط مع تشبيهات مضيئة في شكل كامل، حتى لكأن تاسيتوس(*) قد نقل اهتمامه إلى الفلسفة وتعطّف ليكون واضحاً.

حكمته هي حكمة دنيوية. إنه يترك الميتافيزيقا للصوفي أو المتهور؛ وحتى طموحه الوثاب نادراً ما قفز من الجزء إلى الكل. مع ذلك، فإنه أحياناً ما يبدو قد انغمس في مادية حتمية: «في الطبيعة لا شيء يوجد حقاً إلى جانب أجسام غير قابلة للقسمة، تعمل... وفقاً لقانون محدد»؛ و «البحوث في الطبيعة تصل إلى أحسن نتيجة حينما تبدأ بالفيزيقا وتنتهي بالرياضيات». ولكن «الطبيعة» هنا قد لا تعني فقط العالم الخارجي.

كان يفضل الفلاسفة الشكيين قبل سقراط على أفلاطون وأرسطو، وامتدح المادي ديموقريطس. لكنه قبل التمييز الحادّ بين الجسم والروح، وأرهص بتقريع برغسون للعقل باعتباره «مادياً بنيوياً»: «الفهم الإنساني مصاب برؤية ما يجري في الفنون الآلية (الميكانيكية)... ومن ثم يتخيل أن شيئاً مماثلاً يحدث في الطبيعة الكلّية للأشياء».

رفض مقدماً بيولوجيا ديكارت الآلية. وبنوع من التناقض الحذر، «يلطف» فلسفته بالدين «كما بالملح. إنني أفضل أن أؤمن بكل الخرافات الواردة في

(*) تاسيتوس (55-117 م) يُعدّ واحداً من أعظم المؤرخين الرومان. (المترجم).

الأسطورة [الذهبية][*]، وفي التلمود وفي القرآن، على الاعتقاد بأن ذلك الإطار الكوني هو بلا عقل».

إنه يضع الإلحاد في مكانه في الفقرة الشهيرة التي كررها مرتين. إنه يحلل أسباب الإلحاد بأنها... «انقسامات في الدين، إذا كانت كثيرة؛ لأن كل قسم واحد أساسي يضيف قوة للجوانب الأخرى، ولكن أقساماً كثيرة تنتج إلحاداً. وسبب آخر هو فضائح القساوسة. وأخيراً أزمنة التعلم، خاصة حينما يسودها السلام والرخاء؛ ذلك أن الاضطرابات والعداوات تفعل أكثر لثني عقول البشر نحو الدين».

وكان يضع كقاعدة أن «كل معرفة لا بد أن يحدّها الدين». وحسب ما يقول قسيسه رولي: فإنه «كان يحضر بشكل متكرر ـ حينما كانت صحته تسمح له ـ القداديس الكنسية... وقد مات عن إيمان حقيقي ترسّخ لديه في كنيسة انكلترا». ومع ذلك، فإنه ـ شأنه شأن سلفه العظيم وليام الأوكامي ـ أتاح لنفسه التمييز بين اللاهوت والحقيقة الفلسفية: فقد يتمسك الإيمان بعقائد لا يستطيع العلم والفلسفة إيجاد دليل عليها، ولكن على الفلسفة أن تعتمد على العقل وحده، وعلى العلم أن يسعى إلى تفسيرات علمانية محضة في إطار العلة والمعلول الطبيعيين (الماديين).

وعلى الرغم من شدّة حماسه للمعرفة، فإن بيكون يُخضعها للأخلاق، إذ لا مكسب تجنيه الإنسانية إذا لم يؤد اتساع المعرفة إلى مكسب في مجال الخير: «من بين كل فضائل العقل ومنازله الرفيعة، الطيبة هي أعظمها». مع ذلك، فإن حماسه المعتاد ينحسر حينما يتحدث عن الفضائل المسيحية. لا بد أن تمارس الفضيلة باعتدال، لأن الشرير قد يستغلّ الخيّر الطائش. وقليل من التظاهر ضروري للنجاح، إنّ لم يكن للحضارة. الحب جنون والزواج أنشوطة: «ذاك الذي له زوجة وأطفال قد وقع رهينة الحظ، لأنهم عراقيل أمام المشروعات العظيمة». ولقد وافق بيكون البابوات بشأن عزوبة رجال الكنيسة: «إن حياة أعزب تصنع خيراً لرجال الكنيسة، لأن الإحسان بالكاد يسقي الأرض حين يتعين عليه قبل ذلك أن يملأ بالماء حوضاً كبيراً». والصداقة أفضل من الحب، والرجال

(*) نشرت عام 1483 وهي جمع لسير حياة القديسيين وغيرهم من الشخصيات الكهنوتية. وهي أشهر كتب الانكليزي وليام كاكستون الذي كان أيضاً أول طباع انكليزي. (المترجم).

المتزوجون يكونون أصدقاء غير ثابتين.

واجهت فلسفته السياسية الظروف وليس النظريات. قال كلمة طيبة عن ماكيافيللي، وقَبِلَ صراحةً المبدأ القائل بأن الدول لا تلتزم بالقانون الأخلاقي الذي تعلّمه لمواطنيها. ومثل نيتشه، كان يشعر بأن حرباً جيدة تضفي قدسية على أي قضية. ففي أي قضية «تكون الحرب العادلة والشريفة تمريناً حقيقياً» للحفاظ على جاهزية الأمة. «ومن الأهمية بمكان أن تمتلك الأمة السلاح باعتباره شرفها الأول ودراستها وشغلها الشاغل للوصول إلى الامبراطورية والعظمة». «في شباب الدولة تزدهر الأسلحة، وفي منتصف عمر الدولة يزدهر التعليم؛ ثم يسير هذان جنباً إلى جنب لبعض الوقت؛ وفي عصر انحطاط الدولة تكون الأعمال التجارية والتجار».

وقد حذّر من تركّز الثروة كسبب رئيسي لإثارة الفتنة والتمرد، ومما قاله في ذلك:

> «الدواء أو المانع الأول هو إزالة هذا السبب المادي بكل الوسائل الممكنة... ألا وهو الحاجة والفقر... ولتحقيق هذا الغرض من المفيد فتح التجارة وتحقيق توازن جيد لها، وازدهار المصانع، وإزالة البطالة، والقضاء على الهدر والإفراط بوساطة قوانين تحد من الإنفاق... وتنظيم الأسعار للأشياء القابلة للبيع... وفوق كل شيء، فإن من قبيل السياسة الجيدة التي ينبغي اتباعها أن لا تتجمع الخزائن والنقود في دولة ما في أيد قليلة... فالنقود مثل التبن، لا خير فيها إلا إذا فُرشت».

يبتسم بيكون إزاء «الفلاسفة» الذين «يصنعون قوانين متخيلة لبلاد واسعة متخيَّلة؛ ومساراتهم هي مثل النجوم التي لا تعطي ضوءاً كثيراً لأنها عالية للغاية». مع ذلك فإنه في كتابة «أطلنطس الجديدة» (1624)، وصف بولع جزيرة متخيَّلة يعيش شعبها سعيداً في ظل قوانين صاغها لهم ملك راحل اسمه سليمان. وبدلاً من وجود برلمان كان عندهم «مجلس سليمان»؛ ومجموعة من المراصد والمختبرات والمكتبات وحدائق الحيوان وحدائق النباتات، يدير شؤونها علماء واقتصاديون وتقنيون وفيزيائيون وعلماء نفس وفلاسفة، اختيروا (كما في «جمهورية» أفلاطون) بواسطة اختبارات متساوية بعد فرص تعليمية متساوية ثم

(بدون انتخابات) يحكمون الدولة، أو بالأحرى يحكمون الطبيعة لما فيه مصلحة الإنسان. ويشرح أحد هؤلاء الحكام للبرابرة الآتين من أوروبا «أن غاية مؤسستنا هي معرفة علل الأشياء وحركاتها السرية، وتوسيع حدود الامبراطورية الإنسانية، لتشمل كل الأشياء الممكنة».

وبالفعل، في ذلك المكان الساحر في جنوب المحيط الهادىء، اخترع السحرة السليمانيون ميكروسكوبات وتليسكوبات وساعات مسيَّرة ذاتياً، وغواصات وسيارات وطائرات؛ لقد اكتشفوا أساليب التخدير والتنويم وسبل حفز نمو النباتات واستنباط أنواع جديدة منها، ونقل الموسيقى لمسافات بعيدة. وفي «مجلس سليمان»، ترتبط الحكومة والعلم، وكل أدوات وتنظيم الأبحاث التي توسل بيكون إلى جيمس الأول لتوفيرها.. هي هناك جزء من جهاز الدولة. الجزيرة مستقلة اقتصادياً؛ وهي تتحاشى التجارة الخارجية باعتبارها شَرَك للحرب؛ إنها تستورد المعرفة وليس السلع. وهكذا يحل الفيلسوف المتواضع محل رجل الدولة المزهو، وهذا الرجل نفسه الذي كان قد نصح بخوض حربٍ بين وقت وآخر كمقوٍّ اجتماعي، ها هو في سنواته الأخيرة يحلم بجنة سلام سحرية.

«ديك» العقل

لم يكن، كما ظنّ البابا، هو «أحكم البشر وألمعهم وأحطّهم». فإن مونتاني كان أحكم، فولتير ألمع، وهنري الثامن أحطّ؛ وقد وُصف بيكون من قِبَل أعدائه بأنه عطوف ومُعين وسريع التسامح. كان باحثاً عن ذاته إلى حد الذل، ومزهواً بقدر يكفي لإغضاب الآلهة. ولكننا نشاطره هذه الأخطاء إلى حد يكفي لكي نغفر إنسانيته لما ألقاه من ضوء. كانت نزعته الذاتية هي الريح التي تطلق أشرعته. إننا إذا رأينا أنفسنا كما يرانا الآخرون ربما يصيبنا شلل.

لم يكن عالماً، إنما فيلسوف عِلم. مجال ملاحظته هائل، ولكن ميدان تأمله كان من الاتساع بحيث لم يسمح له بوقت كاف للقيام بأبحاث خاصة؛ حاول إجراء بعضها ولكنه لم يحقق سوى نتائج قليلة. تخلّف كثيراً عن ركب العلم

المعاصر. وتجاهل كپلر وغاليليو ونابيير(*). وكثيراً ما مارس الملاحظة، في «أطلنطس الجديدة»، ومع ذلك فقد قلل من شأن دور التخيل والفرضية والاستنباط في البحث العلمي. اقتراحه بتجميع صور للحقائق نجح حالياً إلى حد كبير في مجال الفلك، حيث وفّرت ملاحظات رصد النجوم وسجلات آلاف من الطلاب لكوبرنيك مادة استقرائية لاستنباطات ثورية. لكنها لم تتماثل كثيراً مع المناهج الفعلية التي اكتشفت في عصره قوانين حركة الأفلاك، وأقمار المشتري، ومغناطيسية الأرض، والدورة الدموية.

لم يزعم بيكون أنه اكتشف الاستقراء. وهو لم يكن أول من «أسقط أرسطو»؛ فإن رجالاً مثل روجر بيكون وبتروس راموس(**) كانوا يفعلون هذا لقرون مضت. ولم يكن أرسطو الذي أنزلوه عن عرشه (وهو ما أدركه فرانسيس بيكون أحياناً) هو اليوناني الذي غالباً ما استخدم وامتدح الاستقراء أو التجربة، وإنما كان «الفيلسوف» (ille philosophus) كما حوّله العرب والمدرسيون (السكولائيون). لم يكن بيكون أول من أكد على المعرفة كطريق إلى السلطة؛ روجر بيكون فعلها، وكامبانيللا قالها، ببلاغة بيكونية:«سلطتنا تتناسب مع معرفتنا» (Tantum posumus quantum scimus).

وربما كان رجل الدولة قد ركّز بلا داع على الغايات النفعية للعلم؛ مع ذلك فقد أدرك قيمة العلم «البحث» مقارناً بـ «التطبيقي» ـ قيمة «الضوء» كما يتميز عن «الثمار». وقد حث على دراسة الغايات وكذلك الوسائل، وتنبّأ بأن قرناً من الاختراعات يمكن أن يخلق مشكلات أكبر من تلك التي يحلها إذا ترك الطبيعة البشرية بلا تغيير. ولربما كان يمكنه أن يكتشف في رخاوته الأخلاقية الخاصة الهاوية التي خلقها تقدُّم المعرفة وبما يتعدّى انضباط الشخصية.

فماذا يبقى بعد كل هذه الاستنباطات المتأخرة؟ يبقى هذا: إن فرانسيس بيكون كان العقل الأقوى والأكثر نفوذاً في عصره. بطبيعة الحال، لقد فاقه

(*) John Napier (1550-1617): رياضي اسكتلندي يُعدّ في الغرب أول من وضع جداول اللوغاريتم. (المترجم).

(**) Patrus Ramus (1515-1572): فيلسوف فرنسي من أتباع المذهب الإنساني. وكان نصيراً قوياً لحركة الإصلاح سواء في المجال الديني أو المجالات الأكاديمية والاجتماعية (المترجم).

شيكسبير مكانةً في التخيل والفن الأدبي، وفي حدة الإدراك والفكر؛ ولكن عقل بيكون جاب الكون مثل كشّاف ضوئي يحملق ويتفحص بفضول في كل ركن وكل سر في الفضاء. كان فيه كل حماسات النهضة المبهجة والمتوسعة؛ كل الإثارة والزهو اللذين كانا يتملكان كولومبوس وهو يبحر بجنون إلى العالم الجديد. فلنسمع صيحة «كوك روبين»(*) المرحة يُعلن طلوع الفجر:

«هكذا اختتمت القسم من التعليم الذي يمس المعرفة المدنية، وبالمعرفة المدنية اختتمت الفلسفة الإنسانية، ومع الفلسفة الإنسانية استوعبت الفلسفة بوجه عام. ولما كنتُ في لحظة صمت الآن، أنظر إلى الوراء فيما قد مررت به، تبدو لي كتابتي هذه، إلى أبعد ما يستطيع إنسان أن يحكم على عمله هو، على نحو ليس أفضل كثيراً من ذلك الضجيج أو الصوت الذي يصدره الموسيقيون وهم يضبطون آلاتهم؛ وهو شيء لا متعة في الاستماع إليه، مع ذلك فهو سبب في أن الموسيقى تكون أجمل بعد ذلك. لهذا فإنني رضيت بضبط آلات التأملات حتى تستطيع أن تؤدي على نحو أفضل وقد أصبحت لديها أيدٍ أمهر. ومن المؤكد أنه حينما أضع أمامي حالة هذه الأزمنة، التي أدى التعليم فيها زيارته أو دورته الثالثة، بكل الصفات المستمدة منها، مثل: تفوق أفكار هذا العصر وحيويتها؛ والمساعدات النبيلة والأضواء التي نحصل عليها من أعمال الكتّاب القدامى؛ وفن الطباعة الذي يوصل الكتب إلى الناس من كل مستويات الحياة؛ وافتتاح العالم بواسطة الملاحة، التي كشفت عن تنوع التجارب وعن كتلة ضخمة من التاريخ الطبيعي... فإنني لا أستطيع إلا أن أرتفع إلى مستوى هذا الاقتناع بأن هذه الفترة الثالثة من الأمن ستتجاوز كثيراً فترة التعليم الإغريقي والروماني... أما عن أعمالي - إن كان لي من أعمالٍ - إذا كان أي إنسان سيستمد سروراً أو يمدّ آخرين بالسرور من فهمها، فإنها ستقدم ذلك الطلب القديم والصبور: أصفعني إذا شئت، فقط اسمعني» (verbere sed audi)؛ دع الناس يفهمونها، حتى يلاحظوها ويزنوها».

لم ينصت الناس إليه في البداية؛ ففي انكلترا وفرنسا وألمانيا فضلوا

(*) استعارة للديك المؤذن بطلوع الصباح، الذي يناظره هنا فرانسيس بيكون، المؤذن ببزوغ عصر جديد على صعيد العلم والفكر (المترجم).

الاحتكام إلى السلاح لحسم المنافسة بين العقائد. لكن حينما برد غضبهم، فإن أولئك الذين لم تكن اليقينيات قد غلّتهم بعد، نظموا أنفسهم مستلهمين بيكون من أجل بسط امبراطورية الإنسان لا على البشر، وإنما على أحوال الحياة الإنسانية وعوائقها.

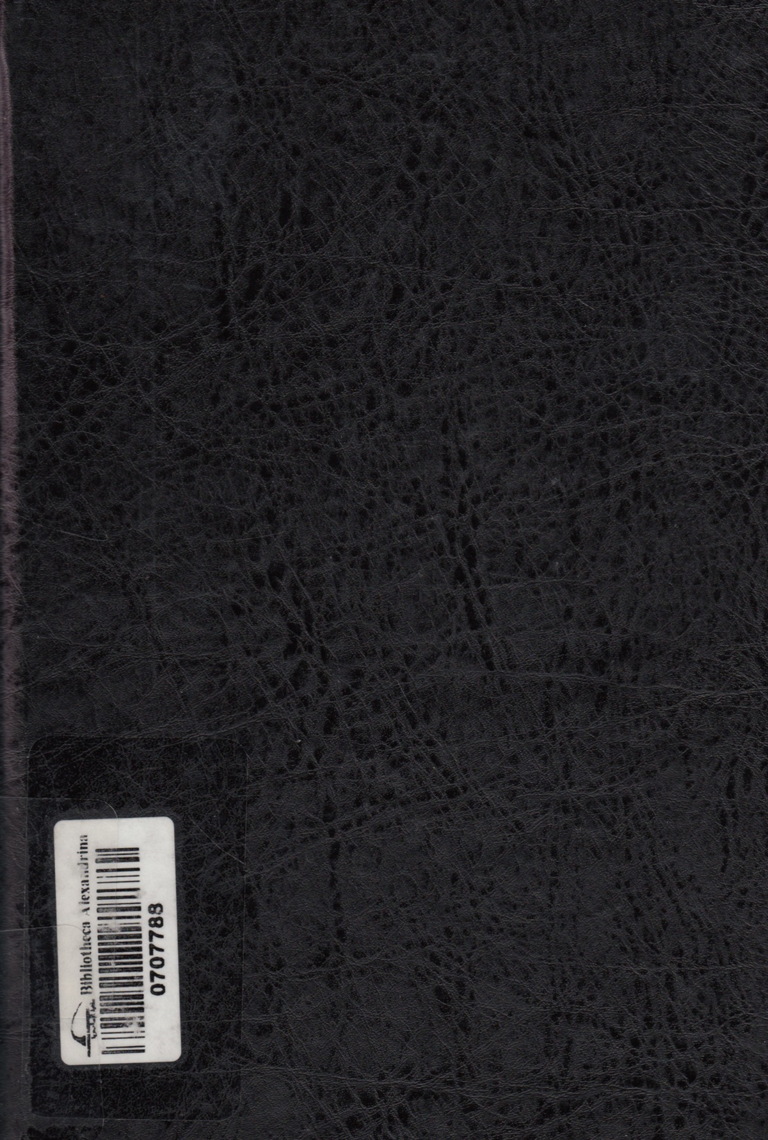
عندما أسس الإنكليز «جمعية لندن الملكية لتحسين المعرفة الطبيعية» (1660)، كان فرانسيس بيكون هو الذي كُرّم باعتباره ملهمها، وربما حدَّد «مجلس سليمان» في «أطلنطس الجديدة» هدفها. امتدح لايبنتز بيكونا باعتباره مجدد الفلسفة. وحينما جمع فلاسفة التنوير «الموسوعة» (1751) التي هزت العالم، فإنهم أهدوها إلى فرانسيس بيكون.

قال ديدرو في النشرة التمهيدية لـ «الموسوعة»: «إذا كنا قد أنجزناها بنجاح فإن الفضل بمعظمه يرجع للمستشار بيكون الذي اقترح خطة معجم شامل للعلوم والآداب في زمن لم يكن فيه للآداب أو العلوم وجود، إذا جاز التعبير. فقد كتب ذلك العبقري الفذ تاريخ ما يجب تعلّمه، عندما كان من المستحيل كتابة تاريخ ما هو معروف». ووصف دالامبير بيكون، في ذروة حماسته، بأنه «أعظم الفلاسفة وأبلغهم وأكثرهم شمولية». وحينما تفجّر عصر الأنوار على صورة الثورة الفرنسية، نشر «المؤتمر» Convention أعمال بيكون على نفقة الدولة. ومضى مغزى الفكر البريطاني ومساره على خطى بيكون من هوبز إلى سبنسر، باستثناء بيركلي وهيوم والهيغليين الانكليز.

لهذا يمكننا أن نضع فرانسيس بيكون على رأس عصر العقل. وهو لم يكن ـ مثل بعض خلفائه ـ من عبدة العقل؛ ولم يكن يثق بأي من الأفكار التي لم تدمغها التجربة الفعلية، ولا بأي من الاستنتاجات التي أفسدتها الرغبة. «إن الفهم الإنساني ليس ضوءاً جافاً وإنما يكون مشرّباً بالإرادة والعواطف؛ من هنا تمضي العلوم التي يجدر أن تسمى «علوماً كما ينبغي أن تكون»، لأن الإنسان يؤمن بسهولة بما كان قد تلقاه باعتباره حقيقة. ولا هو ـ شأن فلاسفة القرن الثامن عشر ـ يقترح العقل كعدو للدين أو كبديل عنه: لقد أفسح مجالاً لكليهما في الفلسفة والحياة. لكنه نبذ الاعتماد على التقاليد والسلطات؛ واشترط تفسيرات

طبيعية وعقلانية بدلاً من المزاعم الانفعالية والتلفيقات الخارقة للطبيعة والأساطير الشعبية.

لقد رفع راية لكل العلوم، وجذب إليها ألمع العقول في القرون التالية. وسواء شاء ذلك أم لا، فإن المشروع الذي دعا إليه، ألا وهو التنظيم الشامل للبحث العلمي والتوسع والانتشار المسكوني للمعرفة، قد احتوى في ذاته على بذور الدراما الأعمق للأزمنة الحديثة: المسيحية ـ كاثوليكية أو بروتستانتية ـ تقاتل من أجل حياتها ضد انتشار العلم والفلسفة وسلطتهما؛ تلك الدراما التي أفصحت الآن عن مقدماتها للعالم.


Bibliotheca Alexandrina
07077783